

The Islamic University of Gaza

Deanship of Research and Graduate Studies

Faculty of Arts

Master of Arabic language



الجامعة الإسلامية بغزة

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا

كلية الآداب

ماجستير اللغة العربية

الحِجَاجُ فِي رِسَالَةِ الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمَعَرِّي
دِرَاسَةٌ فِي بَلَاغَةِ الْإِقْنَاعِ وَفَقًا لِلرُّؤْيِ النَّقْدِيَّةِ الْحَدِيثَةِ
**Al Hijaj in the Message of Abi Al Ala'a Al
Ma'ari Assahel Wa Asshahij : A critical Study**

إِعْدَادُ الْبَاحِثَةِ

مَهَا عَبْدِ الْكَرِيمِ دِيَابِ الْعَجَلَةِ

إِشْرَافُ

الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ

نُبَيْلِ خَالِدِ أَبِو عَلِي

قُدِّمَ هَذَا الْبَحْثُ اسْتِكْمَالًا لِمَتَطَلِبَاتِ نَيْلِ دَرَجَةِ الْمَاجِسْتِيرِ
فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِكُلِّيَّةِ الْآدَابِ فِي الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِغَزَّةِ

جُمَادَى الْآخِرَةِ / 1441 - فَبْرَايِر / 2020م

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

الحجاج في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري رسالة في بلاغة الإقناع وفقاً للرؤى النقدية الحديثة

Al Hijaj in the Message of Abi Al Ala'a Al Ma'ari Assahel Wa Asshahij: A critical Study

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه
حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب
علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	مها عبدالكريم دياب العجلة	اسم الطالب:
Signature:	مها عبدالكريم دياب العجلة	التوقيع:
Date:	2020/2/22	التاريخ:



نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحثة/ مها عبد الكريم دياب العجله لنيل درجة الماجستير في كلية الآداب/ برنامج اللغة العربية وموضوعها:

الحِجَاجُ فِي رِسَالَةِ الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمَعَرِّي دِرَاسَةٌ فِي بَلَاغَةِ الْإِقْنَاعِ وَفَقًا لِلرَّؤْيِ النَّقْدِيَّةِ الْحَدِيثَةِ

Al Hijaj in the Message of Abi Al Ala'a Al Ma'ari Assahel Wa Asshahij : A critical Study

وبعد المناقشة التي تمت اليوم الاربعاء 6 رمضان 1441 هـ الموافق 2020/04/29م الساعة الحادية عشرة صباحاً، في قاعة اجتماعات كلية الآداب اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

.....
.....
.....

مشرفاً ورئيساً
مناقشاً داخلياً
مناقشاً خارجياً

أ. د. نبيل خالد أبو علي
د. خضر محمد أبو ججوح
د. يحيى أحمد غبن

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحثة درجة الماجستير في كلية الآداب/برنامج اللغة العربية. واللجنة إذ تمنحها هذه الدرجة فإنها توصيها بتقوى الله تعالى ولزوم طاعته وأن تسخر علمها في خدمة دينها ووطنها.

والله ولي التوفيق،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

.....
.....
.....

أ. د. بسام هاشم السقا

التاريخ: ٢٥ / ١ / ٢٠٢٠م الرقم العام للنسخة 237165 اللغة ع ماجستير ☒ دكتوراه ☐



الموضوع/ استلام النسخة الإلكترونية لرسالة علمية

قامت إدارة المكتبات بالجامعة الإسلامية باستلام النسخة الإلكترونية من رسالة
لِلطالبة/ مها عبد الرزاق دياب العجيلة

رقم جامعي: 220163014 قسم: اللغة العربية كلية: الآداب
وتم الاطلاع عليها، ومطابقتها بالنسخة الورقية للرسالة نفسها، ضمن المحددات المبينة أدناه:

- تم إجراء جميع التعديلات التي طلبتها لجنة المناقشة.
 - تم توقيع المشرف/المشرفين على النسخة الورقية لاعتمادها كنسخة معدلة ونهائية.
 - تم وضع ختم "عمادة الدراسات العليا" على النسخة الورقية لاعتماد توقيع المشرف/المشرفين.
 - وجود جميع فصول الرسالة مجمعة في ملف (WORD) وآخر (PDF).
 - وجود فهرس الرسالة، والملخصين باللغتين العربية والإنجليزية بملفات منفصلة (PDF + WORD).
 - تطابق النص في كل صفحة ورقية مع النص في كل صفحة تقابلها في الصفحات الإلكترونية.
 - تطابق التنسيق في جميع الصفحات (نوع وحجم الخط) بين النسخة الورقية والإلكترونية.
- ملاحظة: ستقوم إدارة المكتبات بنشر هذه الرسالة كاملة بصيغة (PDF) على موقع المكتبة الإلكتروني.

والله ولي التوفيق،

إدارة المكتبة المركزية

توقيع الطالب

مها عبد الرزاق دياب العجيلة

ملخص الرسالة

تَسْعَى هَذِهِ الدَّرَاسَةُ إِلَى اسْتِنْطَاقِ خِطَابِ الْمَعَرِّي وَالْمُضَيِّ الْحَدِيثِ مَعَ أَلْفَاظِهِ، وَذَلِكَ لِرِصْدِ الْمُؤَثَّرَاتِ الْإِفْنَاعِيَّةِ فِيهَا، وَالتَّوَسُّلِ بِالدَّرْسِ الْحِجَاجِيِّ وَوَسَائِلِهِ، وَالتِّي حَاوَلَ مِنْ خِلَالِهَا اسْتِمَالَةَ أَطْرَافِ الْحَوَارِ الْقَائِمَةِ عَلَيْهَا نُصُوصَ رِسَالَتِهِ، فَقَدْ سَدَّدَ وَقَارَبَ مِنْ خِلَالِ فِكْرِهِ فِي تَأْصِيلِ خِطَابِ نَوْعِيٍّ مُتَعَدِّدِ الزَّوَايَا مِنْ خِلَالِ الْحَقَائِقِ الَّتِي تَدْرَعَتْ فِي بَعْضِ الْحَقَايَا حَيْثُ أَقَامَهَا مَعَ الْوَاقِعِ بِالْبَنَى الْمُنْطَقِيَّةِ، مُتَأَلِّفًا مَعَ قَوَاعِدِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ وَمَنْطِقِ الْبَلَاغَةِ وَبَيَانِهَا، وَمَا كَانَ لِلْعَنَاصِرِ الْحِجَاجِيَّةِ مِنْ أَثَرٍ وَدَوْرٍ فَاعِلٍ فِي اسْتِنْطَاقِ ذَهْنِ الْقَارِئِ وَتَفْعِيلِ الْفَضَاءِ التَّوَاصُلِيِّ لِللُّغَةِ.

وَتَوَزَّعَتْ فُصُولُ الرِّسَالَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ فُصُولٍ، صُدِّرَتْ بِمُقَدِّمَةٍ وَتَمْهِيدٍ عَنِ الْمَعَرِّي وَحَيَاتِهِ وَسَبَبِ كِتَابَةِ الرِّسَالَةِ وَمُنْعَلَقَاتِهَا، فَالْفَصْلُ الْأَوَّلُ تَتَاوَلَ الْحَدِيثُ عَنِ الْحِجَاجِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، أَمَّا (الثَّانِي) أُفْرِدَ لِلْحَدِيثِ عَنِ حِجَاجِ الْبَلَاغَةِ الْعَلَانِيَّةِ، وَ(الثَّلَاثُ) أُقِيمَ فِيهِ حَقْلُ اللُّغَةِ وَتَوَزَّعَ مَوَاسِمُ الْقِطَافِ اللَّفْظِيِّ وَالتَّرْكِيبِيِّ فِي مَوَاطِنِ السَّلَامِ الَّتِي حَلَّتْ أَلْفَاظَ الْمَعَرِّي وَتَدَرَّجَهُ فِي بَيَانِهَا، وَ(الْأَخِيرُ) فِيهِ مَنْطِقُ قِيَاسَاتِهِ الَّتِي كَانَ يَسْتَنْدُ عَلَيْهَا فِي إِقَامَةِ التَّرَاكِبِ وَدَلَالَتِهَا.

وَأَهَمُّ مَا تَوَصَّلَتْ لَهُ الدَّرَاسَةُ انْطِلَاقُ الْمَعَرِّي مِنْ بُؤْرَةِ رِئِيسَةِ آدَارِ رَحَى الْخِطَابِ الْحِجَاجِيِّ نَحْوَهَا وَهِيَ الْبَلَاغَةُ وَتَمْكِينُهَا فِي نُصُوصِهِ، إِنَّ حِجَاجَ الْمَعَرِّي تَدَاوُلِي دَلَالِي قَدْ اسْتَنْدَتْ عَلَى سَلَامٍ بَلَاغِيَّةٍ لُغَوِيَّةٍ صَرْفِيَّةٍ كُلُّهَا تَعَكِّسُ حَصَافَةً مَحْفُوظَةً وَدِقَّةَ بَيَانِهِ، وَثَرَاءَ مُعْجَمِهِ الَّذِي هُوَ طَوْعَ بَنَانِهِ، وَاقْتِرَانِ الْمُقَارَبَةِ شَبْهِ الْمُنْطَقِيَّةِ فِي حُجَجِهِ بِالتَّنَوُّعِ الْخِطَابِيِّ وَتَكَاتُفِهِ ضِمْنَ الْوَسَائِلِ الْمُسْتَخْدَمَةِ فِيهَا، أَمَّا عَنْ أَهَمِّ التَّوَصِيَّاتِ: إِبْرَازُ الْحِجَاجِ فِي الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ ضِمْنَ الدَّرَاسَاتِ الْمُعَاصِرَةِ بِاعْتِبَارِهِ نَصٌّ عَمِيقُ الرَّوْيَةِ مُنْبَثِقٌ عَنْ حَامِلِي لَوَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فِي أَرْهَى أَرْمَنْتِهِ. وَتَرْجَمَةُ مُصَنَّفَاتِ الْحِجَاجِ وَفَقًّا لِلدَّقَّةِ الْإِصْطِلَاحِيَّةِ الَّتِي تُحَرَّرُ الْمَفَاهِيمَ مِنَ الْقَوْصَى الْعَارِمَةِ الَّتِي ضَجَّتْ بِهَا مُصْطَلَحَاتُ النُّقْدِ الْيَوْمِ، وَضَرُورَةُ إِعْدَادِ رَسَائِلٍ عِلْمِيَّةٍ تَتَنَاوَلُ أَدَبَ شَيْخِ الْمَعَرَّةِ كَثِيرَ الْفَائِدَةِ ضِمْنَ لُغَوِيَّاتِهِ وَنَحْوِهِ وَبَدِيعِ صُنُوفِ لُغَتِهِ، فَهُوَ الْحَافِلُ بِقَضَايَا لَمْ تُدْرَسْ إِلَى يَوْمِنَا ضِمْنَ سَاحَاتِ الْبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ.

Abstract

This study seeks to question the message of Maari and the relentless move with his words, in order to monitor persuasive influences in it, and to plead with the Hijaj lesson and its means through which he tried to co-opt the parties to the dialogue based on the texts of his message. She invoked in some of the subtleties where he established it with the reality with logical structures, familiar with the rules of the Arabic tongue and the logic of rhetoric and its manifestation, and the effect of the Hijaj elements and an active role in attracting the reader's mind and activating the communicative space of the language.

The chapters of the message are divided into four chapters issued with an introduction and a preparation to Al-Maari and his life and the reason for writing the letter and its belongings. The first chapter deals with the discussion of Hijaj both ancient and modern, while (the second) is devoted to talking about Hijaj of the Supreme Rhetoric, and (the third) the language field is established and the seasons for the verbal and compositional achievements are distributed in the stairs of the ladders that analyzed the words of Maari and included them in their statement, and (the last) has logic His measurements were based on establishing the structures and their significance.

The most important finding of the study is the departure of Maari from a major focus that guides the Hijaj rhetoric towards it, which is rhetoric and empowering it in his texts. Logical arguments for rhetorical diversity and intensity within the means used in it, as for the most important recommendations: highlighting Hijaj in Arab heritage within contemporary studies as a deep-sighted text emanating from the bearers of the Arab banner in its best times. And the translation of the Hijaj compilations according to idiomatic accuracy that liberates concepts from the chaos in which the terminology of criticism has been made today, and the necessity of preparing scientific messages dealing with the literature of the Sheikh of al-Ma`ra, who is very useful in his linguistics, grammar, and adorable types of his language, he is full of issues that have not been studied to this day within the fields of research and exploration.

آية قرآنية

قَالَ تَعَالَى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ
وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ
وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

[الأنعام: 80]

الإهداء

إلى ناي الحُب عميق المدى، الوفور صاحب الكلمة الحانية والقلب الرؤوف، مَنْ كَانَ
جبلًا راسيًا في مهبّ العواصف يوم تذاعبت علي بأنيابها رياح القدر، فأبى إلا أن يكون معي
وبقري في صعود سلم النجاة ..

أبي الحبيب.

إلى صاحبة الجميل الذي لا يرد، من انساب حبها كالندى في قلبي.. فكان كالمنازل التي رسمت
نبوءة نورٍ لا يخبو بريقها، إلى من زرعت بذور الحب فاستفاقت ثمار الأمل من الدياجي
القائمات ..

أمي الحبيبة.

قد أرضاني الله بكما .. فهلاً رضيتما عني!

غيث المودة والغمام، إخوتي وأخواتي ..

تراتيل السلام؛ صديقتي وزميلات الدراسة ..

وكلّ ذي فضل عليّ ..

...

إليكم جميعاً أهدي بحثي ..

شكر وتقدير

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، أما بعد:

إلى رجل النقد وآماده الرحبة الممتدة التي لا يُقدَّر نهايتها إلا هو، معذرة فقد طرقت أبواب الحروف ولم أجد ما يوفيك حقاً... ومعذرة مرة أخرى أن أكتب من قبس علمك، وموصول مرافئ أفكارك، ومنزع أقوالك، فهذا كله سابق فضولك، وكرم شمالك، ونبل أخلاقك، فأنت النبيل اسماً وصفة.

فكل ما دق وجل من حديث بين هذه السطور كان الفضل في إحكام نظمهِ، ونسج دَلالاتِهِ، لفضيلة أستاذي الدكتور/ نبيل خالد رباح أبو علي "أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية ونائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطينية" -أدام الله بالعر بقاءه-

كما أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ الدكتور/ خضر محمد أبو ججوح، والذي أسعد به مناقشة داخلياً، فما لنا غنى عن ملاحظات العالم الشاعر الفذ في الآن ذاته.

وأشكر الأستاذ الدكتور/ يحيى أحمد غبن. مناقشة خارجياً، على قبوله مناقشة هذه الرسالة والإدلاء بآرائه السديدة ونصحه القويم.

وأتقدم لأصحاب اليد الطولى في التوجيه لارتياح الحجاج ومعرفة أبوابه وألوانه لثلة علماء المغرب العربي الشقيق: أ.د. عبدالوهاب صديقي، أ.د. أحمد قادم، أ.د. سعيد العوادي.

ومن ديار السلام (بغداد العراق)؛ أ.د. عبدالجبار السلامي.

كما أشكر كواكب العلم السيارة بالمعرفة والحكمة والحلم، والذين تتلمذت على أيديهم وشرفت بهم، أ.د. وليد أبو ندى، أ.د. محمود العامودي، أ.د. محمد علوان، أ.د. جهاد العرجا، أ.د. أسامة عزت أبو سلطان -أقبسني الله من علمهم جميعاً-

فجزاكم الله عني خير ما جزى معلماً عن تلاميذه!

الباحثة

مها عبدالكريم دياب العجلة

قائمة المحتويات

إقرار.....	أ
نتيجة الحكم.....	ب
ملخص الرسالة.....	ت
Abstract.....	ث
آية قرآنية.....	ج
الإهداء.....	ح
شكر وتقدير.....	خ
قائمة المحتويات.....	د
المقدمة.....	1
أسباب اختيار الموضوع:.....	2
أهمية الدراسة.....	2
أهداف الدراسة.....	2
منهج الدراسة.....	2
مصطلحات الدراسة.....	3
الدراسات السابقة.....	4
خطة البحث.....	7
التَّهْنِئَةُ.....	9
أبو العلاء المَعْرِي.....	10
اسمه ونسبه.....	10
مصنفاته.....	8
رسالة الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ.....	9
ملاحم زمن تأليف الرسالة.....	10
تاريخ كتابة الرسالة.....	11
سبب كتابة رسالة الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ.....	12
مضمون رسالة الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ.....	12
التشكيل الداخلي للرسالة.....	13

16	الفصل الأول: في حدّ الحجاج ومنطلقاته
17	المبحث الأول: دلالة الحجاج ومفهومه
17	أولاً- الحجاج لغة
20	ثانياً- الحجاج اصطلاحاً
23	المبحث الثاني: الحجاج في البلاغتين العربية والعربية
23	أولاً- الحجاج في البلاغة العربية القديمة
34	ثانياً- الحجاج في البلاغة العربية القديمة
44	المبحث الثالث: الحجاج في العصر الحديث
44	أولاً- نظرية الحجاج عند علماء الغرب
69	ثانياً- الحجاج عند العرب حديثاً
76	ثالثاً- نظرية الأفعال الكلامية
80	الفصل الثاني: آليات الحجاج البلاغية في رسالة الصّاهل والشّاحج
81	المبحث الأول: المقام الخطابي
81	المقام لغة واصطلاحاً
84	البنية المقامية العامة للحدث في الصّاهل والشّاحج
103	المبحث الثاني: الاستعارة والحجاج
103	الاستعارة في اللغة
104	الاستعارة في الاصطلاح
108	الاستعارة الحجاجية
110	الاستعارة في الصّاهل والشّاحج
117	المبحث الثالث: التورية
117	التورية في اللغة والاصطلاح
134	المبحث الرابع: الشّاهد والمثل
134	تعريف الشّاهد لغة واصطلاحاً
154	الأمثال
162	الفصل الثالث: آليات الحجاج اللغوية في رسالة الصّاهل والشّاحج
164	المبحث الأول: الروابط الحجاجية

165	أولاً: روابط التعارض الحجاجي
177	ثانياً: روابط التساوق الحجاجي
185	ثالثاً: روابط التعليل الحجاجي (الدرجة للحجج)
192	رابعاً: أدوات الربط الإضافي الحجاجية
197	المبحث الثاني: العوامل الحجاجية
199	أولاً- أسلوب القصر
208	ثانياً- التوكيد
211	ثالثاً- عامل النفي
217	المبحث الثالث: السلم الحجاجي والمواضع
218	أولاً- سلمية المعجم
223	ثانياً- سلمية الصرف
229	تطبيقات قوانين السلم الحجاجي
234	ثانياً- المواضع والمبادئ الحجاجية
237	المبحث الرابع: الأفعال الكلامية
237	أولاً- الإخباريات
249	ثانياً- التوجيهيات (الأمريات)
259	ثالثاً- التعبيريات
266	رابعاً- الوعديات (الالتزاميات)
272	الفصل الرابع: تقنيات الحجاج وأنماطه في رسالة الصاهل والشاحج
273	تمهيد
274	المبحث الأول: الحجج شبه المنطقية
274	أ. الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية
274	أولاً- التناقض وعدم الاتفاق
277	ثانياً- التماثل والحد من الحجاج
279	ثالثاً- الحجة القائمة على العلاقة التبادلية
282	ب. الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقة الرياضية
282	أولاً- حجة التعددية

285		ثانيًا- تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له
289		ثالثًا- إدماج الجزء في الكل أو حُجَّة الاشتمال
290		رابعًا- حُجَّة قائمة على الاحتمال
292		المَبْحَث الثاني: الحجج التي تُؤسَّس على بنية الواقع
292		أولًا- التتابع (الاتصال التتابعي)
298		ثانيًا- الحجج الغائية
305		ثالثًا- التعايش
310		المَبْحَث الثالث: الحجج المؤسسة لبنية الواقع
310		أولًا- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة
320		صور القياس
325		ثانيًا- الاستدلال بواسطة التمثيل
339		الخاتمة
339		أولًا- نتائج الدِّراسة
341		ثانيًا- التَّوصِيَّات
342		المصادر والمراجع

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْأَمِينِ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم
تَسْلِيمًا، أَمَّا بَعْدُ؛

لَمْ يَعْتَرِ الدَّرَاسَاتِ اللِّسَانِيَّةَ الْحَدِيثَةَ أَيَّ عَجْزٍ وَضَعْفٍ فِي أَرْكَانِهَا، فَكُلَّ يَوْمٍ نَجْدُ تَطَوُّرًا
فِي شَتَّى الْجَوَانِبِ اللُّغَوِيَّةِ التَّدْوَالِيَّةِ، وَالَّذِي يَعِدُّ مَحْوَرِ النَّظَرِ فِي سَاحَةِ النَّقْدِ الْحَدِيثِ مَا يُعْرِفُ
بِ(الْحِجَاجِ) الَّذِي شَغَلَ الْمَسْرَحَ النَّقْدِيَّ الْحَدِيثَ بِمَفَاهِيمِهِ، حَيْثُ يُعَدُّ مَوْضُوعَهَا الشَّاعِلُ بِأَلْيَاتِهِ
الْعَمِيقَةِ وَالَّتِي تَبْحَثُ فِي بَنَى النَّصِّ وَأُطْرُحَ وَجَنَبَاتِهِ الْخَفِيَّةِ، عَنْ طَرِيقٍ مَا يُعْرِفُ بِدَائِرَةِ الْعُبُورِ الَّتِي
تَمَدُّ صِلَةً بَيْنَ النَّصِّ وَقَارِيهِ مُحَاوَلَةَ الْوُصُولِ مِنْ خِلَالِهَا إِلَى الْبَحْثِ عَنْ كَيْفِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ الْإِفْتِنَاعِيَّةِ
الَّتِي تَقُومُ بِهَا النَّصُوصِ الْحِجَاجِيَّةِ.

شَغَلَ أَدَبُ الْمَعَرِّي (449هـ) شعره ونثره متخصصي العربية وأدباءها في القرون
المتلاحقة السابقة، ونبع هذا الاهتمام من مسلك أبي العلاء ومقدرته الخلاقة التي ظهرت على
ألفاظه وتراكيب نصوصه، ولا شك أنه تنبأ الصِّدْرَةَ مع شعراء قلائل في عصره لمع نجمهم فيما
بعد. وتتجلى مقدرة المعري واستقلاليته في كتاباته من خلال نزوعه إلى حِجَاجٍ بالغ في التأثير
والإفْنَاعِ محطماً قوانين نصية قد سادت أبناء القلم العربي في زمانه، محاولاً إدارة ألفاظه دورة
الرحى ليطحنها ثم يذرّها متناثرة في فيض خواطره وكلامه، فكانت بعيدة كل البعد في مرادها
ومعانيها، وجاءت ألفاظاً محكمة مستحكمة في أصولها، فأينعت فروعاً عزيزة متماسكة لا ترضى
الهوان في تكوينها وتحسينها.

أما حِجَاجُ ألفاظ الرسالة ففي ظلمات كل نفس تَوَيَّلَاتٍ تكاد تظهر على سطح العبارات
مشكلة بؤر نور تستطلع الحقيقة والإبانة من خلالها، فكان نص شيخ المعرة يحفل بالمنازل التي
تستقبل شعث الكلمات فتؤدّبها المقامات وتبرزها السياقات على عميق حِجَاجِهَا وتقنياتها المتجلّية
من خلالها، وحاول أن يجتبي منها ما يخلص لعربيته من أثواب غاية الإحكام مع مقاماتها، فهي
مرسلة لِرَجُلٍ مِنْ رَجَالَاتِ الزَّمانِ، فينبغي أن يُناسَبَ الْمَقَالُ الْمَقَامَ.

أسباب اختيار الموضوع:

- 1- أن البعد الحجاجي الإقناعي في بلاغة العرب النثرية لم يحظَ باهتمام كافٍ ضمن الإطار التداولي العام للبلاغة.
- 2- اشتمال هذه النصوص على تقنيات حجاجية متعددة بلاغية، ومنطقية، وتداولية لسانية.
- 3- الرغبة في الوقوف على أساليب الحجاج وآلياته في خطاب المعري النثري؛ لبيان ما فيه من تفرد وخصوصية في الإقناع والتأثير.
- 4- قلة الدراسات حول الخطاب الحجاجي النثري في العصر العباسي عامة، وفي أدب أبي العلاء المعري خاصة.

أهمية الدراسة:

- 1- تكمن أهمية الدراسة في الوقوف على آليات الحجاج البلاغية والمنطقية واللسانية التداولية.
- 2- محاولة تطبيق رؤية حجاجية بتقنيات حديثة على نثر عربي قديم.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى:

- 1- الاطلاع على ثنائية الحوار والمحااجة في رسالة الصّاهل والشّاحج.
- 2- التعرف على التقنيات الحجاجية التي وُظِّفت في أدب أبي العلاء المعري.
- 3- السمو بثقافة الجدل والحوار المنطقي عند العرب كما سيظهر في رسالة الصّاهل والشّاحج.

منهج الدراسة:

سعت الباحثة إلى اتباع المنهج التداولي الحجاجي والذي يمتد بجذوره للبلاغة العربية القديمة، والتداولية وما يتمخض عنها من نظريات ومناهج عدة، أهمها: نظرية الأعمال اللغوية، ونظرية التواصل والتلفظ وربط كل ذلك في السياقات، وهذا لتوافقه مع طبيعة الدراسة التي تضج بمعالم الحجاج المتنوعة البلاغية منها، واللسانية، والمنطقية.

مصطلحات الدراسة:

التداولية: في اللغات الأجنبية ينحدر مصطلح البراغماتية من اليونانية (Pragma)، أي الحدث، وغرب هذا المصطلح فقليل: براغماتية وبراجماتيكاً، كما ترجم إلى مقابله في العربية عدة ترجمات، أشهرها: التداولية، النفعية، السياقية، والذرائعية، والمقصدية، وعلم التخاطب وغيرها. وهذه الترجمات على سعتها قد لفت دلائلها المصطلح بالغموض، مما أدى لكثرة منطلقات التداولية وتشعب حقولها واختصاصاتها.

- فهي دراسة اللغة بوصفها ظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية في نفس الوقت⁽¹⁾.
- وأنها الدراسة والتخصص الذي يندرج ضم اللسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل⁽²⁾.
- وهي دراسة الاتصال اللغوي في السياق.
- دراسة علاقة العلامات بمستعملها ومفسريها⁽³⁾.
- وعلم استعمال اللغة في المقام.

وهذا ما يعني أن التداولية ذات صلة وثيقة بالتواصل واللغة ضمن استعمالاتها المتعددة، فليست هي علماً لغوياً محضاً يختص بدراسة البنى اللغوية ويتوقف عن حدودها وأشكالها الظاهرة، بل علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج من ثمّ مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره⁽⁴⁾.

المنهج التداولي: تمتاز دراسة اللغة باستخدام المنهج التداولي بأنها تهتم بالمعاني التي يقصد إليها الناس، وبالأهداف والدلالات التي يصلون إليها خلال حديثهم، فالمنهج التداولي يتيح الحديث عن دراسة المعنى المراد كما يرد في السياق، ويتيح الحديث كذلك عن الكيفية التي يصوغ من خلالها المستمعون استدلالاً حول ما يقال للوصول إلى تفسير المعنى الذي يقصده

(1) التداولية من أوستين إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ص18.

(2) المرجع السابق، ص18.

(3) يُنظر: القاموس الموسوعي للتداولية، ص41.

(4) التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص16.

المتكلم، وبذلك تتسع عملية التأويل لتشمل المعنى الظاهر وقضايا الاستدلال والاستعمال التقريبي والاستعارات والفهم المرتبط السياق وقوانين الخطاب⁽¹⁾.

نظرية أفعال الكلام: تذهب إلى التأكيد أن العبارات اللغوية لا تنقل مضامين مجردة ومنطوية، وإنما تختلف حسب عدة عوامل منها السياق، بالإضافة إلى ظروف وعوامل أخرى تتدخل في تحديد دلالة اللفظ وقوته منها المقام والزمان والمكان، وعليه تحول الاهتمام من الجملة في ذاتها (نمط) إلى البحث في مختلف تمظهراتها. ومن ثم تم الانتقال من الإحالة اللسانية إلى إحالة المتكلم⁽²⁾.

السلم الحجاجي: أي حقل حجاجي ينطوي على علاقة ترتيبية (الحجج) نسميه سلمًا حجاجيًا.

التداولية المدمجة: هي نظرية دلالية تدمج في الشفرة اللغوية (اللسان بالمعنى السويسري) مظاهر عملية القول⁽³⁾، ويمكن تمييز هذه النظرية في رفض التصور القائم على الفصل بين الدلالة والتداولية، فهي تدرس اللغة لبيان الجزء التداولي المدمج في الدلالة (لا الخبري الوصفي)، فيتم دمج التداولية في اللسانيات.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والتتقيب تبين أن هناك العديد من الدراسات الحجاجية التي تناولت النشر القديم، سواء أكان أدب المعري أو غيره. ومن تلك الدراسات التي وقعت عليها الباحثة:

1- دراسة بعنوان: (المنهج اللغوي عند أبي العلاء في رسالتي الصَّاهِلِ والشَّاحِجِ

والغفران) وهي تعود للباحث عزت عبدالقادر عقل، من الجامعة الأردنية، نال بها

الباحث درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، عام 1989م.

وأهم نتائج رسالة الباحث عزت عبدالقادر عقل، أنها سعت لدراسة رسالة الصَّاهِلِ

والشَّاحِجِ مقرونة برسالة الغفران، وأهم ما توصل إليه في رسالته: اتخاذ المعري أسلوب

الاستطراد منهجًا سار عليه في شرح ألفاظه ودلالاتها، وقد تبين للباحث إحاطة المعري

(1) يُنظر: القاموس الموسوعي للتداولية، ص12.

(2) الاستلزام الحوارية في التداول اللساني، العياشي أدراوي، ص79.

(3) القاموس الموسوعي للتداولية، ص83.

وولعه بالجمال الدعائية والسجع والمقابلة والجناس، وفي مجال الصرف أبدع أبو العلاء في اشتقاق مفردات على سبيل الفأل والتطير، وفي مجال بحور الشعر فقد فضل بعضها على بعض معتمداً على طول التفعيلة، وعد المعري بحور الشعر خمسة عشر بحرًا ولم يذكر المتدارك بينها.

2- البنية الحوارية والحجاجية رسالة الغفران لأبي العلاء المعري نموذجًا، للباحثة مروة فتحي عبدالمحسن محمد، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة عين شمس بمصر عام 2000م، حاولت الباحثة من خلال دراستها الحديث عن الحجاج والحوار والوظائف النصية والأدوات المنطقية والعاطفية والتأثيرية التي قصد المعري إليها في رسالة الغفران، ثم تقسيم الحجاج وتقنياته على فصول الغفران.

3- دراسة بعنوان: (رسالة الهناء لأبي العلاء المعري مقارنة تداولية)، للباحثة خولة جلالة، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة 8 ماي 1945 قالمة في الجزائر عام 2016م، دار الحديث في الرسالة عن مرتكزات التداولية وميدانها الواسع والآليات الإشارية التي حاول المعري التركيز عليها، وكيفية استعماله لأفعال الكلام ومساهماتها في التفاعل معها.

4- دراسة بعنوان: (بلاغة الحجاج في النثر العربي العباسي) للباحث يوسف محمد عبدالله عبده، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة فيلادلفيا بالأردن عام 2016م، تحدث فيها الباحث عن الحجاج في قضية الشعوبية، وحاول الوقوف على مضامين حجاجية بالغة الأثر في هذه القضية.

5- بلاغة الخطاب الحجاجي في النثر الفني (الخطابة في العصر الأموي) للدكتور عبدالرحمن السلمي. وهو بحث محكم نشر في مجلة الأثر التابعة لجامعة قاصدي مرباح ورقلة كلية الآداب واللغات، عام 2017، وكان قد تحدث فيه عن مفهوم الخطاب الحجاجي وعلاقته بالدرس البلاغي، ثم تطرق إلى صور الحجاج العقلي ومنها: الاستدراج والقياس والتمثيل وحجية الواقع.

6- الحجاج في الخطاب الساخر في لزوميات أبي العلاء المعري، للباحثة نصاح نبيلة، وهي عبارة عن بحث محكم نُشر في مجلة التراث التابعة لجامعة زيان عاشور بالجزائر عام 2017، سعت الباحثة إلى كشف مسارات السخرية الأدبية في ديوان

لزوم ما لا يلزم، ويبيّن من خلال هذا الأسلوب الفني السبيل الحجاجي الذي قصد إليه المعري من خلال نصوص لزومياتها، فشكل الحجاج الساخر منحى في المواجهة والثورة بأسلوب موارد لكل ما يراه المعري ناقصاً لا يصلح للوجود.

7- كتاب الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية حتى القرن الثاني بنيتة وأساليبه، للدكتورة سامية الدريدي، حاولت الدكتورة سامية النظر للشعر العربي القديم من خلال منظار حديث الرؤية كثير الفائدة؛ وهو الحجاج ومصطلحاته وتقنياته الواسعة، وتوصلت للعديد من النتائج ضمن هذا الباب الجديد، وهو دراسة بنية الحجج من ناحية والأساليب من ناحية أخرى، ووقفت على رصد الفوارق الظاهرة والباطنة لحصر تلك الحجج، ثم العمل على تفريع تلك الأقوال الحجاجية ومقارنتها مقارنة منطقية مستخدمة التقنيات البيرونيانية البلاغية.

8- كتاب الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج رسائله نموذجاً، للدكتور علي محمد علي سلمان، وهو كتاب صادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في البحرين، تحدث فيه الدكتور عن الحجاج وخلفياته النظرية، ثم انتقل للحديث عن الحجاج الجاحظي والتقنيات التي سبق إليها شيخ البيان (الجاحظ)، وأدار القول حول استراتيجيات الحجاج ووظائفه.

التعقيب على الدراسات السابقة:

اتضح للباحثة أن مجمل الدراسات السابقة لم تتطرق للموضوع الموسومة به هذه الدراسة وهو: (الحجاج في رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعري دراسة في بلاغة الإقناع وفقاً للرؤى النقدية الحديثة)، بل كان الحديث قد دار فيها عن قضايا التداولية الواسعة، ثم كان أغلبها في أدب لغير المعري.

أما عن هذه الدراسة فقد اتبعت المنهج الحجاجي للكشف عن آليات الإقناع والتأثير في ألفاظ أبي العلاء المعري، لبيان أثر الحجاج والعملية الإقناعية في الأدب وجمالياته، فهي داسة تختلف في المنحى والمنهج وطريقة البحث عن الدراسات التي سبق الحديث عنها.

خطة البحث:

قامت الدراسة على تناول الحجاج في مدونة الصّاهل والشّاحج وفق ثلاثة أبعاد: البعد البلاغي، والبعد اللّغوي، والبعد المنطقي، وحاولت الباحثة استجلاء طرق الحجاج عند المعرّي في توظيفه تلك الطرق وفق ما تقتضيه تدوالياتها والتي تعود على قارئ رسالته بالنفع والفائدة.

وبناء عليه تم توزيع الدراسة على أربعة فصول، صُدّرت بمقدمة، ثم تمهيد تناول شيخ المعرفة في سطور، وتلتها خاتمة ضُمّنت أهم النتائج، ثم ذيل البحث أخيراً بالمصادر والمراجع.

جاء التمهيد ليتناول الحديث عن رسالة الصّاهل والشّاحج؛ المؤلف والزمن وسبب كتابة الرسالة وأقسامها.

الفصل الأول تناول الحديث عن حد الحجاج ومفهومه، ثم الحجاج وتطوره في البلاغة القديمة الغربية والعربية والبلاغة الحديثة.

أما الفصل الثاني فقد كان بعنوان آليات الحجاج البلاغي في رسالة الصّاهل والشّاحج، وتم تقسيمه إلى أربعة مباحث، وهي: المبحث الأول وفيه المقام الخطابي، والمبحث الثاني تناول الاستعارة الحجاجية، والمبحث الثالث كان بعنوان التورية، وخصصت المبحث الرابع للحديث عن الشاهد والمثل وبلاغة الحجاج فيهما.

أما الفصل الثالث بعنوان وسائل الحجاج اللّغوي في رسالة الصّاهل والشّاحج، وتضمن الحديث عن أربعة مباحث، الأول وفيه الروابط الحجاجية، والثاني العوامل اللّغوية، والثالث تضمن السلم الحجاجي والمواضع، ثم المبحث الرابع وفيه الحديث عن الأفعال الكلامية.

وتقنيات الحجاج وأنماطه في رسالة الصّاهل والشّاحج فقد كان عنوان الفصل الرابع والأخير، والمبحث الأول فيه الحجج شبه المنطقية، والثاني، الحجج التي تُؤسّس على بنية الواقع، والمبحث الثالث، وفيه الحجج المؤسّسة لبنية الواقع.

ثم جاءت خاتمة البحث، والتي جمعت فيها الباحثة أهم النتائج والتوصيات التي توصلت لها الدراسة، ثم قائمة المصادر والمراجع.

ختامًا استغفر الله من كل عثرة وزلة، وأبرأ إليه من كل حول وقوة، سبحانه لا رجاء إلا إليه، ولا طمع إلا فيما عنده، ولا اتكال إلا عليه! صلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى أبويه الكريمين إبراهيم وإسماعيل وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

التَّهْيِذُ

أبو العلاء المَعْرِي

يعد أبو العلاء المَعْرِي من الشعراء النواذر الذين عرفتهم الساحة الأدبية والنقدية مبكرًا، فقد برع في مجال الكتابة النثرية والشعرية المصبوغتين بصبغة فلسفية دقيقة حسّ المنطق في عروقهما، وكل ما تركه من أعمال تدرج ضمن خزائن العلم وقلاع الفكر التي سطرت اسمه تاريخًا أدبيًا حافلًا، حيثُ بذلَ لعربيّتنا فضاءً عقله وبيان لسانه وضياءَ قلمه، مما جعله يتسامى بثناء موروثه بين نجوم الفلاسفة والأدباء ما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين.

عاش في أوساط الخلافة العباسية بين عام 363هـ، حتى سنة 449هـ، كان بصيرًا داهية مترفًا حلو اللسان، مبدعًا من المكثرين الذين أجادوا بفكرهم وثقافتهم، فتراه الحكيم الذي جرّسته المصائب، وكان صرف الله له من نعمة إلى التي أعظم منها؛ فَبَصَّرَهُ بِبَصِيرَةٍ بَيْنَ جَنَبِيهِ، حيثُ يرى ما لا يراه العالمون، فأقام الدنيا بأدبه وبيانه، وأبى إلا أن يكون قويّ ساعد اللسان، ونَشَرَ الأمور على الذي لم تكن على شاكلة أهل زمانه بذلاقتة وفتاقة لسانه، كأنه الخطيب المصقع، والأديب المبدع صاحب الأدب الممتع، شدا في الأدب وصنوفه ما شدا، وأسدَى معروفًا لأهل العربية لا يأفل نجمه ولا تُمحي آثاره.

اسمه ونسبه

أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن أحمد بن سليمان المَعْرِي⁽¹⁾ التتوخي⁽²⁾، مسقط رأسه معرّة النعمان، لثلاثِ بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلثمائة، أصابه الجدري⁽³⁾ في الرابعة من عمره مما أودى ببصره فلم يرَ النور بعدها، وكان صابِرًا لم يتأفّف لمصابه؛ بل رافقته روح الفكاهة والمرح.

(1) في سلسلة نسبٍ طويلةٍ ذكرها كالآتي: أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النعمان بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قُضاعة التتوخي المعري اللغوي الشاعر. يُنظر: تاريخ بغداد ج3/397، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص257، وإنباه الرواة على أنباه النحاة ج1/81، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج3/113، والوافي بالوفيات ج7/63، وبغية الوعاة ج1/315.

(2) التتوخي بفتح التاء المثناة من فوقها، وضم النون المخففة، ويعد الواو خاء معجمة، وهي نسبة تتوخ، وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديمًا بالبحرين، وتحالفوا على التناصر، وأقاموا هناك، فسموا تتوخًا، وتتوخ من أكثر العرب مناقب وحسبا. الإنصاف والتحري، ابن العديم، ص3.

(3) "كان ذلك أول سنة سبع وستين، غشّى يمنى عينيه بياض، وذهبت اليسرى جملة". وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج1/113.

لم يقف ذلك عائقاً بينه وبين طموحه، بل كان منظومة ثقافية، يعبر من خلال أفكاره، وينظر نظرة الفاحص للحياة المتدبر لشؤونها، فترى في ألفاظه المعاني المتصلة بروحه المرفهة، إضافة إلى الضمائر التي تتبع عن شخصية عربية في فكرها وملامحها، فقانونه في ألفاظه وأدبه هو نص القيثارة المترنمة عن أعماق تكوين أنفاسه، يعكس وجهة نظره ونوادرها، أخذ النحو واللغة عن أبيه بالمعزة، وعلى محمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب، وحدث عن أبيه وجدّه، فهو من أهل بيت رياسة وعلم وأدب، كان غزير الفضل، وافر الأدب، عالماً باللغة، حسن الشعر، جزل الكلام⁽¹⁾، قال الشعر وهو ابن إحدى -أو اثنتي- عشرة سنة⁽²⁾.

رحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين⁽³⁾، ودخلها سنة تسع وتسعين، وأقام بها سنة وسبعة أشهر⁽⁴⁾، وفيها قرأ الديوان على أبي القاسم التتوخي ببغداد⁽⁵⁾، وعاد أخيراً إلى المعزة ولزم منزله، وبدأ يصنّف مؤلفاته، وأتى إليه الطلاب من كل حدب وصوب، وسمّى نفسه (رهين المحبسين).

كان مكباً على العلم والحفظ، ويذكر عن كيفية تحصيله لألوان العلوم أن طلابه كانوا يطالعون له التصانيف الأدبية، ويذكر القفطي أنّ مشايخ الأدب باليمن يذكرون أن أبا العلاء كان يحفظ ما يمرّ بسمعه⁽⁶⁾.

كانت وفاته يوم الجمعة، من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وأربعمائة بالمعزة.

(1) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص258.

(2) يُنظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، ص258 وبغية الوعاة، السيوطي، ج1/315.

(3) عند ابن خلكان ما نصّه: "دخل بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، ودخلها ثانية سنة تسع وتسعين وثلاثمائة".

(4) الإنصاف والتحري، ابن العديم، ص15. وهذا القول رأيته الدكتورة عائشة عبد الرحمن، وقد كان بعض الرواة قد ذكروا أنه زارها مرتين؛ لكن هي مرة واحدة. يُنظر: مع أبي العلاء في رحلة حياته، عائشة عبد الرحمن، ص114.

(5) تاريخ بغداد، الخطيب أبو بكر البغدادي، ج5/397.

(6) يُنظر: إنباه الرواة على أنباء النحاة، القفطي، ج1/87.

مصنفاته

له من التصانيف⁽¹⁾ العديدة والرسائل المأثورة، ومن النظم (لزوم ما لا يلزم) وهو كبير يقع في خمسة أجزاء أو ما يقاربها، وله (سقط الزند) وَشَرَحَهُ بِنَفْسِهِ، وَسَمَّاهُ (ضوء السقط)، ومنها كذلك:

- رسالة الغفران.
- رسالة الملائكة.
- رسالة الهناء.
- ملقى السبيل.
- الفصول والغايات.
- معجز أحمد.
- ذكرى الحبيب.
- عبث الوليد.
- الصَّاهِلُ وَالشَّاحِج.

أما إجمالها فقد ذكرها القفطي في عشر أوراق تقريباً، محاولاً جمع ما توارد ذكره عند العلماء، وقد صرَّح بعددها قائلاً: "فذلك الجميع خمسة وخمسون مصنفًا، العدد بتقريب، سوى ما لم يذكره"⁽²⁾. يقصد الوارد ذكرها بأسمائها.

ثم يذكر عددها: "أربعة آلاف ومائة وعشرون كراسة"⁽³⁾.

وبيبغتنا سؤال عن مكان هذه المؤلفات الضخمة؛ يجيبنا القفطي بقولٍ موجزٍ هو أن أكثر كتب أبي العلاء عدمت، أما الباقية فهي التي خرجت من المعرفة قبل هجوم الكفار عليها ونهب ما وجد فيها⁽⁴⁾.

(1) وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج 1/113.

(2) إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، ج 1/101.

(3) المرجع السابق، ج 1/101.

(4) يُنظر: المرجع نفسه، ج 1/101.

فأكثر كتبه بقيت حبيسة الظلام، ولم نرها بسبب الحروب التي تواترت على البلاد آنذاك، فشأنه شأن كثير من كتب تراثنا التي ضاعت، فكانت شاهدة على نفسها في مكانها، ولم ننعم بحروفها وكلامها وجميل نظم أصحابها.

رسالة الصَّاهِل والشَّاحِج

تعد رسالة الصَّاهِل والشَّاحِج من الأعمال الأدبية البارزة التي تداركها الزمن بصفحه وعفوه بأن لم يسقطها من خزائنه، فبرزت للعيان وكانت من كبريات كتبه - تعدّ من أضخم الرسائل حيث يربو عدد صفحاتها على ستمائة ورقة ويزيد - وأجلها قدرًا وأكثرها علمًا، ذكرها القفطي في معرض حديثه عن مؤلفات المعري⁽¹⁾ وقال إنه رآها⁽²⁾، والحموي في إرشاده، ولم تغب عن ابن خير الإشبيلي⁽³⁾، وكذا الكلاعي⁽⁴⁾ الذي لم يكتفِ بذكرها عرضًا؛ بل قام بمعارضة رسالة الصَّاهِل والشَّاحِج بكتابة نثرية له تُدعى (رسالة الساجعة والغريب)، والتي ألفت مبكرًا في المغرب العربي، وهذه إشارة جليّة أن رسالة الصَّاهِل والشَّاحِج قد رحّب بها المغاربة في وقت مبكر، وتناولوها بالشرح والدرس لفهم دقيقتها وغريبها وعويصها، فلا يُعارض النص إلا إذا فهم مبتغاه وغلّ مسعاه.

وحين نمضي مع الزمن يبدو أن الرسالة قد خفت نجمها، ولم تظهر في ما بعد تلك الحقبة في المشرق والمغرب على حدٍ سواء، إلى أن جاءت الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنسختين من الخزانة الملكية⁽⁵⁾ بالرباط، ونالت شرف تحقيقها، وقدمتها للدارسين على رفوف مكتباتهم؛ لكنهم عزفوا عن قراءتها ربما لاعتقادهم أنها محاكاة لكليّة ودمنة، أو لوعورة فهم نصوصها ودقّتها

(1) حيث قال: "وكتاب يعرف برسالة الصاهل والشاحج يتكلم فيه على لسان فرس ويغل، مقداره أربعون كراسة، وكتاب لطيف في تفسير المقدم ذكره بالصاهل والشاحج يعرف بلسان الصاهل والشاحج، وكان الذي عمل له الكتاب يدعى بعزير الدولة". إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، ج 79/1.

(2) وقال عنه: "ذاكرني به ولد أبي هاشم خطيب حلب، وذكر أنه عنده". يُنظر: المرجع السابق، ج 102/1.

(3) محمد بن خير بن عمر بن خليفة من أهل إشبيلية، هو يقول في نسبه الأموي بفتح الهمزة، يُكنى أبا بكر وأبوه خير كان مقرئًا مجودًا ضابطًا محدثًا جليلاً متقناً أديباً نحويًا واسع المعرفة. يُنظر: التكملة لكتاب الصلة، للحافظ أبي عبد الله ابن الآبار، تحقيق: عبدالسلام الهراس، ج 2/49-50.

(4) محمد بن عبدالغفور بن محمد الكلاعي، من أهل غرب الأندلس يُكنى أبا القاسم أخذ الآداب عن أبيه أبي محمد، والعربية عن أبي عبدالله بن أبي العافية، كان من جلة الكتاب، من مؤلفاته كتاب الانتصار، ورسالة الساجعة والغريب.

يُنظر: التكملة لكتاب الصلة، للحافظ أبي عبد الله ابن الآبار، تحقيق: عبدالسلام الهراس، ج 4/2.

(5) يُنظر: مقدمة المحققة، تصرّح أنهم كانوا يسمعون بالرسالة ويعتقدون أنها محاكاة علانية لكليّة ودمنة، إلى أن وجدت النسخ وقامت بتحقيقها. رسالة الصاهل والشاحج، المعري، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، ص 35.

وكثرة أَلغازها، والأخيرة هي الأقرب للعزوف عن نص الرسالة وتحليلها؛ لا سيما إن كنا على دراية بأن المَعَرِّي قد كاتبه عزيز الدولة بشرح يوافيه بفكِّ أَلغاز الرسالة، فكتب له كتاب (لسان الصَّاهِل وَالشَّاحِج)⁽¹⁾، ومع بالغ الأسف كان في غياهب الجبِّ مع ما ضاع من تراثنا النَّفيس، ولم يصلنا إلا روح الاسم مع فقدان نسخته.

ملاحح زمن تأليف الرسالة

عاش أبو العلاء المَعَرِّي في أوساط خلافة بني العبَّاس للفترة الواقعة بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، أما عن السياسية؛ فقد دبَّ الضعف في أركان الخلافة في بغداد، وبدأت تفقد سيطرتها على الأمصار، وأدى ذلك بدوره إلى ظهور العديد من الدويلات التي استقلَّت بنظامها وترتيب قواعدها عن البوَّة الأساس التي كونت لنفسها حصناً عربياً في بغداد.

كانت هذه الفترة تعاني من التعقيد والاضطراب، والشام بكلها معرض أطماع الصليبيين، والدولة الحَمَدَانِيَّة بين خطرين محدقين؛ شمالي رومي، وجنوبي فاطمي، ووصل الخلاف والتناوش بين أمراء الدولة الحمدانية بعد وفاة سيف الدولة⁽²⁾ أن يستجدوا بالروم من جهة، وبالفاطميين من جهة أخرى⁽³⁾، إلى أن وقعت حلب تحت إمرة الفاطميين، وقُدَّ عزيز الدولة وتاج الأمراء الحكم عام سبع وأربعمئة، وذكر ابن العديم في مؤلفه: "وكان غلاماً أرمنيّاً لبنجوتكين مولى صاحب مصر، وكان بنجوتكين شديد الشغف به؛ وكان أديباً عاقلاً، كريماً كبير الهمّة. فولاه الحاكمُ حلبَ وأعمالها، ولقبه أمير الأمراء، عزيز الدولة، وتاج المَلّة، ودخل حلب يوم الأحد الثاني من شهر رمضان من سنة سبع وأربعمئة"⁽⁴⁾.

لكن لم يطل الأمر له كثيراً، فقد عصى سيّده وضرب الدنانير والدرهم باسمه في حلب، ودعا لنفسه على المنبر، فما كان من الحاكم إلا أن أرسل جيوشه وجهازها سنة إحدى عشرة وأربعمئة.

(1) يذكر في ذلك صاحب الإنصاف والتحري: "وكتاب لطيف في تفسير الصاهل والشاحج، يعرف ب(لسان الصاهل والشاحج). عمله أيضاً لعزير الدولة المذكور. ومقداره ثمان عشرة كراسة". الإنصاف والتحري، ابن العديم، ص 20.

(2) كانت وفاته سنة ست وخمسين وثلاثمئة. زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم الحلبي ص 89.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص 91.

(4) المرجع نفسه، ص 122.

وكان عزيز الدولة على علم بهذا، فأرسل من جهته إلى باسيل ملك الروم ليسلم إليه حلب، فلما بلغ باسيل موضعا يعرف بمرج الديباج بلغ عزيز الدولة وفاة الحاكم، فأرسل إلى باسيل انتقاض الشرط بينهما، وبعد مدة من الزمن دخل عليه غلام هندي فقتله سنة ثلاث عشرة وأربعمائة⁽¹⁾.

تاريخ كتابة الرسالة

كل الإشارات توحى بأنها أرسلت لعزيز الدولة، وتم ذكر ذلك تصريحاً عند أبي العلاء في مقدمة رسالته، وحكم عزيز الدولة قد امتد سبع سنوات كما أشارت الباحثة أعلاه، لكن الأدق كان قد حُسم الخلاف فيه من خلال متن الرسالة، وتحديدًا في قسمها الثاني الذي تحدّث فيه أبو العلاء عما عرف في التاريخ بجفلة عزيز الدولة⁽²⁾، والتي كانت عام أربعمئة وإحدى عشرة للهجرة.

ولعل المسألة كانت قد حُصرت في القسم الثاني، وجعلت تدوين الرسالة يدور في فلك ثلاث سنوات، ومن النصوص التي تؤكد ذلك وتعمل على توضيق الحقبة الزمنية ما جاء على لسان شخوص الرسالة ومنها: "كُنَّا نَزْعُمُ أَنَّ السَّيِّدَ عَزِيزَ الدَّوْلَةِ -أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ- قَدْ رَاسَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الظَّاهِرَ لِإِعْزَازِ دِينِ اللَّهِ.." ⁽³⁾.

وهذا النص بحدّ ذاته يحسم الأمر كون فترة حكم الظاهر قد بدأت مع موت أبيه عام أربعمئة وإحدى عشرة للهجرة، وموت أبي شجاع فأتك الرومي عزيز الدولة كان في عام أربعمئة وثلاث عشرة للهجرة، فيكون زمن كتابة الرسالة على الأغلب الأخص ما بين أواخر عام أربعمئة وإحدى عشرة للهجرة، وبداية عام أربعمئة واثنا عشرة للهجرة، وهذه الأعوام كان الغموض سيد موقفها والشك يساير كل جوانبها، ناهيك عن التوتر في العلاقات بين الدولة

(1) يُنظر: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ابن العديم الحلبى، ص124.

(2) وهي الفترة التي تظاهر فيها الظاهر بالرضا عن عزيز الدولة في حلب، بعدما كان والده قبل الوفاة قد جهز جيشاً لمهاجمة حلب؛ والقضاء على عزيز الدولة الذي بدوره استتجد بباسيل.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص553.

الفاطمية وعزيز الدولة، وما أظهره له من زيف في الرضى عنه، ثم أخيراً اغتياله في مقره في مدينة حلب.

هذه كانت المدة بالتحديد، والتي حاولت الباحثة إثباتها من خلال الرجوع إلى متن الرسالة ذاتها.

سبب كتابة رسالة الصّاهل والشّاحج

في معرض حديث العلماء عن سبب كتابة الرسالة؛ كان قد أشار ابن العديم إلى نص مهم وهو: "وكان سبب تصنيفه أنّه رُفِعَ إلى فاتك أنّ حقّاً يجب له على بعض أقرباء أبي العلاء، وجب على أبي العلاء سؤاله فيه. مقداره أربعون كراسة"⁽¹⁾.

فالواضح من خلال هذا النص أن أبا العلاء يسأل عزيز الدولة حقّاً يجب إرجاعه إلى أبناء أخ له، ولم يزد عليه شيئاً، فكانت الرسالة مرفقة بجانب هذه المظلمة؛ كي يستعطف بها عزيز الدولة.

وإذا ما عدنا لنصّ الرسالة يكشفنا المعرّي بهذا الحق منذ بدايتها، وتتعلق المظلمة بأرض لهم قاحلة جرداء، قام الجباة برفع شكوى ضدهم عند عزيز الدولة، وهي أنّ مآلاً ينبغي على أبناء أخيه أن يؤدوه إلى بيت المال⁽²⁾.

وذكر أبو العلاء في متن الرسالة حرّجَهُ من كتابتها، وسألهم أن يعفوه من هذه المشقة والحرّج؛ لكنهم ألحوا عليه في ذلك، فخضع لهم وفاءً لحق القرابة والرحم واستحياءً من عدم تأخيرهم في خدمته ورعايته.

مضمون رسالة الصّاهل والشّاحج

اتجه أبو العلاء المعرّي نحو سير جديد في ملامح تأليفه لرسالة الصّاهل والشّاحج، حيث لم يسبق له أن استخدمه من ذي قبل، وتخلّق هذا النمط فيها وسن قواعده، ثمّ امتد ليظهر مرة أخرى في رسالة الغفران من بعدها.

(1) الإنصاف والتحرّي، ابن العديم، ص20.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص84.

وهذه المشاهد التي جسدها بين دفتي الرسالة وشخص من خلالها كوكباً دائراً في فلك أحداث سياسية واجتماعية عاشها كلها مسترشداً لصياغتها بأسلوب أدبي نثري فريد، حاول أن يجريها على ألسنة البهائم بطريقة مستحدثة السرد والنسج، كانت تتم عن سخريته من عالمه الذي يضجّ بمعارك وحروب وصراعات؛ ومن ناحية اجتماعية فقد دب النفاق والتملق والتزلف من تقريب لذوي الشأن وأصحاب الحاشية، ثم تقديمهم ورفع مكانهم في الدولة، كما هو حال الدويلات في زماننا، وصورة كانت تُظهر ترويه وطول تفكره وتدبره لهذا الواقع المؤلم، وهو الأعمى الذي كان حبيس المكان، لكن الزمان ومتطلباته وآفاقه التي لا يحدّها العمى ولا يلغيها؛ كان يصله بكل أفرادهِ إلى حيث موطنه ومكوّنهِ، فلم تغب عليه أقصوصة من أحاديث الملوك والأمراء وبلاط الحكام، كأنه يزورهم ويجلس إليهم ويحدّثهم عن كُنْهِ وقرب.

التشكيل الداخلي للرسالة

تنقسم إلى قسمين:

الأول: حيث التحيّة والتسليم على الحضرة العالية، والاعتذار من عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء⁽¹⁾، ثم ذكره لسبب كتابة هذه الرسالة، ثم يختفي أبو العلاء من التشكيل الدرامي ورسمه لمعالم الأمكنة وتخليق الأزمنة، ويبدأ طريقة السرد على ألسنة البهائم واستتطاق عقول ما كانت لتكون لها، منتقلاً إلى القسم الآخر من الرسالة.

القسم الثاني: وهو كما ذكرت الباحثة بداية حديثه عن الدابة التي تعيش في هذه الأرض؛ وهي عبارة عن شاحج معصوب العينين⁽²⁾، ثم وصول الفارس الذي يحطّ بفروسه بالقرب من نبع ماء، ويتحدث الشّاحج بقدره الله مع الصّاهل (الفرس)، واصفاً إياه بالكرم، ويسأله عن مكانه من أين طراً عليهم وبطول الحوار بينهما، ويطلب منه إرسال رسالة شعريّة منظومة للسيد عزيز الدّولة، ثم يدخل في عراك مع الصّاهل، ويبدأ بإهانة الشّاحج⁽³⁾ كيف له أن يدعي نسب الخؤولة من الصّاهل.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص89.

(2) المصدر السابق، ص92.

(3) المصدر السابق، ص108.

المشهد الثاني من القسم الثاني: هي دخول الفاخنة⁽¹⁾ في مسار الحديث، وإنكارها على الشَّاحِج التقليل من شأنها ونعتها بأدنى الصفات، ثم تذهب إلى أبي أيوب (الجميل)، وتقوم بالإيقاع بينه وبين الشَّاحِج، ويأتي الجميل ليهجم على الشَّاحِج فيصيبه في جحفلته، ثم يتبين له كذب الفاخنة وادعائها ويعتذر بشدة، ويتبادل مع الشَّاحِج أطراف الحديث ثم يطالب الشَّاحِج أبا أيوب⁽²⁾ أن يحمل له رسالة نثرية تضج بالألغاز والأحاجي والنكت العروضية الوعة في تصنيفها، فيعجز الجميل عن هذه المهمة ويجد في ذلك صعوبة بالغة، فيسخر من الشَّاحِج ويغض الطرف عنه ويستحمله واصفًا إياه بالتعسف⁽³⁾، فالشَّاحِج ييأس من أبي أيوب ويبدأ الدعاء عليه باستخدام التورية والإلغاز.

المشهد الثالث: يصور فيه الثعلب داخلًا على الشَّاحِج ويتحاوران فيما بينهما، فإذا بضجة مصدرها حلب، يطلب الشَّاحِج -لعجزه- من الثعلب أن يتجول في أرجاء حلب، ويأتي له بأخبارها وما حلَّ بها، ويحدثه الذي يجري في بلاط عزيز الدولة وقصره، وجفلة الناس من باسيل وعزمه على غزو حلب، فيما سمَّى بعد ذلك بجفلة عزيز الدولة، وكذلك مراسلات وصفقات بين الظاهر بأمر الله الخليفة الفاطميّ وعزيز الدولة.

المشهد الرابع⁽⁴⁾: رجوع الثعلب بأخبار وأحداث الجالين عن البلاد، ويعقد مقارنة بين نعومة الحضر وخشونة البدو، ويحدثه أن حلب هي قلعة ومعقل المسلمين.

المشهد الخامس⁽⁵⁾: يرجع الثعلب ليحدث الشَّاحِج عن أخبار من تركَ حلبَ خوفًا من غزو باسيل، ثم أخبار هؤلاء الجالين باستخدام النكات العروضية على الفأل والطيرة، ويقص ثعالة الأخبار عن استعداد العدو للحرب، والإرهاصات بهزيمته، مستخدمًا النكات العروضية والفال والطيرة بأسماء بلدان الشام.

(1) رسالة الصاهل والشاحج ص206.

(2) المصدر السابق، ص216.

(3) المصدر السابق، ص234.

(4) امتد من ص506 إلى ص608.

(5) وامتد من ص610 إلى ص706.

وأخيرًا تحية الختام⁽¹⁾.

وهذه الرسالة تضجّ بالمعاني العميقة والملئية بعبق التاريخ؛ لتعكس لنا فطنة المعرّي وذكائه وتمكنه من زمام معاجم غريب اللّغة، كانت تزخر بشتى ألوان البيان والبديع من معاني دقيقة لا تظهر للقارئ من أول قراءة، بل عليه التأمل في ثنايا النصّ كثيرًا كي يظهر له مراد ألفاظه، فهي عظيمة الأسلوب تبعث مسحة من أرواح العلماء والأدباء في غابر السنين، فصلّ فيها مختلف الأقوال من مؤتلفها، وسليمها من ذوي الآفة.

وهذا كله وليد عزلته، فنرى تلك الصنعة الطاغية على متن الرسالة ومجمل أعماله النثرية والشعرية، قد فاضت بالفلسفة والغموض والعمق الكبير في الكلمات ومعانيها.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص708.

الفصلُ الأولُ

فِي حَدِّ الْحِجَابِ وَمُنْطَلَقَاتِهِ

المبحث الأول: دلالة الحجاج ومفهومه

إنَّ معظم المصطلحات الحداثية التي تمَّ استيعابها داخل حقول النقد الأدبي العربي قد يجد المنظرون لها صعوبة بالغة في تحديد مرادها، وذلك تبعاً لتعدد الخلفيات المنهجية التي يتبع لها العلماء، وكان الحجاج كذلك، فليس من السهل أن نحيط بدلالته بصورة دقيقة، وذلك لانتشاره في كافة مجالات الآداب وعلوم اللسان منها الدينية والفلسفية والسياسية والبلاغية، وتحاول الباحثة في هذا الخضم أن تؤصل بشيء من البسط ما توصل إليه العلماء قديماً وحديثاً، حتى يتم الاتكاء على بعض حيثيات الفكر الحجاجي في التحليل باستخدام آليات الحجاج الإقناعية.

أولاً- الحجاج لغة

قبل التعرّيج على معاجم اللغة وإقامة ما فيها من حجج حول موضوع الحجاج، نقيم ما في نص القرآن الكريم من ورود هذه اللفظة حتى نحدد الاختلاف اللطيف في استعمالها القرآني، فهو حُجّة الحجج، وإليه يرجع القول الفصل في تحديد المعاني وتنظيم المباني.

الآية	السورة		الآية	السورة	
1	﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾	[البقرة: 76].	8	﴿لَمْ تُحَاجُّوْنَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾	[آل عمران: 66].
2	﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾	[البقرة: 139].	9	﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾	[آل عمران: 73].
3	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾	[البقرة: 258].	10	﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾	[الأنعام: 80].
4	﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾	[آل عمران: 20].	11	﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ﴾	[الأنعام: 80].
5	﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾	[آل عمران: 61].	12	﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾	[غافر: 47].
6	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾	[آل عمران: 65].	13	﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾	[الشورى: 16].
7	﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾	[آل عمران: 66].			

إن تأملنا اشتقاقات الحجاج الواردة في القرآن الكريم كما هي موضحة أعلاه:

- فقد وردت في اثني عشرة موضعاً بالتشديد تحت ما يسمّى بِـ (المُحَاجَّة).
- ووردت في مرة واحدة دون تشديد، وهي (المُحَاجَّة).

والفرق أن المحاجة بالتشديد كانت بدون علم ودراية وخلفية للمجادل، حيث كانوا فقط يتلفظون بأهوائهم وأقاويل لا أساس لها من الادعاء، أما في الآية رقم (7): ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبُونَ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ .

وردت في الآية الكريمة لفظة (المُحَاجَّة) دون تشديد، ومعناها الدقيق حسب سياق القرآن الضمني للمعنى؛ أنهم حاججوا إبراهيم بما وجدوه مكتوباً عندهم في التوراة، وكانوا على علم به، فحدثوه بما كانوا يعلمون، ثم جاء التشديد في قوله: ﴿لَمْ تُحَاجُّوْا﴾، وأعقبها قولاً: ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، وكان التصريح من الله أن المحاجة بالتشديد تكون دون علم، والعلم يكون من باب المحاجة، فهو فرق لطيف بين الكلمتين المشار إليهما.

أما الجذر اللغوي لها فهي مشتقة من: (ح ج ج)، وجاء في لسان العرب لابن منظور أن الحجاج: "والْحُجَّةُ البرهان، وقيل الْحُجَّةُ ما دافع به الخصم، وقال الأزهري: الْحُجَّةُ الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة. وهو رجل مُحَجَّاجٌ أي: جدل. (وهو الرجل الكثير الجدل).

والتَّحَاجُّ: التخاصم، وجمع الْحُجَّة: حجج وحجَّاج، وحاجَّه مُحَاجَّةً وحجَّاجاً: نازعه الْحُجَّة⁽¹⁾.

ويذكر الزبيدي في تاج العروس: "الحج: (الغلبة بالحجة)، يقال: حجَّوْا يحجُّه حجاً، إذا غلبه على حجته. وفي الحديث: "فحجَّ آدم موسى"؛ أي: غلبه بالحجة، وفي حديث معاوية فجعلت أحج خصمي: أي أغلبه بالحجة... وسميت حُجَّةً؛ لأنها (تحج)، أي: تقصد؛ لأنَّ القصد لها وإليها..⁽²⁾.

(1) لسان العرب، ابن منظور، ج2/228.

(2) تاج العروس، الزبيدي، ج5/464.

فعند كليهما نرى أن الأصل في الحجاج هو الإتيان بدليل وحجة دامغة، يقطع المتكلم من خلالها الطريق على الطرف الآخر، وذلك لإثبات قضية أو رأي وبناء موقفٍ بعينه.

وفي أساس البلاغة عند الزمخشري: "احتجّ على خصمه بحُجّةٍ شهباء، وبحججٍ شهبٍ، وحاجّ خصمه فحجّه، وفلانٌ خصمه محجوجٌ، وكان بينهما حاجةٌ وملاجةٌ"⁽¹⁾.

والمعنى في نفس الدائرة كما نرى عند الزمخشري؛ حيث يرى أن الحجاج هو إقامة الدليل والبرهان على رأي الخصم لإفحامه، فلا يوجد بين العلماء فرق واختلاف على مواضع المعنى الاصطلاحي وتحديد دلالاته، فالحجاج لا يخرج عن حدود المنازعة والمجادلة والغلبة بالحُجّة والمخاصمة وإثبات الدليل والبرهان.

أما كلمة (الحُجّة)⁽²⁾، فقد وردت في القرآن الكريم في أربع مواضع دون ضمير، وكلها كانت تعني القول الحق البالغ البليغ الذي لا رجوع فيه.

الآية	السورة		الآية	السورة	
1	﴿لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾	[البقرة: 150].	3	﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾	[الأنعام: 139].
2	﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾	[النساء: 165].	4	﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾	[الشورى: 15].

وبالنسبة لكونها مضافة إلى ضمير فقد ورد ذلك في ثلاثة مواضع، كانت كلها يستوي فيها الحق والباطل، ومواطنها في القرآن كالتالي:

1	﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾	[الأنعام: 83].	3	﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا﴾	[الجاثية: 25].
2	﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً﴾	[الشورى: 16].			

فالحُجّة ما تسمّى به الحق وكذلك يتبع أهل الباطل الإدلاء بحججهم الواهية في الإيغال في كفرهم والتعلق بها، أما حجج الحق فهي الدالة على وحدانية الله.

(1) أساس البلاغة، الزمخشري، ج1/169.

(2) أما متصرفات هذا الاسم مجموعة كلها في القرآن في سبعة وعشرين موضعاً، ويدخل في بابها (الحج)، وهذا ليس من شأن البحث ومتعلقاته بالرغم من دلالة اللفظ على القصد والتوجه، إلا أن حلقة البحث تلتف حول الحجة والجدل واللجاج وألفاظها.

وترى الباحثة أن الحجاج بالمجمل وتبعاً للمحددات اللغوية السابقة، هو فعل قولي يؤتى به ضمن سياق جدلي يكونه مجموعة من الأطراف التي تتذرع بعدة أقوال وحجج، ويقصد كل طرف من خلالها إفحام وإذعان الأطراف الأخرى لمذاهبهم.

إن أهم ما يلاحظ بخصوص مفهوم الحجاج أنه يتميز بالارتباط بالدليل والبرهان بما لا يدع مجالاً للإنكار أو التردد.

ولذا فالحجاج سبيل للإقناع فإن تخلف هذا صار الجدل والمراء.

ويلاحظ أن معظم المفردات (الحجاج-حاج..) قد وردت من السور المدنية، وقلمنا نجد ذلك في السور المكية، حيث برز المفهوم العام المنبثق من بيئة الحجاج لأهل الكتاب ممن عايشوا المسلمين في المدينة على خلاف لفظة (جدال) التي برزت في مكة والقرآن المكي.

ثانياً - الحجاج اصطلاحاً

الحجاج بصورته التي ظهر في رداها ليس منطقاً حديث الرؤية والبنیان، بل هو وليد ثقافة غابرة من يونانية وعربية قديمتين، نشأ في أحضان الفلسفة الأرسطية وعلم الكلام والجدل والمنطق وعلم الأصول والبلاغة الممتدة عند أعلام العرب من متكلمين وبلاغيين، ولم يقف عند ذلك، بل تجذر في النحو والمناظرات بين العلماء والخطابة.

كانت الرؤية التي يسعى إليها فرض سلطة الإقناع والتأثير على المتلقي وحمله على الإذعان لتلك الحجج ضمن الخطابة القديمة.

واصطلاح الحجاج متعددة أصوله ومنابعه، فهو يختلف من حقل لآخر، فهناك الحجاج الفلسفي، ومفهوم الحجاج المنطقي، والحجاج القانوني، وحجاج بلاغي تداولي ينبثق عن رؤية لسانية، وتحدث الدكتور حبيب أعراب عن العوامل التي أدت لغموض المفهوم⁽¹⁾، منها:

- تعدد مظاهر الحجاج الضمني والصريح وغيرها.
- كذلك تعدد استعمالاته، وتباين حقوله المعرفية.

(1) يُنظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، ص 79.

- خضوعه في دلالاته لما يميز ألفاظ اللُّغة الطبيعية من قابلية للتأويل المتجدد ومرونة الاستعمال.

وبهذا تعددت مفاهيم الحِجَاج من زوايا شتى، فمنهم من عرفه تبعاً لسماته الموضوعية العامة، ومنهم من انطلق من البنية اللُّغويّة للحِجَاج، وبعضهم تمسك بعمود البلاغة ووظيفتها الجمالية والوظيفة الاتصالية.

أما المحددات التي انطلق العلماء منها خلال تعريفاتهم، فهي:

إن الحِجَاج خطاب إقناعي: وذلك أن هدفه هو الإقناع والتأثير في المُتلقّي، ويكون لدعم موقفه، أو لتغيير رأيه وتبني موقف جديد، وهذا المحدد ينطلق من وظيفة الحِجَاج وليس من شكله اللُّغوي أو محتواه الخطابي⁽¹⁾، والحِجَاج يتمثل بإقناعه من خلال ما يتبناه صاحبه من استمالة الأطراف الأخرى عن طريق إطار تواصل يَتجاوز مستوى التبليغ والإفهام، إلى مستوى التأثير والإقناع.

والحِجَاج يُسم ببعدٍ جوهريّ في اللُّغة ذاتها، فحيثما وجد خطاب العقل واللُّغة وُجد الحِجَاج، واستعمل كاستراتيجية لُّغويّة وعقليّة يلجأ إليها المتكلم لإقناع نفسه، أو إقناع غيره⁽²⁾.

وهذا يتطلب من المتكلم تدشين خطابه باستدلالات عقلية، وإيراد الحجج بتقنيات ووسائل لُّغويّة تعمل في فضاء النص كعامل تأثيري يظهر أثره في المُتلقّي.

ومن جملة التعريفات التي تنطلق من هذه المحددات والتي تعد الحِجَاج نوعاً خطابياً، قولهم: "كل منطوق موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"⁽³⁾، وعند (أندرسين - Andersen) و(دوفر - Dovre)، هو: "طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعوى المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة، والتأثير من وجهات النظر والسلوك"⁽⁴⁾.

(1) يُنظر: الحجاج في المقام المدرسي، كورنيليا فون راد، ص 13.

(2) يُنظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي، ص 99.

(3) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، ص 226.

(4) النص الحجاجي العربي، محمد العبد، ص 241.

وترى الباحثة أن مثل هذا الرأي قد ظهر ضمن دعائم الحجاج العربي، وللناظر في أدب المتكلمين وعلى رأسهم الجاحظ يرى الفرضيات المنطقية التي كان يتابعها في نصوصه وتعاييره، فحقيقة التحليل العقلي ودعاوى المنطق كان تهدف في النصوص كاملة لحل نزاعات الفكر وبناء قرارات محكمة في سياقاتها ومقدماتها، وهدفها بذلك التأثير في وجهات النظر وتعديل السلوك الأدبي من قبل العلماء الذين كانوا يحتاجون بالأقوال في ذلك الزمن.

ومما سبق ذكره يُلاحظ أن الحجاج نوعان في النظرية المعاصرة:

- حجاج عادي عند أهل البلاغة الجدد، يستخدم آليات وتقنيات بلاغية ومنطقية من أجل التأثير والإقناع، وهذا الذي ارتبطت به بلاغة الإقناع الحديثة ارتباطاً وثيقاً بالبنى.
- وحجاج آخر لغوي يعتمد في تكوينه على روابط وعوامل لغوية تسهم في الإقناع والتأثير، وذلك من خلال ما تكسب النص من آليات تمكينية.

أما النوع الأول فله منظران من مدرسة بلاغية برهانية حجاجية، هما: (بيرلمان - perleman) و (تيتكا - Tyteca)، ويرى كل منهما أن الحجاج طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد إلى استمالة المُتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو زيادة درجات تلك الاستمالة.

والاتجاه الثاني فقطباه هما: (ديكرو - Ducrot) و (انسكومبر - Anscombr) من أصحاب التصور التداولي اللساني الحجاجي.

ويرى (كريستيان بلانتان - Christian Plantin) أن الحجاج: "العملية التي من خلالها يسعى المتكلم إلى تغيير نظام المعتقدات والتصورات عند مخاطبيه بواسطة الوسائل اللغوية"⁽¹⁾.

وقول بلانتان يفتقر للحديث عن البلاغة والمنطق ووسائلهما، فالكلام لا تكتب خطوطه من باب الاستعانة باللغة فقط؛ بل من الضروري أن يحتكم القول إلى البلاغة وجمالياتها، فالجمال واجب ظهوره في حدود الألفاظ حتى يبلغ حسنهما الأفتدة ويكون أثر الاستمالة واضحاً بيناً، ثم أن يزن المتكلم حديثه ضمن موازين المنطق ليُجعل خلفية دلالاته قابلة للقبول والإقناع.

(1) الباتوس: من الخطابة إلى تحليل الخطاب، حاتم عبيد، ص78.

وجملة تعريفاته الأخرى فهي متناولة في ثنايا الحديث عن نظريات الحجاج حديثاً عند العرب والغرب.

أما الباحثة فتري الحجاج منظومة اتصالية كلامية أو غيرها متبعة من قبل المتكلم، تتضافر في إنتاجه تصورات بلاغية وأشكال لغوية وتصورات منطقية، تتسم برموز خاصة مشكلنة، تقبل أجزاؤها الاحتكام للقياس، أما عن هدفه فتسعى منظومة الخطاب الحجاجي لاتباع وسيلة الإقناع، لتنتهي لغاية التأثير في المُتَلَقِّي، ومقصد صاحب القول من خلال تقنيات الحجاج وآلياته تغيير تصور ورأي عند المخاطبين، وتثبيت قواعد فكرته وإرساء منهجه على الوجه الذي يريد.

المبحث الثاني: الحجاج في البلاغتين الغربية والغربية

أولاً- الحجاج في البلاغة الغربية القديمة

إن الحديث عن البلاغة والحجاج حديث يطول ويتشعب القول فيه، فعلاقتهما ببعضهما متينة ممتدة، بدأ ظهورها عند اليونان الذين جعلوا لها مكاناً رفيعاً في أبحاثهم، باعتبار البلاغة من العناصر الجمالية التي لها أثر ودور في التأثير والإقناع كما لها دور في الإمتاع، فالعقل والعاطفة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

تقوم الباحثة باتباع السلم الذي اعتلاه الحجاج بدءاً من الخطابة عند السوفسطائيين الذين مهدوا سبله ووضعوا أسسه، ثم أفلاطون وتلميذه أرسطو، فتعد نظرية الحجاج جزءاً أساسياً من النظام الخطابي⁽¹⁾، وقد أعاد العلماء إرهاباتها الأولى لأرسطو في كتابه (الريطوريقا)، فاليونان قد أدركوا امتلاك البلاغة عنصر التأثير الفاعل في الأطراف الأخرى، والإقناع لا يكفي عن طريق العقل؛ بل الاستمالة كذلك عن طريق العواطف والمشاعر⁽²⁾، ولذلك قد دب الصراع ووقع التفريق بين كل ما له علاقة بخالص البرهنة والتي كان يجب أن تطابقها آلية الاستدلال قابلة

(1) الحجاج، كريستيان بلانتان، ص 17.

(2) الحجاج بين النظرية والأسلوب، باتريك شارودو، ص 7.

لقول الحق، وبين ما كان يرتبط بتفاعل النفوس، وما يطابقها من آلية تعبيرية قابلة لأن تؤثر وتجلب اهتمام طائفة من السامعين.

وهذا التفريق سيظل على مدى التاريخ للحجاج بين ما ينتمي للبرهنة التي تستخرج من إفرازات النفسية الإنسانية من ناحية، وبين ما ينتمي للإقناع والذي يقاس بطاقة التأثير في طرف آخر من خلال حركات المؤثر.

إن ظهور الخطابة قد وُسم بالبلاغة، وارتبط بها منذ ميلادها الأول، لذلك فإن تأريخ الحجاج يرتبط بعقدة وثيقة الارتباط في البلاغة اليونانية، وبدقة من بلاغة السوفسطائيين.

أ. الحجاج عند السوفسطائيين

السوفسطائيون هم تيار فكري ظهر في الحضارة الإغريقية، وكان لهم دور بارز في تفعيل دور الخطابة، والخطب، وعقد اللقاءات، والمحاورات، وامتاز روادها بالكفاءة اللغوية، والخبرة الجدلية، وظهر ذلك من خلال تسميتهم (بالسوفسطائيين)؛ والتي كانت تعني الحكيم الخبير بكل فن وأسلوب⁽¹⁾، مما جعل لها أثراً بالغاً في نفوس الناس في تلك الفترة، فخضعوا لخطاباتهم الموجهة حتى لو كانت مغالطية، وهذا الأمر كان على حساب العاطفة لا العقل.

وتعود النشأة للخطابة السوفسطائية إلى مجموعة المحاكمات التي قامت في صقلية حول الملكية، وإلى النزاع الكبير حول حقوق مدعاة لا يمكن نيلها إلا بامتلاك ناصية القول، والقدرة الكلامية على الاحتجاج والمرافعة، حيث قام (هيرون وجيلون) حوالي سنة (485 ق.م) بطرد السكان وتهجيرهم، وقاموا بمصادرة الملكية من أجل إعمار سيراكوزة، وتقسيم الأراضي وتمليكها للمرتزقة، فحدثت انتفاضة ديمقراطية أطاحت بكل من (هيرون وجيلون)، وأقيمت على إثر ذلك محاكمات ونزاعات قضائية لا تحصى من أجل إعادة الوضع إلى سابقه، وقد كانت حقوق الملكية غير واضحة تماماً، لذلك كان للمحاكمات نمط خاص، يستلزم فيها تعيين لجان تحكيم شعبية كبرى، ويجب من أجل الإقناع أن يمتلك الشخص المائل أمامهم فصاحة عالية.

(1) يُنظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم الطلبة، ص24.

فعين أساتذة لإلقاء الدروس وتعليم الأفراد تلك الفصاحة، منهم: امباذقليس وكوراكس (وهو أول من أخذ الأجرة مقابل الدروس). وانتقل التدريس بعد ذلك إلى آتيكا وأثينا، ومن وسط القرن الخامس ق.م صارت الخطابة أثينية⁽¹⁾.

ألف كوراكس السوفسطائي أول خطابة في تاريخ الغرب أسماها بارت (الخطابة الكوراكسية)⁽²⁾، وهذا الكتاب وصل منه بعض الآثار غير المباشرة من خلال أرسطو الذي كان يستشهد بتلك الأقوال، وحدد كوراكس "الأجزاء الخمسة الكبرى للخطاب التي ستكون ولعدة قرون تصميم الخطاب الخطابي:

- الاستهلال.
- السرد أو الفعل.
- المحاجة أو الأدلة.
- الاستطراد.
- الخاتمة"⁽³⁾.

من أثينا تحديداً ظهر رجالات الفكر الجاجي الأول الذين قاموا بإدخاله في أطر النقاشات الفكرية الحادة باستخدام تلك البلاغة السوفسطائية بالغة الذكاء في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، هؤلاء الحكماء كانوا يتذرعون بفنّ القول، وجعلوا البلاغة تستوي على سوقها من خلال تقديمها في مدونة كلامية واسعة النطاق الجدلي، وذلك تمّ في نقاط أهمّها: تدشين الكلام بعناصر جمالية إقناعية إذعانية، إضافة لوصول الأمر بهم رؤيتهم الإنسان كائنًا يحتويه فن القول⁽⁴⁾.

(1) يُنظر: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، رولان بارت، ترجمة: عمر أوكان، ص15.

(2) المرجع السابق، ص15.

(3) قراءة جديدة للبلاغة القديمة، رولان بارت، ترجمة: عمر أوكان، ص15-16.

(4) يُنظر: تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون وجوتيه، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامدي، ص23.

تميزت أثينا بنظرية الكائن المقدم من خلال أفانين القول، فكان السوفسطائي يتاجر بحكمته وبالثقافة، في نفس الوقت كان ذكاء اللغة لا يغيب عن نصوصهم المشحونة بطاقات بلاغية إذعانية لعملية الخطاب.

وهذه الخطابات المنهجية للغة كانت خلفيتها تتناول الفكر وقضايا وجود الإنسان؛ حيث اعتمدوا في تلك المواضع سلم الخطابة وأتقنوه، وأعلوا الفكر في قضايا الفلسفة ودقيقها، وكان لهم مساجلات كلامية إقناعية مع كل من أرسطو وأفلاطون، وشعلة بعض هذه الأمور كان حاضنها الأساسي ذلك المنبع السوفسطائي الذي أذكى روح الخطاب في نفوس كل الفلاسفة من بعدهم، فقاموا بعقد محاورات حول القضايا التي طرحوها في الجانبين.

ويمكن بشيء من البسط تقديم مزايا البلاغة الحجاجية التي حاول السوفسطائيون إنتاجها، وهي كالآتي:

- استندت ممارستهم للحجاج إلى تصورهم للنافع فهم لا يعلقوه بالخير؛ بل باللذة، وهي بحسب أفلاطون لذة الاستهواء بالنسبة للمقول إليه، ولذة النفع بالنسبة للقائل، وفي هذا المضمار يتبنى مذهب كوراكس "وهو استغلال المحتمل وتوجيه الحجاج بحسب النفع الذي يقصد إليه المحاج"⁽¹⁾، وأصبحت هذه الممارسة منهجا متبعًا في الحجاج.
- كان لهم تأثير كبير في بناء وتطوير منظومة عقلية أساسها النقد، والنظر الملح في تراكيب الأقوال، ودحض المشبوه منها.
- إن السوفسطائيين لهم دور فاعل في إرساء دعائم الحجاج، وجعل التلاميذ يتسلحون به لمواجهة الصراعات الفكرية، فقد بنوا قواعد وأرسوها على تناقض الأفكار، وكذلك تعارض وجهات النظر من خلال تلك الأطروحات المتعلقة ببعض الموضوعات والفرضيات⁽²⁾.
- لقد حرص السوفسطائيون على جعل الحجج أنفذ للنفس، وإلى التسليم للقول من خلال عنايتهم بالحجاج وجعل الناس يلتزمون حوله، وجعله علمًا يطلب خصوصًا من طبقة

(1) الحجاج عند أرسطو، هشام الرفي، ص 60.

(2) يُنظر: تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون وجوتيه، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامدي، ص 24.

الأغنياء في أثينا حيث ذهبوا والتفوا حول السوفسطائي، وجعلوا يتدرسون عنه الخطابة والقول؛ حتى يصلوا لأشرف الرتب.

- عملوا على تنظيم البنى التربوية الأساسية في مختلف المجالات، ومنها: النحو، والبلاغة، وحتى في العلوم.
- عملهم على إتقان فنون الجدل وصنوف المحاورات التي تستند على الاستدلال وقواعده المنتظمة⁽¹⁾.

من هنا فَيُعَدُّ السَّوْفُسْطَائِيُّونَ أول من مارس فن الحِجَاج عن طريق ما يعرف بالخطابة والجدل (فالحِجَاج ليس بجدل ولا خطابة)؛ لكنه اتكأ على إحدى جوانبهما في إقناع الناس وترويض الأفكار لديهم، وبغض النظر عما أُلْحِقَ بهم من نعوتٍ ودَلَالَةٍ اسمهم والتي كانت تدل على النقاش الفارغ وغير المجدي، فقد كانوا الجذوة المتقدة لفكر المدرسة الظاهراتية⁽²⁾ في العصر الحديث.

وترى الباحثة أن البعد الإقصائي الذي اتبعه بعض الفلاسفة⁽³⁾ فيه شيء من القسوة والشدة، فإن أَمَعْنَا النظر في الحِجَاج السوفسطائي؛ فإنه قد ركّز على ما يعرف بالإقناع والذي هو غاية الحِجَاج، فهم عمدوا للعمق الخطابي الذي نحتاجه في كل قولٍ وهو الوصول للتأثير حتى لو كان النص مشحونًا بالجماليات، فإنه يصل في نفس المُتَلَقِّي إلى مرتبة الإذعان للقول لما فيه من جدل وبلاغة عالية المستوى.

وهذا النقد الذي وجه صراحة لا يمكن أن يخفي معالم الأولوية للحِجَاج السوفسطائي، فله أسبقية وأحقية في فرض الأسس الأولى للحِجَاج والبلاغة، وما بقي يتعلق في الحِجَاج من أفكار أولى هي لهم خالصة، فقد كان لهم فضل في إثارة الفكر حول كثير من معضلات الفلسفة فيما بعد.

(1) يُنظر: تاريخ نظريات الحجاج، ص25، وقراءة جديدة للبلاغة القديمة، رولان بارن، ترجمة: عمر أوكان، ص15،

ومقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، حمادي صمودي، ص45.

(2) يُنظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم الطلبة، ص25.

(3) والإثارة الشديدة والرد والجدل عند كل من أفلاطون وأرسطو.

ب. الحجاج عند أفلاطون

عارض فلاسفة اليونان الفكر السوفسطائي في الحجاج، وقد عادوا غاياتهم النفعية، فأردوا العودة لمدينة أفلاطون الفاضلة التي يبقى فيها السيد سيِّداً والعبد عبداً، وذاع صيت أفلاطون في اليونان من خلال تقديمه مسائل هامة حول القول، واتبع منهجاً دينياً مثالياً يحارب كل أشكال التزلف والمرواغة، وذلك من أجل الحصول على نزوات بطريقة غير مشروعة، وهذا بحد ذاته ينافي سلطة القول التي اتبعها السوفسطائيون. وأفرد أفلاطون لمواجهة تلك الممارسات الحجاجية محاورتين هما (قرجياس) و(فيدر)، حيث نقد فيهما الخطابة السوفسطائية، واعتمد في نقده على استراتيجيّة الكشف من خلال مجادلته، وقيامها بدراسة نصوصهم وقياسها وفق الفلسفة المثالية التي قام بصنعها⁽¹⁾.

ذكر أفلاطون في المحاورّة المعروفة بـ (قرجياس) إن: "القول الخطبي السفسطائي لا ينحصر في جنس الخطابة، وإنما هو قول زبقي يمكن له أن يتسلل ليحرر الخطابة من شرط تحديد الموضوع إلى فضاءات أجناس من القول أخرى، وله مع ذلك سمات تيسر تعريفه حسب أفلاطون فهو قول إثباتي غير جدلي لا يقوم على المساءلة، يعقده صاحبه على الظن لا على العلم ويقصد به الإقناع معتمداً في ذلك ما يوافق اللذة لذّة السماع والقاتل لا الخير فالخطابة السفسطائية كما يبدو من محاورّة قرجياس هي حجاج استهواء"⁽²⁾.

فيما سبق نرى أفلاطون تركّز نقده في اعتباره أن السوفسطائيين هم أدعياء على العلم، وما يقومون بتقديمه هو نتائج ظنيّة مبعثها الهوى واللذة، وكلها تضرّ بالقيم والأخلاق واليقين والإيمان، وهذه القضايا الأربع قد احتلت مكانة عالية في البلاغة والفلسفة الأفلاطونية⁽³⁾، التي كانت مثالية بحتة تصب اهتمامها على أن الحجاج يكون بين الفلاسفة فقط.

وتركّزت رؤيته على أن مقصد الحجاج ينطلق من الخطابة التي تعتمد على معيارين مهمين هما معيار العلم ومعيار الخير، وأن الحجاج السوفسطائي يقوم على الحجاج المخادع

(1) يُنظر: الحجاج عند أرسطو، هشام الريفي، ص 62.

(2) الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم الطلبة، ص 26.

(3) المرجع السابق، ص 26.

الذي لا أساس له من الصحة، وفرّق بين أداة الإفحام وكذلك الإقناع، أما الأولى (الإفحام)، فهي صنيع الفيلسوف الذي يشتغل بالمنطق، الباحث عن الحقيقة والوجود والمثال.

بينما (الإقناع) هو صنيع الخطيب الذي يعالج الآراء والأشياء المرئية والمحمّل، ومن يعمد إلى الإقناع يستخدم الأدلة العاطفية "إنه يؤثر على خيال المستمع وليس على عقله"⁽¹⁾.

قام أفلاطون بإعطاء الأولوية للفكر والعقل والمثال، وبحث في الخطابة ووظيفتها وفي شرعية القول وهل موضوع الخطابة علم أم ظن.

ونذكر أن الإقناع نوعان:

أ. إقناع يعتمد على العلم وإقناع يعتمد على الظن.

ب. والإقناع الثاني هو الذي بنيت عليه الخطابة السوفسطائية.

لأنه يعتمد على اللذة والأهواء وتحقيق المصالح الذاتية، يؤسسون للحجاج على الظن انطلاقاً للخطابة التي رأوها فيه (الصانعة للإقناع).

ج. الحجاج عند أرسطو

إن الممارسة الأرسطية للخطاب تعدّ الأساس الأول الذي انطلق منه البحث الحجاجي الحديث، ومرجع العلماء من بعده، ورؤيته الجديدة تعارضت مع الآلية السوفسطائية ومع مسلماتها ولم يقتصر على ذلك؛ بل اختلف مع أستاذه أفلاطون في كثير من الرؤى والآراء.

تعد نظريته للحجاج من منطلقين، أولهما بلاغي قام بربطه بالجوانب المتعلقة بالإقناع والتأثير، أما الوجهة الأخرى فنظر إليها من زاوية جدلية؛ اعتبر الحجاج فيها عملية تفكير تتم في بنية حوارية، وتتطلب من مقدمات وصولاً إلى نتائج ترتبط بها الضرورة.

عملية التفكير من الزاوية الجدلية الأرسطية:

مقدمات ← بنية حوارية ← نتائج

(1) الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم الطلبة، ص25.

وهاتان النظرتان تتكاملان عند أرسطو في تحديد مفهوم الخطابة، إذن الحجاج لديه حجاجان: حجاج جدلي، وحجاج خطابي، ومدار الحجاج الجدلي الذي عرض له في كتابه المواضع⁽¹⁾ مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة بغرض التأثير العقلي، ومنفعته تتم من خلال مجالين: مجال البحث الفكري، ومجال تغيير الاعتقاد. وأما الحجاج الخطابي فعرض له في كتابه الخطابة، وهذا الحجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة، ولا يقف على التأثير العقلي فقط؛ بل يتعداه للعاطفة ولو بالمغالطة والإيهام⁽²⁾.

هذه الرؤية الأرسطية تتبني وتتكامل وفقاً لتحديده مصطلح الخطابة، وانطلق من تأسيسه لأنواع الحضور ومن الرغبة في الإقناع لأنواع خطابية ثلاثة:

- النوع الاستشاري.
- النوع القضائي.
- النوع القيمي.

تختلف هذه الأنواع⁽³⁾ في الأساس الزمني والمقامي والمقصدي والقيمي، فكل نوع خطابي يتجه من أساسه إلى شريحة معينة من المستمعين، وهذا في ذاته يفرض على الخطيب أن يكون ذكياً لبقاً في اختيار التقنيات الحجاجية والخطابية المتبعة في خطابه، فالجمع العام والأمور التي تتطلب استشارة في قضايا تهم أمن الدولة -مثلاً- يجب أن يأتي فيها الحجاج منطلقاً من منهج استقرائي، يعمل على إعلاء نبرة الخطاب المعنوي في نفوس المستمعين، وتعمل على التأثير بهم كي تحثهم على اتخاذ قرارات حاسمة.

والنوع القضائي الذي يخص فضاء المحكمة يحتاج لأمر الشدة والصرامة فيلجأ إلى القياس.

(1) هو أحد أجزاء الأورغانون؛ ويضم مجموعة كتبه في المنطق.

(2) الحجاج في القرآن، صولة، ص 17-18.

(3) وهي ما أطلق عليها الدكتور محمد العمري بـ(المشاورة والمشاركة والمفاضلة)؛ حيث تكتسب سمتها من خلال النص الخطابي والمقام، يُنظر: البلاغة بين التخييل والتداول، محمد العمري، ص 12.

والأخير يكون فيه المسمتع قد انخرط في الخطاب فيحتاج منه إلى توظيف الخطاب القيمي مستخدمًا أساليب السرد والتعظيم⁽¹⁾.

إن اختلاف المقام والمخاطبين يفرض تقديم تقنية حجاجية وتأخير ما سواها، وهذا في بلاغتنا نعبر عنه أن لكل مقام مقال، ويستدعي استخدام آليات خاصة بالفئة السامعة المستهدفة، وذلك من خلال اختيار الأنسب في التعامل والتأثير بهم من خلال الحجاج، وبدون أدنى شك فأصحاب البلاغة العربية قد أشاروا كثيرًا لمقتضيات الحال ومراعاة أحوال السامعين، منهم بشر بن المعتمر في صحيفته، والجاحظ، والجرجاني، وسيأتي الحديث عنهم.

وقد ميّز أرسطو بين ثلاثة مستويات من الحجج التي تتعلق في فضاء الخطاب وشخصية من يقوم بالخطاب والمُتَلَقِّي، وهي⁽²⁾:

الإيتوس: ومن خلاله يصف الخصائص التي تتعلق بشخصية الخطيب، والصورة التي يقدمها عن نفسه.

الباتوس: ويشكل مجموعة من الانفعالات التي يرغب الخطيب في إثارتها لدى جمهور المستمعين.

اللوغوس: ويمثل الحجاج المنطقي الذي يمثل الجانب العقلاني في السلوك الخطابي، ويرتبط بالقدرة الخطابية على الاستدلال والبناء الحجاجي.

والملاحظ أن هذه المستويات تستهدف الأقطاب الثلاثية للفعل الخطابي (الخطيب، الخطاب، المخاطب)، فالإيتوس يمثل صورة الباث، والباتوس يركّز على شخصية المُتَلَقِّي للفعل الخطابي، وأما النص والخطاب فهو ما يطلق عليه اللوغوس والحجج المنطقية المراد إيصالها عن طريق الاستدلالات المنطقية.

أضف إلى الملاحظة أن كل من الإيتوس والباتوس تتعلق بالجانب الشكلي وتهيئة الخطيب غير اللغوية، ومقدرته على التأثير والإقناع، والاستعداد من قبل الجمهور لتلقي

(1) النظرية الحجاجية، محمد طروس، ص15-16.

(2) المرجع السابق، ص17، ويُنظر: الخطابة، أرسطو طاليس، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، ص10.

المسموع وللتجاوب وإظهار الانفعالات، أي لا تخصّ الفعل الخطابي اللغوي بذاته، مما دفع أرسطو للتركيز على اللوغوس (حجاجية اللغة) وصنّف فيه الحجج الخطابية لنوعين⁽¹⁾:

أدلة غير تقنية: توجد في الوقائع والنصوص باستقلال عن الخطيب، وتشمل النصوص القانونية، وشهادات قديمة، وسلطة معنوية للشخصيات العظمى، والاستشهاد بواقع أو احتمالات الوقائع، والعقود والاتفاقيات المتعددة بين الخواص، والاعترافات والوصايا⁽²⁾.

أدلة تقنية: يمنحها الخطاب، وقدرات الخطيب وإبداعه، وتتحقق في (المثل) بالمعنى العام للحجة الاستقرائية، و(القياس الإضماري) الاستنباطي المؤسس على مقدمات محتملة، والمؤدي على نتائج شبيهة⁽³⁾.

وهو في الأخيرة يركز على الأقيسة والأمثلة الاستقرائية التي تخضع لمقدمات فكرية، ويقوم ببنائها بطريقة حوارية ناجعة مثمرة النتائج، قادرة على الاندماج في كافة أنواع الخطاب الاستشارية والقضائية والقيمية، فتأتي في نهايتها بنتائج شبيهة ربما توقعها الخطيب من بداية إعدادها للمقدمات.

فصل أرسطو في قضية القائل والمقول إليه وفعل بناء القول الحجاجي، فقد فرق بين المناقشة الجدلية والخطبة، فوجد بينهما اختلافًا في خصوص إسهام القول إليه في فعل بناء القول الحجاجي، وعمد أرسطو إلى تقديم الاختلاف بين الحجاج الجدلي والحجاج الخطابي؛ إذ إنّ الأول أوسع من الثاني⁽⁴⁾.

فهو يمارس في فحص قضايا الفكر ومناقشة الآراء بهدف التأثير العقلي المجرد، وفحص جوانب الأحكام المتعلقة بالسلوك، كما يمارس في توجيه الفعل وإن كانت ممارسته أدخل في البحث الفكري؛ أما الحجاج الخطابي، فمجاله هو توجيه الفعل وتثبيت الاعتقاد أو

(1) عبّر عنها أرسطو بالتصديقات وقال بأن منها صناعة ومنها بغير صناعة وهي مبسطة لدى الدكتور محمد طروس كما ذكر في الأمثلة أعلاه؛ عن تمثيل أرسطو. يُنظر: الخطابة، أرسطو طاليس، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، ص9.

(2) قام الدكتور محمد العمري بالاستعانة بمخطوطات لأنواع هذه البراهين والحجج وفصل في الحديث عنهما.

يُنظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ص27.

(3) يُنظر: النظرية الحجاجية، محمد طروس، ص19.

(4) يُنظر: الحجاج في القرآن، عبدالله صولة، ص17-18.

صنعه، فخطاب العاطفة والتأثير فيها هو موضوعه ولا يتعداه لخطاب العقل وتثبيت دعائم المنطق والجدل ضمن مفاهيمه.

ومن هذا المنطلق عدد مراحل إنتاج القول الحجاجي، وهي تبتدئ من البحث عن مواد الحجاج وأطلق عليه مصطلح (البصر بالحجة)، ثم ترتيب أجزاء القول مع توخي الأسلوب الملائم للعبارة وصولاً إلى الوجه الذي تقع عليه التصديقات.

ومما سبق يتبين أن أرسطو قام بتأسيس فهمه لنظرية الحجاج على منطلقات استدلالية منطقية لا تخلو من الاعتبار النفسي والاجتماعي، وهذا جعل من نظريته محط إدراك عند العلماء في تقديسها، وجعلها الأساس الذي انطلق منه كثير من قضايا النقد الأدبي في العصر الحديث.

حيث كان هدفه في دائرة الخطابة وتوظيف الحجاج تخلص تلك الأقوال مما قد يشوبها من ركاكة وتملق وتزييف، فالقول له مكانة وسلطة، واللغة بلا شك لها الدور الأسمى في بناء هيكلية المجتمع وشخصية أفراده، وبهذا استحق أن يكون ممثل الحجاج في البلاغة اليونانية القديمة وواضع الأسس التي تشربها العلماء حديثاً، مع عدم إنكار فضل السوفسطائيين الذين حصروها ضمن حدود القضاء، وأفلاطون الأستاذ الذي غذى فكر الحجاج بالفلسفة، فلهما الفضل في وضع الشرارة الأولى لموضوع الحجاج.

وأخيراً فكرة استنهاض المشروع الحجاجي قد وضعت لها علامة الخلود وفقاً لأفكار أرسطو ومقاييسه الخطابية واستمراريتها، والتي حاول جمعها والحديث ضمن أبوابها.

ثانياً - الحجاج في البلاغة العربية القديمة

اهتم علماء العرب بصياغة الكلام ووجوه تحسينه ومنابع تأصيله، والعمل على تشكيل الخطابات وتلوينها وفق ما تقتضيه الحياة ومناخها العربي آنذاك.

وللناظر في صروف الحياة العربية الأدبية على كافة نواحيها يجد الكثير من المراحل فيها قد بُنيت على أساليب الجدل والحجاج والبراهين، وهذا مما يحتاجه الأديب والمتكلم والمفكر وما لزم أقواله من احتياجات لفرض أصوله خلالها، وذلك من إدلاء بعض الآراء والبحث عن المؤيدين ومحاججة المعارضين، كل ذلك كان ينم عن رقي في فكر العرب القدامى، وسبقهم لتدوين إرهاسات مبكرة لبعض المصطلحات البلاغية المنطقية الحجاجية، وإن كانت تختلف بعضها في المسميات؛ لكن المضمون واحد، والهدف والوسيلة كذلك تتفق، ونرى العلماء اليوم قد انشقوا في تأييد إمكان وجود خطاب حجاجي عربي قديم، فقد وقف بعضهم موقف المعارض⁽¹⁾، وآخرين أيدوا ذلك ودعموه⁽²⁾ وفقاً للأسس والقوانين التي أوجدت نفسها ناطقة في تراث العرب.

والبلاغة بعلمومها قد انشق العلماء على فريقين في تصنيف فحواها؛ منهم: الذين ذهبوا للبحث في صنوف تحسين الكلام والصور والتصوير، وفريق اجتهد للبحث في عملية الخطاب البلاغي بشكل عام.

(1) كالدكتور حمادي صمود وكان يرى أن البلاغة العربية اهتمت بجانب العبارة وأهملت جانب الحجاج الاستدلالي، والدكتور علي سليمان. يُنظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص11. والباحظ في ضوء نظريات الحجاج، ص15.

(2) منهم الدكتور طه عبدالرحمن وهو الطود الشامخ في البلاغة الحديثة وأثر الجاحظ وبيانه قد تجلّى في قلم صاحب اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، والدكتور محمد العمري والآراء المتعددة لديه في البلاغة وأصولها وامتداداتها، والدكتور عبدالله صولة في نظرية الحجاج، وغيرهم كثير.

أ. الحجاج عند الجاحظ

قد أولى الجاحظ⁽¹⁾ اللفظ عناية من خلال البحث عن مقاصده في داخل الكلام، واهتم بالمتكلم باعتباره منتجاً ضمن العملية الكلامية، ولا يكاد يبتعد عن أرسطو في تكوينه لمصطلح الإيتوس الذي أوجده، وعلى هذا المتكلم أن يراعي المقام ويتبين أحوال المخاطبين وهذا عرف في البلاغة الأرسطية بالباتوس، فصاحب الخطابة إنما هو من يقيم الحجة من خلال معرفته بصنوف الكلام وبصره بنفوس الناس حوله.

اهتم الجاحظ ببلاغة الخطاب والدافع على ذلك المذهب الذي تسلح باللغة والبلاغة واعتبارهما خط دفاع لكل مناظر ومجادل، بحكمه قد ترأس أحد فرق الاعتزال في زمانه، فكان كتاب البيان والتبيين على امتداده قد برز الحجاج فيه واضحاً متمثلاً بتقنيات رفيعة المستوى؛ وكيف له بتقمص المجادل في النص ذاته، مبرزاً قواه الجدالية والحجاجية تارة مطمئناً إلى مبادئه الفكرية التي من خلالها نما صرح الخطاب واستعلى.

وفي موطن حديثه عن البيان، قرنه ببعد حجاجي، لما له من ارتباط بالخطاب والقول، وعلى ظاهرهما تبدو وظيفة الحجاج وتتجلى؛ وهي:

- الإفهام.

- الإقناع.

وظيفة الإفهام

ذكر في فصل البيان بأنه: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع؛ إنما هي

(1) الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان الجاحظ، من أهل البصرة، وأحد شيوخ المعتزلة، له كتاب البيان والتبيين، والحيوان، وكتاب العرجان والبرصان والقرعان، توفي المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين وقد جاوز التسعين. يُنظر: السيوطي، بغية الواعاة، ج2/2278.

الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى؛ فذلك هو البيان في ذلك الموضوع⁽¹⁾.

الغرض من قول الجاحظ هذا أن القول يحمل بعداً إفهامياً من خلال تصور الآخر؛ فغاية كل كلام أن يصل المُتلقّي، وهذا من شأنه أن يعبر عن وظيفة اللّغة التواصلية؛ فليس الكلام يقف حاجزاً بين طرفين؛ بل يصل إلى عقل قادر على ترجمته وتأويله ثم فهمه، ومن ثم فلا يتم كلام دون وظيفة⁽²⁾، والوظيفة هي البؤرة الأساس في أي تبليغ لغويّ.

فغاية البيان إذن تتحقق في التواصلية الكلامية، وما يترتب عليها من إفهام وفهم، وتمثّل ذلك في المقاربة الكلامية التي اهتمّ بها، وتتفرع أقطاب هذه العملية التخاطبية بين المتكلم والسامع ثم النصّ المقتضى الحديث فيه بينهما، ولم يغفل عن ذكر الأدوات التي تكتمل بها دعائم تلك الدائرة، فذكرها في حديثه عن أنواع الدلالات حيث قال: "أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى النّصبة، والنّصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف"⁽³⁾.

أول الأدوات هي اللفظ الذي يعد الأساس في بناء الخطاب؛ ثم الإشارة ولها كذلك أوضاع مختلفة من إشارة باليد وملامح الوجه من عين وحاجب؛ ثم يليها الخط والكتابة وفي المرتبة الأدنى منها الحساب والذي عبّر عنه بالعقد، ثم النّصبة والتي هي حال تنطق دون لفظ من مخلوقات الكون.

وحديثه عن أدوات البيان هذا يشير إلى سعة هذا المصطلح ليشمل كل وسائل التعبير الممكنة بين البشر، سواء ما كان ملفوظاً أو غيره، لكنه يبقى في أرقى رتبة ما كان يعبر عنه ملفوظاً ضمن علامة لُغويّة تمتلك الخصوصية التعبيرية، لذلك نجده وضع اللفظ في المرتبة الأولى ثم تدرج إلى أن وصل أخيراً إلى النّصبة. فوظيفة الإفهام تقضي بالنهاية إلى الإقناع،

(1) البيان والتبيين، الجاحظ، ج76/1.

(2) يُنظر بلاغة الإقناع في المناظرة، عبداللطيف عادل، ص63.

(3) البيان والتبيين، ج76/1.

والذي هو غاية كل حجاج وبلاغة؛ وسنتحدث بشيء من البسط عن هذه الوظيفة الإقناعية، وكيف استطاع الجاحظ أن يظهرها في نصوص بيانه.

وظيفة الإقناع

وفي جمعه بين صنوف العملية الكلامية يقول في هذا الموقف الذي ذكره عن نبي الله موسى: "رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم والنفوس إليه أسرع وإن كان يأتي من وراء الحاجة ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة.." (1).

وفي هذا النص يبرر لبعض صفات الخطيب التي من شأنها أن تؤدي إلى غاية الإقناع، وقصد بالإقناع توصيل الفكرة لعقول السامعين وبذلك تميل نفوسهم وعقولهم لحجته؛ فالهدف في بلاغة الخطاب هو التأثير في السامع، وكذا الحال في الخطاب الحجاجي الذي يهدف في جوهره إلى استمالة المتلقي وإذعانه للأطروحة والتسليم لها.

يذكر الجاحظ خلال حديثه عن البلاغة عند الهنود: "أول البلاغة اجتناع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش؛ ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه التصرف في كل طبقة" (2).

فالنص يوحي بغاية الخطاب ذاك وهي غاية إقناعية شفوية، والوسيلة للوصول لهذا المبتغى هي اللغة في قوامها وعودها الكلامي وعمادها الإقناعي، وهو بدوره الأخير قالب اللغة من خلاله تتحدد طبيعة الأقوال والنتائج بحسب الظروف والمقامات.

وفي هذا الصدد يتحدث الدكتور محمد العمري في كتاب نظرية الأدب أن الجاحظ في استراتيجيته كتابه قد حاول أن ينظر لأساس بلاغة الإقناع، والتي مركزها الخطاب اللغوي

(1) البيان والتبيين، ج7/1.

(2) المصدر السابق، ج92/1.

الشفوي، وهامشها كل الوسائل الإشارية الرمزية، وأساس الإقناع الخطابي مراعاة أحوال المخاطبين⁽¹⁾.

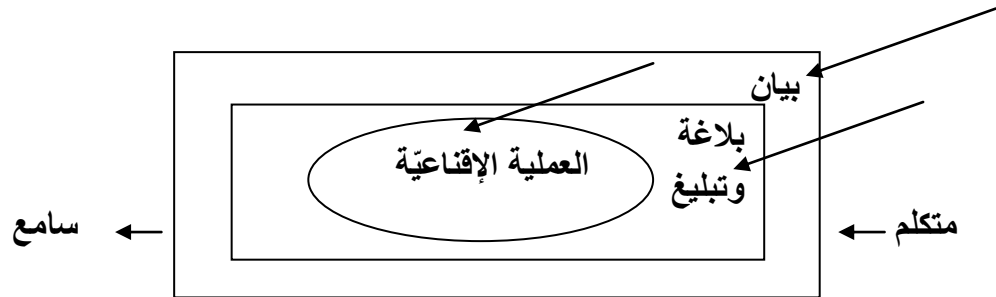
هذا وحاول الجاحظ التنبيه على سلطة الكلام، واستحوذه على المستمع، وإمكانية جعله منخرطاً ضمن عملية الإقناع والتأثير، ومن مواطن ربطه البلاغة بالعملية الإقناعية ما ساقه من تعريفات البلاغة التي جمعها من الأمم الأخرى، فعند أحد الهنود لما سُئل عن البلاغة قال: "جماعُ البلاغة البصر بالحُجّة والمعرفة بمواضع الفرصة"⁽²⁾.

يعني أن البلاغة وما تحويه من قول بليغ تصل في نفوس السامعين وتؤثر فيهم وتقنعهم بالرأي؛ فيذعنون بواسطة التقنيات التي تبتّ في النصّ قدرًا هائلًا من المؤثرات.

وذكر العمري في تتبعه لنصوص الجاحظ وتحليلها بعض الأغراض الإقناعية التي يمكن للقول تحقيقها من وجهة نظر الجاحظ: "استمالة القلوب وثني الأعناق والتصديق وفهم العقول، وإسراع النفوس، الاستمالة، الإضرار، التحريك، حل الحبوة"⁽³⁾.

وربما تعرض الباحثة تلك الفكرة ريثما نصل للعمري ومشروعه البلاغي الجديد ووظيفته الجاجية التي أولاها جانبًا كبيرًا من اهتماماته.

إذن الواضح أن الإفهام والفهم ليس بمعناه التعليمي البسيط، بل هو حقيقة مقدمة للوصول إلى عملية إقناعية أسمى واقعة التأثير في نفس السامع.



(1) يُنظر: نظرية الأدب في القرن العشرين، إرود إيش وآخرون، ترجمة: محمد العمري، ص125.

(2) البيان والتبيين، ج1/88.

(3) يُنظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، ص198.

أما مذهب الدكتور علي سليمان في قوله: "إن المفسرين والنقاد والبلاغيين العرب التفتوا إلى الحجاج وبحثوه على استحياء في أبواب عدّة، وتحت مسميات مختلفة كالحجاج، والاستدلال، والاستدراج، والجدل، والقياس، وغيره، لكن هذا البحث كان في ظل نظرية الفهم والإفهام التي أُلِع بها الدارسون آنذاك، غافلين أو متغافلين عن إستراتيجيات الفهم والإفهام وتقنياته، لهذا انصبت جهود البيانين وغيرهم على وجوه البيان بوصفها سرّاً من أسرار جمال الخطاب لا بوصفها وسائل تأثير في المُتلقّي وإقناعه، وأضحت البلاغة مسرداً بالوجوه والصور التجزيئية وأنواع البديع القائمة في النصّ بالأساس"⁽¹⁾.

فهو مذهب مغالطي الفكرة متناقض البنیان، وترى الباحثة أن هذا القول فيه تعميم من جهة؛ وتعمية على البلاغة بحدودها من جانب آخر، ونحن لما ننظر للذي تحويه البلاغة على سعة أفقها، وبين دفاف كتبها، سواء الجاحظية أو البلاغة من بعده، نجد أنهم كانوا قد تناولوا البلاغة التأثيرية والتي تخرج للإقناع في عمليّاتها الإنتاجية، وبحسبك لو كانت كما يقول الدكتور أنها من أسرار جمال الخطاب، فسر الجمال دائماً في النصّ أو ما تؤول إليه كل الجماليات إنما يكون متوقفاً على الإقناع والتأثير أولاً، ثمّ نحكم بِشكْلِ مُنطِقِيّ عليه بالجمال؛ لأنّ الأمر يكون قد وصل فينا مبلغه وأثره الفاعل في النفس فتحكم عليه بالجمال والقبح.

وفصل القول الحديث عن الخطاب الحجاجي في كتاب الله أولاً، والذي هو أساس الحجج وفوق كل البراهين وغاية البلاغة وقدحها المعلّى، إنما كان في لفظ الكتاب وآيه وجمله، وما حديث أهل التفسير والبلاغيين إلا الردّ الظاهر وفوق كل شبهة، فلما بحثوا عن وجوه الإعجاز فيها كانوا قد أمسكوا الخيط من طرفه، ونظروا في حيثيات الحجاج وأدواته ووسائله، ثم بعد ذلك ظهر المذهب الكلامي ما آل إليه من ترتيب القول والإفحام والبحث في آلياته.

وقول الجاحظ يكفيه دلالة على ضمور الفكرة وعدم استوائها على وجه المنطق المطلوب للتحدث به، والوقوف مراراً عليه أمام موازين القول البلاغي العربي، ومن ذلك قوله: "رغبة منه

(1) كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، ص15.

في غاية الإفصاح بالحُجّة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل والعقول عنه أفهم والنفوس إليه أسرع...⁽¹⁾.

فعملية البيان والإفصاح إذن تتطلب تبليغاً ومقصداً كلامياً ثم تتمّ عملية الإقناع والتي هي جوهر العملية الخطابية ومركزها ووظيفتها الأساس، كما تتقاطع هذه الوظيفة مع وظيفة الحجاج والذي يُوظّف ضمن البلاغة الجديدة عند العلماء اليوم.

(1) البيان والتبيين، الجاحظ، ج7/1.

ب. الحجاج عند عبدالقاهر الجرجاني

يعد الجرجاني⁽¹⁾ إمام علوم العربية في عصره، ذاع صيت الإمام من خلال كتابين عظيمين هما: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، والذي قدّم من خلالهما نظريّة تعد من أعظم ما توصلت له العربية وهي نظريّة النظم⁽²⁾، أما عن الحجاج في مؤلفاته فقد ظهرت بذور الوظيفة الإقناعية، ويعد أول من استخدم آليات حجاجية⁽³⁾ لوصف بعض مصطلحات البلاغة، وأهمها: الاستعارة، وإدخاله لمفهوم الادعاء صراحة في حديثه، وكذلك لا نعدم الرؤية الحجاجية التي تبناها من أجل الدفاع عن نظريته، وأضاف إليه حجاجه عن مجموعة مسائل في الدلائل، مع توظيفه لبعض الوسائل الحجاجية.

أما عن الوظيفة فقد تعدد ذكرها في ألفاظه ومقاصده، ففي حديثه عن الاستعارة والتي تعد مؤثراً حجاجياً بيانياً مستدلاً على تركيبها الاستدلالية في النص قائلاً: "فهي ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتي فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"⁽⁴⁾.

ومعنى القول بأن القلوب تعي المعاني من خلال تأثرها بها وإدراك العقول لذلك بعد فهم المقاصد والمراد، ويقاس ذلك من خلال الأفهام والأذهان حيث تقع في النفس موقع التأثير، متجاوزة في ذلك الأسماع والآذان، ولا تقف عندهما، بل تؤدي وظيفة إبلاغية تأثيرية إقناعية.

(1) الإمام المشهور أبوبكر، أخذ النحو عن ابن أخت الفارسي، ولم يأخذ عن غيره لأنه لم يخرج عن بلده، وكان من كبار أئمة العربية والبيان، شاعراً شاعرياً، صنّف المغني في شرح الإيضاح، المقتصد في شرحه، إعجاز القرآن الكبير والصغير، الجمل، العوامل المائة، العمدة في التصريف، وغير ذلك. بغية الوعاة، السيوطي، ج2/106.

(2) اكتمل صرح هذه النظرية عند الإمام الجرجاني، وقد أفاد من جهود العلماء قبله في الحديث عن التراكيب وحسن نظمها، فالنظرية لم تغب عن فكر من سبقه إلا أنه استقل بها في كتابيه وتحدث بإفاضة واتساع عنها، وذلك من خلال دعوته إلى التنحي عن تركيز العلماء الأول على الناحية الإعرابية فقط بل العكوف كذلك على المفردات وعكس معانيها من خلال دلالتها ضمن التراكيب وما تجليه ظلالها من عمق الدلالات وامتداد تداولية الألفاظ بالعودة إلى الأساس الأول وهو حسن النظم والترتيب القولي، وما تَوَاصَفَ البلغاء وتفاضل مراتبهم إلا به (النظم).

يُنظر: دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، ص51.

(3) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، ص313.

(4) أسرار البلاغة، الجرجاني، ص20.

وقد وضع هذا المعنى من خلال قوله: "هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفاً، إلّا إلى استعارة وقعت موقعها، وأصاب غرضها، أو حُسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرّ في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن..."(1).

وأصاب غرضها في نفس السامع وتكامل مع ذلك الفهم والإبانة والوضوح حيث وصلت بمقصدها للقلب محدثة عملية الإذعان.

ومن عجيب ما ذكر تنبيهه لعمق البيان الاستعاري في تقديمه لعملية بيّنة وصنعه في قوله: "ليست المزية التي تراها لقولك (رأيت أسداً) على قولك: (رأيت رجلاً لا يتميز من الأسد في شجاعته وجراته)، أنّك قد أفدت بالأول زيادةً في مساواته الأسد، بل أنّك أفدت تأكيداً وتشديداً وقوة في إثباتك له هذه المساواة، وفي تقريرك لها. فليس تأثير الاستعارة إذاً في ذات المعنى وحقيقته، بل في إيجابه والحكم به"(2).

فهذا القول يوضح للقارئ وظيفة الاستعارة وججاجها، وحقيقة استخدامها للتأثير دون موارد، حيث ذكر الإمام الجرجاني المعنى صراحة في نصه، فالتأثير إنّما ليس في حقيقة التماثل، فأحمد لا يشبه الأسد في تكوينه، بل في إثبات المعنى الضمني وهو الشجاعة، فالإيجاب من خلال الاستعارة وما وصلت إليه في نفس المُتلقّي والحكم الذي جاءت به، إذن العملية ليست أحادية الجانب؛ بل ثنائية تواصلية إخبارية في ذات المعنى وذات نفس المُتلقّي، حيث تصل به لدرجة التأثير في المعنى الجديد الذي اكتسبه اللفظ من خلال التشبيه القائمة عليه الاستعارة.

وفي حديثه عن الوظيفة أبان عن منهجه في أسرار البلاغة، وتحدث عن مثلث بياني مهم (تشبيه - تمثيل - استعارة)، والاستعارة مبنية على المجاز، وهذه أقطاب تدور حول إمكانية

(1) أسرار البلاغة، الجرجاني، ص22.

(2) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص71.

الحِجَاج المتمثل في النصوص التي تحوي هذه المصطلحات وما تعمله في نفس القارئ من إقناع تأثير.

يقول الجرجاني: "لَا بُدَّ لِكُلِّ كَلَامٍ تَسْتَحْسِنُهُ وَلَفْظٍ تَسْتَجِيدُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِاسْتِحْسَانِكَ ذَلِكَ جِهَةً مَعْلُومَةً، وَعِلَّةً مَعْقُولَةً، وَأَنْ يَكُونَ لَنَا عَلَى الْعِبَارَةِ ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَعَلَى صِحَّةِ مَا ادْعَيْنَاهُ سَبِيلٌ..."⁽¹⁾.

والذي نلاحظه من السابق أن النصوص كانت تحض على أمر طرق بابه؛ وهو الجانب الاستدلالي الذي امتازت به أشكال البيان، والتي تحمل في ثناياها بعداً حجاجياً، ولم يغفل في ذات الوقت عن التعليل العقلي الذي يحدثه الحجاج وإدخاله ضمن العملية الإقناعية.

ولا يجب أن نترك الجانب الحجاجي البارز ضمن أقوال الجرجاني، ودفاعه عن نظم القرآن وإعجازه، وكذلك قضايا البيان، وكيف أقام كتابه الدلائل على ذات المضمون الحجاجي الذي ردّ فيه على المعتزلي القاضي عبد الجبار، وأوضح ببيان ونصوص بالغة العمق والإقناع عن قضية المعاني والألفاظ وغيرها، فهو قد اتبع إلى جانب الوظيفة البيانية في نظامه ونظمه تَبَنَّى وجهة حجاجية صادقة الرؤيا والبيان.

الوقفة أمام نصوص الجرجاني تطول ضمن العلمية الخطابية البيانية والوقفات أمام كتابيه عظيمة الأثر البالغ في قارئها.

ومن العلماء القدامى كذلك السكاكي والعسكري، وابن وهب وجميعهم قد ذكروا مجموعة النصوص التي تدل على أن الحجاج العربي قديماً قد طال باعه، وعمق أثره في نفوسهم وهم يحللون لكن ليس بذات المسمى؛ بل الوظيفة البيانية واحدة يصبّ جدولها في نهر الحجاج ذاته.

(1) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص52.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: الحِجَاجُ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ

أولاً- نظريّة الحِجَاج عند علماء الغرب

أ.شايم بيرلمان وتيتكا

إن الحِجَاج الأرسطي نقطة انطلاق الأساس في البلاغة الجديدة، والذي قام ببث الروح فيها من جديد وقياس نتائج اللسانيات المعاصرة وتوظيفها من خلال الرؤية النقدية الحديثة الفيلسوف البلجيكي (شايم بيرلمان)⁽¹⁾، الذي نشرَ⁽²⁾ في عام (1958م)، ثم في عام (1970م) بمشاركة (تيتكا)⁽³⁾ كتاب: مُصَنَّف في الحِجَاج، ويرتبط هذا المصنف محتواه بالتقليد البلاغي الأرسطي وإعادة تجديده⁽⁴⁾، وتخليصه من متاهات القول والتبسيط، قدمها مشروحة محاولاً جعل النظرية البلاغية أداة لتفسير الظواهر الفكرية الفلسفية والقانونية خصوصاً.

وقفَ (بيرلمان) عند تحديد المصطلح، ويرى أنَّ (الحِجَاج): "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"⁽⁵⁾.

النظرة تكاد تتفق مع الأستاذ الأول أرسطو في إنزال الحِجَاج (واعتباره نظرية خطابية تدرس التقنيات الخطابية)، وتفاعله بين الخطيب والجمهور، وأهم الغايات من موضوع الحِجَاج البيرلماني، هو استبعاده من دائرة الجدل والخطابة والذي ظل لفترات طويلة في القديم يقابل المنطق نفسه، لكنهما ابتعدا كل البعد عن جعل الحِجَاج جدلاً أو خطابة فهو في درجة وسطى بينهما، وقد يتأرجح على أسس بعضهما، لكنه حِجَاج يحتفظ بكيئونه وقواعده وأصوله.

(1) شايم بيرلمان: أكاديمي بلجيكي (1912-1984)، أستاذ بجامعة بروكسل، مؤسس ما يعرف بـ البلاغة الجديدة، من مؤلفاته: البلاغة والفلسفة (1952)، وحقل الحجاج (1969)، والإمبراطورية البلاغية (1977). يُنظر: في جدلية الفلسفي والبلاغي والكوني: مقدمات أولية في الفلسفة والبلاغة (مؤمنون بلا حدود)، شايم بيرلمان.

(2) لأول مرة كان عام 1958م، وبعدها أعيد نشره عدة طبعات: أعوام 1970 و 1976 و 1992م.

(3) لوسي أولبراخت-تيتكا (1899-1987)، أكاديمية بلجيكية وعملت لفترة طويلة مع الفيلسوف شايم بيرلمان، تطوعت في عام 1948م لدعم عمله وطورت العديد من جوانب البلاغة الجديدة (الحجاج) بشكل مستقل في السنوات اللاحقة.

(4) تاريخ نظريات الحجاج، فيليب برتون وجينييه، ترجمة: محمد صالح ناجي الغامدي، ص 41.

(5) نظرية في الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، ص 13. نقلاً عن كتاب: (مصنف في الحجاج لشايم بيرلمان)؛ وهذا الكتاب لم يترجم لهذه اللحظة.

ويرى محمد طروس أن نظرية الحجاج تهدف إلى: "دراسة التقنيات الخطابية الهادفة إلى إثارة الإذهان وإدماجها في الأطروحة المقدمة"⁽¹⁾، فغاية كل حجاج أن يجعل العقول تخضع لما يُطرح عليها من قضايا أو أن يزيد من درجة الإذعان، فالحجاج الجيد وأنجعه الذي وُفق في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب، أو ما وُفق على الأقل في جعل السامعين مهيين لذلك العمل في اللحظة المناسبة.

ويذكر الدكتور عبد الله صولة أن لفظ الحجاج يطلق على العلم والموضوع؛ أي النظرية والمحاكاة أيضاً⁽²⁾.

ما يميّز الحجاج عند بيرلمان خمسة ملامح⁽³⁾:

- أن يتوجه إلى مستمع.
- أن يعبر عنه بلغة طبيعية.
- أن تكون مسلماته لا تعدو كونها احتمالية.
- ألا يفنقر تقدمه (تناميّه) إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.
- أن تكون نتائجه غير ملزمة (احتمالية غير حتمية).

أما مقدمات الحجاج فهي منطلقات تُبنى عليها العملية الحجاجية، وتشمل الوقائع والحقائق والافتراضات والهرميات والقيم والمواضع⁽⁴⁾:

الوقائع

تقوم الوقائع على "ما هو مشترك بين عدة أشخاص أو بين جميع الناس"⁽⁵⁾، فهي إذن مقدمات حجاجية غير قابلة للرفض ولا للشك.

(1) النظرية الحجاجية، محمد طروس، ص44.

(2) يُنظر: نظرية في الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، ص13.

(3) الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين، ص108.

(4) ذكرها الدكتور عبدالله صولة في كتابه نقلاً عن شايم بيرلمان.

(5) مصنف في الحجاج، شايم بيرلمان، ص89. نقلاً عن الدكتور عبدالله صولة.

الحقائق

أما الحقائق فينطبق عليها ما ينطبق على الوقائع في كونها تحظى بالموافقة العامة؛ (كالنظريات العلمية والحقائق الدينية ونفاهيم فلسفية مثلاً).

وقد يعتمد الخطيب للربط بين الوقائع والحقائق⁽¹⁾، من حيث هي موضوعات متفق عليها ليحدث موافقة الجمهور⁽²⁾.

الافتراضات

ولا يكون التسليم بها قوياً ما لم تدعمها عناصر أخرى، كما شأن الوقائع والحقائق، فتحتاج لموافقة لجمهور⁽³⁾، لكن الإذعان والتسليم لها لا يكونان قويين.

القيم

وتكون محل اتفاق بين الجميع، مما يسمح بإشراك الحالات الخاصة في الفعل. ولها دورٌ بارزٌ في الحجاج، فهي تسمح بإقناع فئات عريضة من الناس، وإن كانت تخلو من الاستدلالات ذات البعد العلمي.

وقد قسم (بيرلمان) القيم إلى قسمين:

- قيم مجردة كالعدل والحق.
- وقيم محسوسة وهي التي ترتبط بأشخاص محددين كالوفاء، والنزاهة، والاستقامة، والأمانة، والإخلاص، والصدق، والتضامن،... وغيرها.

الهرميات

ترتبط الهرميات بتفاوت مراتب القيم. وهي تحقق وظيفتها الإقناعية استناداً إلى ملاءمتها للسياق، فليست العبرة بما يؤمن به الشخص من قيم، بل بطريقة ترتيبها. ولهذا فإن تمايز الناس ليس في القيم التي يسلمون بها، ولكن في طريقة ترتيبهم وتصنيفهم لها.

(1) قام بيرلمان بدمج الحقائق والوقائع ضمن مقدمات الحجاج، لكن الدكتور صولة قام بالفصل بينهما، موضحاً أنه قد يقوم الخطيب بالدمج بين الوقائع والحقائق.

(2) يُنظر: في نظرية الحجاج، عبدالله صولة، ص24.

(3) المرجع السابق، ص25.

والهرميّة نوعان⁽¹⁾:

أ. مجردة: مثل اعتبار العدل أفضل من النافع.

ب. مادية محسوسة: كاعتبار الإنسان أعلى درجة من الحيوان.

المواضع أو المعاني

وهي مما يصطلح عليه "بمخازن الحجج" أو "مستودعات الحجج"⁽²⁾. وقد قسم أرسطو أنواع المواضع إلى ما يختص بالخطابة المشورية، والمشاجرية، والتثبينية.

بينما جعلها (بيرلمان) ترتبط بكل أنواع الخطاب؛ وتحوز قدرتها على التكيف مع كل الظروف، وانطلاقاً من هذه الأهمية، قسّم المواضع إلى خمسة أنواع، وهي طرائق يستخدمها الخطيب طلباً للتصديق⁽³⁾، ومنها:

مواضع الكم: وهي المواضع المشتركة التي تقرّ بأن شيئاً ما أفضل من شيء آخر لأسباب كمية⁽⁴⁾، كقولنا مثلاً بأن (الكل أفضل من الجزء)، وبأن (الضرر المستمر أكبر من الضرر العابر).

مواضع الكيف: وهي ضد الكم، من حيث إنها نسيج وحدها⁽⁵⁾، وتستمدّ قيمتها الجبّاجيّة من الأشياء الفريدة. مثل موضع (الحق) الذي يفهمه الجميع أنه "يعلو ولا يعلى عليه مهما كان عدد خصومه وأعدائه"⁽⁶⁾.

وقام (بيرلمان) بتقسيم الجبّاج وفقاً لعملية إقامة الدليل وبحسب نوع الجمهور والبحث عن حصول عملية الاقتناع إلى قسمين:

أ. الجبّاج الإقناعي: وهذا يهدف لإقناع الجمهور الخاص، ويتحقق ذلك بمخاطبة العقل والعاطفة، وهو الذي يجعل العقل في مسار ضيق ويقيد حرية الاختيار.

(1) يُنظر: في نظرية الجبّاج، عبدالله صولة، ص26.

(2) يُنظر: المرجع السابق، ص27.

(3) يُنظر: في نظرية الجبّاج، عبدالله صولة، ص27.

(4) يُنظر: مصنف في الجبّاج، شايم بيرلمان. نقلاً عن الدكتور عبدالله صولة، ص27.

(5) المرجع السابق، ص28.

(6) الجبّاج أطره و منطلقاته وتقنياته (ضمن أهم نظريات الجبّاج)، عبدالله صولة، ص312.

ب. **الحِجَاجُ الاقتناعي:** هذا بدوره يقوم على الحرية والعقل (وهو هدف الحِجَاج القائم على العقلنة)، فإن لم تكن ممارسة الحرية مبنية على العقل؛ فإن كل اختيار يكون ضرباً من الجور، ويستحيل إلى حكم اعتباطي يسبح في فراغ فكري⁽¹⁾.

والنوع الأخير هو الذي ركزا عليه واعتبراه أسس الإذعان والحجاج.

ومن أهم العناصر التي استأثرت على اهتمام (بيرلمان) واعتبارهما أساسين لكل حِجَاج خطابي:

- **القصْد:** فهو الذي يحسم في تحديد مجال التخاطب، ويحدد طبيعة المخاطبين الذين يستهدف المتكلم التأثير فيهم باحتجاجه، وهكذا يمكن أن يتسع مجال المخاطبين ابتداء من المتكلم نفسه - حين يحاول إقناع نفسه بقضية ما - إلى الناس جميعاً حيثما كانوا⁽²⁾.
- **المقام:** ولذلك يجب على المتكلم - وفق بيرلمان - التركيز على معايير الأولوية في ما يتعلق بعلاقة المخاطبين مع المقام والموضوع معاً، ويكون أكثر تأثيراً كلما قدّم حقائق فعلية وأحداثاً معينة لا يشك المخاطبون في ثبوتيتها المرجعية⁽³⁾.

ثم هو يقدّم تصورين أساسيين للمقام:

فهو مرة يعدّه الإطار المحدد للخطاب المستوعب لكل محتويات العملية الإبداعية ولكل المشاركين فيها.

ومرة أخرى يعدّه تلك المقدمات ذات النظام العام التي تساعد المبدعين في بناء الحجج وترتيب القيم⁽⁴⁾.

(1) الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين، ص 108.

(2) المقام الخطاب والمقام الشعري في الدرس البلاغي، ص 19-20.

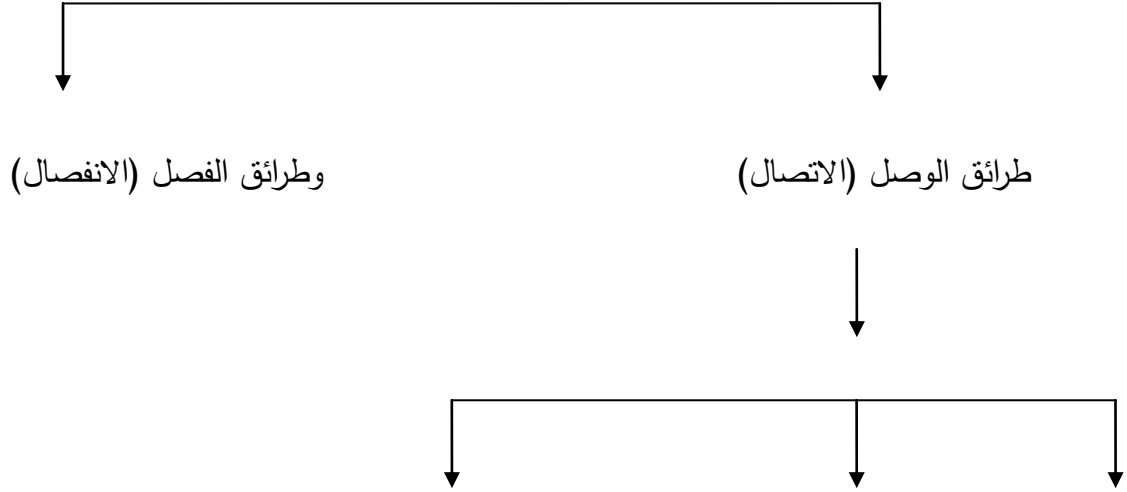
(3) يُنظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ص 83.

(4) المرجع السابق، ص 85.

تقنيات الحجاج البيروني

اهتم بيروني بالتقنيات التي يمكن للخطيب توظيفها في الحجاج لما "تحمله من طاقات تأثير وأفعال توجيه"⁽¹⁾. وقد حصر هذه التقنيات في نوعين اثنين، وأقسامهما على النحو الآتي:

التقنيات الحجاجية⁽²⁾



الحجج شبه المنطقية الحجج المؤسسة على بنية الواقع الحجج القائمة على إعادة بناء الواقع

- | | | |
|--|---|---|
| <ul style="list-style-type: none"> - التناقض وعدم الاتفاق - التماثل والحد من الحجاج - الحجج القائمة على العلاقة التبادلية - حجج التعددية التي تعتمد العلاقات الرياضية: - إدراج الجزء في الكل. - تقسيم الكل إلى الأجزاء المكونة له. | <ul style="list-style-type: none"> • وجوه الاتصال التتابعي: - الوصل السببي - حجة التبذير - حجة الاتجاه • وجوه الاتصال التوايدي: - الشخص وأعماله - حجة السلطة | <ul style="list-style-type: none"> - تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة - الاستدلال بواسطة التمثيل. |
|--|---|---|

(1) الحجج والحقيقة وآفاق التأويل، علي الشبعان، ص130.

(2) المخطط هو عبارة عن خريطة ذهنية لمبحث علمي قام الدكتور عبدالله صولة بشرحه من خلال مصنف الحجج أطره ومنطلقاته.

1. يقصد بالنوع الذي يقوم على طرائق الوصل: "الأشكال الحجاجية التي تقرب بين العناصر المتباعدة والمتباينة، وتتيح إقامة نوع من التضامن بينها لغاية بنائها وتقويم أحد عناصرها بوساطة الآخر تقويماً إيجابياً أو سلبياً".

2. أما الذي يقوم على طرائق الفصل المقصود به: "التقنيات الموظفة بغرض إحداث قطيعة وفصل بين عناصر متضامنة الأجزاء في إطار نظام فكري واحد".

ويحدث هذا الفصل داخل المفهوم الواحد من خلال "ملاحظة انعدام الانسجام بين العناصر المكونة له، وبحمل أعراضه على جوهره، ومحاكمة ظاهره في ضوء حقيقته"⁽¹⁾، وذلك كقولنا مثلاً: إن هذا البطل إن صح أنه بطل، إن ملكاً يفعل هذه الأفعال ليس ملكاً⁽²⁾.

الموجهات الحجاجية

حصر (بيرلمان) الموجهات الحجاجية في أربعة أقسام:

- 1 - التوجيه الإثباتي: و يوظف في كل أنواع الحجج.
 - 2- التوجيه الإلزامي: ويعبر عنه بصيغ الأمر، وقوة الأمر لا تتبع من صيغته التلطفية فقط، وإنما من منزلة الأمر.
 - 3- التوجيه الاستفهامي: وتكمن قيمته الحجاجية في حمل المخاطب على الجواب.
 - 4- التوجيه بالتمني: ويرتبط بالتمني بكل ما هو مرغوب فيه.
- إن هذه الموجهات الحجاجية تسمح باستعمالات متعددة للأساليب، وتوفر إمكانية التعبير عن الفكرة الواحدة بطرق مختلفة.

يمكن تلخيص النظرية الحجاجية البرلمانية حسب رؤية الدكتور محمد طروس⁽³⁾ في الآتي:

- أهم ما قدمه بيرلمان وتيتيكا في مؤلفهما هو محاولة تخلص الحجج من الخطابة والجدل، وإلباسها ثوباً بلاغياً مع تأثرهما بالبلاغة الأرسطية إلا أنهما قاما بتجريدتها من مصطلح العامية المنطقية التي قصدوا أرسطو محاولاً إنزالها من الجمهور بعدما حصرها أفلاطون في الفلاسفة والمناطق.

(1) الحجج أطرها و منطلقاته و تقنياته، عبد الله صولة: ضمن أهم نظريات الحجج، ص324.

(2) المرجع السابق، ص345.

(3) يُنظر: النظرية الحجاجية، محمد طروس، ص55-56.

- تخليص الحجاج من المنطق والأبنية الاستدلالية المجردة، وتقريبه من مجالات استخدام اللغة، مثل: العلوم الإنسانية والفلسفة والقانون.
- اعتبار الحجاج حوارًا غير مرتبط بالجدل كالذي كان عند أرسطو، فهو حوار بين الخطيب وجمهوره، ولا يمكن أن نعدّه مغالطة.
- الحجاج نظرية تدرس التقنيات الخطابية كوظيفة حجاجية، وتفحص الشروط والآثار، حيث تنصبّ الممارسة على الحجج العقلية والتجريبية، وعلى القضايا التي ترجع للرأي والرغبات، مما يوجب التمييز بين البرهنة المستقلة عن الذات؛ وبين الحجاج كممارسة ذاتية اجتماعية.
- العملية الحجاجية عملية تنطلق من أطروحة موجهة إلى الإقناع.

ب. الحجاج عند تولمين

في نفس العام الذي أصدر بيرلمان وتيتيكا مؤلفهما في الحجاج، أصدر ستيفن تولمين⁽¹⁾ (1958م) كتابًا في إنجلترا واسمه (The uses of Argument)، وإن كان هدف الحجاج عند بيرلمان وتيتيكا هو تخليص الحجاج من المنطق، فقد حاول تولمين أن يصبغه بلون منطقي⁽²⁾، وعدّه بمثابة المسار الذي يسلكه المخاطب لإقناع المُتلقّي بنتيجة، ووجه اهتمامه إلى الحجج التعليلية التي تقضي إلى دعم الإثباتات؛ والتعليل لديه هو الوظيفة الأساسية للحجج⁽³⁾، وما عداه استعمالات ووظائف، وأشار في المؤلف إلى استراتيجيّة تشكيل الحجج على الباث أن يراعيها ويأخذ بها ليتحصّل لها الهدف الأسمى وهو الإقناع بالحجة.

(1) ستيفن أولسون تولمين (1922-2009م)، كان فيلسوفًا بريطانيًا ومؤلفًا، كرس أعماله لتحليل التفكير الأخلاقي. سعى خلال كتاباته إلى تطوير الحجج العملية التي يمكن استخدامها بفعالية في تقييم القضايا الأخلاقية، تم العثور على أعماله في وقت لاحق في مجال البلاغة لتحليل الحجج البلاغية، كان نموذج (Toulmin) للحجج، وهو مخطط يحتوي على ستة مكونات مترابطة تستخدم لتحليل الحجج، يعدّ كتاب (The Uses of Argument) أكثر أعماله تأثيرًا، لا سيما في مجال البلاغة والتواصل.

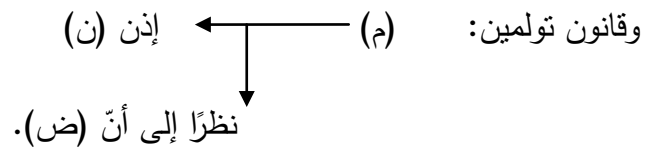
(2) يُنظر: نظرية في الحجاج دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، ص66.

(3) يُنظر: النظرية الحجاجية، محمد طروس، ص61.

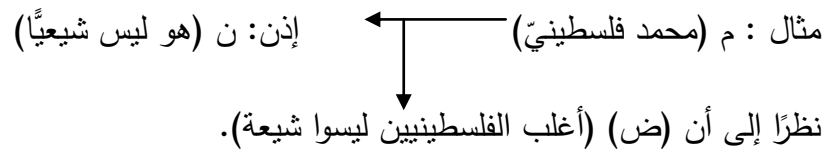
ولهذا كان الحجاج ممارسة عقلانية ينحصر دوره في البناء والاستدلال النظري، وهذا الهدف قد قام بترجمته من خلال مجموعة من الرسومات البيانية المقدّمة، قام الدكتور عبد الله صولة بترجمتها، وهي في الأصل على ثلاث مراحل⁽¹⁾:

الرسم الأول: تتكون الرسة البيانية الحجاجيّة من أركان أساسية ثلاثة، وهي:

- المعطى أو المقدمة (م).
- النتيجة (ن).
- الضمان (ض)؛ وهو الكلام الضمني في الحديث.



أخذت تتشكل هذه العناصر على عدة نماذج تمثل التطور المتدرج للقضايا المدروسة، ومن الأشكال التي قام بالاعتماد عليها وتطويرها:

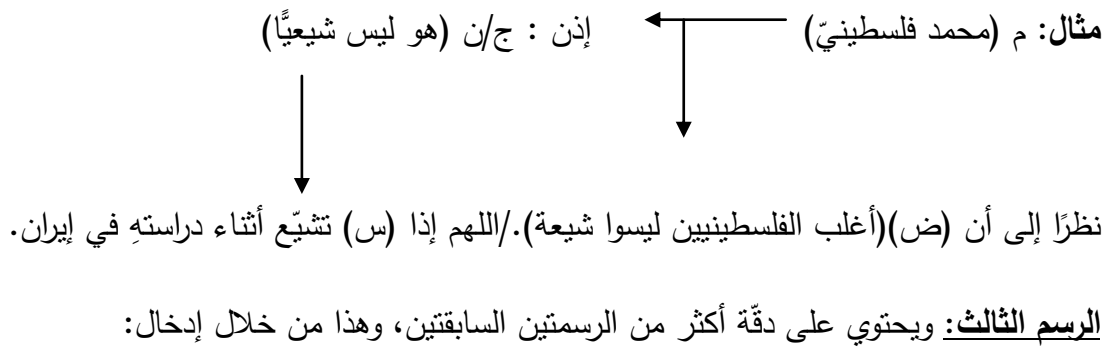


الرسم الثاني: أضاف لهذا عنصرين آخرين، فهو أدق من سابقه، وهما:

- عنصر الموجّه ورمزه : (ج).
 - عنصر الاستفتاء؛ ورمزه : (س).
- وعنصر (س) يحمل شروط رفض القضية .

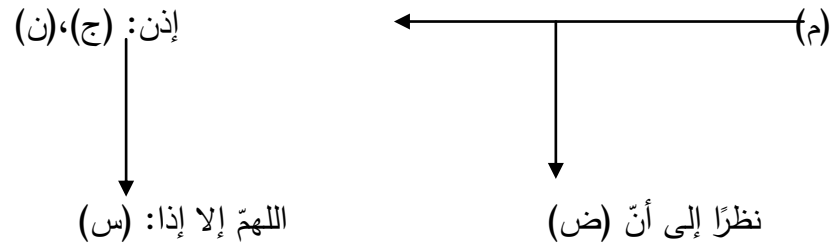


(¹) يُنظر: الحجاج في القرآن الكريم، عبدالله صولة، ص23-25.

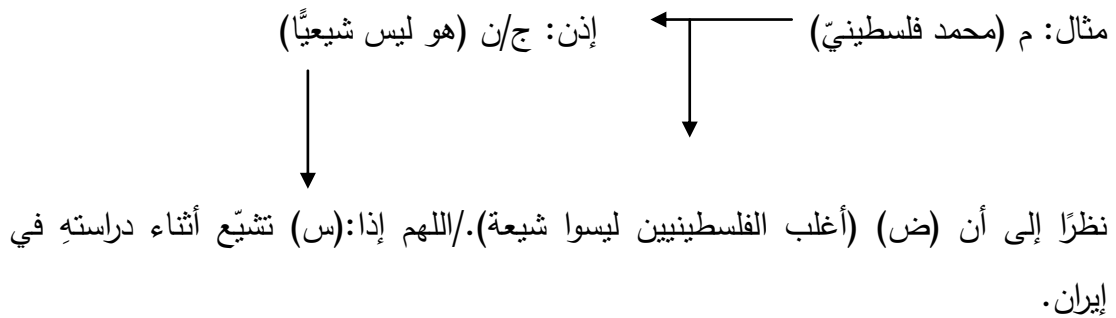


أ. عنصر الأساس (أ)، الذي يبنى عليه الضمان (ض).

والرسم يكون كالتالي:



بحكم أن: (أ)



بحكم أن: (نسبة الشيعة في فلسطين قليلة جدًا).

وهذا المثال يظهر من خلاله توظيف تبرير الحجج كما عمل تولمين على صياغتها.

ج. الحجاج عند ديكر و انسكومبر

الحجاج متجذر في اللغة مرتبط بكل من (ديكر)⁽¹⁾، و(جون انسكومبر)، وتسمى نظريتهما (التداولية المدمجة)⁽²⁾، وقد ظهرت في منتصف السبعينات، يكمن تميز هذه النظرية في رفض التصور القائم على الفصل بين الدلالة والتداولية⁽³⁾، فهي تدرس اللغة لبيان الجزء التداولي المدمج في الدلالة (لا الخبري الوصفي)، إذن فنظرية الحجاج عندهما كامنة في اللغة ذاتها.

تعد نظرية (ديكر) من البحوث اللسانية الحديثة التي تسعى إلى اكتشاف منطق اللغة الفاعل، والأسس الداخلية المكونة للخطاب، والتي تتحكم في تسلسل الأقوال والأفعال الحجاجية، وهذه النظرية قد انبثقت من الفكرة التي مفادها: "أنا نتكلم عامة بقصد التأثير"⁽⁴⁾، أي أن وظيفة اللغة هي حجاجية بالدرجة الأولى، ويسند الدور الثانوي للوظيفة الإخبارية التواصلية.

تعد نظرية الأفعال اللغوية التي وضعها (أوستن وسورل) الحاضنة الأولى للتبشير بطليعة النظرية اللغوية للحجاج، حيث قام (ديكر) بإعادة النظر في أعمال (أوستن وسورل) وأضاف فعليين لغويين هما: الاقتضاء، وفعل الحجاج⁽⁵⁾.

لا شك أن نظرية الأفعال اللغوية قد واجهتها العديد من الصعوبات؛ منها: عدم كفاية التصنيفات الخاصة بها للأفعال اللغوية، فعمل ديكر على إعادة تحديد مفهوم التكليم والإنجاز،

(1) لسانياتي فرنسي وأحد أبرز المساهمين في الدراسات المتعلقة بالتداوليات والتلفظ ونظرية الحجاج في اللغة.

(2) نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ص353.

(3) وتقصيل كل منهما:

- الدلالة : موضوعها معنى الجملة.

- التداولية موضوعها استعمال الجملة في المقام. يُنظر: نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ص351،

ضمن العمل الجماعي فريق البحث في البلاغة والحجاج: إشراف حمادي صمود.

(4) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص14.

(5) يُنظر: المرجع السابق، ص15.

مع التمسك بطابع اللُّغة العرفي، وقام بتعريفه على أنه فعل لغوي موجه لإحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية؛ أي مجموعة من الحقوق والواجبات⁽¹⁾.

ذلك أن الفعل الحِجَاجِي يفرض على المخاطب نوعاً معيناً من النتائج باعتباره الواجهة الوحيدة التي يمكن أن يسير ضمنه الحوار.

أما بالنسبة للحِجَاج اللُّغوي عند (ديكرو) فيعرّفه بأنه: "إنّ المتكلم إذ يحتاج إنما يقدّم قولاً أولاً (ق1)، أو مجموعة من الأقوال تقوده إلى الإذعان والتسليم بقول آخر (ق2)، أو مجموعة من الأقوال الأخرى"⁽²⁾.

يقصد بذلك أن الكلام يتكون من ملفوظين:

- الأول (ق1)؛ ويسمى بالحُجّة (ح).

- الثاني (ق2)؛ ويسمى بالنتيجة (ن)⁽³⁾.

ويمكن تمثيلها كالاتي :

(ح) ← (ن).

أمثلة:

- الحوادث كثيرة؛ إذن عليك القيادة بهدوء.

- الأمواج هادئة اليوم؛ إذن السباحة مسموحة.

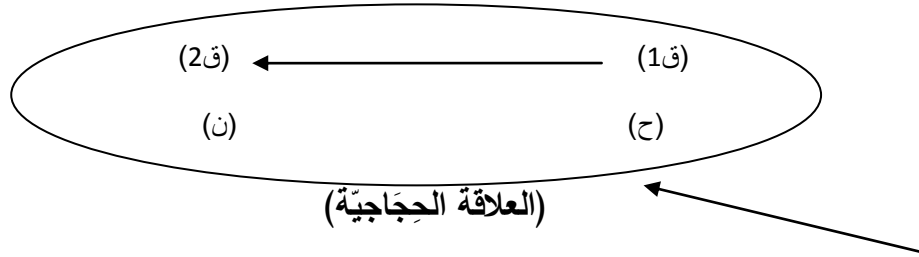
في هذين المثالين: المتكلم حاول تقديم الحُجّة (ق1)؛ هي الحوادث كثيرة والتي تستدعي القيادة بهدوء. لما كانت الأمواج هادئة (ق1)؛ فالسباحة مسموحة، حاول المتكلم تقديم الحُجّة لإقناع المخاطب بنتيجة معينة.

(1) يُنظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص16.

(2) الحجاجيات اللسانية عند ديكرو وانسكومبر، رشيد الراضي، ص227.

(3) المرجع السابق، ص228.

هذا ولا بدّ من وجود علاقة تربط بين الملفوظ الأول (ح)، وبين الملفوظ الثاني (ن)؛ وتسمّى هذه بِـ (العلاقة الحجاجيّة)، تمثيلها في الشكل الآتي:



يمتد فضاء القول بين جانبيين أحدهما حُجّة والأخير نتيجة، والعلاقة الواصلة بينهما العلاقة الحجاجيّة التي تعدّ في نموذج (ديكرو) الأساس ضمن وظائف اللّغة؛ بل هي المقدمة على كل وظيفة، فهو سلسلة متتابعة من الحجج (الفئات الحجاجيّة) والتي يستدعي حضورها الانتهاء إلى متواليات من النتائج.

تتميز الحجج اللّغويّة⁽¹⁾:

- 1- أنّها سياقيّة: العنصر القولّي الذي يقدّمه المتكلّم قد يؤدي إلى حُجّة أخرى؛ وذلك بحسب السياق الذي يكسب القول دلالة جديدة.
- 2- أنّها نسبيّة: فالحجج تتفاوت من ناحية قوتها، يعني أن المتكلم قد يقدّم حُجّة ما لصالح نتيجة معينة، إلا أنّ الخصم يسبقه من خلال تقديم حُجّة مضادة أقوى بكثير من حجة، فهناك حجج قوية وهناك ضعيفة.
- 3- وقابلة للإبطال: بحيث يمكن للحُجّة أن يتم رفضها وإبطالها بواسطة حُجّة أقوى منها، بخلاف البرهان المنطقيّ والرياضيّ.

إنّ الحجاج اللّغوي لدى (ديكرو) يختلف عن الاستدلال المنطقي⁽²⁾، فكلّ واحد حقل خاص به، فالاستدلال من الطبيعيّ أن يكون لدى حقول المنطق، بينما الحجاج اللّغوي فموضوعه الخطاب ونظامه، فالأقوال التي يتكون منها استدلال ما، مستقلة بعضها عن بعض،

(1) يُنظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص 19-20.

(2) يُنظر: المرجع السابق، ص 18.

بحيث إن كل قول منها يعبر عن قضية ما؛ أي يصف حالة ووضعاً من أوضاع العالم، ولهذا فإن تتالي الأقوال في الاستدلال لا يُبنى على الأقوال ذاتها، ولكنه مؤسس على القضايا المكونة لها، أي على ما تفترضه بشأن العالم؛ أما الحجاج فهو مؤسس على بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل إطار الخطاب.

يتعلق الحجاج في اللغة بوجود مجموعة من المفاهيم الشائعة المرتبطة بهذه النظرية ثم مناقشتها ضمن المباحث التداولية؛ منها نظرية السلام الحجاجية، والعلاقات الحجاجية، والروابط، والعوامل، والمواضع الحجاجية.

أولاً- نظرية السلام الحجاجية

إن الحجاج يعتمد في جوهره على التوجيه عن طريق مجموعة من المؤيدات اللسانية، والتي قام (ديكرو) بخصها في مؤلف أطلق عليه كتاب السلام الحجاجية⁽¹⁾، وفيه سعى لرسم حدود نظرية السلمية والتي تُقام على التراتبية في اللغة، وهو إذ يُلخص على التراتبية في الأقوال؛ يقدم برهاناً على مقولة التوجيه الحجاجي وهيكلته، فكل ملفوظ يخضع لمراحل تعمل على تقوية العامل العابر في اللفظ وشحن طاقته البرهانية اللفظية الدالية.

والسلم الحجاجي هو مجموعة غير فارغة من الأقوال، مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين التاليين⁽²⁾:

1- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى على جميع القولات التي دونه.

2- كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين، كان يعطيه مرتبة دليلاً أقوى عليه.

ومفهوم معطيات السلم الحجاجي عند (ديكرو): نقول بأن الجملتين (أ)، (ب) تنتميان إلى حقل استدلالي حجاجي متشابه، يعرف بالملفوظ (د) عندما يعتبر المتكلم أن (أ) و(ب) حجج لمصلحة (د)⁽³⁾.

(1) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، ص 121.

(2) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، ص 276.

(3) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقي، ص 93.

فهو يربطها إذن بالنتيجة، كما يرتبط بالمتكلم، بمعنى أنه عندما ينتمي معنى جملتين أو أكثر إلى نفس الحقل الحجاجي؛ فإنهما يسعيان إلى خدمة نفس النتيجة، وإن كانا يختلفان وفق القوة والضعف، ويمثلان بدورهما اختيار المتكلم الذي عدّهما دليلين مناسبين دشّنهما في كلامه؛ لأجل خدمة هدفه الذي يسعى هو لتحقيقه.

يعرّفها الدكتور أبو بكر العزاوي بأنها: "علاقة ترتيبية للحجج"⁽¹⁾، وتتطلق هذه النظريّة من الإقرار التلازمي⁽²⁾ بين الحُجّة (ق1) والنتيجة (ن)؛ والتلازم⁽³⁾ لا يكون إلا بكون حُجّة المتكلم تقضي لنتيجة قد تكون هذه النتيجة مصرّح بها أو ضمنيّة.

بين الحُجّة (ق1) + والنتيجة (ن) ← تلازم.

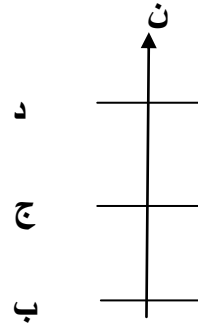
إذن لا يكون التلازم موجوداً إلا إذا وجدت النتيجة حتى لو كانت ضمنيّة.

مثال على التلازم الضمني في قولنا: (الطقس جميل فلنخرج للنزهة).

1- إلى أين سنخرج؟

2- ألا ترى أن الطقس جميل؟

الاستفهام في قول (ب) هو حُجّة لنتيجة ضمنيّة؛ وهي الخروج إلى نزهة -مثلاً- وإن لم يصرّح بها القائل. مثال على السّلم الحجاجي الترتيبي للحجج:



(1) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقيبي ، ص21.

(2) نظرية الحجاج، شكري المبخوت، ص363.

(3) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقيبي، ص94.

(د، ج، ب): تمثل مجموعة من الحجج المتمثلة في فئة حجاجية ما، قائم بين هذه الفئات علاقة ترتيبية معينة، إذن هي تنتمي لنفس السلم الحجاجي، والذي هو بدوره فئة حجاجية موجهة⁽¹⁾، ويذكر الدكتور العزاوي أن السلم الحجاجي يتسم بسمات⁽²⁾؛ أهمها:

- كل قول يرد في درجة ما في السلم؛ يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه بالنسبة لـ (ن).

- إذا كان القول (ب) يؤدي إلى النتيجة (ن)؛ فهذا يستلزم أن (ج) أو (د) الذي يعلوه درجة يؤدي إليها والعكس غير صحيح.

التمثيل بمجموعة من الأقوال:

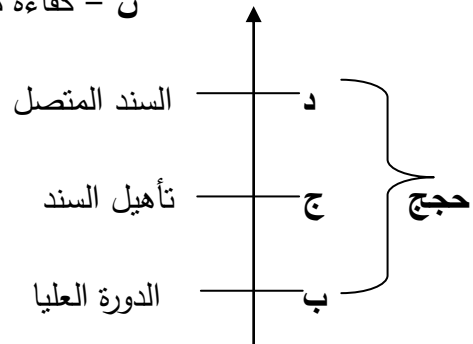
1- حصل محمد على الدورة العليا في القرآن الكريم.

2- حصل محمد على شهادة تأهيل السند.

3- حصل محمد على السند المتصل في تلاوة القرآن الكريم.

هذه الجمل تتضمن حجاً كلها تفضي لنفس الفئة الحجاجية، وتنتمي لنفس السلم الحجاجي كذلك، ويحدث التلازم بارتباط الأقوال بنتيجة ضمنية، وهي (كفاءة محمد في الإقراء)، والقول الأخير هو أعلى فئات السلم الحجاجي، ويدل على مقدرة محمد وكفاءته في قراءة القرآن الكريم، ويمكن إدخال هذه الفئات ضمن السلم الحجاجي:

ن = كفاءة محمد في علوم التلاوة وإتقانها.



(1) يطلق على القول الحجاجي إذا تعددت الحجج فيه (الفئات الحجاجية) والتي تكون فيها النتيجة واحدة، مثال ذلك: (أقرأ وأنعلم؛ لأنجح)، هناك فئة حجاجية مكونة من قولين، ولكنهما قد وصلا في النهاية لنتيجة واحدة؛ وهي النجاح.

(2) يُنظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص21.

إذن ترى الباحثة أن السلم الحجاجي هو مجموعة متتالية من الأقوال؛ يربط بينها علاقة ترتيبية وتحجمها مجموعة من القوانين الداخلية؛ ثم توصلنا لنتيجة معينة قد يصرح بها أو يتم فهمها ضمناً من الحديث.

والسلام أنواع⁽¹⁾ تتطلق من الحقل اللغوي العلاماتي الذي يدرسه الناقد؛ منها:

- سلم البلاغة.
- سلم المعجم.
- سلم الصرف.

قوانين السلم الحجاجي

يمكن حصر القوانين في ثلاثة⁽²⁾، على النحو الآتي:

1- **قانون النفي:** يعبر عنه إذا كان قول ما (ق) مستخدماً من قبل المتكلم ليقدم نتيجة معينة، فإن نفي القول (لا-ق) سينبني عليه الحصول على نتيجة مضادة (لا-ن)،
يعني:

- إذا كانت (ج) تنتمي لفئة حجاجية محددة بواسطة النتيجة (ن).

مثال: محمد مجتهد؛ لقد حصل على علامة متميزة.

- فإن (لا - ج) تنتمي إلى فئة حجاجية محددة بواسطة (لا-ن).

مثال: محمد ليس بمجتهد؛ إنه لم يحصل على علامة متميزة.

حيث إن نفي الحجة، ترتب عليه نفي النتيجة

2- **قانون القلب:** يرتبط قانون القلب بالنفي كذلك ويعدّ تكملة للقانون؛ ومفاده أن السلم الحجاجي للأقوال منفية هو عكس السلم الحجاجي للأقوال المثبتة، يعني حينما تكون

(1) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، ص 123.

(2) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص 23.

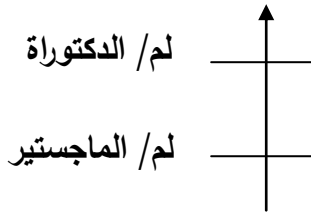
إحدى الحجتين أقوى من الأخرى في قوتها الحجاجية للدلالة على نتيجة ما، يصبح

نقيض الحجة الثانية أقوى من الأخرى في التدليل على نتيجة مضادة، مثال:

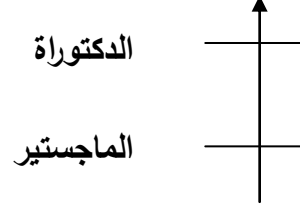
1- حصل محمد على الماجستير، وحتى الدكتوراة.

2- لم يحصل محمد على الدكتوراة؛ بل للم يحصل على الماجستير.

(لا-ن) = عدم الكفاءة.



(ن) = كفاءة محمد العلمية.



فحصول محمد على الدكتوراة، أقوى دليلاً على مكانته العلمية من حصوله على

الماجستير في (ن).

في حين عدم حصوله على الماجستير (لا-ن)، هو الحجة الأقوى على عدم كفاءته

من عدم حصوله على شهادة الدكتوراة.

3- **قانون الخفض:** ينصّ هذا القانون على أنّ القول إذا صدق في مراتب معينة من السلم؛

فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها⁽¹⁾.

مثال: الجو ليس باردًا.

لم يحضر كثير من الأصدقاء.

من التأويلات التي قد تكون مستبعدة في هاتين الجملتين، أن الجو ليس شديد البرودة أو

أن الأصدقاء كلهم حضروا، ثم تؤول الجملتان على النحو الآتي:

إذا لم يكن الجو باردًا؛ فهو دافئ أو حار.

لم يحضر إلا القليل من الأصدقاء إلى الحفل.

(1) يُنظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص24.

هذه الأقوال ضمن قانون الخفض، من الصعب تمثيلها على سلم حجاجي واحد، كونها تنتمي لفئات حجاجية مختلفة.

يمكننا القول إنَّ (ديكرو) ركّز في بنائه لقواعد السّلم الحجاجي على قوانين خطابية قائمة على النفي الوصفي وليس النفي المنطقي الجدلي، الذي يقترن ببنية اللّغة التي توضح أهم القوانين الخاضعة للحجاج اللّغوي ضمن السّلام الحجاجيّة.

ثانيًا - الروابط والعوامل الحجاجيّة

قام ديكرو بتحديد وظيفة اللّغة وذكر أنها ذات طبيعة حجاجية في بنائها، وما دون ذلك فهي ضمن الوظائف الثانوية، هذا وتحتوي اللّغة على روابط وعوامل حجاجية، وكلها يفهم مرادها لما نعود لسياقها الداخلي في الجمل ومواضعها.

يعد الحجاج فعلاً لغوياً فقد طوّرت نظريّة التدوالية المدمجة آفة الذكر على أنقاض نظريّة الأفعال اللّغويّة بإضافة فعل الحجاج؛ هذا الفعل ما يميزه أن هناك روابط وأدوات مهمتها الرئيسة توجيه الملفوظ وجهة احتجاجية؛ و"هي التي تحدد طرق الربط بين النتيجة وحجتها"⁽¹⁾، وهذا يظهر في الكلام وكيف بإمكان هذه الروابط تفعيل التوجه الحجاجي للفعل اللّغوي.

وقام عالم اللّغويات (ديكرو) بالاهتمام بتلك الروابط والعوامل لما لها من أهمية في الدرس التداولي، وتناسق العمل الخطابي وتناغمه وتحقيق انسجامه؛ حيث تعطي الخطاب سهولة في فهم مادته وتأويلاته المرجعية، إضافة إلى أنها تعمق التوجيه وتعمل على تقويته.

بعض الدراسات التّداوليّة تذهب للتمييز بين هذين الصنفين:

- الروابط الحجاجيّة: تقوم بالربط بين قولين أو بين حجتين⁽²⁾؛ وتجعل لكل قول من الأقوال داخل المنظومة الحجاجيّة العامة دوراً خاصاً به؛ أي أنها تدخل على أكثر من قضية؛ مثل: إذن، لأن، بما أن، إذ .. إلخ.

(1) نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ص 376.

(2) يُنظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص 27.

- العوامل الحجاجية: وطبيعة العوامل الحجاجية تختلف عن سابقتها حيث إنَّها لا تربط بين متغيرات حجاجية⁽¹⁾، تتميز بدخولها على قضية واحدة⁽²⁾، وتقوم بحصر الإمكانيات الحجاجية الخاصر بقول ما، وتضمّ كلاً من: ربّما، تقريباً، كاد، قليلاً، كثيراً، وجل أدوات القصر.

مفهوم العامل من خلال المثال الآتي:

مجموعة (أ)

- أوشكت الشمس على الغروب.
 - لا توشك الشمس إلا على الغروب.
- بإدخالنا أداة القصر: (لا ... إلا) -وهي إحدى العوامل الحجاجية- على المثال الأول؛ لم يحدث أي اختلاف في القيمة الإعلامية والإخبارية للجملتين، فكلاهما يخبر إن الشمس أوشكت على الغروب، لكن صيغة التركيب هي التي أثرت على الإمكانيات الحجاجية وقيمتها.
- وإذا نظرنا لهذين المثالين:

مجموعة (ب)

- أوشكت الشمس على الغروب؛ أسرع.
 - لا توشك الشمس على الغروب؛ أسرع.
- فالكلام في المثال رقم (أ) مقبول وتركيبه الجملة تكاد تكون معقولة؛ أما المثال الآخر (ب) يحتاج لضبط في السياق والترتيب؛ وكذا يحتاج لتأويل مختلف خاص به.
- بالنسبة للكلام في المجموعة (أ) وتحديدًا المثال الأول، فإمكاناته الحجاجية مفتوحة على مصراعيها، وقد سهّل لنا باب التأويل؛ لأنه يخلو من العوامل الحجاجية، فنتائج الحجّة كثيرة،

(1) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص27.

(2) العوامل الحجاجية في اللغة، عز الدين الناجح، ص22.

منها: أنه يدعو للإسراع، أو أن هناك متسع من الوقت، الدعوة إلى طعام، وغيرها. فباب التأويل مطلق غير مقيد.

بينما لما أدخلنا أداة القصر في المثال رقم (ب) وجدت أن دائرة الإمكانيات قد ضاقت، والقول التأويلي معناه:

- لا توشك الشمس إلا على الغروب؛ فلا داعي للإسراع.

بالنسبة للرباط الحجاجي نمثل فيها على حروف العطف:

إن حروف العطف تأتي في الجملة للربط بين قولين وتأويلات النحاة في هذا المضمار كثيرة، أما في موضوع الحجاج (ضمن التداوليّة المدمجة)، فإننا نعبّر عن تلك بأنها تربط بين داليتين، فالربط بين الأقول؛ ليس إلا حالة خاصة "فقد يكون الربط بين عناصر غير متجانسة"⁽¹⁾ بين قول وسلوك مثلاً.

محمد متميز في دروسه، إذن سينجح في المسابقة.

- الحجة: محمد متميز في دروسه.

- النتيجة: سينجح.

- الرابط: إذن.

قام (موشلر - Moeschler) و (ريبول - Reboul) بعقد فصل كامل عنوانه (الروابط التداوليّة)؛ وهذه الروابط قد جاءت على أنواع متعددة⁽²⁾:

أ. إما حجاجية، مثل: لأنّ، لأجل ذلك، أيضاً.

ب. أو تلخيصية استنتاجية، مثل: إذن، هكذا، عليه.

ت. حجاجية مضادة، مثل: لكن، رغم، غير أنه.

ث. أو عوامل إعادة تقويم، مثل: صفوة القول، في الختام، وعلى كل حال.

(1) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص 29.

(2) المرجع السابق، ص 22.

ولغتنا العربية بلا شكّ تضجّ بألوان الروابط الحجاجية التي تستعمل للربط بين الكلام، فهي روابط كثيرة لا يسع المقام لحصرها.

ويرى أن الروابط تتعلق بطبيعة إجرائية خطابية؛ وهذه الخطابية يمكن تفصيلها لثلاث وظائف⁽¹⁾:

1- ربط الوحدات اللسانية الكبرى أو الوحدات الخطابية.

2- الكشف عن بنية الوحدات اللسانية وتناسقها.

3- الكشف عن نتائج الملفوظ التي بدونها لا يمكن الظفر بأي معنى أو غاية من الملفوظ.

ثالثاً - المبادئ الحجاجية

إن كانت الروابط والعوامل للحفاظ على العملية الحجاجية؛ فإن المبادئ لا تقل أهمية عنها، "فلا بدّ من ضامن يضمن الربط بين الحجة والنتيجة"⁽²⁾، وهذا الضامن ما يسمّى بالمبادئ أو المواضع⁽³⁾ الحجاجية، فهي تمثّل مبدأ حجاجياً عامّاً ضمن تلك التي يستعملها المتكلّمون ضميناً للحمل على قبول نتيجة ما، إذن هي تمثّل قواعد عامة كي تقرب الحجاج وتجعله ممكناً، وهذه المبادئ فكرة يشترك عليها جمهور واسع ويقوم عليها الاستدلال في اللّغة، وضمن الخصائص التي ذكرها الدكتور العزاوي⁽⁴⁾ ما يلي:

1- تعد المبادئ مجموعة من المعتقدات والأفكار المشتركة بين الأفراد داخل مجموعة بشرية معينة.

2- العمومية: يمكن استخدامها في سياقات متنوعة ومختلفة وتصلح لعدد كبير منها.

3- التدرجية: من خلال إقامتها علاقات بين محمولين تدرجيين، أو بين سلمييين تدرجيين (العمل - النجاح).

(1) العوامل الحجاجية في اللغة، عزالدين الناجح، ص23.

(2) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص31.

(3) أطلق عليها الدكتور شكري المبخوت باسم المواضع في بحثه الموسوم بنظرية الحجاج في اللغة ضمن أعمال فريق البحث في البلاغة والحجاج؛ إشراف الدكتور حمادي صمود، ص380.

(4) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص32.

4- النسبيّة: في السياق الذي يعمل فيه المبدأ الحجاجي؛ هناك إمكان إبطال هذا المبدأ ورفض تطبيقه باعتباره غير وارد وغير ملائم للسياق المقصود، أو من خلال اعتماد مبدأ حجاجي مغاير له. فالعمل يؤدي إلى النجاح، ولكنه قد يؤدي إلى الفشل في سياق آخر إذا زاد عن الحد المطلوب، وإذا نظّر إليه على أنه تعب وإرهاق وإهدار للطاقة.

وكل السابق يوصلنا لفكرة (ديكرو) اللغويّة؛ حيث حاول الانطلاق من بنية اللّغة والخطاب محاولاً تطوير نظريّة الأفعال اللغويّة، معتبراً أن غاية اللّغة حجاجية؛ ويجب الكشف عن بنية الخطاب المتكورة في الحجاجيّة من خلال التركيز على البعد الدلالي التداولي مدمجاً إياهما في نظريّة (التداوليّة المدمجة).

ومن هنا تقوم نظرة ديكرو وأنسكومبر على التداوليات المدمجة التي تقوم على تصور خطّي لعلاقة التركيب والدلالة والتداول، وهذا التصور المعتمد في دراسة اللغة إلى جانب السلم الحجاجي.

ونظريّة (ديكرو وأنسكومبر) بكلها تختلف عن منطق وتوجهات (بيرلمان وتيتيكا) البلاغيّة التي تُجاور المنطق نوعاً ما، بخلاف مجاورة ديكرو ونظريته للخطاب وبنائه واللّغة.

ثانيًا - الحجاج عند العرب حديثًا

لا شك أن رياح الحداثة وألفاظها قد غزت الوطن العربي فأرسلت في نصوص علمائه كثيرًا من الاصطلاحات التي أُنعت في عربيتنا منذ القَدَم؛ لكن ظهورها اليوم بدا من خلال الألفاظ المستحدثة، بيد أن الدلالة كانت موجودة عند أسلافنا العرب. فمجموعة النظريات التي تدرس النص اليوم وتعمل على بنائه وتحليله؛ إنما هي نتاج ثقافة عربية قد ملأت ما بين الأفق، ونتيجة التكامل الثقافي بين الحضارات تم رسم معالم النظريات وصعودها وتجليها للعيان، ومن بينها كانت نظرية الحجاج، حيث اتضحت أبعادها وأبحاثها بصورة كبيرة في مغرب الوطن العربي، حيث تهافتت السواعد للكتابة فيها، ما بين ترجمات وتأويلات ومؤلفات ضخمة، وقد ظهرت مجموعة قديرة من العلماء العرب الذي أولوا النص عناية حجاجية فائقة، واهتموا برسم أبعاد النظرية بقلم العربي المتن، الذي لا يكتب شيئًا إلا ويجد أسلافه العرب القدماء قد حطوا نبال أقلامهم عليها، وتناولوها بالدرس والشرح والنظر في الجذور والأصول.

ومن بين العلماء الذين لمع نجمهم في فضاء الحجاج ومؤلفاته: الدكتور أبو بكر العزاوي، وعبد الله صولة، ومحمد العمري، وطه عبد الرحمن، ولكل توجهه ومقاربتة الخاصة في النظرية الحجاجية المتناولة، فمنهم صاحبُ مقاربة لُغوية كالدكتور أبو بكر العزاوي، ومقاربة بلاغية لها صدى واسع في البلاغة الحديثة مثل الدكتور محمد العمري، وكذلك المقاربة الفلسفية نجدها في مؤلفات الدكتور طه عبدالرحمن، وستقدّم الباحثة لهذه المقاربات بشكل مختصر.

أولًا- الحجاج عند أبو بكر العزاوي

يعد رائد الحجاج اللغوي في المغرب العربي، وهو أول من أدرج هذه النظرية اللغوية ضمن مقررات كلية الآداب، وكانت استفادته من مشرفه وأستاذه على أطروحة الدكتوراة⁽¹⁾ أوزفالد ديكر، الذي خصص ثلث قرنٍ ويزيد وهو يطالع روابط اللغة وأدواتها بحثًا وتأويلًا.

(1) تخصص العزاوي في نظرية الحجاج اللغوي بعد تجهيزه لأطروحته وهي بعنوان (بعض الروابط التداولية في اللغة العربية: مقاربة حجاجية أصواتية)، بإشراف الأستاذ أوزفالد ديكر، سنة 1989-1990، في معهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في فرنسا.

لديه بعض المؤلفات الحجاجية والتي يعكس من خلالها تأثيره بنظرية المعلم، منها: الخطاب والحجاج، حوار حول الحجاج، واللغة والحجاج، والأخير هو الأكثر تداولاً ودراسة، وفيه يعرض لنظرية الحجاج من وجهة لغوية متبنيًا نظرة أستاذه والذي هدفه: "أنا نتكلم بقصد التأثير"⁽¹⁾، ويكون ذلك باستخدام آلة اللغة وطاقتها اللسانية المزروعة في أدواتها.

من الأسباب التي دعت لابتداع استخدام نظرية الحجاج اللغوية، هي أنها نظرية دلالية حديثة قامت بتقديم تصور جديد للمعنى، فضلاً عن تقديمها مجموعة من الأفكار والمقترحات المهمة بالنسبة لمجموعة الظواهر اللغوية، وسلط الضوء على مفهوم الروابط الحجاجية، والعوامل، والمبادئ، والسلالم الحجاجية، وضمن الحديث عملاً لمقاربة لبعض الجوانب الإخبارية.

ثم في كتابه الخطاب والحجاج يحاول تكميم حديثه عن الحجاج الذي بدأه في الكتاب السابق (اللغة والحجاج)، حيث رأينا من خلال الموضوعات السابقة أن الحجاج درس في مستوى اللغة، أما المتمم له فقام بدراسته في مستوى الخطاب، وقد استمر العزاوي في مشروعه ووعده قراء كتبه بإصدار المزيد منها ضمن المشروع الحجاجي العام⁽²⁾.

والحجاج من وجهة نظره هو محاولة تأطير الحجج وتقديمها، ثم تقضي من خلال القول إلى نتيجة معينة، من خلال إنجاز سلسلة من المتواليات الكلامية، بعضها بمثابة الحجج والأخيرة منها هي بمثابة النتائج⁽³⁾، اهتم العزاوي بالاستعارة الحجاجية كمقوم أساس يبنى عليه الحجاج، ويقول في ذلك: "الاستعارة الحجاجية هي النوع الأكثر انتشاراً لارتباطها بمقاصد المتكلمين وبسياقاتهم التخاطبية والتواصلية"⁽⁴⁾، وهو يصرح بأن الاستعارة ذات فعالية كبيرة في توجيه الخطاب، ثم تعدّ من أقوى آليات اللغة من أجل الوصول للتأثير وتوجيه القول، ويرى أن

(1) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص8.

(2) يُنظر: الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص11.

(3) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص16.

(4) يُنظر: نحو مقاربة حجاجية للاستعارة، أبو بكر العزاوي، ص80.

مفهوم الحجاج "هو ما أسس على بنية الأفعال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب"⁽¹⁾.

وترى الباحثة أن هذا القول البلاغي سليم الموقع، لأن الاستيعارة القولية تجمع بين أكثر من مؤثر جمالي وإقناعي إضافة لصورة المنطق القائمة عليها في أركانها، أما وظيفتها اللغوية فقائمة ضمن الأركان الأربعة على إبلاغ قضية في ذاتها حجاجية المسلك، فنية الأسلوب والحياسة، وإخبارية تواصلية في وظيفتها.

ثانيًا - الحجاج عند محمد العمري

يعد العمري صاحب مشروع بلاغي يتسم بضخامته وغزارة إنتاجه، فقد حاول من خلال المنتج الحجاجي المقدم على صفحات كتبه أن يقارب الحجاج فيها مقارنة بلاغية، حاول العمري أن يطيل النظر في التراثين العربي والغربي، وظهر تأثره بفلسفة أرسطو وأحكامه الخطابية، هذا وطول التدبر في تراث العرب لم يجعله يتفوق في أحكامه؛ بل درسه حوارياً ونقدياً، وأخذ منه ما يناسب الدرس البلاغي الجديد، ومن ثم قام بإلباسه ثوب الحداثة ضمن حدود البلاغة، وانتقى ما يناسب الدرس الحجاجي العربي المعاصر، وتحدث عن المقامات والإقناع ولم يغفل عن علماء العرب؛ بل كثيراً ما عقد فصولاً في كتبه يتحدث فيها عن نصوص القدامى، وكيف تقاطعت في إظهار البلاغة الدقيقة وأحسننت في إظهار مكنونها الجمالي والإقناعي التأثيري.

ومن مشاريعه البلاغية: في بلاغة الخطاب الإقناعي⁽²⁾، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول⁽³⁾.

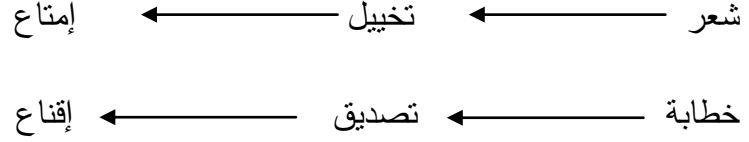
وفي كتابه الأخير حاول أن يقدم للقارئ العربي ما ينبغي أن تكون عليه بلاغتنا الجديدة، وأدرج مجموعة من المصطلحات الدقيقة التي اتفق فيها مع القراء منذ الصفحة الأولى؛ كي لا

(1) الحجاج واللغة، أبو بكر العزاوي، ص14.

(2) وهو ما يسمّى عنده بالحجاج.

(3) نشر هذا الكتاب لأول مرة عام 2013م، وأدرج فيه الكثير من الأمور التي التبتت على بعض العلماء وحاول التفصيل فيها باستخدام الإقناع والتنظير الدقيق لها.

يقع قارئ الكتاب بالخلط ويلتبس عليه الأمر، فصل الحديث في موضوع الخطابة والشعر⁽¹⁾، فالأولى قائمة على التصديق، والشعر قائم على التخيل:



فالشعر قائم على التخيل من أجل الإمتاع، أما الخطابة فهي قائمة على التداول والتصديق للوصول إلى الإقناع.

أشاد بكتابات كل من الجاحظ في البيان، وعدّه من منظري الحجاج العربي، وكذلك عقد فصلاً في الحديث عن بلاغة الإقناع لديه، ولم ينسَ شيخ العربية الجرجاني، وتحدّث عن نظريته التي لا مثيل لها في العربية⁽²⁾، وحاول أن يظهر الحجاج البلاغي لديه في دلائل إعجازه وكذلك في أسرار البلاغة.

اختزل الحجاج في ثلاث صور تشترك في دعوتها العقل إلى الانسجام مع مبادئه، أو مع العالم الخارجي المحيط بما يحوي من قيم ومواضعات اجتماعية⁽³⁾:

- القياس أو القياس الخطابي: وهو القياس المضمّر القائم على الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور، ومنها: التعارض، والتضاد، والمستقصي.
- المثال: هو استقراء بلاغي أو حُجّة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، ويراد استنتاج نهاية إحداها بالنظر إلى نهاية مماثلتها، ويعد دعامة كبرى من دعائم الخطابة لما يحققه من إقناع وتأثير.

(1) والفصل يعود في الفصل بين الخطابة والشعر لأرسطو حيث عقد كتاباً خاصاً بالشعر وآخر للخطابة، والحقيقة أن الدكتور محمد العمري قد تأثر بفلسفة أرسطو وتقسيماته ويتضح جلياً ذلك في كتابة في بلاغة الخطاب الإقناعي.

(2) نظرية النظم.

(3) يُنظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، العمري، ص71.

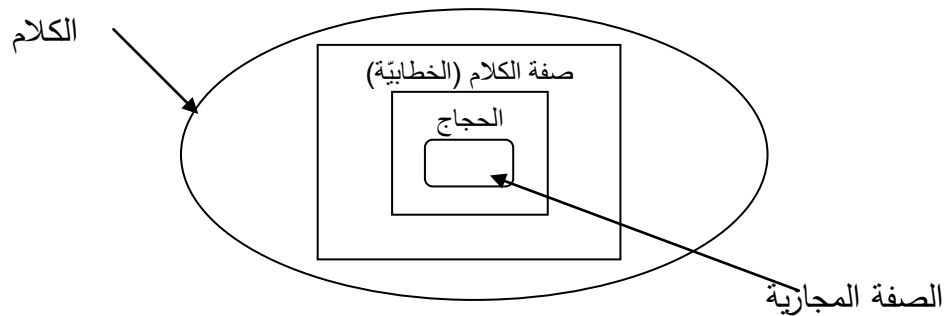
- الشاهد: وهو من الحجج الجاهزة أو غير الصناعية كما يسميها أرسطو، ويجمع الأمثال والأبيات الشعرية، والآيات القرآنية، وكان للشواهد القرآنية ثلاثة استعمالات في الخطابة العربية القديمة تمثلت في:
- الاحتجاج لقضية مختلف فيها.
- تمثيل حالة مشابهة.
- الاستئناس أو خلق الجو الديني في الخطبة؛ لتحقيق الإثارة وحسن الموقع في النفس.

وبذلك يعد العمري بحق رائد من رواد الحداثة الذين كرسوا جهداً لا مثيل له في إعادة التنقيب والبحث في التراثين، هذا وأضف إليه فكره العميق في قراءة المقدم قراءة حوارية نقدية بعيداً عن المحابة، فالججاج لديه قد اكتسب بثوبٍ بلاغي حاول فيه التجديد في النظرة لعلم البلاغة العربية والتجديد في نظرتة لها، محاولاً تقديم مشروع ججاجي كان له السبق فيه.

ثالثاً- الججاج عند طه عبد الرحمن

طابع الفلسفة قد كان واضحاً في كتابات الدكتور طه عبد الرحمن، يعدّ كذلك من السابقين العرب الذين تعمّقوا في دراساتهم للججاج، وقد بنى أقواله على الفلسفة العربية والغربية، ومن بين مؤلفاته؛ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، وكتاب في أصول الحوار وتجديد علم الكلام.

بنى كتابه الموسوم باللسان والميزان؛ على دعوة مرادها أن الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الججاجية⁽¹⁾، وذلك لأنه لا خطاب بدون ججاج، ويمكن توضيح المنظومة في هذا الرسم:



(1) يُنظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص 213.

وعبر عن الكلام ضمن حقلٍ واسع يتّسم بصفة خطابيّة، والأصل في كل خطابٍ كما وضّحنا أعلاه هو الججاج، وتقوى درجة الججاج أن قمنا بدفعه بأقوالٍ مجازية حيث تتكاثر فيه درجة التأثير والإقناع للمتلقّي.

ثم إنَّ حدَّ الججاج عنده هو: "فعالية تداولية جدلية، فهو تداولي؛ لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي"⁽¹⁾.

ويفهم من هذا القول بأن الججاج يراعي المقامات والأحوال، ويهدف لتصميم دائرة من أجل التكاثر في إنتاج المعرفة.

ويتابع الدكتور في وضع حد الججاج القول بأنّه: "وهو جدليّ لأنَّ هدفه إقناعي"⁽²⁾.

إنَّ يتبنّى فكرة الإقناع والتي تحيل على المضامين، بحيث يقتنع السامع بفحواها ويخضع لمعناها، والأهم في موضعه كذلك أنه جدليّ؛ وهي أصل الفلسفة كونه قد اتبع منذ بداية حديثه منهج الفلاسفة العرب والغرب في تقعيده لنظرية الججاج.

ويضيف الدكتور من خلال عرضه لفكرته الججاجيّة، أن حقيقة كلّ كلامٍ قائمة على قصدين⁽³⁾: الأول منهما هو التوجه للغير وإلا كيف سنشكّل دائرة العبور بين المتلقّي والمتكلم؛ إلا من خلال عقد هذا القصد والذي بدوره يُفضي لمقصدٍ آخر وهو (الإفهام)، فلا تتحقق الوظيفة إلا إن كان المتكلم قد أرادها حقاً، ورتّب تسلسل المعاني في نفسه؛ كي يحقق رسالة مفهومة ذات مضمونٍ مناسبٍ لمتلقّي الرسالة.

وترى الباحثة بعد تجريد الحديث أن الدكتور طه قد تأثر كثيراً بالجاحظ وآرائه ضمن هذا الإطار، حيث رأينا في فصل الحديث عن تراثنا كيف عقد الجاحظ باب البيان، ورأى أن غاية البيان هي الإفهام والإقناع، وهي في المقابل الحداثي غاية كل ججاج التأثير في المتلقّي وتتبع

(1) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبدالرحمن، ص 65.

(2) المرجع السابق، ص 65.

(3) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، ص 214.

العلماء شرقًا وغربًا هذه الوظيفة. فالإفهام والإقناع يقومان ضمن عملية تواصلية هدفها الأسمى التبليغ والتأثير والإذعان.

ومن الجديد الذي أضافه الدكتور هو تمييزه بين ثلاثة أصناف من الحجاج⁽¹⁾ وهذا بعد تحديده عددًا من المصطلحات الخاصة بالاستدلال وكيفية توزيعها على أطراف العملية الخطابية من مخاطب ومخاطب، وهي:

حجاج تجريدي: ويعني الإتيان بالدليل على القضية المطروحة منتبعا في مذهب أهل البرهان، في استدعاء الاستدلال الصوري الذي من شأنه يحاول صرف النظر عن المضمون، ويهتم بترتيب صور العبارات والألفاظ.

حجاج توجيهي: يعمل فيه على إقامة الأدلة بناءً على فعل التوجيه الذي يصدر من المستدل (المخاطب)؛ أي: صاحب الدعوى، وقام بربط هذا النوع بنظرية الأفعال اللغوية، التي تبنت مصطلح القصدية، ومصطلح الفعل الكلامي.

حجاج تقويمي: يقوم فيه بإثبات الدعوى مستندا على مقدرة المستدل في النظر ضمن فعل إلقاء الحجة إلى المخاطب، ويتعداه كذلك إلى النظر في فعل التلقي مستحضرا كافة الأجوبة والردود.

والواضح أن الدكتور قد اكتست نظريته الحجاجية بعدا فلسفيا عميقا لمن تتبع كتبه وأطال النظر فيها، قد بنى أقواله على ما جاء من وحي الحجاج العربي، وكذلك أفاد من نظريات الحداثة الغربية ضمن مضمار الحجاج وأهميته وأهدافه، وربما كان اتجاهه مخالفاً عن العالمين السابقين كونه أسس لفلسفة حجاجية منبعها غربي وعربي في الآن ذاته.

(1) اللسان والميزان أوالنكوتر العقلي، طه عبدالرحمن، ص226.

ثالثاً - نظرية الأفعال الكلامية

إن شيوع الأفعال الكلامية في دراسات المحدثين لأمر لافت للنظر، وتمخض عن هذا الامتداد الاصطلاحي اختلاف الرؤى وتعدد المآرب والمشارب التي غُذي به هذا المفهوم، لاعتباره الأساس الذي انبنى عليه الاتجاه التداولي، ولقد كان لظهور كتاب (أوستين) الموسوم بـ (كيف ننجز الأفعال بالكلمات)، أثراً تأسيسياً لنظرية الأفعال الكلامية، ثم جاء تلميذه (سيرل) لينظم الأفكار ويعيد النظر فيها، ويقدم ترسيمة لبناء جديد لتلك الأفعال ويقدم لها نموذجاً نهائياً.

موضوع الحديث هنا ليس لسبر أغوار النظرية على الامتداد المعرفي لمصطلحاتها وتعدد وجهات نظر العلماء فيها من عرب وغرب، إنما الحديث عن الوظيفة الحجاجية لهذه الأفعال ضمن الرسالة، وستقدم الباحثة عرضاً موجزاً لبعض الاصطلاحات التي ستستخدمها دون توسع في بابها.

يُعرَّفُ الفِعْلُ الكَلَامِيُّ بِأَنَّهُ: "التصرف الإرادي الذي ينجزه الإنسان بالكلام".

فهو إنجاز يأتي بمجرد تلفظ المتكلم بملفوظات معينة، ومن الأمثلة عليه: الأمر والنهي، والوعد، والسؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية... وهذا كله ضمن الأفعال الكلامية، يرى الدكتور صحراوي⁽¹⁾ لو طبق هذا المعنى على اللغة العربية فإن المعاني والإفادات التي تستفاد من صيغ التواصل العربي وألفاظه: كمعاني الأساليب العربية المختلفة الخبرية والإنشائية، ودلالات حروف المعاني، وغيرها من الصيغ والأساليب، هي ما يمثل نظرية الأفعال الكلامية في التراث العربي، وذلك إن نظرنا عليها باعتبارها ألا تحتوي على دلالات ومضامين لغوية، وإنما هي فوق ذلك أغراض إنجازية ترمي إلى صناعة أفعال وسلوكات مؤسساتية واجتماعية أو فردية بالكلمات، والتأثير في المخاطب بحمله على الترك أو الفعل، فكل ملفوظ ينهض على شكل نظام دلالي إنجازي وتأثيري.

فنظرية أفعال الكلام وفق ذلك لا تتنظر للغة كونها أداة للتواصل والتعبير عن الفكر، بل هي أداة لتغيير العالم وصناعة أحداثه والتأثير فيه.

(1) الأفعال الكلامية عند الأصوليين، مسعود صحراوي، ص 185.

توصل (أوستين) في آخر بحثه لتقسيم الفعل الكلامي الكامل إلى ثلاثة أفعال فرعية⁽¹⁾:

- فعل القول (الفعل اللُّغوي): وهو إطلاق الأفعال في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة.
- الفعل المتضمن في القول: هو فعل الإنجاز الحقيقي وهو الجزء المقصود من النظريّة برمتها.
- الفعل الناتج عن القول: يرى (أوستين) أنه مع القيام بفعل القول ما يصحبه من فعل متضمن في القول (القوة).

ويرى أن للفعل الكلامي خصائص ثلاث⁽²⁾:

- إنه فعل دال.
- إنه فعل إنجازي.
- إنه فعل تأثيري.

وقد ميز بين نوعين من الأفعال⁽³⁾:

أفعال إخبارية: وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي، وتكون صادقة أو كاذبة.

أفعال أدائية: تتجزأ بها في ظروف ملائمة أفعال تؤدي، ولا توصف بصدق ولا كذب؛ بل تكون موفقة أو غير موفقة، ويدخل فيها التسمية والوصية والاعتذار والرهان والنصح والوعد.

ولا تكون الأفعال الأدائية موفقة عنده إلا إذا تحققت لها شروط الملاءمة، فإن لم تتحقق كان ذلك مؤشراً على إخفاق الأداء، وشروط قياسية وهي ليست لازمة لأداء الفعل، بل لأدائه أداءً موفقاً غير معيب، فإذا لم تتحقق كان في ذلك إساءة أداء للفعل.

ثم عمل على تقديم تصنيف للأفعال الكلامية على أساس من قوتها الإنجازية:

(1) التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحرأوي، ص 41-42.

(2) يُنظر: المرجع السابق، ص 44، وآفاق جديدة في البحث اللغوي، ص 45، والاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي أدراوي، ص 85.

(3) آفاق جديدة في البحث اللغوي، محمود نحلة، ص 43-44.

أفعال الأحكام: وهي التي تتمثل في حكم يصدره قاضي أو حاكم.

أفعال القرارات: وتتمثل في اتخاذ قرار بعينه كالإذن والطرء، والحرمان، والتعيين.

أفعال التعهد: وتتمثل في تعهد المتكلم بفعل شيء، مثل: الوعد، والضمان، والتعاقد.

أفعال السلوك: وهي التي تكون رد فعل لحدث ما؛ كالاعتذار، والشكر، والمواساة.

أفعال الإيضاح: تستخدم لإيضاح وجهة نظر أو بيان رأي، مثل: اعتراض، أو تشكيك، أو إنكار.

وعنده لدراسة صيغ الفعل اللغوي تمييز مشهور⁽¹⁾ بين أنواع ثلاثة من فعل الكلام:

- إنجاز فعل الكلام (وهو تأدية الفعل بأن نقول شيئاً ما).
- قوة فعل الكلام (هو إنجاز فعل في حال قول شيء ما).
- لازم فعل الكلام (وهو تأدية الفعل بواسطة قول شيء ما).

وما قدمه (أوستين) لم يكن كافياً لبناء نظرية متكاملة للأفعال الكلامية، لكنه قد شكّل نقطة انطلاق لبناء بؤرة مركزية لنظرية الأفعال الكلامية، ثم جاء تلميذه (سيرل) وأدخل بعض التعديلات على أسس الأستاذ من قبله.

ومن التعديلات تقديمه شروط الملاءمة فجعلها أربعة، وطبقها بإحكام على الكثير من الأفعال الإنجازية، وهذه الشروط هي:

شروط المحتوى القضوي: ويتحقق عندما يكون للكلام معنى قضوي⁽²⁾، وهو المعنى الأصلي للقضية، ويتحقق شرط المحتوى القضوي في فعل الوعد -مثلاً- إذا كان دالاً على حدث في المستقبل يلزم به المتكلم نفسه.

الشرط التمهيدي: ويتحقق إذا كان المتكلم قادراً على إنجاز الفعل، لكن لا يتضح ذلك عند المتكلم والمخاطب أن الفعل المطلوب سينجز في المجرى المعتاد للأحداث، أو لا ينجز.

(1) مبادئ التداولية، جيوفري ليتش، ترجمة: عبدالقادر قنيني، ص260.

(2) نسبة إلى القضية، التي تقوم على متحدث عنه أو مرجع، ومتحدث به أو خبر.

شرط الإخلاص: ويتحقق في إخلاص المتكلم في حديثه بحيث يقول الذي يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع.

الشرط الأساسي: ويتحقق حين محاولة المتكلم التأثي في السامع من أجل إنجاز الفعل.

وعمل سيرل على تقديم تصنيف بديل للأفعال الكلامية وفق ثلاثة أسس منهجية:

1- الغرض الإنجازي.

2- اتجاه المطابقة.

3- شرط الإخلاص.

وصنّف الأفعال اللغوية المنجزة أثناء التلفظ إلى أربعة أصناف، وهي⁽¹⁾:

1- الفعل التلفظي.

2- الفعل القضوي.

3- الفعل التأثيري.

4- الفعل الإنجازي.

واقترح خمسة أصناف للأفعال الكلامية، هي:

- الإخباريات.

- التوجيهيات.

- الالتزاميات.

- التعبيريات.

- الإعلانيات.

وهذا التصنيف المتبع في تحليل الأفعال الكلامية الواردة في الرسالة.

(1) الاستلزام الحوارية في التداول اللساني، العياشي أدراوي، ص92.

الفصلُ الثَّاني

آيَاتُ الْحِجَاجِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي رِسَالَةِ الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ

المَبْحَثُ الأول: المَقَامُ الخطابي

يعدُّ المَقَامُ مِنْ أهُمِّ أُسُسِ دِرَاسَةِ النُّصُوصِ ومعرفة اتجاهاتها وتقلباتها، فقد نال الحظ الوفير من الاهتمام عند العلماء قديمًا؛ حيث اعتنى به البلاغيون وأوجبوا مراعاة المتكلم لأحوال المستمعين⁽¹⁾، وما يجب لكل مقام من مقال.

إن التدوالية هي وليدة اليوم بمصطلحها؛ لكن إشاراتنا قد ظهرت في تراثنا القديم، وتجلّت حقيقةً في تناول النحاة لمضمون العلاقات ضمن كتاب الله مبكرًا، وظهور دراساتهم التي كانت تعتمد على نظامٍ لُغَوِيٍّ له علاقة بالمقام، وربط تلك النصوص بأسباب النزول وغيرها، فكل تلك تشير إلى النظام المعنوي الذي اتبعه العلماء عن دراسة ودراية لما حول النص من تكتلات غير نصيّة وأخرى نصيّة.

إن افتقار النص إلى معرفة المقام الذي قيل فيه يؤدي إلى غموض فكرته وانحسارها وعدم تفتق دلالاتها، ولا يُتوصل إلى معرفة الأهداف المرجوة منه، ولا يمكن بأي جهة فصل الحجاج عن السياق والأحوال التي ترتب عنها "الحجاج مقولة لُغَوِيَّة مركّبة، لها وصل بمقامات الخطاب وسياقاته"⁽²⁾.

ومن هنا فالمقام بؤرة رئيسة تسير نحوها البلاغة، ويقابله السياق ومقتضى الحال، ولكل مقام مقالٍ منبثقٍ عنه، وقد انكبّ البلاغيون على ربط المقامات مع التراكيب والصياغة الجمالية للنصوص، مدركين أهمية تحديد المقامات وما تؤديه من دور في رسم خطوط البلاغة وحدودها ووظيفتها.

المقام لغة واصطلاحًا

عند الفراهيدي (170هـ): "المقام موضع القدمين، والمُقام والمُقامة: الموضع الذي نقيم فيه، وتقول: قمت قيامًا ومقامًا"⁽³⁾.

(1) يُنظر: البيان والتبيين، الجاحظ، ج1/138.

(2) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، علي الشبعان، ص86.

(3) كتاب العين، الخليل بن أحمد، ج3/444.

وعند ابن منظور (711هـ): "والمقام موضع القدمين، قال:

هَذَا مَقَامٌ قَدَمَي رِبَاحٍ غُدُوَّةٌ حَتَّى دَلَكْتُ بَرَّاحٍ⁽¹⁾

ويروى: بِرَّاحٍ. والمَقَامُ والمُقَامَةُ: الموضع الذي تُقيم فيه"⁽²⁾.

إذن في التعريف اللُّغوي للكلمة نراها تسير في اتجاه الموقع والموضع، وتكاد تنحصر فيهما، وَظِلُّ الكلمةِ هذهِ يشير علينا بالاصطلاح وضرورة معرفته عند اللُّغويين والبلاغيين القدماء تحت قيد هاتين الدالتين، فموضع الحديث والكلام والسياق ضروري لتحديد الإشارات الكلامية وسبب تمحورها، وانبثاق المقامات وتوليدها معرفته أكيدة مهمة للعملية الإفتناعية والتأثيرية.

ومقامات الكلام عند العلماء: "الأمر المقتضية لاعتبار خصوصية في الكلام"⁽³⁾، واختلاف كل مقام يولد اختلافًا في المقالات؛ لِأَنَّ اختلاف الأسباب ناتج عن اختلاف المسببات، فموارد الماء ومناهلها قد يكون منه العذب وقد يكون الأجاج، وكل هذا يرجع لأصل المنابت والمصاب التي ينفجر بها وعنهما ينبوع.

أما العسكري (395هـ) فيذكر ملابسات المقام وخصائص موافقته للمقال بقوله: "واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال فإذا كنت متكلمًا أو احتجت إلى عمل خطبة لبعض ما تصلح له الخطب أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد، فتخطّ ألفاظ المتكلمين مثل الجسم والعرض والكون والتأليف والجوهر فإذن ذلك هجنة"⁽⁴⁾.

(1) البيت في النوادر لأبي زيد الأنصاري وهو من قول الرِّجَاز، وروايته عند الفراء بكسر الباء وهي باء الجرّ (وهو جمع راحة وهي الكف)، أي: (استريح منها): يعني أن الشمس قد غربت وزالت فهم يضعون راحتهم على عيونهم من شعاعها هل غربت أو زالت.

وعند ثعلب: (حتى دلكت برّاحي).

يُنظر: مجاز القرآن، ج1/239، النوادر في اللغة، ص315، وتهذيب لألفاظ، ص393، ومجالس ثعلب، ص373، ولسان العرب، ج12/498.

(2) لسان العرب، ابن منظور، ج12/498.

(3) حاشية الدسوقي على السعد، الدسوقي، ج1/125.

(4) كتاب الصناعتين، العسكري، ص135.

ومن إشارات القدماء لأهمية المقام في معرفة المقالات قول السكاكي (626هـ) في مفتاح العلوم: "ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبها مقام؛ ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام ما يليق به، وهو الذي نسميه مقتضى الحال"⁽¹⁾.

فهو هنا يعرج على أهمية إرجاع الأسباب لمسبباتها ومجاري القول تختلف باختلاف أصولها ومنابتها، ويجعل لكل سياق كلامًا يناسبه، ويحوز به صفة البلاغة.

وبشير القزويني (682هـ) إلى أهمية المقام بقوله: "وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التذكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد..."⁽²⁾.

من هذا نستطيع القول إن البلاغة تهتم كثيرًا بالسياق والمقام، وهي أمور ذات أهمية بالغة لتحديد جماليات النص ومواطن الطاقات الإقناعية والتأثيرية فيه، وسنرى المحدثين كيف حاولوا إدراج هذه الفكرة بالغة الأهمية في دراسة نصوصهم، وتسييرها على مقاصدهم للسير نحو الإقناع والتأثير في أطراف العملية الكلامية التواصلية الاتصالية.

فهذا حديث (بيرلمان) عن أهمية المقام وأولوياته التي يجب على المتكلم التركيز عليها وعلاقته بالموضوع فهو يذكر الآتي⁽³⁾:

- ذكر حقائق فعلية وأحداث معنوية لا يشكّ المخاطبون في ثبوتيتها المرجعية، لكن ذكرها في الخطاب أو النص لا بدّ أن يكون له طابع حجاجي.
- لن يتوفر الطابع الحجاجي إلا إذا أحدث ذكر تلك الحقائق صراعًا وجدلاً مع أحداث أخرى كان المخاطب يتوقع ذكرها، لكنّ المتكلم رغب عنها لأجل خلق إطار منطقي للحقائق التي اختارها، وكذلك لكي تصير فعلاً هي الملائمة للمقام.

(1) مفتاح العلوم، السكاكي، تحقيق: عبدالحميد هنداي، ص256.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص11.

(3) مفهوم الحجاج عند بيرلمان، محمد الأمين، ص85.

ويشير عبد الله صولة إلى أَنَّ الحِجَاجَ الناجع والناجح معًا موقوف على مطابقة المقال للمقام، وهذه الفكرة مستمدة من فهمنا للبلاغة ومقصدها الأساس.

البنية المقاميّة العامة للحدث في الصّاهل والشّاحج

تنوعت مقامات الرسالة بتعدد شخوصها الداخلة في تحريك أحداثها ومفعولاتها، ولدى القارئ في سطورها أن يلحظ هذا التنوع على طول الرسالة وتشعب تركيب حكاياها، وقامت الباحثة بتصنيف المقامات الموزعة على حسب المشاهد الخمسة التي ذكرتها الدكتورة عائشة⁽¹⁾، سوى مقام التحية فهو خارج عن ترتيب المشاهد، وكل واحد منها كان يعالج قضية رسم لها المعرّي فواصل مبنية؛ لتكون مقامًا كليًا ينتهي بانتهاء المشهد أو ربما⁽²⁾ يُكمل مساره في المشهد التالي له⁽³⁾.

وسنرى كيف استطاع المعرّي معالجة ذلك بكثير من الدقة لرسم حدودها المتقنة المخرجة بهدوء وطلاقة وبراعة، فهو القَطْمُ النافض الحديث كنفص النّذاف ضريبة القطن، هذا وقد تطرأ بعض الاختلافات في النبرات الكلامية ضمن الخطاب الحجاجي الموجه، وهو الذي تستدعيه المناسبة للمقام الحجاجي الجزئي.

مقام البداية

يقول المعرّي: "أُسَلِّمُ عَلَى الْحَضْرَةِ الْعَالِيَةِ تَسْلِيمَ الْعَاجِزِ الْمُقْصِرِ، كَمَا يَنْظُرُ الْهَادِي الْمُدْلِجُ إِلَى فَرْقَدِ اللَّيْلِ، وَالْيَمَانِيُّ الْمُشِيمَ إِلَى سُهَيْلٍ... وَلَوْ كُنْتُ بَالِغًا فِي الْأَدَبِ أَطُورِي لَكُنْتُ فِي

(1) وقد أطلقت عليه الدكتورة عائشة في الرسالة بالمشهد حيث قسمتها لخمس مشاهد وذلك من خلال الفهرس التابع لفصول هذه الرسالة. يُنظر: رسالة الصاهل والشاحج، ص 804-808.

(2) كالمشهد الثالث والرابع والخامس كل واحد منسل عن الذي يسبقه، ووحدها الشخوص الرئيسة التي تكررت في المشاهد الثلاثة هي الثعلب والشاحج، وبعض الشخصيات التي كانت قد ذكرت عرضا هي ثانوية لم تشارك في تحريك الأحداث ونقلها بل كانت بعض صوره ومادة الحديث المذكور ك(عزيز الدولة وجيشه وأعدائه).

(3) راجع الدراسة ص 13-14.

تِلْكَ الْحَضْرَةَ تَحْتَ الصَّبِيرِ، وَالْحَصَاةَ إِلَى جَانِبِ ثَبِيرٍ، فَمَا بَالِي وَأَنَا مُثْقَلٌ اسْتَعَانَ بِذَقْنِ وَطْفُلٍ
بَهْشٍ⁽¹⁾ إِلَى يَفْنٍ...⁽²⁾.

التقديم، وفيه يقول:

"أُسَلِّمُ عَلَى الْحَضْرَةِ الْعَالِيَةِ تَسْلِيمَ الْعَاجِزِ الْمُقْصِرِ"⁽³⁾. (يقدم نفسه هنا في صورة العاجز).

حُجَّة 1: "كَمَا يَنْظُرُ الْهَادِي الْمُدْلِجُ إِلَى فَرْقَدِ اللَّيْلِ"⁽⁴⁾. (وهي حُجَّة عاطفية، أي: ما يعرف بالإيتوس).

حُجَّة 2: "وَالْيَمَانِي الْمُشِيمُ إِلَى سُهَيْلٍ"⁽⁵⁾.

حُجَّة 3: "وَلَوْ كُنْتُ بَالِغًا فِي الْأَدَبِ أَطُورِي لَكُنْتُ فِي تِلْكَ الْحَضْرَةِ تَحْتَ الصَّبِيرِ،
وَالْحَصَاةَ إِلَى جَانِبِ ثَبِيرٍ"⁽⁶⁾.

فيه التَّسْلِيمُ والتمهيد للرسالة المنعقد إرسالها للأمير، مضيفاً إليه عبارات حجاجية للتقديم وإظهار الموالاتة لعزیز الدولة مستخدماً ألفاظاً تليق بمقامه وجلاله، فهو مقام تسليم وإظهار الأدب والتأدب مع السيد أمير الأمراء، والمقام يحتاج لمثل هذه العبارات المليئة بالود والتحبب لصاحب الشأن، وهو مفعّم بالحجاج العاطفي وعباراته المليئة بالقوة والتركيز على النقطة الرئيسة في الرسالة وسبب إرسالها، فالتحبب يتلوه ترحيب؛ بدأه بأطروحة، ثمّ البيان عليها بعدد من الحجج كما هو موضح أعلاه.

(1) بهش: أسرع إليه.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 81.

(3) المصدر السابق، ص 81.

(4) المصدر السابق، ص 81.

(5) المصدر نفسه، ص 81.

(6) المصدر نفسه، ص 81.

وهذا الحجاج العاطفي الذي تمكن من خلاله التعبير عن حضرة المقام العالي ضمن استعماله (لو) الشرطية التي اتصلت بالماضي حيث يلزم منه انتقاء الجواب واستعان على بيان حالته الخاصة المفتقرة الدالة على (العجز) من خلال قوله (كالحصاة إلى جانب ثبير).

يتحدث عن دعوى إرسال الرسالة بقوله⁽¹⁾: "وَرَفَعَ رَافِعٌ إِلَى الْحَضْرَةِ الْعَالِيَةِ، أَنَّ حَقًّا يَجِبُ لِلْخِزَانَةِ الْمَعْمُورَةِ عَلَى أَرْضِ أُولَئِكَ الدُّرْدِ⁽²⁾ النَّهَابِلِ⁽³⁾، وَسَأَلُونِي، وَالْمَسْأَلَةُ حُرْمَةً، أَنْ أَسْأَلَ السَّيِّدَ عَزِيزَ الدَّوْلَةِ وَتَاجَ الْمِلَّةِ أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ فِي ذَلِكَ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَكْلِفَهُمْ فِي الْيَوْمِ الْقَصِيرِ لُمَاسَاتٍ وَرُوبٍ، وَيَسْأَلُونِي شَهْلَاءَ هِيَ فِي الْعُمَرِ كَالْبَدْرِ فِي الْهَالَةِ وَالْقَرَابِ فِي الْخَلَّةِ وَالْمُتَقَارِبِ فِي الدَّائِرَةِ، فَأَرَدْتُ عَنْهَا مَكْبُوتَيْنِ، وَأَنَّمَا هِيَ الزُّهْرَةُ فِي الْأَفْقِ وَالْوَضِيعَةُ فِي الشُّقْرِ"⁽⁴⁾.

بعد أن ساق المَعْرِي مواقف أبناء عمومته وقيامهم على خدمته ومساعدته، ذكر هذه الفكرة والتي مفادها قيام رافع من أبناء الجيش بتقديم بلاغ ضد أبناء عمومته الذين لهم فضل عليه، بعدها قام بصياغة عدد من الأطروحات والمقدمات والعناوين التي تفرع عنها عدد من الحجج كذلك.

الأُطْرُوحَةُ

"وَقَدْ أَشْرْتُ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ تَنْجِزِهِمِ الصَّفْحَ عَنْ ذَلِكَ"⁽⁵⁾.

الحُجَّةُ 1: "الصَّبْرُ عَلَى الْقَنَاعَةِ أَقْبَلُ مِنْ سُوءِ الصَّنَاعَةِ"⁽⁶⁾.

الحُجَّةُ 2: "وَالْكَرِيمُ يَجِبُ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ"⁽⁷⁾.

(1) والتحية والديباجة وسبب لإرسال الرسالة ليست من ضمن المشاهد للصاهل والشاحج.

(2) درد الشخص: سقطت أسنانه كلها أو تحاتت أو تكسرت إلى أصوله.

(3) النَّهْبَلُ: الشَّيْخُ.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص 84-85.

(5) المصدر السابق، ص 86.

(6) المصدر نفسه، ص 86.

(7) المصدر نفسه، ص 86.

الحُجَّة 3: "وَالْجَمْرَةُ إِلَى الْجَمْرَةِ نَارٌ يَنْتَفِعُ بِهَا الْمَقْرُورُ"⁽¹⁾.

الحُجَّة 4: "والنغبة"⁽²⁾ مع أختها ريّ الظمان"⁽³⁾.

ثم قدم نتيجة بقوله: "فأبوا إلا غير ذلك"⁽⁴⁾.

وقدم حجتهم من جديد:

حجة 1: "إِنَّا لَا نَحْمِلُ أَوْفًا كَانَ مَوْضُوعًا فِيمَا سَلَفَ"⁽⁵⁾.

حجة 1: "وهذه الأيام المُشْرِقة لَوْ رَأَتْهَا دَوْسٌ لَمَا قَالَ الْقَائِلُ مِنْهُمْ: ذَهَبَ الْخَيْرُ مَعَ عَمْرٍو
بن حُمَمَة"⁽⁶⁾.

إن مقام الحال فرض على الكاتب أن يدلي بهذه الحجج رغبة وتأميلاً في مواعته
للسياق ففي كل طرح حجة، ولكل حجة نتيجة.

وفي هذه الأطرُوحَة التي ساقها يتحدث عن الحرج الذي تكلفه في نظم الرسالة، لكن
إصرارهم هو الدافع وراء كتابتها، فقد تحدث مراراً عن ترك إرسالها دفعاً للحرج من عزيز الدولة،
داعياً إياهم الصفح والتجاوز عن ظلمهم، وكانت هذه الحجج مدخلاً مهماً للولوج في صلب
الرسالة والدفع إلى الحديث عن حاجة بني عمومته.

وفي أثناء تقديمه للحُجَج التي قد كانت بالغة الأثر في صياغة تراكيبها وقوة تألفها في
الوصف والتمثيل؛ حيث اعتمد في نسجها وحبكها على لغة عالية ومؤشرات بالغة في توطيد
الهدف الأساس وهو الإقناع، ومحاولة توجيهه من خلال تلك العبارات الجاهزة المفعمة بالقوة

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 86.

(2) النغبة: الجرعة.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص 86.

(4) المصدر نفسه، ص 86.

(5) المصدر نفسه، ص 86.

(6) المصدر نفسه، ص 86-87.

الحِجَابِيَّة، والذي يلفت النظر تدشينه العديد من الأمثلة التي تعمل على تقوية الحُجَّة داخل النص.

ومن الدلائل المطروحة في هذا المقام كذلك

الأُطْرُوحَة

"فَجَسَّمُونِي كَلَامًا فِي ذَلِكَ، فَقَبَّحَ اللَّهُ مَعْرَى خَيْرِهَا خُطَّةً، وَشَجَرًا أَطْوَلَهُ الثَّرْبَةُ وَمُورِثَاتٍ لِلضِيْفَانِ أَكْثَرَهَا ضِرَامًا مَا يُوَقِّدُهُ أَبُو الْحَبَّاحِ"⁽¹⁾.

الحُجَّة 1: "فَمَا بَرِحُوا، وَالْكَاذِبُ خَائِبٌ، يَرْمُونَ بِالسَّرْوَةِ وَيَقْتُلُونَ فِي الدَّرْوَةِ، وَيَقَرَّدُونَ الْعَوْدَ النَّافِرَ، وَيُزْجُونَ نَقَالًا قَيْدَ مَا أُيِّدَ، وَيَحْدُونَ بِأَمِ الرُّبِيقِ عَلَى أُرَيْقٍ"⁽²⁾.

الحُجَّة 2: "وَإِذَا عَدَلْتُهُمْ فِي ذَلِكَ، فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لِأَفْقَرِ مِنَّا يُهْدَى غَمَامُ أَرْضِنَا، وَسَائِمَتُنَا أَحَقُّ بِمَا نَبَتْ فِي عَرْضِنَا"⁽³⁾.

الحُجَّة 3: "وَقَدْ وَصَلُوا بِهِذِهِ الرِّسَالَةِ رُفْعَةً يَرْجُونَ بِهَا مِنَ الْيَدِ الْعَالِيَةِ تَوْقِيْعًا مُؤَبَّدًا لَا يَكُونُ بَعْدَهُ الْقَوْلُ مُرَدَّدًا، بَلْ يَحْسِمُ بِإِجَابٍ طَمَعَ كُلُّ نَاطِرٍ وَجَابٍ"⁽⁴⁾.

لا شك أن الطروحات تتوالد من بعضها البعض، فكل أطروحة تسلم لأطروحة غيرها، وكلها توضح لنا علاقة المقام الوطيدة بالمقال، وكيف للأحداث أن تتوارد وتتوالى عن طريق إلقاء بعض الحجج التي تشكل الأساس للأطروحة، وكيف لها أن تتبثق عنها وعن متونها، فمنذ الطرح الأول نرى التوافق في الفكرة المقامية بين العدد الوارد لمجمل الأطروحات.

والمقام ضمن التوجه البيرولماني يعد مركز الانطلاق للحقائق والبراهين والمواقف والحوادث وترتيبات ظهورها تقف على تولد المقامات وتكوينها⁽⁵⁾، وعلى الباث أن يركز على معايير رئيسة فيما يتعلق بالتواطد بين المقامات المتتابة، والمواضيع المنتظر نسجها من خلال

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 87.

(2) المصدر السابق، ص 87-88.

(3) المصدر نفسه، ص 88.

(4) المصدر نفسه، ص 88.

(5) يُنظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان، محمد سالم ولد الأمين، ص 83.

المقام، وكيفية ترتب السياقات على البنية الأساس لمركزية الحوار وانطلاقه، ثم تعدد الحجج وتشابكها.

المقام الثاني

هو مقام قد مهد لحضوره منذ الانطلاق الأول لحديثه عن الأريضة الفقيرة التي فيها شاحج معصوب العينين. وهذه الأطروحة تدلّ ما ساقه المعزّي من عذاب ومشقة تكابدهما في عملها داخل الأرض، وهو يرسم صورة حجاج ساخر تعكس مآله، وتتمثل في بيان حاله وما يلاقيه من شقوة في أيامه.

الأطروحة قوله في الدابة: "وهي في أوقات النجر يكف بصرها عند الفجر فتتظر إلى القمر دون الشمس، ويومها في الشقوة نظير الأمس"⁽¹⁾.

الحجة 1: "يستأجر لها غلام غارم، لا كريم هو ولا مكارم، فيسوقها بالعجزاء سياقة عنيف ويمزق جلدًا تمرّيق الخنيف"⁽²⁾.

الحجة 2: "فهي تروي الناضر ولا تلقاه، وتسمع قسيب الأزرق ولا تسقاه، وتمر عليها الدجالة من الرفاق، فإذا سمعت صوت الحافر هاج ذلك عليها طربًا وحزنًا"⁽³⁾.

الحجة 3: "فجائز أن تضمّر هذه البهيمة أو تقول باللسان ما لا يفهمه كل إنسان، من كلام معناه (رب صلف تحت الراعد)⁽⁴⁾، (وساع دأب لقاعد)⁽⁵⁾..."⁽⁶⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 90.

(2) المصدر السابق، ص 90.

(3) المصدر نفسه، ص 90.

(4) الصّلف: قلة النزل والخير، والراعدة: السحابة ذات الرعد.

يضرب للبخيل مع الوجْد والسعة، كذلك قاله أبو عبيد. ينظر: مجمع الأمثال، للميداني، ج 294/1.

(5) يقال: إن أول من قاله النابغة الذبياني، وكان وفد إلى النعمان بن المنذر وفود من العرب فيهم رجل من بني عبس يقال له شقيق، فمات عنده، فلما حبا النعمان الوفود بعث إلى أهل شقيق بمثل جباء الوفد، فقال النابغة حين بلغه ذلك:

رب ساع لقاعد. مجمع الأمثال، للميداني، ج 299/1.

(6) رسالة الصاهل والشاحج، ص 91.

وهي ولادة فريدة الصنع؛ كونه قد ربط السبب الأول من الأرض موضع الشكوى بدابة عمياء، يتحدث فيها المَعْرِي⁽¹⁾ عن شقاء دائم وعناء ملازم فيومها كأمسها في النكد وتشابه أطراف العذاب وسياطه، واستطاع المَعْرِي توليد مجموعة من العبارات التي تعكس مقام الأسى الذي تجالده وتعيشه تلك الدابة العمياء، فأيامها تكاد تكون متشابهة لا فرق بينها، فالسواد يخيم على أرضها وسمائها، وذلك كونها معصوبة العين لا ترى.

ومن هنا بداية انسلال المشاهد وحبكها، حيث ربطها بصورة خفية مثلت حال المَعْرِي وعماء، ثم الانطلاق المجموع لتلك الكائنات المتحركة داخل الرسالة، والتي أدت لحدوث التفاعل وصناعة المشاهد الدائرية للمقامات الخطابية المتعددة، ثم تكون الأزمنة باسترجاعاتها المطابقة لحقيقة الواقع واستباقاتها، وإبداع وصف الأمكنة وحدّها وإبراز حدودها ومعالَم تكوينها.

ثم نراها تسوق الحجج في شكواها للصاهل، وهنا الانطلاق الحقيقي للمشاهد الفعلية التي أدت لتتوَع مقامات الرسالة وبروز جمالياتها وبديع تكوينها.

الأُطْرُوحَة

يقول فيها: "لَعَلَّ عِلَاوَةَ تُحَطُّ عَنْ فَوْدَى مُثْقَلٍ، وَنَزْعًا بِالْغَرْبِ يُخَفِّفُ عَنْ خَابِطِ عِضِهِ، وَرَاحَةً يَنَالُهَا الْمُتَعَبُ فِي النَّهَارِ وَالظُّلَمِ، وَعَيْنًا تُنْطَلِقُ مِنَ السَّجَنِ الدَّائِمِ فَتُبْصِرُ الْوَضَحَ، فَقَدْ بَلَغَ نَسِيسَ الْحُشَاشَةِ وَافْتَقَرَ إِلَى الْكَلِمَةِ رَبُّ الْكَلِمَةِ ... فَلَعَلِّي أَنْصَفُ مَعَ الْمَظْلُومِينَ، قَدْ تَرَى مَا أَنَا فِيهِ لَا يُطْلَبُ بَعْدَ عَيْنٍ أَثَرٌ"⁽²⁾.

الحُجَّةُ 1: "إِنِّي مَعَ الَّذِي أَلَاقِيهِ مِنْ قِلَّةِ الدَّعَةِ وَعُنفِ السِّيَاقِ، يَسُوسُنِي أَجِيرٌ كَسَلَانٌ إِذَا سَأَلَهُ الْمَلَأُ: أَرَوَيْتُهُ مِنْ سُؤْيِدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَحَشَشْتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ؟... وَهُوَ بِشَهَادَةِ اللَّهِ أَكْذَبُ مِنَ الشَّيْخِ الْغَرِيبِ وَالْأَخِيذِ الصَّبَّاحَانِ، وَتَوَهَّمِ الْمُخَفِّقِ وَتَحْيَلِ الْوَالِدَةِ وَالْبَرْقِ فِي عَامِ السَّنَةِ"⁽³⁾.

(1) وكأن المعري في هذه الصورة يتمثل بعماء، لما نعلمه عنه أنه كان كثير التندّر والتفكّه بفقدان بصره، وهذا كان من جميل تصبّره على فقدان نعمة البصر.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 96-97.

(3) المصدر السابق، ص 98.

الحجة 2: "وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَضْحَى أَوْ فِطْرٌ، وَهَمَّ كُلُّ تَقَلٍّ بِعِطْرِ، وَاهْتَمَّ الْمُقْتِرُ بِإِخْضَامِ الْعَيْلَةِ، وَسُمِحَ لِلنَّصِيبِ مِنَ الْبَهَائِمِ بِالرَّاحَةِ، وَغَسَلَ أَطْمَارَهُ كُلُّ قَهْلٍ⁽¹⁾، وَضَحِكَ إِلَى أَخِيهِ الْعَابِسُ، وَرَجَوْتُ أَنِّي لَأَشْتِغَالَ الزُّرَّاعِ بِصَلَاتِهِمْ فِي الْعِيدِ وَإِصَابَتِهِمْ شَيْئًا مِّمَّا صَنَعَهُ الْآدَمِيُّونَ، أَظْفَرُ بِقِسْمٍ مِنَ الرَّاحَةِ وَسَهْمٍ أَنْتَفِعُ بِهِ مِنَ الدَّعَةِ"⁽²⁾.

الحجة 3: "وَفِي أَيِّ شِقْوَةٍ لَا أَضَعُ مُعَلَّى الْقِدَاحِ؟ أَلَسْتُ فِي عُنْبَرَةِ الشِّتَاءِ يَأْخُذُ عَبَاةَتِي الْأَجِيرُ فَيَبْتَدَأُ بِهَا فِي اللَّيْلِ، فَأَمَارِسُ قِرَّةَ الْأَشْهَبَيْنِ؟ وَإِذَا نَظَرْتُ الْبِقَاعَ الْمَوْسُومَةَ بِعَيْنٍ أَوْ عَيْنَيْنِ، وَصَارَ الْحَائِلُ مِنَ الْأَمْكِنَةِ نَظِيرَ الْحَوْلَاءِ"⁽³⁾.

ولنا أن نرى دقة هذه الانطلاقة الاستهلالية ومدى فعالية ارتباطها بالمقام الذي يسبقها، فهي وليدته، امتدت من رحم حضوره وانبثاق دلالاته، وفيه يتحدث المعري عن شقاء الدابة وحديثها وشكواها للصاهل ما تلاقيه من تأزم وسوء معاملة من بني الإنسان، وتدل على أطروحتها بمجموعة حجج واضحة بينات، ثم يمت بعد ذكر التظلم هذا للصاهل بالخوولة، ويعمد لهذا النزول عنده وهو في طريقه من مصر إلى حلب، أن يرفع له تظلمه المنظوم⁽⁴⁾ على شكل أبيات من الشعر، ويريده أن يوصله إلى ولاية العدل بحلب.

استخدم المعري الاستفهام في الحجة الثالثة ليؤسس بعض المعطيات من خلال طريقة تواصلية مقامية، كونه من أبرز الطرائق التليغية الإقناعية، فالاستفهام هنا ارتبط مباشرة بالعرض (الأطروحة) ما دعم وفعل عنصر الإقناع من خلال خروجه عن مقتضاه إلى التعجب والاستنكار، ومن هنا أضحي الاستفهام عنصراً فاعلاً في العملية الحجاجية.

والحجج المذكورة كانت لتقوية الأطروحة وتفعيل دور الإقناع والتأثير في القول الملقى على ذهن الصَّاهِلِ، فهو يحاول رسم حجاج ببلاغة عليا تُحطُّ على أطراف وأسنة الكلمات؛ ليكون وهج حروفٍ مثقلاتٍ بالبيان المُقنع والممتع في الآن ذاته.

(1) قَهْلٌ فلانٌ: لم يتعهد جسمه بالماء ولم ينظفه.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 98.

(3) المصدر السابق، ص 101.

(4) ذكره في ص 96.

المقام الثالث

مقام بُني على التّحاور بين طرفين وشخصيتين، الأولى رئيسة وهي الحاضرة في مجمل المقامات، وأخيرة ينتهي ظهورها بانتهاء مقام الحديث بين الصّاهل والشّاحج، وهي امتداد للمسألة التي أثارها الشّاحج ضمن المقام السابق وعن قدرته نظم الشّعْر، وكيفية تشكّل المقام كانت وليدة أطروحات ومقالات الشّاحج وكيف للصّاهل فيها أن يردّ الخوْلة وينفيها بمجموعة من الشواهد التي ساقها في حديثه، وإلصاق تهم بالشّاحج: "أَغْرَكَ أَنَّ جَاهِلًا مِنَ الْقَوْمِ كَانَ يَدْعُو أُمَّكَ فَرَسًا"⁽¹⁾.

تعدد المواقف يصاحبه تنوع في مستوى القيم بوصفها عناصر حجاجية جاهزة من جهة، ثم بوصفها موضع اتفاق وتسليم من جهة أخرى⁽²⁾.

ومن الأطروحات في هذا المقام

قوله: "وَيَكْفِيكَ عَيْبًا لِلْمُدَّعِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- جَعَلَ الْبَيِّنَةَ عَلَى مَنْ ادَّعَى، وَحَسْبُكَ بِتِلْكَ ظَنَّةٌ"⁽³⁾.

حُجَّة 1 (حجج الصّاهل في نفي الخوْلة): "زَعَمْتَ أَنِّي خَالُكَ؟! وَأَيُّنَ الْآفِقُ مِنَ اللَّئِيمِ وَلَدَتْهُ غَافِقُ؟ وَمَا بَيْنَ الشَّرْبَةِ وَالصَّرْبَةِ مِنْ سُهْمَةٍ؟ وَمَا قَرَابَةُ الْبَيْدَانَةِ إِلَى الرِّيدَانَةِ؟ لَيْسَتْ الرَّقْلَةُ عَمَةً لِلشَّيْحَةِ وَلَا خَالَةً"⁽⁴⁾.

حُجَّة 2: "فَلَا تَغْرُنْكَ الْأَسْمَاءُ، قَبْلَ الشَّائِمِ كَانَتْ السَّمَاءُ، مَا الْعِكْرِمَةُ هَنَقَتْ بِدَهْلٍ، كَدَ (عِكْرِمَةٍ) وَلَدَ أَبِي جَهْلٍ، وَلَا الطَّلْحَةُ رَعْنُهَا الْإِبْلُ فِي الرُّوحَاتِ كَدَ (طَلْحَةِ الطَّلْحَاتِ)، وَلَا السَّلْمَةُ عَضَبَهَا رَاعٍ كَدَ (سَلْمَةٍ) أَخِي الْقِرَاعِ"⁽⁵⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 113.

(2) يُنظر: مفهوم الحجاج عند بيرلمان، محمد سالم ولد الأمين، ص 84.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص 109.

(4) المصدر السابق، ص 110.

(5) المصدر نفسه، ص 110.

حُجَّة 3: "أَغْرَكَ أَنَّ جَاهِلًا مِنَ الْقَوْمِ كَانَ يَدْعُو أُمَّكَ فَرَسًا؟ لَيْتَ لِسَانَهُ ذَلِكَ أَشْعَرَ خَرَسًا، حَنَّ شُجَيْرٍ فِي الرَّبَابَةِ وَضَبَحَ دِرْصٌ فِي الْعَابَةِ"⁽¹⁾.

فهذه الأَطْرُوحَة ضمن أطروحات عديدة في هذا المقام، حيث تبين احتجاج الصَّاهِلِ ورد دعوى الشَّاحِجِ في نسبته إلى معاشر الجبهة وادعائه خوولتهم، ثم يرد الصَّاهِلِ على شكواه من زمانه بأن الله قد قدره عليه وأقدار الله تجري مجاريها؛ ثم يعقد مقارنة بين الجنسين من الدواب ذاكرًا فضل معاشر الجبهة⁽²⁾، وما تلاقيه في المعارك منذ القديم، وفيه يوظف الحِجَاج والمقارعة بأسلوب حادٍ لإخمادِ الخصم فيه من البراعة والدقة في ذكر بعض المواقف في الحروب، وعقد بعض الموازنات من مشاهد في الغارات والمعارك مشبهًا أحوال الحُمُر بحمام الحرم الذي يأتيه الموت بيد القضاء حيث لا معارك ولا قتال.

والى جانب تلك الحوارات المتتابعة والمتتالية يبدى معرفة بأمثال عربية⁽³⁾ تُحكى عن الحمار، وأنه مضرب المثل بالذل والمهانة، ومن هنا يظهر جليًا استدعاء المعري موروثه الثقافي بشقيه الديني والأدبي بوصفه مصدرًا من مصادر رسالته، وحافزًا مهمًا في سيكولوجية الإبداع عنده، مما شكّل استلهاً حيًا للمواقف والمشاهد عبر حوارية عالية قادت إلى رسم ظاهرة حجاجية بطريقة مغايرة من شأنها تنشيط الذهن وتفعيل المخيلة.

ويضيف المعري في ثنايا حججه التي يقارع فيها الخصم الذي قام بصناعته من حروفه وخیاله مقامات يبرز فيها معرفة بصنوف اللُّغة وبديع الألفاظ، مقتفياً مسميات متعددة لصنف واحد، ومنها الفرس وصفاته وأصوات الحيوانات على تعددها واختلافها، جاعلاً إياها مكونًا لغويًا له أحكامه وسلالمة التي ترقى لجعل النص مقامًا خطابيًا متنوع الحجج يمتلئ بالطاقة البيانية المفحمة بجمالها ومنطق تكوّناتها.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص113.

(2) المصدر السابق، ص115.

(3) المصدر السابق، ص119.

وفي ذات المقام الكلي يذكر حيثيات المكون الجزئي (المقام البعض) يرد فيه على دعوى الشَّاحِجِ نظم الشُّعْر ومعرفة بأوزانه وأقداره ومنازله وقوافيه، ويذكر جزءاً من طرف العروض متحدياً الشَّاحِجِ فيها، ويبدأ الشَّاحِجِ بعدها بالرد .

ثم انتهاءً يعقبه التفافٌ لفكرةٍ جزئيةٍ أُخْرَى، يَرْدُفُهُ انفصال يتشكل في بيات الصَّاهِلِ وذهابه لمربطه، ثُمَّ مقام الجزء المكمل للحلقة ذاتها.

يدور الحوار بينهما ويمتد المقام، وكلاهما يحتج بأسلوب متقنٍ ويدعم رأيه بأبيات وأمثلة وآيات وشواهد عديدة، وهذا التضخيم كله يصبُّ في تأجيج الصراع ودعم الحُجَّةِ الدامغة والبرهان البليغ الذي يراه كل واحد منهما، وهذا المقام على امتداده في ثمانية أجوبة للصاهل، وعشر مداخلات للشاحج تطول وتحتوي ردوداً مفحمة وبراهين وأدلة مبينة من الجانبين.

المقام الرابع

سببه تدخُّل الفاختة وتلفيقها تهمة بحق الشَّاحِجِ، وذهابها إلى أبي أيوب الجمل⁽¹⁾ وافترائها على الشَّاحِجِ، يتغير لون الحِجَاجِ بتغير المقام، ويتفاعل الطرف الجديد مع المقام الحِجَاجِي المكون من الجمل والفاختة والشَّاحِجِ.

الأطروحة

قول المَعْرِي: "فَضَحَّ الشَّاحِجُ وَقَالَ: مَا هَذَا يَا أَبَا أَيُّوبَ؟ لَقَدْ سَفَهَ حِلْمُكَ وَخَفَّ وَزْنُكَ وَنَفَرْتَ نَعَامَتُكَ، فَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ، أَلَيْسَ عَلَى ظَهْرِي يَسْتَقِي رُبُّكَ إِذَا مَرَرْتَ فِي أَسْفَارِكَ فَتَشْرَبَ النَّهْلَ وَالْعَلَّالَ مِنَ الْعَذْبِ النَّاجِعِ مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ ثَوَابٍ عَلَيْهِ"⁽²⁾.

حُجَّة 1: "قَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَلَّا تَسْمَعَ كَلَامَ أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ قَبْلَ الْآخَرِ، وَأَنْ تَأْخُذَ بِقَوْلِ الْعَرَبِ: وَجْهُ الْمُحَرَّشِ أَفْبَحُ، أَلَمْ يَبْلُغْكَ ضَرْبُ الْعَامَّةِ الْمَثَلِ بِكَذِبِ الْفَاحِشَةِ؟"⁽³⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 207.

(2) المصدر السابق، ص 207.

(3) المصدر نفسه، ص 211.

حُجَّة 2: "أَفَمَا اسْتَحْيَيْتَ أَنْ تَنْقَادَ طَوْعًا لِطَائِرٍ، فِي وَزْنِ جَسَدِكَ بِوِزْنِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْمِرَارِ؟" (1).

حُجَّة 3: "وَأَيَّ صَدَاقَةٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ وَمِنْهُنَّ الْغُرَابُ الَّذِي يُنْفِرُ عَيْنَكَ وَأَعْيُنَ أَبْنَاءِ جِنْسِكَ، وَأَنْتُمْ رَذَايَا بِالْفَلَاةِ" (2).

حُجَّة 4: "وَقَدْ كَانَ مِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ أَلَّا تُصَدِّقَ أَقْوَالَ ذَوَاتِ الرِّيشِ عَلَى ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ، أَلَسْتَ مَعَاشِرَ الْإِبْلِ إِذَا كَانَ بِكُنَّ الدَّبَرُ جُعَلَ عَلَيْكُنَّ الرِّيشُ يُنْفِرُ بِهِ عَنْكُنَّ طَمَعَةُ الطَّيْرِ؟" (3).
قال ذو الخرق:

لَمَّا رَأَتْ إِبْلِي أَمَسَتْ حُمُولَتَهَا جُرْبًا عَجَافًا عَلَيْهَا الرِّيشُ وَالْخِرْقُ (4)

حُجَّة 5: "وَلَوْ كَانَ الْحَدِيثُ كَمَا بَلَغَكَ لَوَجِبَ أَنْ تَحْتَمِلَ وَتَصْنَفَ لِأَنَّكَ مُشَاكِهِ فِي الْبَلْوَى بِنَبِيِّ آدَمَ، وَقَسِيمِي فِي عَنَاءٍ يَقَعُ بِنَا مِنْ بَنِي الْبَشَرِ قَدْ أُعْفِيَتْ مِنْهُ الطَّيْرُ لَا سِيَّمَا الَّذِي لَا يُؤْكَلُ مِنْهَا، أَلَيْسَ الْإِبْلِ النَّوَاضِحُ فِي يَثْرَبَ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ النَّخْلِ، وَعَلَيْهِنَّ تُقَطَّعُ مَفَاوِزُ الْأَرْضِ وَبِهِنَّ يُكَابَدُ الْهَجِيرُ فِي الْيَوْمِ الْحَمَتِ؟" (5).

يظهر الجمل بصورة الحانق مما سمع من قول الفاختة وزورها، والشَّاحِج بطريفة البهتان قد وصف الجمل بقلة اللب والجهل والسَّفه، ويطول مقام المعاتبة من الشَّاحِج لأبي أيوب على فعلته الحمقاء، وكيف له سماع كلام الفاختة، وتقدمه لإيذاء الشَّاحِج دون أدنى حكمة وروية للتأكد مما سمع وعرف منها مقالته.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 211.

(2) المصدر نفسه، ص 211.

(3) المصدر نفسه، ص 211.

(4) وذو الخرق: خليفة بن حمل ابن عامر بن حميري بن وقدان ابن سبيع بن عوف بن مالك بن حنظلة الطهوي، لقبه استمده بقوله هذا البيت. الأبيات كاملة عند عبد القادر البغدادى في (خزانة الأدب، ج 61/1).

(5) رسالة الصاهل والشاحج، ص 213.

والحجة الخامسة أكثر فاعلية لاعتمادها على مجموعة من المقومات الخطابية ذات الأثر الحجاجي علاوة على الاستفهام وسوق المثل وذكر العادات الدارجة والطرق الأصلية المتبعة في فض النزاع بين المتخاصمين.

ثم يعمل الجانب الفلسفي حيث يكيل سيلاً من المفاضلات بين الفاختة والجمل؛ وهو أسلوب حجاجي يسعى للتلاعب في العواطف وتثبيت الحجة من خلال الألفاظ المجازية المختلفة كما في الجدل الفلسفي الأرسطي.

ينسحب من دائرة المقام الجديد كل من الصّاهل ويغلق عليه الستار بانتهاء مقامه، وتختفي معالم ذكره وحضور أثره، إلا ما يظهر من ذكر لحماقته وقلة نباهته عند انتهاء مقام أبي أيوب، حيث يتم ذكره من قبل الشّاحج؛ ليخبر الجمل بتشابه الردود والأفعال مع اختلاف الوجوه والألقاب بين كل من الصّاهل وأبي أيوب، وكذا انتهاء الفاختة وحضورها، وتطول الحلقة الدائرة بين كل من الشّاحج والجمل.

يبدأ الشّاحج معنفًا الجمل بفعلته واصفًا إياه بالطيش والخفة ذاكرًا فضل الشّاحج عليه وفضل الأريضة التي ينزل فيها البعير وصاحبه كي يستقي من مائها وينعم بظلمها، إذن المقام للعتاب والمعاتبة؛ وكيف للجمل أن يصدّق قول ذوات الرّيش (كناية عن الفاختة)، فيطلب البعير من الشّاحج أن يقتص لنفسه منه كي يغسل الحقد الذي انعقد في قلبه، ويمحو الغمر الذي تراكم على صدره.

الأُطْرُوحَة

يقول المعري: "وَأِنْ خَرَجْتَ إِلَيَّ مِنْ حَقِّي فَإِنِّي أَغْسِلُ الْحَقْدَ عَلَيْكَ مِنْ قَلْبِي وَأَنْتَرُ مَدَمَّتَكَ مِنْ لِسَانِي وَأَحْتُ عَلَى مَوَدَّنِكَ نَفْسِي، وَلَنْ تَسْتَعْنِي عَنْ صَدِيقٍ مِنْ ذَوَاتِ الْحَافِرِ كَمَا لَا أَسْتَعْنِي عَنْ صَدِيقٍ مِنْ ذَوَاتِ الْخُفِّ"⁽¹⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 216.

حُجَّة 1: "وَأَدْعُو الْخَالِقَ بِسَعَادَتِكَ وَأَنْ يُرْعِيكَ أَنْفَ الْكَلَالِ، وَيُورِدَكَ نَمِيرَ الْمَاءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُعَارِكَ عَلَيْهِ حَوْمًا، وَلَا تُزَاحِمَ عَلَيْهِ فِي مَوْرِدِكَ عَرْجًا، بَلْ تَنْفُخْ حَبَابَ الْحَوْضِ أَوْ الْعَذِيرِ لَاهِيًا فِي شُرْبِكَ مُتَهَيِّيًا فِي ذَلِكَ بِعَبِّكَ وَرَشْفِكَ"⁽¹⁾.

حُجَّة 2: "وَيَنْقُلُ إِلَيْكَ اللَّهُ بِقُدْرَتِهِ قِطْعَةً مِنْ سَعْدَانٍ (تُوضِحُ) فَيَلْقِيهِ فِي أَرْضِكَ لِتُعَاقِبَ فِي مَرْتِعِكَ بَيْنَ أَصْنَافِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ؛ وَيَرْزُقُكَ هَجْمَةً عُونًا وَأَبْكَارًا كَأَنَّهَا عَدَارَى عَلَيْهَا شَارَةٌ وَمَعَاصِرَ تَتَخَيَّرُ فِيهَا عَلَى عَيْنِكَ تَخَيَّرَ (أَبِي قَابُوسَ) فِي قِيَانِ الْعِرَاقِ، هَذَا إِنْ كُنْتَ رَاغِبًا فِي الضَّرَابِ"⁽²⁾.

حُجَّة 3: "وَلَكِنِّي أَجْعَلُ عَوْضًا مِنْ ذَلِكَ تَكْلِيفًا حَاجَةً يَسِيرَةً إِذَا قَضَيْتَهَا نَعَشْتَ الْعَثْرَةَ وَجَبَرْتَ الْكَسِيرَ وَاسْتَلْتِ الضَّغِينَةَ وَمَحَوْتَ الْغَمْرَ"⁽³⁾.

ففي هذه الحجج نجد الشاحج يطلب العفو مقابل حاجة يسيرة، وهي أن يحمل أخبارًا مستطرفة فيها من الفكاهة لعزير الدولة، لها من السمع ظاهر ولها في المعنى باطن؛ ويؤكد⁽⁴⁾ أنها بمنزل ما جاء عند ابن دريد في كتاب الملاحن⁽⁵⁾، وابن فارس الرازي في (فَتْيَا فقيه العرب)⁽⁶⁾، وأنه عدل عن نظم الشُّعْر لأنه لم ير البركة في ذكره.

وتُعَدُّ الحجة الثالثة مدخلًا مائعًا انبنى عليه مجموعة من الأقوال والأحكام التي وردت في الرسالة على لسان أبي أيوب لينتج عنها جملة من الآراء الحجاجية الصادرة من الشاحج منها فراغ لبه وعظيم حمقه.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص216.

(2) المصدر السابق، ص217.

(3) المصدر نفسه، ص217-218.

(4) المصدر نفسه، ص220.

(5) كتاب الملاحن كتاب صغير الحجم كثير الفائدة جم المنافع، يتفرد في بابيه وأسلوبه، وصاغه المؤلف على أسلوب التلغيز ليظهر أسرار اللغة العربية بما يستميل الفكر ويستهوِي النفس، وهو أسلوب طريف ونسج بديع.

(6) كتاب فتيَا فقيه العرب لأحمد بن فارس بن زكريا، ضرب من الإلغاز عرّف به القفطي في الإنباه، وقال: "وكان ابن فارس يحث الفقهاء دائمًا على معرفة اللغة، ويلقى عليهم مسائل ذكرها في كتاب سمّاه فتيَا فقيه العرب يخلجهم بذلك ليكون خلجهم داعيًا إلى حفظ اللغة، ويقولون: من قصر علمه عن اللغة وغولط، غلط". يُنظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، ج1/129.

لقد استطاع الشاحج أن يصل إلى هذه الأحكام من خلال طريقته الحجاجية التي استعانت بالبراهين الواقعية والمغريات النفسية.

وبعد القبول يسرد الشاحج ألفاظاً وجمالاً فيها من التورية ما يصعب على العاقل فهمه، سائراً على المنهج الذي وضعه لنفسه، وهو حذو كل من ابن دريد وابن فارس، ويستغرب البعير من الشاحج وأقواله، ويصفه بالكذب والتلفيق، ويذكر حجاً وبراهين على كذبه ودعواه، ويقول في نهاية حججه أن الصَّاهِل قد أصاب في جفونك وَوَقَّ لما أعرض عن التَّهْوِض في حاجتك⁽¹⁾، ويعرض عنه ويرفض حمل الرسالة لعزير الدولة.

فيعود الشاحج مستغرباً من عدم فطنة هذا البعير واصفاً إياه بفراغ لُبِّه على عظم جسده، ويذكره بأنَّه قام بتتبُّيهِه منذ البداية أن هذا نسج مورى على منوال من سبق⁽²⁾ ذكرهم، لكن البعير استعجل بالحكم.

ويبدأ بنفض الغبار عن معانيه وألفاظه التي استخدمها في تلك الرسالة المنثورة التي طلب من البعير إرسالها، ثم ينتهي المقام بتدخل الضبع يريد أن يسأل الشاحج مسترشداً لما سمع منه فهماً ودراية بالأمور، لكن الشاحج يعزف عنه لأنه من أحمق البهائم.

فيرد بالسخف عليها والتقليل من شأنها، ويتدخل الجمل ويسمع ذرء الشاحج من الضبع وأنه يهزأ منها فيخبرها.

وتقدم مساعدة للشاحج بإيصال رسالته إلى عزير الدولة، لكن الشاحج يرفض أن تساعدته متذرعاً بأن إسناده بعيد⁽³⁾، لقد اتسم هذا المقام بالسيطرة الانفعالية الخاصة على أسلوب الحجاج.

(1) يُنظر: رسالة الصاهل والشاحج، ص 349.

(2) أصحاب التورية والإلغاز في الكلام على نهج فنيا فقيه العرب والملاحن.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص 412.

وبهذا يسدل الستار على مشهد آخر وانتهاء مقام كلي وتختفي أصوات الشخوص التي قامت بتحريك الحوادث فيه، ويسكن التصادم والاحتجاج بالأقوال والحجج للخصوم، ويسفر اللفظ عن مشهدين جديدين مولدين لمقام أخير.

المقام الأخير

يدور في هذا المقام الاتصال الكلامي بين الثعلب والشاحج، حيث يلتقي الشاحج مع أبي ثعالة، ويطرح الثعلب قضايا سياسية تدور في زمن المعري، وهذا المقام يحوي ثلاثة مشاهد بحسب تصنيف الدكتورة عائشة، ويبدأ من حمل البشارة للشاحج، ثم الدعاء لثعالة بالبركة والخير.

ومن الأطروحات ضمن المشهد الثالث

الأطروحة

يقول فيها: "فَيَمْضِي ثُعَالَةُ مُبَادِرًا⁽¹⁾، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ فَيَقُولُ: الْعَامَّةُ يُخْبِرُونَ أَنَّ زَعِيمَ الرُّومِ قَدْ نَهَدَ إِلَى أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ"⁽²⁾.

حُجَّة 1: "وَعِنْدَ هَذِهِ النَّازِلَةِ تَرَى الْمَرِيضَ وَالزَّمَنَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ أَهْلِ الْعَاهَاتِ، قَدْ تَشَبَّهُوا بِالْأَصْحَاءِ السَّالِمِينَ فَبَانَ فِيهِمْ ذَلِكَ وَظَهَرَ مِنْهُمْ التَّكَلُّفُ، وَكَانَ مَثْلُهُمْ مَثَلِ الْمُعْتَلَاتِ نَحْوَ قَاضٍ وَغَايِرٍ يَصِيرَانِ فِي الضَّرُورَةِ كَصِحَاحِ الْأَسْمَاءِ"⁽³⁾، وَذَلِكَ بِمَشَقَّةٍ لَيْسَتْ بِالْخَفِيَّةِ"⁽⁴⁾.

(1) ويغادر ليسمع أخبار الضجة التي قطعت حديثهما، فيرجوه الشاحج أن يتعرف على مصدر هذه الضجة؛ فيلبي ثعالة النداء ويذهب للتحري.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 415.

(3) لك أن ترى جمال التمثيل من أصل اللغة فهو يمثل حالهم المعتل، بالمعتل من الأسماء يصبح حال الضرورة كصحاح الأسماء، ولك من ذلك قول الفرزدق:

فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجْرَتِهِ وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا

وقاله الفرزدق في هجاء عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي من علماء البصرة الأوائل.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص 436.

حُجَّة 2: "وَالْخَوْفُ إِذَا وَقَعَ بَعْتَةً، رَأَيْتَ الْمَعْرُوفَ بِالْحَزَامَةِ وَأَخَا التَّجَرِبَةِ وَمَنْ كَانَ مَشْهُورًا بِالْجُرْأَةِ، قَدْ حَمَلَهُ الْحَزْمُ وَاللُّبُّ عَلَى قِلَّةِ الْأَنْبِعَاطِ وَكُلُولِ الْعَرَبِ، فَصَارَ كَأَنَّهُ الظَّعِينَةُ مِنْ خَوْفِ الْعَاقِبَةِ وَالْإِفْلَالِ⁽¹⁾ الْحَدَّ، فَيَكُونُ مِثْلَهُ مِثْلَ الْمَذْكَرِ مِنَ الْأَسْمَاءِ إِذَا أُتَتْ لِلضَّرُورَةِ"⁽²⁾.

حُجَّة 3: "وَقَدْ تَكُونُ الْوَالِدَةُ مِنَ الْمُسْرِفَاتِ فِي الْإِلَاحَةِ وَسُوءِ الظَّنَّةِ، فَيَشْقُهَا أَنْ تُفَارِقَ وَلَدَهَا وَإِنْ كَانَ بِإِرَائِهَا عَلَى كَتِفِ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ، فَمَثَلُهُمَا مِثْلُ الْبَاءِ الْخَافِضَةِ يُفَرِّقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمَخْفُوضِ وَهِيَ كَأَنَّهَا مُتَصِلَةٌ بِهِ لِأَنَّهَا حَرَفٌ وَاحِدٌ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ"⁽³⁾.

فهو يتحدث عن جفلة عزيز الدولة وأن زعيم الروم سيغزو بلاد المسلمين.

وهذا المقام يمتد طويلاً، حيث تكونه مجموعة من المقامات الجزئية وحوارات تدور بين الثعلب والشاحج حول أحوال البلاد والذي يروي تلك الأحداث الثعلب. ومن بواكر هذه الحوادث: جفلة الناس، وتصور ما يحتمل أن يحدث في ديارهم من خوف الغزو.

ومن الصور التي مثل لها: ذوو العاهات والنساء والشيخوخ في الجفلة، والقاضي والعدول، والتجار وأصحاب الحرف، والأمهات وأطفالهن، ورأينا كيف مثل على كل صورة من هذه ضمن الحجج الواردة وخوف كل أولئك من عواقب تلك الحرب المتوقعة.

ومن الأطروحات ضمن المشهد الخامس والأخير:

الشاحج يصف لثعالة ما يتصور من حال الجالين عن البلد في العودة إلى ديارهم، مستخدماً في ذلك مجموعة من النكت العروضية عن الفأل والطيرة⁽⁴⁾، إضافة لقصصه الجديدة

(1) انفلاله: انكساره.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 437.

(3) المصدر السابق، ص 474.

(4) من ذلك:

عزيز الدولة: عز في الرواح والغدو.

وفاتك: فتك بالعدو.

وخادمه صائن: من صيانة الحريم.

وكاتبه صدقة: فتلك صدقة من كريم، وأبو نصر: نُصِرَ به مغلوب، الفلاح: أفلح صاحب ومصحوب.

عن استعداد العدو لغزو العرب، وتوقع التّصرّ لعزير الدولة وجيشه وأنصاره معتمداً على وضع ألفاظه ضمن ميزان الفأل والطيرة بأسماء بلدان الشام، وبأسماء رياحين الشام وثماره، وبأسماء أصحاب الطاغية، فكان المَعْرِي يحلل الألفاظ ويرسم من خلالها حدوداً للمعاني المتوافقة مع الفأل للمسلمين والطيرة لأعداء عزير الدولة، وأحداث متعاقبة وقعت في عهد المَعْرِي من حفر العزيز للخنديق وغضبه على مضيء الدولة، ثم أخيراً تحية الختام من المَعْرِي لعزير الدولة.

الأُطْرُوحَة:

يقول فيها: "وَأَمَّا أَرْضِي فَعَادَتْ جَالِيَتْهَا مِنْ كُلِّ الْأَقْطَارِ، فَرَجَعَ الْجَالُونَ مِنَ الشَّرْقِ وَكَانَتْهُمْ أَنْصَاءُ سَفَرٍ أَوْ رَدَايَا⁽¹⁾ رَكْبٍ، فَزَعَمُوا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْعَلَاةِ قَدْ ضَاقَتْ بِهِمُ الْمَنَازِلُ، فَكَانُوا فِي النَّهَارِ يَنْتَقِلُونَ فِي الظَّلَالِ وَالْأَوْفِيَاءِ كَأَنَّهُمْ سَخَالُ الرَّبْرِ⁽²⁾ حَمِي عَلَيْهَا الْقَيْظُ"⁽³⁾.

حُجَّة 1: "جَاءَتْ جَالِيَةُ أَفَامِيَّة"⁽⁴⁾ مُثْنِينَ شَاكِرِينَ، إِلَّا أَنَا أَدْرَكْنَا الْمَشِيخَةَ إِذَا كُنَّا عَنِ الدَّنَانِيرِ قَالُوا: شَيْوُخٌ أَفَامِيَّة. يَعْزُونَ أَنَّهُمْ صَفَرُ الْأَلْوَانِ؛ لِأَنَّ هَوَاءَهُمْ وَمَاءَهُمْ مَذْمُومَانِ"⁽⁵⁾.

مَنْ يَسْكُنُ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طِحَالُهُ وَيُغْبِطُ بِمَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ جَائِعٌ⁽⁶⁾.
حُجَّة 2: "وَأَمَّا جَالِيَةُ (سُرِيَّة) فَلَقُوا مِنَ الْعَيْشِ الْبُرْجَيْنِ وَذَكَرَتْ نِسَاؤُهُمْ بِقَوْلِ الْأَمْصَارِ حَيْثُ يُزْدَرَعُ قَنْدٌ وَقَعْدٌ وَلَا يَطْلُبُ لِعَلِيلٍ دُبَاءً"⁽⁷⁾.

تَسْأَلُنِي بِرَامَتَيْنِ شَلَجَمَا لَوْ أَنَّهَا تَطْلُبُ شَيْنًا أَمَّا.

(1) الرذايا: جمع رذى، وهو من أثقله المرض، والضعيف من كل شيء.

(2) سخال الربر: أولاد البقر الوحشية.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص 610.

(4) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص، ويسميه بعضهم فامية بغير همز، وفيها قال المعري:

ولولاكَ لَمْ تُسَلِّمْ أَفَامِيَّةُ الرَّدَى، وقد أَبْصَرْتُ مِنْ مِثْلِهَا مَصْرَعُ الرَّدَى

يُنظر: معجم البلدان ج 225/1، وديوان سقط الزند، ص 76.

(5) رسالة الصاهل والشاحج، ص 615.

(6) البيت بلا نسبة في لسان العرب مادة (بطن)، ومجمع الأمثال ج 278/1، والشعر والشعراء، ص 475، رسائل

الجاحظ ج 261/1.

(7) رسالة الصاهل والشاحج، ص 615-616.

حُجَّة 3: "وَأَمَّا جَالِيَّة حَلَب -حَرَسَهَا اللَّهُ- فَأَقْبَلُوا وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ رَوْنَقُ الْبَلَدِ وَآثَارُ الْخَفْضِ، وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالْدُّعَاءِ لِلسَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ"⁽¹⁾.

فهذا المقام الأخير يذكر الشَّاحِج فيه لشُعَالَةِ ما تصوِّره من حال الجالين عن بلادهم أثناء العودة إلى مسقط رؤوسهم، ثم اطمئنَّانهم من تراجع العدو عن الغزو، مستخدمًا ما تقدَّم ذكره من نكات عروضية، ومرواحًا القول بالفأل والطيرة، وهذه مجموعة المقامات وتنوعها في رسالة المَعْرِي تبين مدى فهمه، وعمق درايته بواقع بلاده، آسِيًا مواسيًا للحروف، وآتِيًا موَاتِيًا لغريبها وإلحاق النسب ببعضها على تنافر يصيب بعض أجزائها؛ إلا أنه كان يحسن بها إصاقًا في إصابة معانيها وبهجة إطلالٍ في تراكيبها، وهذا كله قد عكس مدى تأثره بلغته حيث شدا فيها ما شدا، وكذا تأثره بمن يقرأ الأطرحات المدعمة بالحجج، فهي مليئة ومشحونة بطاقة إقناعية جمالية تأخذ بلب القارئ إلى الإقناع والإمتاع والتَّسْلِيم بصحة مداركه، ومن سار مع حروف المَعْرِي ضمن المقامات الخطابية يكاد يفوز بشيء من النور وقبساته الممتلئة بفيض البيان والغريب، والذي تروح له النفس بعد علم بمراده.

وعلى الرغم من ذهاب بصره إلا أن الوصف الذي استخدمه في كل مرة يبين للقارئ مدى اتساع البصيرة، وعمق البيان، والبلاغة في أقواله، ومذاهبه للاستشهاد في كل مرة على الألفاظ المطروحة، خصوصًا استخدامه للفأل والطيرة في الأبيات والآيات والأحاديث، وكيف يدعم في كل مقام ويذهب بعقل القارئ لمعاينة الواقع الذي عاشه فهو خبير السياقات والمواضع وانتلافاتها وتشابكها.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 632.

المَبْحَثُ الثَّانِي: الاستِعَارَةُ والحِجَاجُ

لنناظر في ثنايا أدبنا العَرَبِيِّ الحَصِيفِ روعة البيان، وسحر النثر الذي نفتت فيه الكتّاب بفكرهم الأخّاذ ببيانه، فنظموه كالعقد المتراسة جواهره، وحكموه كالنسج المتناسقة خيوطه، فظهر بألوان بديعه وجمال أساليبه الطريفة، وكل ما خلّقه العلماء والكتّاب والأدباء يدلّل على ذائقة سليمة وحسّ قد أحيط بمعرفة طويلة بقرائن اللّغة وأصولها.

إن الخطاب العَرَبِيَّ الأصيل على تنوّعه يضحّ بمعالم الجماليات على أضعاف ما هي عليه اليوم، وذلك إنما يعود لخبرة طويلة بأسرار اللّغة وجلساتٍ ممتدةٍ وتأمّلاتٍ طائلةٍ لبطون مفرداتها وعميقٍ معانيها.

والحديث ضمن هذا المَبْحَثِ عن الاستِعَارَةِ التي هي أعمق ما جاءت به العَرَبِيَّةُ على طول تراثنا الممتد، وأعجب ما تحدث عنه العلماء بترسيخهم لهذا اللون البياني كثير الماء، عذب المعاني، جَمَّ العِظَات، وكل ذلك على قليل ألفاظه وإيجاز تراكيبه، فهي على دقتها تبرز قوانين الحِجَاجِ داخل أعماق النّص إن فهمها القارئ وعلم ما في النّص من إبداع وأقرّ بتأثره بالمعاني، فكل نص يدور فلكه حول بؤرة حِجَاجِيَّة تكون هي مركز العمل، حيث تتبع من صاحب النّص نحو المُتَلَفِّي الذي بدوره يستطيع البحث عن تلك البؤرة من خلال تأثره بما يقرأ ويسمع.

الاستِعَارَةُ فِي اللّغَةِ

الاستِعَارَةُ مصدر للفعل استعارَ، وزيادة السين والتاء تدل على الطلب والأخذ.

ذكر صاحب معجم العين أنّ الأصل اللُّغَوِي للاستعارة: "العارية ما استعرت من شيء، سميت به، لأنها عارٌّ على من طلبها، يقال: هم يتعاورون من جيرانهم الماعون والأمتعة. ويقال: العارية من المعاورة والمناولة"⁽¹⁾.

وذكر الجوهري (393هـ) في الصّحاح: "والعاريَّةُ بالتشديد، كأنّها منسوبةٌ إلى العار،

لأنّ طلبها عارٌّ وغيّب. وينشد:

(1) كتاب العين، الفراهيدي، ج2/239.

إِنَّمَا أَنْفُسُنَا عَارِيَّةٌ وَالْعَوَارِيُّ قُصَارَى أَنْ تُرَدَّ⁽¹⁾.

أما ابن فارس (395هـ)، فيذكر ضمن مادة عَوَرَ: "العين والواو والراء أصلان: أحدهما يدلُّ على تداولِ الشيء..."⁽²⁾.

وقد جاء عند ابن منظور (630هـ) أن: "العارية منسوبة من العارة، وهو اسم من الإعارة، ... استعار: طلب العارية.

واستعاره الشيء واستعاره منه: طلب منه أن يُعِيرَه إِيَّاه... ويقال: استعرت منه عاريةً فأعارنيها"⁽³⁾.

فالأصل في كتب اللُّغة بين مرمى ثلاثة أصول باختلاف عين الفعل فالاستِعارة من (عار، عور، عير)⁽⁴⁾، وكلُّها تصب في ذات المعنى وتدلُّ على طلب الشيء وتداوله، ومعرفة المعنى اللُّغوي هي مظلة لا يخرج المعنى الاصطلاحي عنها بحسب ما يقتضيه السياق الذي تأتي به الكلمة المعارة، فكل الكلمات التي جاءت لتعرّف هذا الأصل كانت تعني المناولة والمعاورة من مكان لمكان، ثم لا تبقى الكلمة لصيقة بمعناها الجديد بل بحسب ما يمليه المقام الآتي، ثم تعود لطبيعة المعنى الذي وجدت من أجله ووجد لها، فالكلمة المستعارة هي مأخوذة من أصل في الوضع اللُّغوي لغير ما وضعت له لعلاقة بينهما.

الاستِعارة في الاصطلاح

أول ما يطالعنا في كتب البلاغيين حديثهم العميق عن الاستِعارة حيث حلّت في كتبهم مكانًا واسعًا وتفصيلًا لأسسها ومبادئها ووضع اصطلاح لم بقافية مرادها، وذلك يدلّ دلالة على عظمها في نفوسهم، ولم نر بلاغيًا قط إلا وأشاد في محاسنها وما تبرزه من خلال الكلام الذي يجيء بها، والمعنى المكتسب من خلال الاستِعارة وما تقرّبه للأذهان من عملية تخيلية

(1) الصحاح، الجوهري، ج2/761.

(2) مقاييس اللغة، ابن فارس، ص693.

(3) لسان العرب، ابن منظور، ج4/619.

(4) عند الخليل وردت ضمن مادة (عير)، وفي التهذيب ضمن (عار)، وباقي المعاجم آفة الذكر ضمن مادة (عور).

تخضع لها من خلال العلائق التي تجمع فيها بين المتناقضات والمفردات والجمال الذي تكسوه على كل جملة تأتي من خلالها، فوثيقة الاستعارة إذن قديمة قدم البلاغة.

ومن بعض التعريفات التي ساقها البلاغيون الآتي:

عرّفها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255هـ): "الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"⁽¹⁾.

وكانت هذه أول اصطلاحيات الكلمة وبدأت مبكرًا عند الجاحظ -رحمه الله- وكان يعي ما تفعله الكلمة المستعارة إذا قامت مقام الشيء، ولم يذكر سوى هذا التعريف وهو تنبه مبكر لعمل الكلمة المستعارة.

عرف علي بن عبد العزيز الجرجاني⁽²⁾ (366هـ) الاستعارة بقوله: "وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها"⁽³⁾.

ويقول: "وملاؤها، تقريب الشبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه، وامتزاج اللفظ بالمعنى؛ حتى لا يوجد بينهما منافرة، ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر"⁽⁴⁾.

ولا يختلف عن الجاحظ (255هـ) إلا أنه أضاف أن من شأن الاستعارة تقريب الشبه، فهي في أصلها تقوم على التشبيه، وهذه تسمى بعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى الذي نقلت إليه العبارة، والتلاؤم بين المستعار له (وهو الذي نُقل إليه)، وكذلك المستعار منه (المعنى الأصلي)، وأن يمتزج اللفظ بالمعنى وهي قضية أساس لتكوين سليم وجملة واضحة غير متنافرة في ذاتها وتركيبها.

(1) البيان والتبيين، الجاحظ، ج1/153.

(2) أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن بن علي بن إسماعيل، اشتهر بنسبته إلى مدينة جرجان، لُقّب بالقاضي؛ لأنّ صاحب ابن عباد ولاء قضاء جرجان وهي مسقط رأسه.

يُنظر: بيتمة الدهر ج4/3، ومعجم الأدباء ج14/16، ووفيات الأعيان ج2/442.

(3) الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني، ج1/41.

(4) المرجع السابق، ج1/41.

يعرف الجرجاني (471هـ) الاستعارة في كتابه الدلائل بقوله: "فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تُفصِح بالتشبيه وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتغيره المشبه وتجريه عليه"⁽¹⁾.

أما في أسرار البلاغة: "اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدلُّ الشواهد على أنه اختُصَّ به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم، فيكون هناك كالعارية"⁽²⁾.

وعند الجرجاني قد اكتمل نصاب الاستعارة واستوى الاصطلاح على سوقه، فقد درس مكوناتها وحللها بصورة بارعة مع بيان أثرها البلاغي وما تحدثه من إقناع ضمن تركيب ألفاظها، فقد جمع كل معاني الذين سبقوه ووضعها في رسم واضح واحد لا خلاف على أصوله وفروعه، ولما جاء السكاكي من بعده فصل هذا الحد وقام ببيان مراده.

وللناظر في الدلائل وأسرار البلاغة من الفهم العميق الذي وصل إليه الجرجاني في حديثه عن الاستعارة وما تؤول إليه في ذهن السامع ونفس المتلقي، أما أهمية ذكر هذه الاصطلاحات فهي ضرورية لمعرفة اللون البلاغي الذي جاء به علمائنا الأجلاء، وما الذي أضافه المتأخر على متقدميه، وكيفية شروحات كل منهم للاصطلاحات العديدة المتنوعة.

قد فطن الجرجاني إلى أن الطرق التي تسلكها الاستعارة متشعبة لا نهائية، في قوله: "وهي أمد ميداناً، وأشدّ افتتاناً، وأكثر جرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعةً وأبعد غوراً، وأذهب نجدًا في الصناعة وغوراً، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم، وأسحر سحرًا، وأملأ بكل ما يملأ صدرًا، ويمتع عقلاً، ويؤنس نفساً"⁽³⁾.

ومن هنا فالاستعارة عنده لا تقف عند حدود النفس بل تتجاوز ذلك إلى الفكر أيضًا، وهذا يشي بإفادتها الإمتاع والإقناع، لذا كثرت الاستعارة في باب الخطابة وباب الشعر.

(1) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص 67.

(2) أسرار البلاغة، الجرجاني، ج 1/30.

(3) المصدر السابق، ص 42.

لعلمائنا العرب إذن قصب السبق في إبراز المصطلح وتوضيحه، ولا نعدم وجود الإشارات الحجاجية التي ضمّنها في أقوالهم عن الاستعارة وأهميتها وبلاغتها وما تحدّثه في نفس السامع، فحلبة البلاغة العربيّة قد جرّب العلماء الأقدمون فيها كافة صراعات الاصطلاحات وقاموا بالشرح والتحليل في مظانها، فالأجر والفضل لهم في تحديد اللفظ والمصطلح.

الاستعارة الحجاجية

تعد الاستعارة من الوسائل المستخدمة لدى المتكلم بطريقة فاعلة، وذلك طريق الهدف الحجاجي والذي من خلاله نصل لإقناع المتكلم وإثارتها، كوننا نسلّم بحقيقة الفرضية القائلة بالطابع المجازي للغة⁽¹⁾، فهي تضعنا أمام لوحة واحدة في الظاهر تتحول إلى لوحتين في الباطن يقوم المُتلقّي بدور كبير في وجود الاستعارة وإيحائها، وتتميز عن سائر فنون البلاغة بميزات، أهمها: ذلك العمق الدلالي والإيحائي فهي تخيلية في كونها تخرج باللفظ عن حقيقته إلى معناه المجازي، وأنها تشارك المُتلقّي في الكشف عن حيثياتها وجماليات الصورة.

وتعد من خصائص اللغة الجوهريّة، وعدها الباحثون ضمن المباحث الرئيسة في الدرس الحجاجي، واتسع مجالها لأن المتكلم يقصدها لتحقيق أهدافه؛ بخلاف الاستعارة البديعية التي يقصد بها المتكلم تحسين قوله وإظهار براعته اللغوية⁽²⁾، وهي من أقدر الأساليب التعبيرية على إمداد الخطاب بقوة التفرع والتكاثر.

ويرى الدكتور طه عبد الرحمن أنه بقدر ما تكون الظاهرة الخطابية من التغلغل في الاستدلال الحجاجي، تكون درجتها من القوة التوليدية والتوالدية للخطاب الطبيعي، وعدّ الظاهرة الاستعارية أقدر الأساليب التعبيرية على إمداد الخطاب بقوة التفرع والتكاثر، وأنها أشدّ إيغالا بالآليات التشبيهية التي هي أصل الاستدلال الطبيعي⁽³⁾، أمّا عن الوضع التعارضى الصريح للاستعارة فإنّه يكشف عن آليات حواريّة وحجاجية وعملية في بنيتها، تجعلها مركبة المستويات ومتداخلة الذات ومتنوعة العلاقات⁽⁴⁾، فالحديث عند الدكتور طه أن الاستعارة متعددة المآرب كونها موجهة في ذاتها المتداخلة لعدة أقطاب سالفة الذكر، فمستوياتها المتعددة للقارئ وما تذهب إليه من علاقات تجعلها رهن البحث الذي لا زال مستمرا قيد الدراسة والتنقيب عن أسرارها.

(1) اللغة والحجاج، العزاوي، ص105.

(2) المرجع السابق، ص109.

(3) يُنظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، ص295.

(4) يُنظر: الاستعارة بين حساب المنطق ونظرية الحجاج، طه عبد الرحمن، ص70.

إنه لمن البديهي أن نجد اختلافًا لدى العلماء في نظرتهم لموضوع الاستعارة لكن الاختلاف ليس في كل تلك النظرة؛ بل هناك حبال تقاطع بينهم على بعض مبادئها وأسسها منذ القديم حتى يومنا هذا.

تحدث الغرب كما العرب عن بلاغة الاستعارة، والإقناع الذي تأتي به وتحدثه في نفس كل قارئ، فيعبر لوجيز عن ذلك: "لقد اعتبرت البلاغة الفرنسية في العصر الكلاسيكي أن الاستعارة تهدف إلى الإقناع وعلى الأخص الإقناع، وإننا لا نخرج عن هذه التقاليد عندما نرى في الاستعارة وسيلة الإقناع، وإن دورها الحجاجي أكثر نجوعًا عندما يكون أشد الخفاء"⁽¹⁾.

أما عن تذوق الاستعارة وإدراكها ضمن العمل الأدبي فهو تراكم لخبرة ودراية في فكّ شفرات ورموز النصوص، فالاستعارة عميقة الأثر البالغ، وكذلك في أصل وضعها تحتاج لدقة متناهية ترتبط بكليتها على ذوق الكاتب ومرانه وقوّته في درر هذه اللّغة وأعماق بحارها، فاختيار المواطن التي تصلح في مضمارها يحتاج لكاتب عارف بحدود لغته ومكوناتها وحيثيات تراكيبها وجملها: "وعند إدراك هذه الحالة الدلالية يتحقق عنصر المفاجأة والمباغطة مما يكسر الألفة والنتابع العادي لسلسلة الدلالة في السياق ويتولد إحساس غريب يتميز بحدة توقظ النفس وتحرك أعماقها لتتفاعل مع طبيعة التجربة الشعورية"⁽²⁾.

وجماليات الاستعارة وحجاجيتها لها صلة وثيقة بالسياق الذي توضع فيه، وهذا يتصل تحديدًا بالنظريّة السياقية ومآلاتها، فللسّياق أثر في الكشف عن جمالياتها وتقنياتها الإبداعية المتجلية في إحداث عنصر التأثير في نفس متلقيها، وهذا ما ركّز عليه كثير من المحدثين في أهمية السياق وإظهاره لجماليات الاستعارات وتقويتها؛ إلا أن الجرجاني (471هـ) سبقهم إلى الحديث عن هذه الفكرة الأساسية بما ضمّنه في نظريّة النظم⁽³⁾، فتألف اللفظ مع المعنى من خلال

(1) الاستعارة والحجاج، لوجيزين، ترجمة: الطاهر وعزيز، ص90.

(2) جماليات الأسلوب، الداية، ص120.

(3) يُنظر: دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص93.

السياقات فهي أهم القضايا التي توضح مبنى الاستعارات وتوليدها، حيث يتم استخدام عناصر دلالية⁽¹⁾ لملء الفراغات الموجودة بين التفسير الحرفي والاستعاري.

أما في الحديث عن الاستعارات العلانية في رسالته، فقد قسمت هذه الرسالة في أصلها على تخيل وتخيّل من إنطاقة لحيوانات غير عاقلة، حيث توّسل من خلالها لكثير من الأمور التي حاكت في صدره، مع إبرازه للكثير من الاستدلالات والبراهين، وهو نص نثريّ في كلّ بُني على دعائم الشواهد والاستعارات المنطقية.

وستبرز الباحثة من خلال تلك الشواهد عن البؤر الحجاجية التي تجلّت ببيانها في الاستعارات، فكانت لها كلمة الحجاج ودور الإقناع، وسبيل الإمتاع والتأثير بالقارئ.

الاستعارة في الصّاهل والشّاحج

ما يميّز أسلوب المَعَرّي أنه قائم في أساسه على غريب اللّغة الذي يُصقل من خلال ألوان اعتماده على البلاغة بشكل واضح، وهو بذلك يجعل القارئ على محبّة بيبضاء من خلال معرفته بمفتاح أسلوبه الذي يسلم له بتلك الميزة، فنرى في رسالته هذه كيف ضمّنها الفيض الواسع من الجمال البلاغي، والذي بدوره يعطي قوة حجاجية عالية المستوى خلافاً لما عليه الكلام العادي، فطغيان تلك المعالم على ألفاظه ومعانيه تنم عن موسوعيته وضلّاعته في اللّغة وأصولها.

يقول المَعَرّي على لسان ثعالة: "وَلَمْ يَكُنْ لِيَشْكُرَ الْعَارِفَةَ فِي صَدْرِ الْعُمَرِ، وَيَكْفُرَهَا مِنْ بَعْدِ الشَّيْبِ. وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي طِبَاعِ الْآدَمِينَ"⁽²⁾.

احتجّ المَعَرّي باستعارة كلمة (صدر) للفظ (العمر)؛ ليصل إلى نتيجة مرادها أن من يحفظ المعروف شاباً في فتوته لا يمكن له أن يدنس الفضيلة في شببته، بل يحفظ الودّ لأهله ويبقيه كما هو عليه في شبابه.

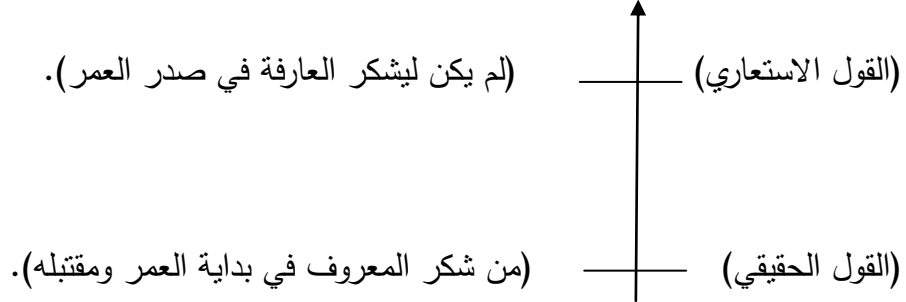
(1) يُنظر: الاستعارة في النقد الأدبي الحديث، يوسف أبو العدوس، ص 60.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 699.

فلجأ في تدعيمه للنص وتوقيته إلى القول الاستعاري بدلاً من الحقيقة؛ لأن الاستعارة أقوى حجةً وبياناً وتأكيداً، وما دامت وجدت في النص يعني إبراز وتقوية التماسك النصي، ويعدّ هذا من كمال البيان أن يجسّد المتكلم المعنويات بأمر الحسّ، مما يعمل على تعالق اللفظ وتمكّنه في بنيته التركيبية.

فكلمة (صدر) تقابل في الحقيقة (البداية)، فالعمر بداية؛ ثم سير وانتهاء، واللفظة المستعارة (صدر) فيها الكثير من الجذب وإحداث الأثر البالغ في تقوية المعنى لدى السامع، فغاية الاستعارة وقوتها جمع بين الألفاظ العلاقة بينهما مشابهة في المقام المطروح على اختلاف الحقل الدلالي الجامع لكل من اللفظتين، ومن هنا لا تكمن وظيفة الاستعارة في بعدها الفني فقط؛ بل تتجاوزه إلى البعد الحجاجي والإقناعي كما في السلم الحجاجي الآتي بين القول والنتيجة.

ن: (من يحفظ المعروف شاباً في فتوته لا يمكن له أن يدنّس الفضيلة في شبته).



ما يمكن ملاحظته أن القول الاستعاري يرد في أعلى السلم الحجاجي ليدعم النتيجة ويقوي الحجة والبرهان، وهذا لا يتوفر ضمن القول الحقيقي الذي لا يحتوي على جماليات لا تعمل فكر القارئ وتقوي في نفسه الحجج، والاستعارة من خصائصها أنها تعمق المعنى عبر محور الاستبدال⁽¹⁾، كما رأينا استبدال لفظة (صدر) لتحلّ محلّ (بداية) وهذا ما يعطيه تأثيراً في البعد الدلالي للنص، فالكاتب ببراعته يتوسل بالاستعارة للوصول والبيان، والمعرّي أعرف الكتاب والشعراء بمغزى الحرف في موضعه والكلمة والعبارة في تركيبها.

(1) الأسلوبية ونظرية النص، إبراهيم خليل، ص98.

وضمن أصول المقاربة الاستعارية⁽¹⁾، وهي ثلاثة:

- 1- أن القول الاستعاري قول حوارِي.
 - 2- أن القول الاستعاري قول حِجَاجِي.
 - 3- أن القول الاستعاري قول عملي، وصفته العملية تلازم ظاهره البياني والتخييلي.
- فمقام الاستِعَارَة سالف الذكر، كان ضمن قول حوارِي، وقد اشترك في حواريتها ذوات خطابية أربعة⁽²⁾، هي:

- الذات المظهرة: المطابقة بين المستعار له والمستعار منه.
- الذات المؤولة: الاعتراض على وجود المعنى الحقيقي للجملة.
- الذات المضمرة: ادعاء وجود المعنى المجازي للجملة.
- الذات المبلّغة: الاعتراض على وجود المعنى المجازي في الجملة.

وهذه الذوات تجتمع في الآن ذاته في المتكلم الواحد، فهو القائم بكل الأدوار الخطابية، حيث تدور كلها في فلك واحد، ولا يمكن إقصاء إحداها أو حذفها أو الاستغناء عنها، بل تعمل متكافئة متقاطعة، وحِجَاجِيَّتُها كانت ضمن الصنف التفاعلي تسير بين قطبي الادعاء والاعتراض بين الأطراف المتحاجة في القول، وهما: (ثعالة والشاحج).

وجاءت ضمن قول عملي ملحوظ لازمت ظاهرتي البيان والتخييل، وهذا التوجه العملي والفاعلية يستندان على المستعار منه، سواء أصرح به أم لم يصرح به، وكان بمثابة الشاهد الأمثل، لذلك كانت الاستِعَارَة أدعى من الحقيقة لاستثارة المُتَلَقِّي وتحريك مشاعره وزيادة الإقناع في النص، والالتزام بالقيم التي قد تُسْتَنْزَفُ في النصوص.

يقول المَعَرِّي: "أَمَّا أَنَا فَيَاسَرْتُ أَصْحَابِي وَيَاسَرُونِي وَوَجَدْتُ المَيَاسِرَةَ أَفْضَلَ مِنَ المَعَاسِرَةِ: أَخَفُّوا حِمْلِي وَأَمَرْتُ بِالصَّبْرِ نَفْسِي، فَحَمَدَ لِهَيْبُ الفِتْنَةِ وَغَيْرَى الدَّمِيمِ"⁽³⁾.

(1) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، ص310.

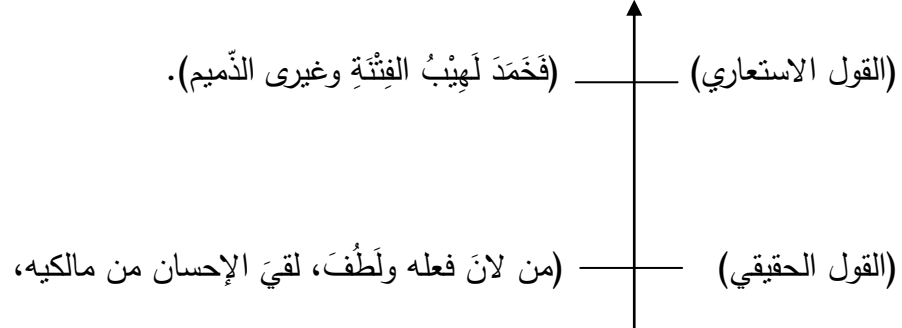
(2) المرجع السابق، ص311.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص610.

نرى المَعْرِي على لسان الشَّاحِج أنَّ مياسرته، أي: ملاينته ومساهلته لأصحابه جعلتهم يخفون الأحمال عليه ويحسنون له بتخفيف الأحمال وما شابهها، ولما كان الإحسان منه في المقابل وجد إحساناً، ولو كان معاسراً لهم في تلبية أمورهم لأشعل لهيب الفتنة بين الطرفين (هو وأصحابه) وما سكن ذلك اللهب.

فقوله: (فَحَمَدَ لَهَيْبُ الْفِتْنَةِ وَغَيْرَى الدَّمِيمِ) فيه استعارة لفظة اللهب التي هي في الحقيقة للنار (مستعار منه)، ووزَّع معناها على لفظة (الفتنة)، وكذلك (الغيرة) فهي غاية في الحسن والبيان والقوة وإقامة الحُجَّة، ولجأ المَعْرِي على لسان الأداة المستخدمة في الرسالة باستعمال هذه الاستعارة؛ لأن فيها من القوة الحجاجية على أضعاف ما في القول الحقيقي من تأثير وإقناع، وحاول أن يبلغ تلك المقصدية الحجاجية وهي الإقناع والتأثير في نفس المتلقِّي أن الملاينة والمياسرة تعمل في إخماد لهيب الفتنة والغيرة، كما تفعل الماء في النار من إخماد لهيبها، والناظر والمتأمل ضمن هذه الاستعارة يرى كمال حسنها وبراعة تركيبها.

ن: (الإحسان كفيل بتوليد الإحسان، فمن أحسن لم يعدم جوازيه).



ومن أساء أضمر الحقد والغل في نفس من يملكه).

نلاحظ ما تضمَّنه القول الاستعاري من قوَّة في المقصدية والتبليغ، على خلاف ما جاء به القول الحقيقي من إخبار يفتقر للجماليات والطاقت الحجاجية التي تقوي الحُجَّة وتبلغها في نفس القارئ، ويسعى لإقناعه بنتيجة واحدة وهي "الإحسان يولد الإحسان" ولكي يمارس الدور الحجاجي والإقناعي يوظف آية قرآنية توظيفاً غير مباشر، تمثلت في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾⁽¹⁾ وهذا معلوم بالضرورة للمتكلم والمخاطب في قوله من أحسن لم يعدم

(1) [الرحمن: 60]

جوازيه وبها قاد القارئ للتسليم بصحة النتيجة عبر استعماله للاستعارة وإقامة الججاج وتوظيفه بواسطتها.

يقول المَعَرِّي في وصفه لنهوض الشَّاحِج: "فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحَ وَظَهَرَتِ الْجَالِيَةُ بِالْفَزْدِ وَبِالْأَطْفَالِ، سَمِعَ الشَّاحِجُ أَصْوَاتَ الْقَوْمِ، فَجَارَ أَنْ يُنْطِقَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، فَيَقُولُ: الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ...الآن صَرَخَ الْحَقُّ عَنْ مَحْضِهِ، وَظَهَرَ نَجِثُ الْقَوْمِ"⁽¹⁾.

هذا القول يحوي العديد من الاستعارات كلها مجيدات بيّنات مبيّنات لما في القول، وكلها حجج تساق وتقوي مضامينها مقاصدها الججاجية، فالمَعَرِّي صانع اللّغة عالم بأدائها وما يعمل على حد وتشكيل عباراتها.

الأولى في قوله: "فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحَ" هذه استعارة بديعة وورد في القرآن ذكرها⁽²⁾.

يعني لما انبلج وانتشر ضياؤه وعمّت في المكان أنواره، فاستعار لفظة (سفر) للصبح لما أعلن إشراقه، وهي نتيجة أولى تعلن انقشاع الظلمة وإحلال النهار، ثم ظهرت الجالية بالمتاع والأطفال، وسمع الشَّاحِجُ أصوات القوم، وكلها معلنة مجيء وبداية يوم جديد، ومن جمال هذا التركيب أنه أعلن في شطر القصيد الأول سفور النهار ثم التفاعل بين ألوان الحياة.

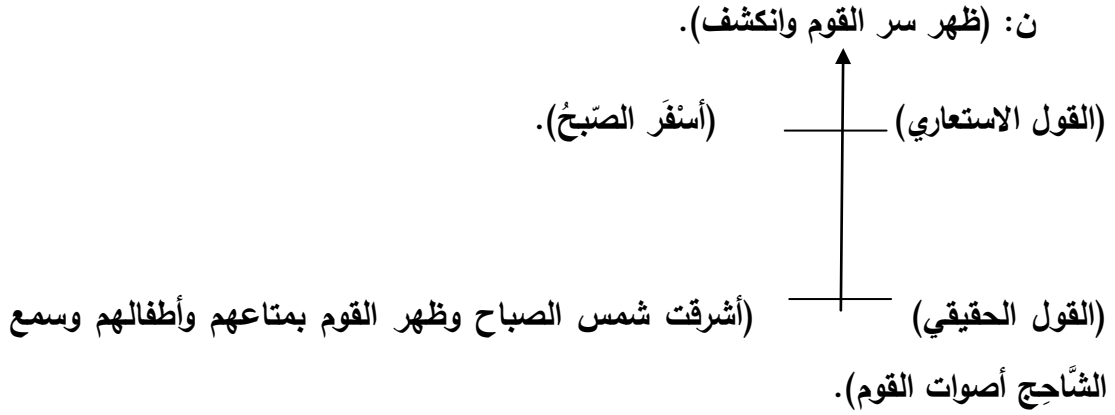
والصورة بكليتها قد انبنت في الأساس على الاستعارة الكبرى التي وُجّهت بمعية حجاجية تقوّي التركيب وتعمل على اختصار بنيته الزمانية، فهي أساس الصورة التخيلية وفقاً لما تحدّث به أرسطو⁽³⁾؛ لأنها السّمة التي تُخرج الخطاب من المألوف إلى الغريب، وتعمل من خلال رصد الحركة الغريبة المُستَقَى مِنْهَا التّعبير لتكوين أجزائها على شد انتباه القارئ والتأثير في نفسه مما يحدث عملية الإقناع، وقد اجتمع في الذات التي انبثق الحديث عنها الذات المظهرة، والذات المؤولة، والذات المضمرّة، والذات المبلّغة.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص426.

(2) في قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾. [المدثر: 34].

(3) اللغة والخطاب، عمر أوكان، ص124.

وتمثيلها كالآتي:



لنناظر ضمن القول الحقيقي والاستعاري نجد اختصارًا في بنى الجمل التركيبية، مما يسعف في اختزال البنية الزمنية للقول الحجاجي الاستعاري، فضمن بنية اللُّغة عند أرسطو يربط الاستِعَارَة بالنقل واللفظ⁽¹⁾، ومن نقله للفظ ما رأينا كيف فرضت اللفظة نفسها على السياق وأدت وظيفة إيهامية، والتَّغريب العائد لمخالفتها المألوف من أن الصبح لا يسفر عن نفسه، والمتعة التي نرجعها إلى التخيل الذي يضيف الحسن والمتعة على التركيب الاستعاري.

ومحور اللفظ بكليته يندرج وفق محور الاستبدال الذي تحدثنا عنه سابقًا، لأن الكلمة لها ضمن الحقيقة ترتبط بمعنى ظاهر وكذلك في جهة الاستِعَارَة، فتلتفّ على نفسها معلنة ذهابها لحقل دلالي مخالف للمعنى الأصلي للكلمة.

وإكمالًا لما في النص من ذكاء اللُّغة العلائية المركّبة، تضمينه القول الاستعاري الآتي:
"الآن صرّح الحقّ عن محضه"⁽²⁾.

بعد كل الجمل التي وضعها جاء بلفظ جماليّ مبدعٍ بديعٍ، وأضاف لفظة التصريح للحقّ، فالمقصدية الججاجية بدءًا من تركيبها فهي قويّة مقارنة بقولنا: (ظهر الحقّ)، كلاهما بديع لكن الإبداع درجات، وقد تفوّق التركيب الاستعاري بحججه وطاقاته الجمالية على الأخير.

(1) اللغة والخطاب، عمر أوكان، ص124.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص426.

ن: (ظهور نجيث القوم).

القول الاستعاري (الآن صرح الحق عن محضه).

القول الحقيقي (ظهور حقائق لم تُعلم من قبل وأسرار لم يخبر بها القوم لكنها
تكشفت مع شروق الشمس وأصبحت ظاهرة للعيان).

فالفرق يبدو واضحاً جلياً بين التركيبين وورود القول الاستعاري في قمة السلم الحجاجي دليل على امتلاكه قوة حجاجية لا توجد في القول الحقيقي الذي هو بدوره جاء في أسفل السلم، فالاستعارة تعمل على: "تحريك همّة المرسل إليه، إذ تهدف إلى تغيير المقاييس التي يعتمدها المرسل إليه في تقويم الواقع والسلوك وأن يتعرف على ذلك من المرسل؛ ليكون سبب القبول والتسليم"⁽¹⁾.

وهذا التركيب احتوى على استعارتين كانت كل واحدة منهما حُجّة لظهور نتيجة إثر حدوثها، ولما كانت الاستعارة قوية، كانت الحُجّة أقوى في الإثبات، وأقدر على إحداث الأثر والإقناع التي توصل الكاتب ببراعته لإيصالها للمتلقي.

(1) إستراتيجيات الخطاب، الشهري، ص294.

المَبْحَثُ الثالثُ: التَّوْرِيَّةُ

تعد التورية من أرقى الفنون البلاغية وأعمقها في البيان وأروعها؛ فهي من أحسن ما عمل لتحسين المعاني، فهي تعتمد على مبدأ تحسيني⁽¹⁾ من خلال ما يتم من زُخْرَفٍ للألفاظ وإرساءٍ تحسِينٍ شكليٍّ عَلَيْهَا، وليس ذلك فحسب بل تقوم على مبدأ تكويني⁽²⁾ كذلك، حيث تساهم مساهمة فاعلة في إحكام شاعرية الألفاظ وبناء جمالياتها وتدعيم ديمومة النص المصاحبة له، والمستجلب الجمال من خلال مبدأ التحسين البديعي والتكويني المرافق لها في الصميم وتتابعات الإشارات المشرقة للحديث عن هذين المبدئين ضمن البديع ومصطلحاته عند العلماء القدامى، والتورية هي إحدى أهم مكونات البديع، ومن خلالها يطرق المتكلم باباً يأمن عواقب حديثه من خلالها وينأى عن نفسه الكذب.

يقول الزمخشري (538هـ) في هذا الباب: "ولا نرى باباً في البيان أدق، ولا أطف من هذا الباب، ولا أنفع، ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله، وكلام نبيه، وكلام صحابته"⁽³⁾.

التورية في اللغة والاصطلاح

التورية: "وَرِيْتُ الخبر أَوْرِيَهُ تَوْرِيَةً إذا سترته وأظهرت غيره، كأنه مأخوذ من وراء الإنسان لأنه إذا قال وَرَيْتَهُ فكأنه يجعله وراءه حيث لا يظهر. والْوَرِيُّ: الضَّيْفُ.

وفلان وَرِيٌّ فلا أي جازه الذي تُواريه بيوته وتستره؛ قال الأعشى:

وَتَشْدُ عَقْدَ وَرَيْنَا عَقْدَ الْحَبْرِ عَلَى الْغِفَارَةِ.
وَتَشْدُ عَقْدَ وَرَيْنَا عَقْدَ الْحَبْرِ عَلَى الْغِفَارَةِ

قال: سمي وَرِيًّا لَأَن بَيْتَهُ يُوَارِيهِ. وَوَرِيْتُ عنه: أَرَدْتُهُ وَأظهرت غيره، وَأَرَيْتُ لغة، وهو مذكور في موضعه، والتَّوْرِيَّةُ السُّتْرُ"⁽⁴⁾.

(1) حركية البديع في الخطاب الشعري من التحسين إلى التكوين، سعيد العوادي، ص 29.

(2) المرجع السابق، ص 31.

(3) الكشف، الزمخشري، ج 4/40.

(4) لسان العرب، ابن منظور، ج 15/390.

إذن التورية هي ما سُتر، مأخوذة من لفظة وراء، أي وراء الإنسان وهو ما لم يعاين ولم يظهر للمشاهد.

وعرفها الحموي (837هـ) في خزنة الأدب: "التورية يقال لها الإيهام والتوجيه والتخيير؛ والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى، لأنها مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره".

حيث عدّد في النصّ أسماء أخرى قد يجوز أن تُطلق على التورية، لكنها هي الأقرب من حيث مطابقتها للمسمّى، فالتورية في الاصطلاح قد حددت لغة من الستر، والمعنى الاصطلاحي تفسيري وتحليلي لبعض كلمات اللّغة التي تعدّ الموجه للاصطلاح.

وعرفها في الاصطلاح: "أنّ يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجازاً، أحدهما قريبة ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، لأجل ذلك سمّي هذا النوع إيهاماً"⁽¹⁾.

إذن المصطلح قد جمع عناصر التورية فهي تتكون من معنى قريب، وآخر بعيد، الأول منها غير مراد لكنه يثبت في ذهن السامع والذي يقوم بتقويته وإظهاره ذلك العنصر الذي يطلق عليه القرينة، لكن المراد هو المعنى البعيد والذي يكشفه السامع من خلال تحليله العميق للنص، وتمتلك التورية عناصر جمالية من خلال كونها تقوم بإشغال السامع في البحث عن المعنى المراد وتحديده.

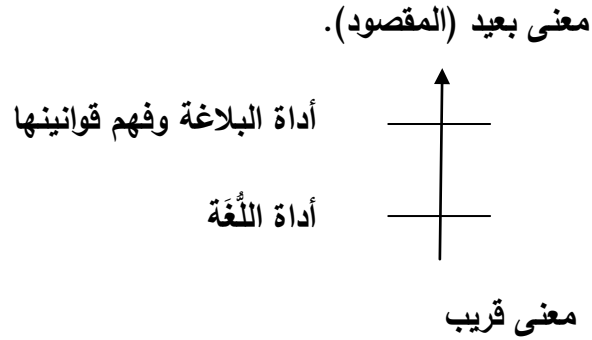
وتمتلك التورية ضمن الدرس الجّاجيّ الحديث أهمية كبيرة لم ينتبه لها العلماء وليبيانها وإبراز طاقاتها الجّاجيّة الخفية في أعماقها، فعلى محلّ الخطاب بحسب ما يراه (قسطنطين سلفستري) أن يركز بلاغيّاً في المحسنات البلاغيّة وذكر من ضمنها التورية⁽²⁾، فالأصل ليس الوقوف على المعاني فقط وتحديدها؛ بل بيان السر الجمالي لمثل هذه الأعمال التي يلجأ إليها

(1) خزنة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، ص 295.

(2) نقلاً عن بلاغة المناظرة (مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتى بن يونس)، عبد الوهاب صديقي، ص 165.

الأدباء والكتاب، وإلى أي مدى يصل الحجاج ضمن المعنى البعيد من إحداثه لأثر عظيم في نفس القارئ.

ولا بد لفهم التورية من امتلاك أدوات ضمن اللغة وأصولها، وقبل ذكر تلك الأدوات ستقوم الباحثة بتمثيلها على السلم الحجاجي:



إن هذا السلم هو اختصار لفهم التورية وحقيقتها والتي هي كالآتي:

- معنى قريب التخطي والعبور والوصول؛ يتم من خلال امتلاك:

أ- أداة اللغة

ب- وأداة البلاغة

ثم يصل للمقصود؛ وهو:

- المعنى البعيد.

وفي الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ عقد فصلاً كاملاً للحديث باستخدام هذا الفن، وكان بديعياً جميلاً اللفظ حسن المعنى، مع أن القارئ له لأول مرة يكاد يغرق في تأويلها إلا إذا علم أنها من باب التورية، وكان الشَّاحِجِ قد أوضح منذ البداية أن الحديث الذي سيتلوه على مسمع أبي أيوب إنما هو من باب التورية؛ وأمثلتها كثيرة جداً، وستطرح الباحثة بعضها لتبين كيف ظهر فن الإقناع بصورة كبيرة في التورية وجمالياتها.

يقول المَعْرِي على لسان الشَّاحِجِ في بداية الفصل الذي كله على منهج من سبقه في تمثّل هذا الفن: "الْعِلْمُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَسَنَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمْ يَرِ الْحُسَيْنَ قَطُّ. وَأَنَّ الْحُسَيْنَ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَرَ الْحَسَنَ قَطًّا؛ وَأَنَّ فَاطِمَةَ لَمْ تَرَ فِي بَيْتِهَا عَلِيًّا، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ رَأَتْهُ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ، وَأَنَّ الْخَلَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيمَا سَلَفَ، كَانَ بِحَضْرَةِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَيَتَكَلَّمُ وَيَسْأَلُهُ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ⁽¹⁾.

هذه أولى الفقرات التي ابتدأ فيها حديثه على منهج ما نراه ابن دريد في (الملاحن)، وابن فارس الرازي في (قُنْيَا فقيه العرب)، وإن رأينا معانيها فهي متنافرة فيها الكثير من التناقض قياساً على الواقع الذي نعلمه، إن الحسن هو أخو الحسين، وهما ابنا علي وفاطمة -رضي الله عنهما- فكيف لهذه المعاني أن تتشكل بهذا التناقض، إنما جاء ذلك على سبيل التورية، إن علمنا أن المعنى البعيد لكل منها ليس ذلك الذي حملناه من قريب، فالمعاني خلف كَلِمَها تختلف، وهي كالأتي:

الحسن والحسين: هما كثيبا رملٍ ألغز بهما الشَّاحِج على الحسن والحسين -رضي الله عنهما-
ومن ذلك قول الضَّبِّي⁽²⁾:

لَأَمَّ الْأَرْضِ وَيْلٌ مَا أَجَنَّتْ بِحَيْثُ أَضَرَّ بِالْحَسَنِ السَّبِيلُ⁽³⁾.

قال الجوهري: قتل بهذه الرملة (الحسن)⁽⁴⁾، أبو الصهباء بسطام بن قيس بن خالد الشيباني، يوم النقا، قتله عاصم بن خليفة الضبي، قال: وهما جبلان أو نقوان، يقال لأحد هذين الجبلين (الحسن)⁽⁵⁾.

وقال شمعلة بن الأخضر بن هُبَيْرَةَ الضَّبِّي⁽⁶⁾:

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص222.

(2) وهو عبد الله بن عَمَّة وكان متزوجاً من بني شيبان نازلاً فيهم وهو ابن أختهم، وهذه المروية رثى فيه بسطام بن قيس.

يُنظر: المفضليات ص378، والأصمعيات ص36.

(3) القصيدة كاملة في الأصمعيات ص36، والعقد الفريد ج6/61.

(4) وسمي يومها (نقا الحسن) و(يوم الشقيقة).

(5) يُنظر: لسان العرب، ج13/118.

(6) شمعلة بن الأخضر الضبي شاعر فارس جاهلي، ويوم الشقيقة هذه بعد البعثة النبوية بقليل ويعد من شعراء الحماسة.

الأعلام، خير الدين الزركلي، ج3/177.

وَيَوْمَ شَقِيقَةِ الْحَسَنِ لَأَقْتُ بَنُو شَيْبَانَ آجَالاً قِصَاراً⁽¹⁾.

وكما نقل الأزهري عن علي بن حمزة الحسن هو الشجر، سمّي بذلك لحسنه، ونسب الكتيّب إليه ف قيل: "نقا الحسن"⁽²⁾.

وقول الحارثي⁽³⁾:

تَرَكْنَا بِالشَّيْءِ مِنْ حُسَيْنٍ نِسَاءَ الْحَيِّ يَلْقَطَنَّ الْجُمَانَا⁽⁴⁾.

ثم ذكر الشّاحج أن هذا المعنى هو المراد من لفظه (الحسين)، حيث إن الحسن لم ير هذا الكتيّب قط، وفي ذلك يقول ابن الأعرابي: يقال أحسن الرجل إذا جلس على الحسن، وهو الكتيّب النّقي العالي، قال: وبه سمى الغلام حسنا.

والعليّ: قصد به الفراش الصلب⁽⁵⁾ من اشتقاقه حيث يدل على العالي وهذا ما قصده من قوله أن فاطمة لم تر عليّاً في بيتها.

والخلّ: الرجل المهزول، ويمكن أن يكون المختلّ الحال⁽⁶⁾، وهذا ما قصده في قوله: "إن الخل يجوز أن يكون فيما سلف، كان يحضر مائدة عليّ بن الحسين".

(1) الصحاح، الجوهري، ج5/2100.

(2) يُنظر: تاج العروس، الزبيدي، ج34/425.

(3) وهو هذبة بن الخشرم بن كُرز، من بني عامر بن ثعلبة من سعد هذيم من قضاة شاعر، فصيح، مرتجل، راوية، من أهل بادية الحجاز (بين تبوك والمدينة) كنيته أبو عمير يُنظر ترجمته: الأغاني ج7/73، وحماسة ابن الشجري ص60-61، والشعر والشعراء ج2/691، وخزانة البغدادي ج4/84.

(4) يُنظر رواية البيت عند الجوهري:

تَرَكْنَا بِالنَّوْصِيفِ مِنْ حُسَيْنٍ

وفي حماسة أبي تمام:

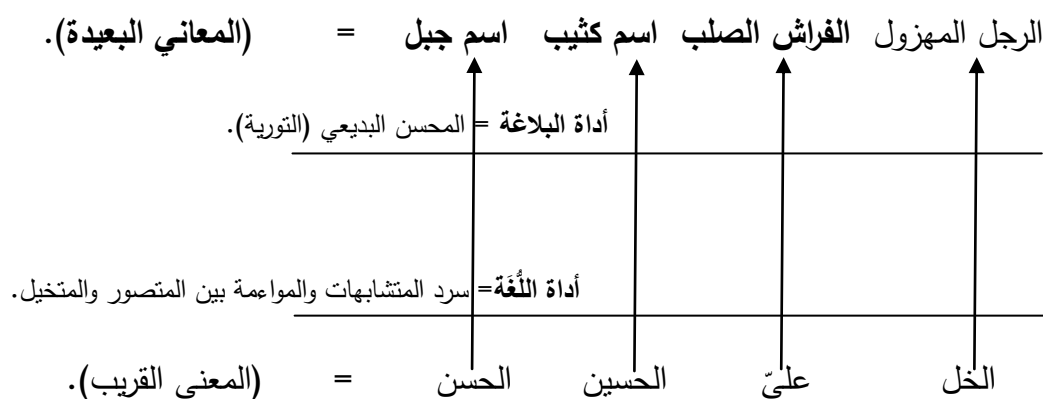
تَرَكْنَا بِالْعَوِيْدِ مِنْ حُسَيْنٍ

معجم ما استعجم للبكريّ الأندلسيّ (نسبه لثعلب) ج1/83، وعلّق المحقق (جمال طلبية) أنه لم يعثر عليه في مصادره، وهو (صواباً) ينسب للحارثيّ هذبة بن الخشرم؛ ويُنظر: الصحاح ج5/2100، وحماسة أبي تمام ج1/334، وتاج العروس ج34/424.

(5) يُنظر: لسان العرب، ابن منظور، ص3094.

(6) ينظر: المرجع السابق، ص1253.

من الجدير بالذكر تلك الكثافة التركيبية للعبارات في سياق التورية حتى تكاد ترى تواشجات وازدحامات لدوائر التورية في سالامها الحاجية المختلفة ويمكن التعبير عن هذه السالام مجتمعة في العبارة الواحدة من خلال السلم الحاجي المتراكب الآتي:



وبدت هذه التورية من خلال أداة فهم النص السياقي المعلومة في دوال؛ وهي (صلى الله عليه وسلم- الحسن أخو الحسين - فاطمة زوج علي .. إلخ).

فهذا على طول شرحه يُدخل القارئ في عجبٍ من أمر التورية، كيف كانت قد أفضت إلى صورة مغايرة عن التي علمناها بعد تخريج المعنى البعيد الذي كان قد قصده المَعْرِي في قوله، فقد حوت الكثير من المعاني الإقناعية، وتمثّل البديع في معناها بترسيخ تلك المقاصد وتكوينها في ذهن السامع عن طريق الحجج التي ساقها في تفسيره لمراده من كل الألفاظ المدرجة، والتورية بحق أظهرت لنا من خلال هذا المثال كيف لها أن تفصح عن طاقة حجاجية هائلة موجهة وتعمل في الفكر ما لا يستطيعه أي فنٍ بلاغي آخر، وكيف ساهم المبدأ التحسيني في صرف الفكر عن المعنى المراد إلى المعنى الأول، وكذلك المبدأ التكويني وما له من تأثير شعوري في بناء الحجج وتأكيدها ضمن البناء النصي، ألم تر لفظ الحسن والحسين كيف قد صور لنا أبناء علي، ثم كان الحسين عبارة عن كتيب رمل لم نكن نتصوره، فهذا الجمال قد تمثّل في قوة الحُجّة التي تمثّل بها، ويدل كل ذلك على عبقرية المَعْرِي في سرده للمتشابهات وجعلها كلها في فئة قصصية متداخلة إلا أنها كانت تصب في واد مغاير عن المتصور معناه.

ولك أن تتخيل عمق الحجاج في قوله: "وَكَانَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرْحَمُ الْأَرْمَلَةَ وَيَبْرِئُ الْيَتِيمَ وَيَضْرِبُ بِحَدِّ سَيْفِهِ أُمَّ الصَّبِيِّينَ، وَيَقْطَعُ يَدَ الْفِيلِ عَلَى السَّرِقِ، وَجَلَدَهُ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ، وَكَانَ يَأْمُرُ بِقَتْلِ الْأَعْرَجِ وَالْأَعْيُوجِ وَهُمَا فِي الْحَرَمِ، وَيَكْرَهُ دُخُولَ الْأَعْمَى الْمَسْجِدَ، وَكَانَ يُنْصِفُ الْخَسِيسَ مِنْ أَهْلِ الْأَقْدَارِ"⁽¹⁾.

لأول قراءة يشعر القارئ بعنف اللفظ وعدم مطابقته للواقع الذي نعلمه عن عليٍّ رضي الله عنه- بحلمه وعفوه وأخلاقه التي لو وزعت على أهل الأرض لكفّتهم، ولكن كل تلك السياقات نجدها في الحقيقة موجهة لطبقة مرموقة في الفكر عالمة مثقفة، فمن ضمن الذي أشارت الباحثة إليه أن الذي كان يؤم باب عزيز الدولة هم الشعراء والكتاب والأدباء الذين يتسابقون في الحصول على مكانة عظيمة في نفس عزيز الدولة من خلال تقديمهم لأروع ما يكتبون وأشعر ما ينسجون، فجاء المَعْرِي ل يظهر لهم أن الكتابة هي أن تمتلك معرفة باللغة ومعانيها وبلاغتها، وكان السابق تحت مظلة التورية كذلك وإبراز مواطنها في مؤلف كرسالة الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ، والمعاني البعيدة المقصودة كالاتي:

أم الصبيين: الهامة ، قال تأبط شراً⁽²⁾:

إِذَا أَفْزَعُوا أُمَّ الصَّبِيِّينَ طَيَّرُوا عَفَارِي عَنَّا ضَافَةً لَمْ تُرْجَلِ⁽³⁾.

فألغز المَعْرِي على لسان الشَّاحِجِ بأم الصبيين عن المرأة التي لها صبيان، لأن العرب تردد ذلك فيقولون أم الصبي، وأم الصبيين.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 222-223.

(2) هو ثابت بن جابر بن سفيان، قيل: إنه سمّي بذلك لأنه أخذ سيفاً تحت إبطه وخرج، فقيل لأمه: أين هو؟ فقالت: لا أدري تأبط شراً وخرج، وقيل أيضاً أنه أخذ سكيناً تحت إبطه وخرج إلى نادي قومه فوجأ بعضهم وقيل تأبط شراً. يُنظر: شرح الحماسة للخطيب التبريزي ج 1/61.

(3) في الديوان:

إذا فزعوا أم الصبيين نفّضوا عفارِي شعثاً صافَةً لم تُرْجَلِ.
يُنظر: ديوان تأبط شراً، ص 177.

ومن الأمثلة التي قدّمها قول (الفراء)⁽¹⁾:

أَلَا زَعَمْتَ أُمَّ الصَّبِيِّ خَزَائِيَّةً عَلَى فِزَارَةٍ أَنْ عَرَفْتُ بَنِي عَبْسٍ⁽²⁾.
والأعرج الذي ألغز بأن علياً أمر بقتله؛ هو الغراب أو الذئب لأنهما أعرجان، وقتلهما
مباح في الحرم.

والأعرج عند اللّغويين حيّة أصمّ خبيث، والجمع الأعرجات؛ والأعرج هي أخت
الحيّات يثبُّ حتى يصير مع الفارس في سرجه؛ قال أبو خيرة: هي حيّة صماء لا تقبل الرُّقِيّة
وتطفر كما تطفر الأفعى، والجمع الأعرجات⁽³⁾؛ وقيل: هي حيّة عريض له قائمة واحدة
عريض.

والأعمى الذي كره دخوله المسجد إنما هو السيل والفحل الهائج من الإبل، ومن الأمثال
في ذلك: "سلّط الله عليهم الأيهمين والأعميين وهما السيل والجمل الهائج"⁽⁴⁾.

وبلا شك أن علياً -رضي الله عنه- كان لا يحب دخول السيل والجمل الهائج المسجد؛
وهما الأعميان.

والجليل الذي أشار إليه المعريّ يحتمل على قوله أمرين: أحدهما أنه يعني به الثمام،
ومنه قول الشاعر:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيَّنْتُ لَيْلَةً بَوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخَرْتُ وَجَلِيلُ⁽⁵⁾.

(1) يحيى بن زياد بن عبدالله بن مروان الديلميّ إمام العربية أو زكريا المعروف بالفراء، وقيل له الفراء؛ لأنه كان يفري
الكلام، وكان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي وجعله الزبيدي في طبقاته ضمن الطبقة الثالثة من نحاة الكوفة. يُنظر
ترجمته: بغية الوعاء ج2/333، وطبقات النحويين والكوفيين ص131، ووفيات الأعيان ج6/176.

(2) والبيت لأوس بن حجر في ديوانه ص51، لسان العرب ج6/170، وحماسة البحتري ص113.

(3) يُنظر: لسان العرب، ج2/322.

(4) مجمع الأمثال، الميداني، ج1/344.

(5) البيت لبلال بن رباح، ورواية أخرى:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيَّنْتُ لَيْلَةً بِفَحٍّ وَحَوْلِي إِذْخَرْتُ وَجَلِيلُ.

يُنظر: لسان لعرب ج3/42، والمحكم ج4/524.

والآخر يُعنى به الجَلَّة، من قولهم جلت الأمة تجل؛ فالشيء مجلول وجليل، ويعلل قوله: كان ينصف الخسيس من أهل الأقدار، يعد من الإلغاز؛ كي يتوهم السامع أن الجليل هاهنا هو الجليل من الناس.

وحقيقة هذه المعاني التي كانت سلبية بحق علي -رضي الله عنه- لما علمنا الطريق الذي سلكت معناه والحجج التي أدرجت لتبرئته من أي نقص؛ عرفنا سحر التورية وكيف لها أن تصل بالعقل لأعلى السلام الجَجَاجِيَّة القولية؛ من خلال تأديتها المعنى المراد بدقة وحرفية ومهارة، وذلك من خلال طرح اللفظ والألفاظ على مجموعها في ذات السياق ثم بعدها نعلم كيفية أدائها من خلال المعاني البعيدة المقصودة ضمن الدائرة الجَجَاجِيَّة التي أدرجت بعد ذكر المثال، وهذا كله ينم عن عبقرية عظيمة وصل لها المَعَرِّي في إدلائه بذكاء العارف والحادق ضمن باب التورية والإلغاز، وكيف استطاع أن يعمل فكر قارئ هذه الرسالة العظيمة معانيها إلا لمن فهمها بحق وروية وتدبر، فلدينا ضمن تلك الدائرة قارئ يواجه معنيين أحدهما قريب والأقرب منه السلسلة المترابطة في خضم المعاني ذاتها والتي تشعره بعدم الإنصاف لصاحب القول المسرود، ثم بعد ذلك عليه أن يتنبه ويمتلك أداتين أداة اللُّغَة وأداة البلاغة، ثم أداة فهم النص والسياق الذي قيل فيه، حتى يصل للمعنى الأخير وهو المراد والمسمى بالمعنى البعيد.

فالمدخل البلاغي إذن في تحليل النصوص النثرية معيَّنًا على القراءة والتأويل وفهم حياة الناس⁽¹⁾، ما يجعله ليس نصًا لتحقيق الإمتاع فقط، وإنما غايته الإقناع والحمل على فكرة التواصل والقراءة النشيطة للنصوص والمشاركة في إنتاج وبناء معانيها.

قال المَعَرِّي: "وَكَاثَتْ فِي حِمَصَ عَجُوزَ لَهَا دَجَاجَتَانِ أَقَامَتَا فِي تَابُوتٍ نَحْوًا مِنْ سِنَةِ أَشْهُرٍ أَوْ سَبْعَةِ بَغِيرٍ عَافٍ وَلَا مَاءٍ، ثُمَّ خَرَجَتْ بِهِمَا إِلَى السُّوقِ فَبَاعَتْهُمَا، وَلَمْ يَنْقُصْ طُولُ الْحَبْسِ ثَمَنَهُمَا"⁽²⁾.

(1) يُنظر: الحجاج والتأويل في النص السردى عند الجاحظ، محمد مشبال، ص61.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص229.

الدجاجة هنا لها معنيان الظاهر والأقرب بحسب ارتباطها بالسياق، ومعنى النص أنها الدجاجة التي تُعلف وهي طائر معروف من الدواجن، والذي قواه في نفس السامع ذكر القرائن من علف وماء.

لكن المعنى البعيد وهو المراد الدجاجة بمعنى: اللفة من الغزل، وتُجمع على دجاج ودُجج، فالمعنى لما تكشف عنه الظنون من توارد بعض المتضادات أن الدجاجتين تم حبسهما بدون علف وماء لمدة ستة أشهر، وذلك في عرف البشر يأتي الموت، فهذا ما نفى أن يصدق العقل ذلك، فكانت الدجاجة بمعنى الكبة من الغزل، حيث أقنعت بذلك السامع وأمتعته في الآن ذاته فحققت التورية جماليته ووظيفتها.

وقال أيضاً: "وَفِي نَوَاحِي نَجْرَانَ خَيْلٌ لَهَا قُرُونٌ"⁽¹⁾.

(الخيول التي لها قرون) كلمة الخيل فيها تورية، والعرف بين الناس أن الخيول تخلق دون قرون، فالذي يُقنع السامع هو معرفة التورية على وجهها الحق من الكشف عن المعنى البعيد؛ والذي هنا يحتمل وجهين:

- ربما أراد بها الرماح ومن ذلك ذكر بعض العرب في وصيته: "أطيلوا الرماح فإنها قرون الخيل"⁽²⁾.

- وربما أردا بها وجهاً آخر وهو الدُّفع من العرق؛ قال زهير⁽³⁾:

نُعَوِّدُهَا الطَّرَادَ فَكُلَّ يَوْمٍ تُسَنُّ عَلَى سَنَابِكِهَا الْقُرُونُ⁽⁴⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 229.

(2) يُنظر: الفتوح، أحمد بن أعثم، ج 3/312.

(3) زهير بن أبي سلمى: حكيم الشعراء في الجاهلية وأحد الثلاثة المتقدمين على سائر الشعراء وهم: (زهير، وامرؤ القيس، والنابعة الذبياني). يُنظر: الأغاني، ج 10/443، والشعر والشعراء، ج 1/143، وطبقات الشعراء، ص 37.

(4) البيت في الديوان:

تُضَمَّرُ، بِالْأَصَانِلِ، كُلَّ يَوْمٍ تُسَنُّ، عَلَى سَنَابِكِهَا، الْقُرُونُ.
يُنظر: ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 127.

وفي ذات السياق أورد الشَّاحِج: "وَفِي دِمَشْقَ عَجُوزٌ وَلَدَتْ بَيْضَةً فِي عُمْرِهَا، ثُمَّ لَمْ تَعُدْ إِلَى ذَلِكَ"⁽¹⁾.

والتورية هنا في كلمة (بيضة)؛ وهي المرأة الكريمة؛ من قولهم: بيضة الخدر وبيضات الخدر.

وهذه التورية وإن كانت بديعة فهي تحتوي على شيء من الضعف حيث لم يحتوِ النص على قرائن تؤدي بالعقل إلى الدهشة، لا سيما إن علمنا أن كلمة بيضة الخدر وبيضات الخدر قد أكثر الشعراء من ذكرهن، ولما نرجع لسياق المعرِّي فسيتضح أن المعنى أن هذه العجوز ولدت فتاة (بيضة)، وهذه مما تشبه به النساء والفتيات في اللون وفي صيانتها.

ومن التورية أيضاً: "كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ لَا يَقْرُبُ الْجَامِعَ وَيَبِيتُ فِي الْكَنِيسَةِ"⁽²⁾.

يقصد بالجامع هي المرأة التي جمعت عليها الثياب: الإزار والخمار والدُّرْع، ورأيت القرينة كيف أحدثت تأثيراً في التورية التي هي كلمة (الجامع)، فموضع القوة الحجاجية هنا له ارتباط وثيق في مناسبه الألفاظ الواردة وكيفية إيرادها مع القرائن الدالة بعمق ودقة لغوية، فالمقوي والمبرز للمعنى القريب وهو مكان العبادة لفظة (الكنيسة)، والتورية هنا جاءت مبنية على المبدأ البديعي التكويني الذي يبرز جمال السياق متجلياً بعمق اللفظ وقوة دلالاته.

وكذلك قول المعرِّي: "وَمِنْ رَأْيِي أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ مَنْ قَتَلَ حُرًّا فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ"⁽³⁾.

يتبادر للذهن قتل الحر من (النَّاس)، وهو ضد العبد والمملوك، أما المعنى العميق المراد فهو (الحر): حية دقيقة مثل الجانِّ أبيض (والجانُّ في هذه الصفة)، وقيل: هو ولد الحية اللطيفة.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص229.

(2) المصدر السابق، ص230.

(3) المصدر نفسه، ص230.

قال الطرمّاح⁽¹⁾:

مُنْطَوٍ فِي جَوْفِ نَامُوسِهِ كَانْطَوَاءِ الْحَرِّ بَيْنَ السَّلَامِ⁽²⁾.
وزعموا أنه الأبيض من الحيات.

وهنا يظهر المَعَرِّي براعة الحاذق في ربط المعاني وتوليدها على ذات الصورة الواحدة، فهي كلها تتوافق ربطاً ضمن الحكم الشرعي وحُجّة الفقهاء على مجموعهم، فأُتِيَ بالفقيه المعروف أولاً الشافعي ثم مثل على مذهب أبي حنيفة النعمان.

والذي يجعل المعنى القريب قوياً هو اللوحة المركبة من المعاني المتشابهة التي كلها تتصافر وتقوي المراد القريب في نفس المُتَلَقِّي، لكن مع بيان الحجج وظهور المعاني البعيدة باستخدام اللُغة ومعرفة أسسها وتحولاتها بتحول السياق، وهذه البراعة في استخدام هذا الفن أنه يحدث متعة في نفس القارئ، مع التصديق الذي لا مجال لردّه لما يتبين المعنى الحقيقي والوجه المقصود.

ومن ذلك أيضاً: "وَالدَّجَالُ قَدْ ظَهَرَ مُنْذُ سَنَوَاتٍ فِي عَمَلِ -السَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَمِيرِ الْأُمَرَاءِ- آدَامَ اللَّهِ سُلْطَانَهُ، وَهُوَ يَكُونُ عِنْدَ بَعْضِ الْجُنُودِ بِمَدِينَةِ حَلَبَ حَرَسَهَا اللَّهُ"⁽³⁾.

وقوله: "وَكَذَلِكَ يَاجُوجُ. فَأَمَّا مَا جُوجُ فَلَا خَيْرَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُتَسَامِحِينَ فِي الْقِيَاسِ"⁽⁴⁾.

التورية والإيهام في قوله (الدجال)؛ فقد جاءت مناسبة للسياق من حيث الألفاظ المتضمنة لها الجمل.

(1) هو الحكم بن حكيم بن الحكم بن نفر بن قيس بن جحدر ينتهي بنسبه إلى طيء، والطرمّاح لقب عرف بع وطغى على شهرته ومعناه: الطويل القامة، وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحاءهم. يُنظر: الأغاني ج2/288، والشعر والشعراء ج2/585، وديوان الطرمّاح، تحقيق: عزة حسن، ص5، والمؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء، ص191.

(2) يُنظر البيت: ديوان الطرمّاح ص426، مقاييس اللغة ج1/223، ولسان العرب، ج4/183.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص231.

(4) المصدر السابق، ص231.

لكنها منافية للواقع والزمان والنبوءات؛ فهو إنما قصد بها: فرند السيف، أو الذهب وماءه؛ ومن ذلك قول نابغة بني جعدة⁽¹⁾:

ثُمَّ نَزَلْنَا وَعَظَلْنَا الرِّمَاحَ وَجَزَ رَدْنَا سَيُوفًا كَسَاهَا الْقَيْنُ دَجَالًا⁽²⁾.

وأما ياجوج ومأجوج فالسياق قد ضمهم كذلك لجانب الدجال فأصبح حديثاً غريباً يشبه الخلق الذين يخرجون آخر الزمان، لكن المعنى البعيد الذي قصده المَعَرِّي على لسان الشَّاحِج إنما يعني: مأجوج الحمار، ياجوج يقصد إذا كان يلتفت من النشاط. ومن ذلك قول الشيباني لأحمر بن شجاع الكلب:

يَخْشِينِ مِنْهُ عَرَامَاتٍ وَغَيْرَتَهُ وَأَنَّهُ رِيذَ التَّقْرِيبِ يَاجُوجُ⁽³⁾.

ومن أج الظليم: أي عدا وله حفيف؛ ومنه:

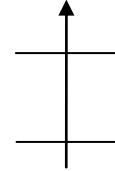
سَدَا بِيَدَيْهِ ثُمَّ أَجَّ بِسِيرِهِ كَأَجِّ الظَّلِيمِ مِنْ قَتِيصٍ وَكَالِبٍ⁽⁴⁾.

الذي ذكرناه الدجال: فرند السيف.

ياجوج: الحمار الذي يلتفت من النشاط.

أداة البلاغة وهي فهم التورية وقواعدها والمعاني التي تخرج بها.

أداة اللُّغَة من حيث معرفة الحركات الفيزيائية للنص والمعاني.



(1) هو عبد الله بن قيس بن جعدة بن كعب بن ربيعة، يُكنى بأبي ليلى، جاهلي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده أبياتاً من الشعر، ونقل صاحب الأغاني عن أبي عمرو الشيباني والقحزمي أن اسمه حبان بن قيس الجعدي، وسببه تلقيبه بالنابغة أنه أقام مدة لا يقول الشعر ثم نبغ فقال: يُنظر: الشعر والشعراء، ج1/289، والأغاني، ج5/5، وخزانة الأدب ج1/509، والمؤتلف والمختلف، ص191، وسير أعلام النبلاء، ص4000.

(2) روايته في الديوان:

ثُمَّ نَزَلْنَا (وَكَسَرْنَا) الرِّمَاحَ وَجَزَ رَدْنَا (صَفِيحًا كَسَتْهُ الرُّومُ) دَجَالًا.

ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: واضح الصمد، ص123.

(3) الجيم، لأبي عمرو الشيباني، ج1/65.

(4) هو لركاض الديبيري في مادة كلب (لسان لعرب)، وبلا نسبة في مادة (أجج). يُنظر: لسان العرب، ج2/206، والمحكم والمحيط الأعظم، ج8/598.

الدجال ويأجوج ومأجوج (وهذه من حدث عنها النبي بأنها تخرج في نهاية الزمان).

فسر أداة البلاغة/ التورية من خلال وجود المعنى القريب والبعيد وقرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي (الدجال قد ظهر منذ سنوات).

أداة اللغة/ يعني اللفظة (يأجوج) ويطلق عليها معنى آخر؛ وهو معنى مشهور عند الناس قوم يأجوج ومأجوج الذين يظهرون آخر الزمان.

السياق/ يتضمن وجه مشابهة (الغربة) بياناً لحالهم.

القرينة المانعة دفعت إلى إعمال الفكر، فنقلت الكلمة من أدنى السلام الحجاجي إلى أعلاه.

والنص أعلاه ممثلاً على السلم الحجاجي من بيان المعنى القريب كيف يكون في أسفله؛ ولما تظهر الحجج ويتكشف الستار عن المعنى البعيد يصبح في أعلى السلم بحيث يتحقق الإقناع في نفس السامع، وكذلك الإمتاع وما تحدثه التورية من جمال في إعمال الفكر وبيان المراد الحقيقي للمعاني الواردة.

وقوله كذلك على لسان الشَّاحِج: "وَالْقَاضِي بِ (حَلَب) عَادِلٌ مُنْصِفٌ عَلَى أَنَّهُ يُجِيزُ أَنْ يُطْبَخَ الْمَظْلُومُ بِقَدِيرٍ أَوْ مَرْجَلٍ، وَيُبَيِّحُ أَنْ يُضْرَبَ خَدُّ الْمَظْلُومَةِ بِالْفُؤُوسِ، وَفِي دِينِهِ أَمْرُ الظَّالِمِ بِمَعُونَةِ الظَّالِمَةِ، وَيَحِلُّ لِلْخَبَّازِ أَنْ يَأْكُلَ كَبِدَ الْعَجَّانِ وَغَيْرَهَا مِنْ جَسَدِهِ، وَيُحِبُّ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، عَلَى أَنَّهُ يُبْعِضُ الْحُورَ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِ الْغَافِرِ، وَيَوَدُّ أَنَّهُ غُفِرَ لَهُ، وَيُطْلَقُ لِأُمِّ الْوَلَدِ إِذَا مَاتَ عَنْهَا سَيِّدُهَا ثُمَّ تَزَوَّجَتْ أَنْ تَبِيعَ زَوْجَهَا مِنَ الْمُسْلِمِ وَالْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ"⁽¹⁾.

يبدأ هذا الفقرة بذكر حقيقة الملك العادل، ثم يعتمد لذكر المتضادات من الأقوال المتنافرة مع السياقات التي نطالعها؛ ثم حقائق الأشياء وما هي عليه في الواقع المعين، ثم يعرج على ذكاء الكلمة وتلونها في محالها، فطبخ المظلوم هناك تضاد وتنافر بينها وبين العادل التي هي قرينة للمعنى القريب وتقويته في نفس السامع.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 231.

لكن المراد هو من قولهم: **الظَّليمة والظَّلِيم**؛ هو اللبن يشرب منه قبل أن يروب ويخرجُ زبده⁽¹⁾؛ ومنه قول القائل:

وَقَائِلَةٌ: ظَلَمْتُ لَكُمْ سِقَائِي، وَهَلْ يَخْفَى عَلَى الْعَدِ الظَّلِيمِ⁽²⁾.
فَظَلَمْتُ سِقَائِي بمعنى: سقيتكم إياه قبل أن يروب.

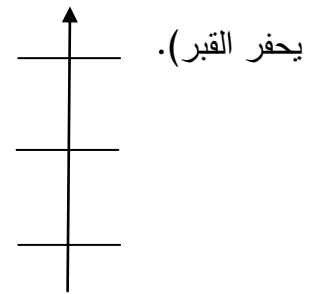
و**(المظلومة)** الأرض الصلبة التي لم تحفر من ذي قبل، فيبيح وهو العادل ضرب خدها بالفؤوس؛ كي تُزرع ويستفاد منها، والخذ من الأخدود أي الحفرة، فالتورية كذلك وقعت وكانت القرينة كلمة العادل في بداية الفقرة.

أما كلمة **(الظالم)** : فتعني من يقوم بحفر القبور، ومن ذلك قول الشاعر:

إِنَّ الَّذِي بَيْنَ الْحَمَائِرِ وَالسَّفَا
بِالسِّيِّ حَيْثُ يَخْطُ فِيهِ الظَّالِمُ⁽³⁾.
أي يحفر في غير موضع الحفر.

فما أبلغ الذي كتبه قرينة واحدة قد فعلت ثلاثة نصوص حجاجية، وكلها تضافرت لتقوية المعنى القريب في نفس السامع، وهي كلمة **(العادل)**، فما أبلغه وأعمق بيانه وأشد ساعد بديعه ومعانيه.

(المظلوم: اللبن الذي لم يرب) (المظلومة: أرض صلبة لم تحفر من قبل) (الظالم: من



أداة البلاغة وهي فهم التورية وقواعدها والمعاني التي تخرج بها.

أداة اللُّغة من حيث معرفة الحركات الفيزيائية للنص والمعاني.

(1) يُنظر: لسان العرب، ج12/375.

(2) التهذيب ج14/383، والجمهرة ج3/204.

(3) الجمهرة ج1/522.

المعاني القريبة (المظلوم والمظلومة والظالم)، وهي ألفاظ مشتقة من لفظة (الظلم): وتعني وضع الشيء في غير موضعه، وتأتي بعكس العدل، وجاءت في بداية الفقرة (العدل) حيث قوت ألفاظ هذا الجذر ومعانيها في نفس القارئ.

أداة البلاغة التي أعلنت من حاجية النص وأدت إلى الإقناع فيه هي (التورية) التي فعلها المعري متكاثفة مع البناء السياقي للنص، وأداة اللغة هي ألفاظ مشتقة من الظلم وتدل على انحراف في تقدير الحقوق وإرجاعها لأهلها، فكان من بديع تأليف المعري أن جاء بها في نفس السياق لتوهم القارئ بشيء خلاف ما يبطنه النص، والقرينة المانعة أدت لدفع الفكر وإعماله نحو سلامة المعنى فحملت المعنى من أدنى السلم إلى أعلاه ونهايته حيث المعاني الحقيقية المراد إيصالها باستخدام التورية وجمالياتها.

أما قوله: (ويجب أن يدخل الجنة على أنه يبغض الحور ولا يلتفت إلى قول الغافر، ويود أنه غفر له).

فالحور الناظر لها في موقعها يظن أنهم اللواتي في الجنة، وقرين هذا المعنى هو قوله (الجنة)، لكن المعنى البعيد الذي أراد هو (النقص)، ومنه قول سُبَيْع بن الخطيم التميمي:

واستعجلوا عن خفيف المضغ الذم يبقى وزاد القوم في حور⁽¹⁾.

فحقيقة المعنى لما تظهر تدخل للنفس بحجة تكسر دعائم المعنى القريب، وهو من جمال التورية وكمالها أنها تزرع معنى، ثم تتقضى على أركانها بمعنى بعيد مناسب للمقام الالتوائي للنص النثري، فدينامية النصوص تبقى متحولة⁽²⁾ ما دام القارئ يفكر بحجة يقطعها على نفسه كي يحدد المعنى البعيد؛ لأن الذي يؤدي به إلى الإشراك بالمعنى التنافر والتضاد الواقع بين سبل النص وفكرته.

(1) لسان العرب ج4/216، تاج العروس ج11/155، والمخصص ج13/161.

(2) قصدت بمتحولة أنها تبقى في ديمومة تفسير لا حد له إلى أن يتم الإقرار بالمعنى البعيد والذي يعد القول الفصل في بيان الحجج وإقامتها في نفس السامع.

في قوله الغافر، الأصل فيها تبعًا لمعنى السياق أن الغافر (اسم فاعل) من خلق الجنة وهو الله -جل جلاله- والمعنى الذي يتبادر للذهن أن هذا الملك العادل لا يلتفت لقوله تعالى، وهو في نفسه يود لو أنه يُغفر له، هذا المعنى من الدائرة الأولى لفهم السياق؛ لكن الأصل أنها تورية، والمعنى البعيد منه (غفر المحموم): هذى، وهو من الأضداد غفر المريض إذا برؤ، وغفر إذا انتكس؛ وللعاشق إذا عاد عيده بعد السلوة، قال الشاعر⁽¹⁾:

خَلِيلِي إِنَّ الدَّارَ غَفَرَ لِذِي الْهَوَى كَمَا يَغْفِرُ الْمَحْمُومُ أَوْ صَاحِبَ الْكَلَمِ⁽²⁾.
وقوله: "ويطلق لأم الولد إذا مات عنها سيدها ثم تزوجت أن تبيع زوجها من المسلم اليهودي والنصراني".

وفي هذه كذلك تورية أن تبيع زوجها، فاللفظ يؤول بحسب سياقه، وسياق الحال يقوي المعنى الذي نستقيه منه عند أول قراءة، لكن الحقيقة لا تتطابق مع ذلك، والمراد من الزوج هو: النمط من الثياب والديباج، وهو ما جاء عند لبيد⁽³⁾ في قوله:

مِنْ كُلِّ مَخْفُوفٍ يُظَلُّ عَصِيَّةُ زَوْجٍ عَلَيْهِ كَلَّةٌ وَقِرَامِهَا⁽⁴⁾.

وحقيقة القول عن التورية بعد هذه الأمثلة الحافلة بالطاقات الججاجية تظهر لنا مكنونًا أدبيًا جماليًا، حيث إن المعنى القريب قد يسكن النفس، لكن بعض السياقات تأباه، فيأتي لنا ججاج القول ليقوى في نفس السامع المعنى بعد كشف الظنون عنه، ويوضح كمية الإقناع والتسليم التي تحدثه هذه التورية بجمالياتها، وعتبات فهمها الصحيح، وتأويلها على الباب الذي وضعت له وأوجدته لها اللغة بجمالها، وعذب خروجها لإعمال هذا العقل، وبيان بديع ألفاظ العربية، وأنها متوالدة متتالية في إيجاد معان مناسبة للسياقات بحجم فهم قارئ النصوص لمضمونها وربطها بأسس اللغة وقواعدها المتينة.

(1) في جمهرة اللغة يُنسب البيت بكماله للمرار الفقعسي، وقام البطليوسي في كتابه الحلل في شرح أبيات الجمل بنسبته إلى بشر بن أبي خازم، ص 90.

(2) ينسب لمرار الفقعسي. يُنظر: ديوان مرار الفقعسي، ص 482.

(3) لبيد بن ربيعة العامري المضري ولد في العصر الجاهلي غربي نجد مما يلي الحجاز كان فصيحًا من أهل الجود والسخاء.

ترجمته: الشعر والشعراء ج 1/171، والأغاني ج 15/350.

(4) ديوان لبيد بن ربيعة، ص 166.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: الشَّاهِدُ والمَثَلُ

في تحقيق الشَّاهِدِ والمَثَلِ أهمية كبيرة ضمن الاستراتيجية الحجاجية، فهما من الآليات المهمة لتقوية الاتجاهات الحجاجية ومواطن نبوغ القوة ضمنها، وذلك عن طريق تلك العناصر الجاهزة التي تحمل في مكنونها طاقات ودلالات بلاغية تُؤدى بالقصد، وأُضف إليها خطاب العقل بالمعنى الموجَّه فيها، ثم من خلالها يتحصل الاستدلال والتصديقات والبرهنة على الواقع المناقش في المواقف، واستمالة المُتلقِّي بشطريه العقلي والعاطفي؛ لكسب التأييد الضمني أو الصريح لاتجاه بعينه.

والحِجَاج على امتداده وسيره لا يمكن له أن يتخلص من رواسبه البلاغية، فهو يتغذى من اللغة الطبيعية وهاجس الإقناع والتأثير⁽¹⁾، وسيظل دوماً وليدهما محافظاً على قدرٍ معين من كليهما.

تعريف الشَّاهِدِ لغة واصطلاحاً

في مادة شهد عند الجوهري (393هـ) ذكر: "الشهادة خبر قاطع، تقول منه: شهد الرجل على كذا... والمشاهدة المعاينة، وشهده شهوداً أي حضره فهو شاهد، وقوم شهود أي حضور... وأشهدني إملأكه أي أحضرني"⁽²⁾.

وعند ابن فارس (395هـ): "الشين والهاء والdal أصلٌ يدلُّ على حضور وعلم وإعلام"⁽³⁾.

وابن منظور (711هـ) يراه: "الشَّهَادَةُ خَبَرٌ قَاطِعٌ تَقُولُ مِنْهُ: شَهِدَ الرَّجُلُ عَلَى كَذَا"⁽⁴⁾.

وتلتقي التعريفات ببيان الأثر وما دلَّ على حقيقة الشيء، وذلك بإحضار دليل قاطع من النصوص الجاهزة، والتي لا تدع مجالاً للسامع أن يأخذ ما يريد منها ويترك الذي لا يقاس على مراده ومذهبه؛ بل تُؤخذ بكلِّها بحيث لا يترك الشَّاهِدُ على أعنته دون رقيب ولا ضابط؛ إذ هو يضبط نفسه بنفسه، ثم يقطع الشك باليقين طالما صدر عن جهة عليا لا يمكن أن يرد لمثلها

(1) يُنظر: الحجاج والاستدلال الحجاجي، حبيب أعراب، ص111.

(2) الصحاح، الجوهري، ج2/494.

(3) مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، ج1/517.

(4) لسان العرب، ابن منظور، ج3/239.

قول ولا مقالة، وهذا التعريفات اللُّغَوِيَّة هي مفتاح الاصطلاح بحيث تقود العقل لمعرفة وضبط مراده وحدوده حتى لا يخرج عن المعنى اللُّغَوِي وظلاله.

أما اصطلاحاً فيرى الدكتور العمري⁽¹⁾ أن الشَّاهد في كتابات أرسطو هو بمثابة القوانين والشهود والاعترافات وأقوال الحكماء، وفي تراثنا وخطابتنا تضمين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشُّعر العَرَبِيِّ والأمثال والحكم، وهذه الحجج الجاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ويعني بالمصدر الجهة التي صدر عنها الشَّاهد، وكذلك تستمد تلك القوة من مصادقة الناس عليها.

ويعرفه (أرنست روبير كورتيوس - Ernst Robert Curtius): "إن الشَّاهد هو إضفاء القبول على فكرة ما باللجوء إلى حدث قديم واقعي أو خرافي أو أسطوري أو منتمٍ إلى التراث الأدبي أو حدث صناعي احتمالي أو خيالي، فتسلك هذه الفكرة أو الواقعة المطروحة ضمن نفس الخيط الذي يسلك فيه الحدث القديم أو الموروث فتعتبرهما معاً يندرجن ضمن نفس الصنف من الوقائع⁽²⁾."

والقبول في مذهبه هو التَّسْلِيم والإذعان الذي هو أصل يتوجه الحجاج نحوه، وهذا يكون ضمن حجج جاهزة من التراث أو الحدث الصناعي أو من الخيال، وهذا بحسب معتقدهم فهم يرون أن الخيال يحلّ محلّ الحجج الإقناعية من الشرعية المكتسبة في فناء البرهنة، أما عن (جوئيل تمين)⁽³⁾ فتري أن العصور القديمة لا تعارض-كما نفعل نحن اليوم- بين التاريخ والخيال، ما كان محسوباً عندهم هو مجرد قوة الشَّاهد، وهذا يعني أن الأهم في نظرهم أن يكون الشَّاهد قوياً بغضّ النّظَرِ عَنْ كَوْنِهِ وَاقِعِيّاً أَوْ خُرَافِيّاً أَوْ أُسْطُورِيّاً.

وترى الباحثة أن هذا الرأي فيه شيء من النظر، لا سيما نحن في تراثنا وعلومنا التي نحتج بها، فالاحتجاج يكون على صحة الأقوال والأفعال، ولا يؤتى بشيء من الخيال، فالنصوص الجاهزة تكون تصديقاً لما نودّ الحديث فيه، والتصديق يحتاج أن يكون النص الذي يتبع فيه القائل الحجج والبرهنة ضمن أقواله يرتكز على حقيقة كي يسلم الطرف الآخر ويدعن

(1) يُنظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ص90.

(2) نقلاً عن: الكناية والشاهد والتشبيه والاستعارة، محمد الولي، ص93.

(3) المرجع السابق، ص93.

للقول، وإلا لو كان الخبر يقوم على خزعبلات ما صدقه ولا كان شاهداً يقطع الشك باليقين، وهذا مماثل في خلفيته لما تحدث عنه سيبويه من تأثر الكلام بالمقامات ضمن بلاغة السياق، فمنها المحال، والمحال الكذب⁽¹⁾، وهذه تختصر الحديث عن الأساطير والخزعبلات التي تنتقي لمصادقية وجودها وكيئونة حدودها.

ثم يكمل كورتيوس: "إننا نضفي فكرة القبول على الفكرة المطروحة وغير المقبولة بسلوكها ضمن جنس الحدث القديم الذي يحظى عندنا بالقبول، إن الواقعة القديمة التي تستند بها الشاهد ينبغي تبعاً لهذا أن تكون واضحة ومعروفة ومقبولة أو احتمالية"⁽²⁾.

وهذا التناقض في قوله يقع ضمن الحديث عن فكرة القبول للأفكار المطروحة، فالشاهد الذي يبني على التصديقات الجاهزة يقبل بدون أدنى نظر، وقوله (أن تكون واضحة ومعروفة)، يداخله الشك في بنائه فكرة القبول في أول حديثه عن الخيالات والأمور التي يؤتى بها كي توظف كشاهد ومرجعها الخيال، فالواضح والمعروف هو المبني على الواقع ولا يكون إلا كذلك.

أولاً: الآيات القرآنية

عمد المعرّي في تسخير نصوص رسالته لكثير من الآيات القرآنية لدعم حججه وقوانين تراكيبها، وهذا يتولد من فكرة تقوية الحجج وإثباتها، خصوصاً أن الشاهد القرآني يعدّ حجة جاهزة ضمن الخطابة العربيّة، وهذه الحجة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مصادقة الناس عليها، وتواتر صحتها، والتسليم قطعاً وبقيناً بصدقها، فلا يتنازع اثنان في إبطالها وإلغائها بل هي تثبت دون مقارعة ولا معاندة لقوة وجودها.

والمتمأل في شواهد القرآن ضمن الرسالة يجدها تدور في فلك أمور ثلاثة:

- واحدها: الججاج بالشاهد القرآني لقضية محل نزاع شخوص الرسالة.
- وثانيها: تمثيل لحال مشابهة.
- ثالثها: إضفاء جو الإيمان على المواقف المعبر عنها داخل حدود النص العلائي.

(1) الكتاب، سيبويه، ج 1/25.

(2) الكناية والشاهد والتشبيه والاستعارة، محمد الولي، ص 93.

وستقف الباحثة على الآيات المدرجة ضمن الأمر الأول والمحتج بها في مواقف النزاع والفصل بين المتخاصمين بالنص الجاهز؛ وهو من رب العالمين، وتقوم الآية المسشّهد بها في تبليغ المقصد وإبلاغ الغرض⁽¹⁾، وتعمل في الإقناع ما لا تقوم المطولات من الكتب والأدلة القاطعة.

وعدد الآيات نسبته الآتي:

رقم المشهد	عدد آية
المشهد الأول	بلغ عدد الآيات ست عشرة آية.
المشهد لثاني	ست وثلاثين آية.
المشهد الثالث	عشرين آية.
المشهد الرابع	ثمان آيات.
المشهد الخامس	عشرين آية.

وهذه مئة متكاملة تامة موزعة على المشاهد الخمسة.

المشهد الأول

ومن الآيات الواردة المحتج بها، لما قلل الصّاهل من شأن الشّاحج واعتبار ذوات الجبهة أعلى شأنًا والشواحيح أخط قدرًا من أن يبلغوا منزلة أولئك الأفراس؛ واعتدّ بمجموعة أمثلة على تلك الحُجّة، فقطع عليه الشّاحج آراءه ومداركه بأن الله رَجَّكَ قد جعله وإياه قرنين فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾⁽²⁾.

فقد ساوى الله تعالى بينهما في ذات الآية، ولا فضل للصّاهل على معشر الشواحيح، إنّما الركوب غاية خلقهم لتوصلهم في مسيرهم كما عبّرت بذلك الحُجّة، ويعمد المعرّي لانتقاء الشواهد الموعلة في الإقناع عند السامعين، وكل الاستدلالات على قوتها كانت تقطع الشك على الجانب الآخر، وتضعه في موضع العاجز الذي لا بيان له، ولا سبيل للخروج من مأزق الحجج المعبر بها عن المواطن والمواقف.

(1) حسن الترسل إلى صناعة التوصل، ص76.

(2) [النحل: 8].

المشهد الثاني

من أدلته ردًا على ادعاء الشَّاحِج أن لحم الشيطان يؤكل⁽¹⁾ ما جاءه البعير بحُجَّة جاهزة تدل صحة مذهبه وسلامة اعتقاده، ووصف توجَّه الشَّاحِج بمحيثته النكراء لما عبَّر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾⁽²⁾.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾⁽³⁾.

لافتًا لعجبية أوقعها الشَّاحِج في ما دأب عليه؛ فأَي لحم له وهو من النار خُلِقَ، ضاربًا بتلك الكثير من النكات والتي في ذاتها تعبَّر عن إقامة الحُجَّة وخطأ الادعاء الذي اصطحبه الشَّاحِج فكيف للناس بصيده أبفخ أم شَرِك!

ثم تتضح القضية بعد ذلك أن هذا من ضمن فنون التورية، لكن الحجج الجاهزة كانت صحيحة في اعتقاده، وأصابته الهدف قياسًا على الذي فهمه خلال سطح الجملة المركب من المعنى البسيط الذي حاول فكَّه البعير.

المشهد الثالث

وفيه ثلاث عشرة آية، ومن بينهنَّ المطروحات في قضية المنظوم الذي لا يُزاد فيه على جمع بين أربعة أحرف متحركات⁽⁴⁾، وفي القرآن تختلف القضية بحسب الذي توصل له المعرِّي في عجائب الآيات وبيانها وسحر إعجازها، فقد يجتمع في بعض الآيات حروف متحركة ثمانية⁽⁵⁾.

(1) لما تحدث عن قوم في نواحي اليمن يأكلون لحم الشيطان في باب التورية والإلغاز.

يُنظر: رسالة الصاهل والشاحج، ص231.

(2) [الحجر: 27].

(3) [الرحمن: 15].

(4) وهي مسألة عروضية تختص بالتفعيلات وحركاتها وسكناتها على بحور الخليل المعروفة.

(5) وتذهب الدكتور عائشة في ما ذكر في (الطَّرة الحفصية) أن هناك بعض الآيات من عجيب إعجازها متحركاتها قد جاءت تسعة متتاليات من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾، [المدرثر: 22]. فهي كما ترى قد ترتبت فيها المتحركات على هيئة متتالية وفي آية أخرى ذكرت عشرة متتاليات: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19] من باء (ربك) إلى لام (غلامًا) عشرة ما أسلفنا ذكرها.

وهذه مثل عليها بقوله تعالى: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾⁽¹⁾.

فيذكر المَعْرِي تقوية لما طرحه أن بين الواو في (كوكب) وياء (رأيتُ) ثمانية أحرف كلها متحركة.

والموضع الآخر في ذات الباب: ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾⁽²⁾.

على قراءة من حَرَكَ الياء في (لي، وأبي)، أما من لم يحرك الياء في هذه الآية فتتوالى فقط أربع متحركات.

ومثل ثالثاً من الكتاب الكريم: ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾⁽³⁾.

من دال نشدّ (الثانية)، إلى الخاء في كلمة (أَخِيكَ)، كلها متحركات ثمانية وهي: (د-ع-ض-د-ك-ب-أ-خ).

وهذه كانت كافية للاستدلال على صحة ما قاله المَعْرِي على لسان الشَّاحِج، ففي منظوم الشعر هذه تحدها التفعيلات الخليلية التي تواطأ على وضعها وتحديدها بحسب ما أملاه عليه شعر العرب في البوادي ضبطاً ودراسة، أما كتاب الله فالأمر يختلف تماماً، وهذا من دلالات إعجازه وقوة بيانه وإجلال عظمة موجدته، فتجد المتحركات رجة في فضاء كل آية تتوالى وتتعاقب دون تحديد لعدد ورودها، وهذا له بابه عند المفسرين والقراء من إطلاق العنان للفكر بالتدبر في تعاقب هذه الحركات، والتي تعمل عملها داخل نصوص الآيات بحيث تشرك القارئ في الواقع القرآني المتأمل من تواليها وتتالي ترتيبها.

المشهد الرابع

بلغ عدد الشواهد القرآنية فيه ثمان آيات، ومن أمثلتها ما رسمه المَعْرِي من صورة حيّة لعزیز الدولة وما له في حلب من أعمال ورسوم ومعالم؛ فاحتج بهذه الصورة بمثال جاهز من كتاب الله، وهي قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيئًا ﴾⁽⁴⁾.

(1) [يوسف: 4].

(2) [يوسف: 80].

(3) [الفصص: 35].

(4) [النساء: 66].

فمثله في حلب مثل الضمير لما يُضمَر اختصارًا، وإذا أفصح عنها عظم شأنه، فهذه الهاء أضمر فيها الكثير من العظمت التي لو ذكرت لما اتسع القول فيها، وهكذا أعماله الكثيرة التي لا حد لها في مدينة حلب فهي كما الضمير في (به)، يحمل في طياته الأقوال الكثيرة التي وعظوا بها، فما كان منهم إلا أن أنكروها وصدّوا وعارضوا.

المشهد الخامس

وهي البالغة هنا عشرين آية، ومن الحجج الجاهزة على ذلك في تأويله لكلمة (الصربية)، فيذهب فيها لاتجاهين قادته إليه العامة من الناس، فمنهم من يلفظها بِ(السين)، ومنهم من يلفظها بِ(الصاد)، وأما بالسين فهي من قولهم: سرب في حوائجه بالنهار، ومكّن لهذا المعنى بالحُجّة القرآنية، وهي قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾⁽¹⁾، أي: اسربوا في مآربكم آمنين.

أما الصّاد: فهي واحدة الصرب من اللين.

فللمتأمل أن يقطع حبال الشك في المقصود والمذهب من مراده، وذلك لما نتدارك عليه مثل الحجج القرآنية وندعم النصوص بقوتها، فهو نص حكيم في معانيه ودلالته، دقيق المذهب والمخرج من لدن حكيم كريم، ومن الحق أن يقال أن المعرّي كان دقيق الضبط للغة الحجاج وبلاغته في مقصدية تأمله للنصوص وإصابته الدلالة بحذافيرها من خلال استشهاده واستدلاله بعظيم الكتاب وآيه، فهو عالم بالعربية حافظ لضوابط حدودها، كاشف لأسرارها وإعجاز بيانها.

ثانيًا: الأحاديث النبوية

في المشهد الأول بلغ عدد الأحاديث (أربعة)، وهذه النسبة قياسًا بأي الذكر المستشهد بها تعد ضئيلة وقليلة جدًّا، وربما لما كانت تقتضيه طبيعة النص والاستدلال، وأضف إليه مذهب المعرّي الذي خطّه لنفسه حتى في تتبعه للأدب والبلاغة مع الوضع في عين الاعتبار أن هذه الفكرة حدّها في حديثه عن قضايا اللغة وتراكيب الكلمات والألفاظ، عاش مع اللغويين في عصور الاستشهاد الأولى بسفره إليهم وإطلاعه على كتبهم، ولم يرو كثيرًا من الأحاديث النبوية ضمن احتجاجه في نصوصه.

(1) [الرعد: 10].

وكما يذكر العلماء فإنّ قضية الحديث إنما جيء بها لتلقي المعاني وضبط الحكم الشرعي وليس اللفظ كما في آيات الذكر الحكيم والشعر -خاصة- كما سنراه لاحقاً، فالمعاني تسلم في النقل لكن اللفظ يحدث فيه تدليس واتباع أهواء ومفاضلات بحسب اللهجات عند العلماء، فالمعري يأخذ بهذا الرأي ويعمل به من خلال رسالة الصّاهل والحجّاج في حجّاجه بالحديث النبوي الشريف، وهي طريقته المتبعة كذلك في رسالة الغفران.

فتمثّل المعري على شاكلة أهل البصرة -وبخاصة في الشعر- فقد كان ضابطه الأول الأخذ من أهل البوادي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، ومنتصف القرن الثاني في الحضر، ومن يتتبع هذه يجد أنه مماثل في ذلك لأهل البصرة مع تفرده واحتياطه من الانتساب لأي مذهب نحوي؛ بل كان يعارض سيبويه وعلماء البصرة⁽¹⁾ في كثير من اتجاهاتهم وكذلك خالف أهل النحو الكوفي وقرائهم⁽²⁾ في كثير من المواطن، وبهذا اتبع نهجاً خاصاً في قضية الاستشهاد -وهي الأضيّق-، وقضية الحجّاج -وهي الأوسع-.

وستبدأ الباحثة بعرض الأحاديث المحتج بها في المسائل عند المعري على لسان شخوص الرسالة، وأكثرها كان في فضّ النزاعات وحلّها.

(1) ومن ذلك ما وجهه من نقد لصاحب الكتاب في مسألة الإدغام في البيت القائل:

كأنّها بعدَ كلالٍ الزاجرِ ومسحِه مرُّ عُقابٍ كاسِرٍ.

فذكر المعري أن هذا البيت كثر فيه الكلام، وذهب مع الأكثرية بعدم إثباته؛ (لأن كلام سيبويه دلّ على إدغامه الهاء في الحاء) وعلق المعري: "أنّ هذا لا يمكن".

يُنظر: رسالة الصاهل والشاحج، ص 197.

(2) حيث انتقد رأس المدرسة الكوفية الكسائي وتلميذه الفراء في مذهبهم التصحيف لبيت من الشعر القائل:

يَا قَاتِلَ اللَّهِ صَبِيئًا نَجِيءُ بِهِمْ أُمُّ الْهَنْبِيرِ مِنْ زُنْدٍ لَهَا وَارِي.

بتغيير كلمة أم الهنير، فقال الفراء: "أم الهنير، فتركه حتى إذا قام الناس قال: أصلحك الله، إنما هو: أم الهنير. فأفكر الفراء قليلاً، ثم قال: يرحم الله أبا الحسن -يقصد الكسائي- ربما أنشدنا البيت والبيتين على غير سماع". والبيت للقتال الكلابي يُنظر: رسالة الصاهل والشاحج، ص 303.

في المشهد الأول

ذكر قول النبي ﷺ: "الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي"⁽¹⁾، وسبب مجيء الحديث ردًّا على حُجَّة الشَّاحِجِ وادعائه خؤولة الصَّاهِلِ، وادعاء الخؤولة كان في الحُجَّةِ القائلة: "إِنَّكَ لَعَالِمٌ بِالْعِرَابِ، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ ذَلِكَ وَالْأَيَّامُ لَكَ شَاحِجَةٌ، وَتُوبُهَا عِنْدَكَ رَاجِحَةٌ؟"⁽²⁾.

فيرد الشَّاحِجُ: فرض على المنتسب عرفان الخال ولا سيما إذا كان صاحب الشرف دون الأب، وضرب له الأمثلة الكثيرة ليدحض هذه الشبهة، وبنصّ هذا الحديث قطع عليه الهذر والسمادير -بحسب اعتقاد الصَّاهِلِ- والتي تراءت له من نسبته خؤولة الصَّاهِلِ لمعشر الشواحيج المعيبة عليهم وعلى نسبهم بحسب ما تصوّره الصَّاهِلِ.

في المشهد الثاني

من الأمثلة على الأحاديث المحتجّ بها ما ذهب إليه المعرّي على لسان البعير قول النبي ﷺ: "لا يزال الناس بخير ما تفاضلوا، فإذا تساوا هلكوا"⁽³⁾.

وهذا لما أثار الشَّاحِجُ ما تداعته الفقرة التي على خُطى (فتيًا فقيه العرب)، وكتاب ابن دريد (الملاحن)، تحدث ببعض الألفاظ العميقة والتي لم يتضح للبعير معناها، ومن حديثه عن فن التورية في باب الحرف والمهن، فالذي أثاره لم يكن البعير قد فطن له لا من بعيد ولا قريب، لما ذكر الشَّاحِجُ صنّاع الملابس (البزازين)، ذكر لعنهم وأشار على الصالحين من الناس الابتعاد عنهم وأن لا يتعرّضوا لمجالسهم، فأبدى تعجبًا من قول الشَّاحِجِ وإطنابه الواسع في ذمّ تجار الملابس، وما الأمر الذي حمل الشَّاحِجُ على ذلك وفيهم من يقيم الصلاة ويتلو كتاب الله ويكفون ألسنتهم عن الحديث بالمنكر من القول، وفيهم الجاهل والعالم، والله جعل الفوارق بين الناس ولا سبيل لجعلهم كلهم في ذات الطبقة من الخير وذلك لم يجر به مثل وعادة أبدًا، فكان

(1) صحيح البخاري، البخاري، كتاب التفسير/ إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم، 911/1: رقم الحديث 4594.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص93.

(3) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، كتاب الفتن/ باب ظهور الفتن، 9/13: رقم الحديث 7067.

احتجابه بالحديث قد حسبه قطعاً على القول الذي فهمه من السياق، ولم يدِرْ أن الذي جاء كان صنعة لفظية جمالية من باب التورية.

المشهد الثالث

في حديثه عن حذف الآخر المفرط، استدل بقول النبي ﷺ: "كَفَى بِالسَّيْفِ شَأً"⁽¹⁾. أراد أن يقول: شاهداً، وهذا نادر ضمن أحاديث العرب على القلة غير مستمر في أقوالهم، ونرى أن الاستشهاد بالحديث لا يختص بالقضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية، بل يفتح آفاق اللغة والاستشهاد على دقيق كلامها، وكله يعكس محفوظ المعرّي وضلّاعته في اللغة ودقة أحكامه البلاغية والمنطقية.

وفي ذات الباب ذكر حديث النبي ﷺ في لهجة حمير وهي قوله: "لَيْسَ مِنْ أَمِيرٍ امْصِيَامٍ فِي امْسَقَرٍ"⁽²⁾.

وهذا من قبيل الأول وججابه على اللغة وتقرعاتها وهيئات لفظها، وبدون ملاحقة وملاجة تقبل هذه الحجج الجاهزة على صحة اللهجة المحكية، طالما قالها عارف فصيح، بل هو أفصح العرب قاطبة ﷺ، فعند نصوصه يسلم أصحاب الجبهة والسلطان لرب الشاة والبعير.

المشهد الرابع

في غمرة حديثه عن مدينة حلب في باب (الفأل والطيرة)، حسب تقلبات الكلمة وما فيها من معان حسان، يرى أنها تحتل أمرين، وكلاهما فأل محمود، فإن كانت من (أحلبت القوم)؛ أي: نصرتهم؛ فحسبها فألاً بالنصر⁽³⁾، وجاء بالحديث ليدل على المعنى الأخير، وكذلك ليثبت تحليله للكلمة بنص من نصوص الحديث، حيث إن كانت بمعنى الحلب من حلب اللبن، فقد اجتمع بذلك الخير والبركة، ونص الحديث ما روي عن النبي ﷺ أنه دخل على امرأة⁽⁴⁾ فقال:

(1) غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، ما يجعلكم أن تتابعوا في الكذب كما يتتابع الفراش في النار، 132/1: رقم الحديث 8.

(2) السنن الكبرى، البيهقي، كتاب الصيام/باب تأكيد الفطر في السفر، 408/4: رقم الحديث 8151.

(3) فيطلق على الذين ينصرون رجلاً (الحلائب)، وقد استدل على هذا من باب الشعر قول البشكري (الحارث بن حنّلة):
وَحْنٌ، عَدَاةُ الْعَيْنِ، عَيْنٌ مُحَلَّمٌ
نَصْرَتَاكَ، إِذْ ثَابَتْ عَلَيْكَ الْحَلَاتِبُ.

وحلائب الرجل: أنصأه من بني عمّه خاصّةً. لسان العرب، ابن منظور، ج 33/1.

(4) والمرأة هي أم هانئ بنت أبي طالب -رضي الله عنها.

"مَا لِي لَا أَرَى فِي بَيْتِكَ بَرَكَهً؟" قَالَتْ: وَمَا الْبَرَكَهُ؟ قَالَ: "مَا لِي لَا أَرَى فِي بَيْتِكَ شَاةً⁽¹⁾؟". فهو قد أطلق على الشاة بركة من أجل لبنها.

وهذا من طريق الاستدلال بالحجج الجاهزة الشريفة على الأقوال في اللُّغة ومعاني ألفاظها، فلا سبيل لردّ تلك المعاني والمباني الواردة ضمن الاستشهاد بالسوابق من أصحاب اللُّغة ومنظريها.

المشهد الخامس

وهذا من باب الفأل والاستدلال على صحة المذاهب في اللُّغة ونطاقها المتشعب وأبوابها كثيرة المنافذ، فلغة المَعْرِي قد عمت الأقطاب وسدت ما بين الأفق وهو يبين لنا مدارج وحقائق التفافات اللُّغة في الجديد والمبتكر ضمن معجمه في الاستشهاد والحجج، فهو رجل قد حلب الدهر أشطره وأدار عليه بصحاف الذهب أجزل العطاء اللُّغوي ووضعه بين جوانب ثقافته، وعلى التصحيف يذكر (بسيل) فهو نسيك على تحريف الباء واللام من بسيل، ومعنى النسيك⁽²⁾ (الذبيح)، وهو ما يذبح بمكة تقريباً لله وعلى هذا التوجّه ذكر قول النبي ﷺ: "احضري مَوْضِعَ نَسِيكَتِكَ؛ يُغْفَرُ لَكَ بِأَوَّلِ قَطْرَةٍ تَقَعُ"⁽³⁾، وهو يمثل حال قتله كذبيحة يتقرب بها قاتله إلى ربه.

فنرى مجموعة الأحاديث في كل المشاهد مجتمعة لا يلفّها أي خطل أو نزق؛ بل كانت للوضوح أكثر قرباً، وهذه الشواهد والاستدلالات على صحة ما كان يقوله المَعْرِي على لسان شخوص الرسالة الزاخرة بكثير من عجيب اللُّغة ومواطن وقارها، كانت في كل مرة تسد منافذ القلق بالنسبة للقارئ الذي قد يشوب فكره شيء من تراجع أو تخوف من دقة ومسالك الألفاظ المروية، فسرعان ما كانت الحجج الجاهزة تقطع الشك باليقين، وتوضح الصعب وتذلل خيوطه الملتويات، حتى وإن كان المقام أحياناً موطن سخرية؛ إلا أن المَعْرِي مع ألفاظه جدّ لا يصلح

(1) بزيادة "وما البركة التي أنكرت في بيتي؟ قال: لا أرى فيه شاة".

المعجم الأوسط، للطبراني، (باب من اسمه إبراهيم)، 126/3: رقم الحديث 2686.

(2) والنُسْكُ والنَّسِيكة: الذبيحة، وقيل: النُسْكُ الدم، والنَّسِيكة: الذبيحة، تقول: من فعل كذا وكذا فلعنه نُسْكُ أي دم يُهْرِيقُهُ بمكة، شرفها الله تعالى، واسم تلك الذبيحة النَّسِيكة.

لسان العرب، ابن منظور، ج4/498-499.

(3) يُنظر: كتاب الحاوي الكبير، الماوردي، ج15/204.

معه هزل (في ضربه للحجج والإتيان بها على وجه دقيق)، فكانت التحري في إلقاء العود وإضاءة النور بين تلك المواقف الجليلات، ولم يدع الأمر على رحابته بلا وازع ولا تحرٍ، بل يضبط عقارب لغته بالإكثار من الشواهد والحجج التي هي بمثابة الأحكام الجاهزة، حيث لا مخاصمة ولا نزاع في حضورها.

ثالثاً: أقوال الصحابة والتابعين

عدد ما احتج به المعزّي من أقوال الصحابة والتابعين ثمانية عشر قولاً فقط، وبعض المشاهد خلت تماماً من مجيء أقوالهم فيه، ومن بين تلك ما ورد في **المشهد الثاني**.

أثار الشّاحج من ضمن التّوريات التي ما فهمها البعير الداجتين البيضاوين اللتين أقامتا ستة أشهر أو سبعة لا تأكلان ولا تشربان، فأنكر البعير أن هذا ليس من طاقة الحيوانات، وجاء برّد على هذا الادعاء يدحضه بحجّة وهي اختلاف الحكاية عن عبدالله بن الزبير، فقد ذكر المدائني أنّه كان يقيم خمسة عشر يوماً لا يطعم ولا يشرب، وقال غيره سبعة أيام.

فهذا الباطل الذي اعتقده أبو أيوب إنما رده بقول على لسان المدائني أن البشريّ قد يقيم خمسة عشر يوماً بحكايات مختلفة أو سبعة أيام، ثم أول ما يكون أكله بعدها سمناً عتيقاً يتحساه؛ حتى يفتق معاه.

والمشهد الرابع

لما أثار قضية المهور عند العرب وعلى أنهم أهل رتبٍ وشِقوةٍ، لكنهم يعيبون على الرجل والمرأة قلة المهور⁽¹⁾، وجاء بالقول عن قضية المهور عند الفقهاء من التابعين واختلافهم فيه الاختلاف الكبير وطرح مذهبهم الفقهيّة

ومنهم محمد بن إدريس الشافعي⁽²⁾: فهذا أجاز التزويج على ما قل وما كثر، ولم يجعل في المهر حداً يعرف.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص575.

(2) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان الشافعي (204هـ): الغزي المولد، فقيه الملة، نسيب رسول الله ﷺ، اتفق مولده بغزة ومات أبوه إدريس شاباً، فنشأ محمد يتيمًا في حجر أمه.
ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص3279.

وأبو حنيفة ⁽¹⁾ ذهب وأهل العراق: إلى عشرة دراهم أقلّ المهور.

ومالك ⁽²⁾ يقول: بربع دينار.

وإبراهيم النخعي ⁽³⁾: قال بثلاثة أقوال ذكرها المَعْرِي من باب تدعيم قوله ومذهبه، فالقول الأول: المهر رطل من ذهب، ولم يأت بهذا على الجزم والإيجاب.

والقول الثاني: أربعون درهماً.

والقول الثالث: أوجب عشرة أو عشرين. وأقوال متتابعة للتابعين والفقهاء ⁽⁴⁾.

وهذه الأقوال على طول قائمة أصحابها كلها تعالج مسألة واحدة وهي مسألة (المهور عند الفقهاء)، فاستدلّ بمذاهبهم على أنها أقوال فيها اجتهادات، وهي مما يحتج به عند العلماء وآرائهم، وفيها يفيض النزاع؛ لأن أصحابها على رتبة عالية من العلم والاطلاع، ومعرفة بأحوال الناس والوقائع، وحفظهم لمتون الأحاديث وسلسلة أصحابه وتثبتهم منها.

رابعاً: الشعر العربيّ

كان للشعر القدح المعلى من شواهد المَعْرِي ضمن رسالته، وهذا بدوره يعكس لنا القدر الهائل من محفوظه واطلاعه على ديوان العرب وحفظه لغريبه وشارده ووارده، وهو معصوب العينين حبيس بيته ليس له من النعم سوى ما يسمعه فيدقق نظر فهمه في ثنايا المسموع فتراه يردده ويستشهد به كل ما دعاه داعٍ لذلك، وقد أكثر شيخ المعرة -رحمه الله- من الاستشهاد بالشعر العربي والتدليل على الألفاظ والقضايا التي حاول أن يحلّ أجزاءها، وقد كام يمعن

(1) هو النعمان بن ثابت بن زوطي -بضم الزاي وفتحها- (150هـ) الفقيه المحدث صاحب المذهب. ولد بالكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان (ال خليفة الأموي) وترى فيها وعاش بها أكثر حياته وتوفي ببغداد. كان ذكياً فطناً سريع البديهة قوي الحجة حسن الهيئة والمنطق كريماً مواسياً لإخوانه زاهداً متعبداً

(2) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي (179هـ)، شيخ الإسلام وحجة الأمة، إمام دار الهجرة. ترجمته: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص 3145.

(3) إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي (96هـ)، الإمام الحافظ فقيه العراق اليماني ثم الكوفي أحد الأعلام وهو ابن مليكة أخت الأسود بن يزيد. سير أعلام النبلاء، الذهبي، ص 715.

(4) ذكر المعري قولاً لسعيد بن جببر وهو فقيه محدث من التابعين (95هـ)، والإمام الأوزاعي (175هـ)، عبد الله ابن شبرمة الضبي (144هـ)، وكذلك سعيد بن المسيب التابعي.

طويلاً حتى يصل لبيان الحُجّة وينمق حضورها، حيث وصل عدد الأبيات المستشهد بها (1503) بيتاً⁽¹⁾.

ففي المشهد الأول

تحدث الصّاهل عن أفضلية الخيول على البغال مستشهداً بقول الجعدي:

وَإِنَّا لَحَيٌّ مَا نَعُودُ خَيْلَنَا إِذَا مَا التَّقِينَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا⁽²⁾.
وَنُنْكَرُ يَوْمَ الرُّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا مِنْ الطَّغْنِ حَتَّى نَحْسِبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا⁽³⁾.
فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صِحَاحًا وَلَا مِسْتَكْرًا أَنْ تَعْقَرَا.
وقال عامر بن الطفيل⁽⁴⁾ وعقر فرسه:

وَنِعَمَ أَخُو الصُّعْلُوكِ أَمْسٍ تَرَكْتُهُ بَتَضَرُّوعٍ يَمْرِي بِالْيَدَيْنِ وَيَعِيفُ⁽⁵⁾.
واستدلّ على ذلك بقول عروة بن الورد⁽⁶⁾:

أَفْنِيهِ بِنَفْسِي فِي الْحُرُوبِ وَأَتَّقِي بِهَادِيهِ؛ إِنِّي لِلْخَلِيلِ وَصُولُ.

(1) وغلب الشعر على الرجز، وهذه نسبتها معاً، أما الأشطر فكانت نسبتها: (68) شطراً.

(2) روايته في الديوان:

وَإِنَّا أَنَاسٌ لَا نَعُودُ خَيْلَنَا

يُنظر: ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: واضح الصمد، ص69.

(3) روايته في الديوان:

وَنُنْكَرُ يَوْمَ الرُّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا مِنْ الطَّغْنِ حَتَّى تَحْسِبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا.

يُنظر: ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: واضح الصمد، ص70.

(4) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري. وهو ابن عم لبيد الشاعر، كان فارس قيس أتي النبي ﷺ ولم يسلم. الشعر والشعراء، ج1/334.

(5) وهذا قاله يوم عقر فرسه قرزلاً يوم الرقم في موضع يقال له تضروع، وقال ابن بري: أخو الصعلوك يعني به فرسه، ويمر بيديه يحركهما كالعابث. يُنظر: ديوان عامر بن الطفيل، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن ثعلب، ص86.

(6) عروة بن الورد بن زيد شعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد. يُنظر: الأغاني، ج3/52، والشعر والشعراء، ج2/675.

ولم يكفه الاستشهاد على ذلك بشاهد شعري واحد بل تتابع عد مناقب الخيول وأفضليتها عند بني البشر في شعر عديد ساقه وبيّن ميزات الخيول، ساخرًا من الشواحيج التي وصفها بحمام الحرم يأتيها موتها حتف الأنف، والخيول تباشر الشوكة لمواجهة الحروب والمعارك تنقي السهام والنبال والفرسان على ظهورها.

المشهد الثاني

بعدما هاجم أبو أيوب الشّاحج عاتبه على ذلك بأنه كان ينبغي عليه ألا يسمع كلام الخصمين قبل الآخر، وأن العرب تضرب المثل بكذب الفاختة، فكيف بانقياد البعير لذوات الريش طوعاً، ووزنه الذي لا يحط بجانب ذوات الأجنحة، وأي صداقة تلك التي خولته أن يركن لكذبها وتلفيقها، ومن الشواهد التي ساقها في على أن الإبل لما تصاب بالدّبر يجعل الريش عليهن حتى ينفر طعمة الطير عنهن، وقد قال ذو الخرق:

لَمَّا رَأَتْ إِبْلِي أَمَسَتْ حُمُولُهَا جُرْبًا عَجَافًا عَلَيْهَا الرَّيْشُ وَالْخَرَقُ⁽¹⁾.
وقال آخر:

أَلَا مَنْ لِمَوْلَى لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِنْ الصُّغْنِ وَالْبَغَضَاءِ رِيْشُهُ غَارِبٌ.

ولم يكن اكتفاء المعري ببيت أو اثنين لبيان ما ذهب إليه؛ بل كانت الأمثلة تتوارد بكثرة عنده، وقد وصل به الحد أن يستشهد بثماني عشرة بيتاً⁽²⁾ من قصيدة واحدة للتدليل على قضية واحدة، وهذا العمق الذي يتصلّع به قد كان ظاهراً في ثنايا الرسالة، وكلها تظهر ما لديه من حجج وإقناعات يتلوها على الطرف الآخر.

المشهد الثالث

(1) الجيم، ج 272/1.

(2) وهي قصيدة الفزاري جويرية بن أسماء مفتخرًا بأن تعرض له ذنباً في طريقه فعقر له ناقته. ينظر: رسالة الصاهل والشاحج، ص 126.

استشهد من ضمن الأبيات في هذا الركن على طمع الجار إذا كان من أهل الشر في جاره الذي هو من أهل الخير، فاعتدى على مسكنه يأخذ ما فيه ويمتلكه، فمَثَل بحاله (حال الحركة) ونقلها من (الحرف إذا تم الوقوف عليه) إلى الحرف السابق له.

فالحركة تشبه المال؛ لأنَّ القوة تكون عنده، كما تكون قوة الحرف وحياته من حركته، ومَثَل على هذا التمثيل ليقويه بدعم حجاجي من الرجز وهو قول القائل⁽¹⁾:

عَجِبْتُ وَالْدَّهْرُ كَثِيرٌ عَجَبُهُ مِنْ عَنَزِيٍّ سَبَّيْ لَمْ أَضْرِبُهُ⁽²⁾.

فنقلت حركة الهاء إلى الباء؛ وعلة ذلك الوقوف على الهاء، فنقلت الحركة للحرف قبله، فأنت ترى دقة المسلك الذي اندفع المَعَرِّي في مساره يمثِّل على حال ذلك الرجل الذي اعتدا على غير مكانه، فهو مملوء القلب بجمال اللُّغة وبهائها، وقد يقتنع القارئ بمثل هذه الحجج الغريبة كونه يمثِّل أحوال الألفاظ والحركات بأحوال الناس ومواقفهم.

وهذا فج واسع الأبواب دقيق النظر لطيف الاستشهاد بمثل مواقف الحياة وربطها بأحوال اللُّغة وتقلباتها، وهذا ما يجعل الرسالة للخاصة وليست للعامة من النَّاس فلا يفهم غريب اللُّغة إلا أهل الاختصاص والتخصص.

ومنها قوله:

فَقُلْتُ لِلْسَّائِسِ خُذْهُ وَاعْزِلْهُ وَاعْزِدْ لَعْنًا فِي الرَّهَانِ نَرْسُلُهُ⁽³⁾.

وقال طرفة⁽⁴⁾:

-
- (1) لـ(زياد الأعجم) في ديوانه، تحقيق: يوسف حسين بكار، ص45.
- (2) (أضربه): فعل مضارع مجزوم تقديرًا منع من ظهور السكون عليه انتقال حركة الحرف الموقوف عليه إليه، والهاء: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر فيه وجوبًا تقديره: أنا.
- هذا باب الساكن الذي تحركه في الوقف إذا كان بعده هاء المذكر الذي هو علامة الإضمار ليكون أبين لها كما أردت ذلك في الهمزة، وذلك قولك ضربته واضربه، وقده ومنه وعنه، سمعنا ذلك من العرب، ألقوا عليه حركة الهاء حيث حركوا لتبيانها، ثم ذكر قول الرازي وهو زياد الأعجم، يُنظر: الكتاب، ج4/180، وشرح شواهد الإيضاح ص286، وشرح شواهد الشافية ص261، ولسان العرب ج12/554، وشرح الأشموني ج3/753، وشرح شافية ابن الحاجب ج2/322، والمحتسب ج1/196، وهمع الهوامع ج2/208.
- (3) المخصص، ج13/275، سر صناعة الإعراب ص433، ولسان العرب ج11/474.
- (4) هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك من بني بكر بن وائل، وسَمِّي طرفة ببيتِّ قاله، يُنظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1/188.

حَابِسِي رَبْعٌ وَقَفْتُ بِهِ لَوْ أَطِيعُ النَّفْسَ لَمْ أَرْمُهُ⁽¹⁾.

فنرى كيف استشهد على ذات المسألة بأكثر من بيت شعري حتى يقنع أبا ثعالة بملازمة الصورة مطامع الجار واعتدائه على منزلة جاره صاحب الخير، فكانت المسألة أن مثل له بثلاثة شواهد شعرية كلها تتفق على نقل الحركة من آخر حرف لها إلى الحرف المجاور الذي يسبقه؛ وهو باستقرائه هذا يوضح مدى حرصه على الإقناع باستخدام أبيات الشعر دون سواها.

المشهد الرابع

ومن الاستدلالات ضمن هذا المشهد ما استنته المَعْرِي في عملية الإقناع سنة جديدة من أطراف اللُّغَة وبحرها الذي لا ساحل له، وهو العروض والقوافي ومذاهبه وصوره، وكيف استطاع المَعْرِي بمهارته وسرعة بديهته أن يعقد هذه المطارحات العروضية وقواعدها.

وكل ذلك يتضافر إلى جانب ما أبدعه في أبواب العَرَبِيَّة جميعها، فالرسالة تحفل بالأدب والنقد والنحو ونكاته والصرف والأصوات والعروض والقوافي، كلها حاول أن يخرجها مُخرَجًا حسنًا بديعًا وصورها تصويرًا بارعًا بوقار الصانع المحترف؛ فالمَعْرِي الفيلسوف الذي حنكته التجارب ومن الذين حارت الأقلام في وصف خصالهم اللامعات وذوقهم وحسهم في تذوق العَرَبِيَّة وأبوابها.

ومن هذا الباب ما جاء على لسان ثعالة حيث رسم صورة كلية للشاحج، وقد استطاع أن يؤلف بين مصطلحات العروض، ويلغز عنها ضمن هذه التراكيب، وبعد أن رسم الصورة وضح أن الألفاظ المتقدمة ملغزة عن حروف القوافي وحركاتها، وعيوب الشعر.

والباحثة تكتفي بذكر استدلالاته عن كشف معاني عيوب الشعر التي أبدع في رسمها، ومنها:

(1) ذكره الخطيب التبريزي في شرحه على ديوان الحماسة لأبي تمام، وقال: (يريد لم أَرْمُهُ، فنقل)، يعني نقل الحركة على الحرف المجاور. شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، ج 760/2، ويُنظر: ديوان طرفة، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، ص 71.

أنه قصد بالإكفاء (أَكْفَى أَي أَمِيل، وألغزه عن إكفاء الشَّعر، والمُكْفَأ الممال)، قال ذو الرمة⁽¹⁾:

ودوية قفر ترى وجه ركبها إذا ركبوها مُكْفَأً غير ساجع⁽²⁾
وقصد بالإيطاء في قوله: "وعرّفه عزيز الدولة -أعزّ الله نصره- كيف يكون الإيطاء"،
قصد به إيطاء الفرس القَتيل، كما قال زيد الخيل⁽³⁾:

يا بني الصيّداء ردّوا فرسي إنّما يفعل هذا بالذليل.
عَوّدوا مهري كما عَوّدته دلّج الليل وإيطاء القَتيل.
وقد ألغزه عن الإيطاء في الشَّعر؛ ويعني به: ترديد القافية مرتين -بالنسبة للقافية- أما جاء
بالببيت للتدليل على المعنى اللُّغوي الذي قصده.

وأما السناد في قوله: "حمل البطريق على السناد"، فهي الناقة الضامرة التي يحمل عليها
البطريق إذا أسر؛ ألغزه عن السناد في الشَّعر ومثّل عليه بقول القائل⁽⁴⁾:

وقصيدة قد بت أجمعُ شملها حتّى أقوم ميلها وسنادها.
معنى السناد اختلاف الحذو وهي حركة ما قبل الردف ولا يكون الردف إلا ساكنًا والواو
والياء التي للردف تصطحبان في قصيدة والألف تتفرد لا يصحبها واو ولا ياء، ومثّل المَعْرِي
على المعنى وهو لفظة السناد ببيت من لشعر كشاهد على مذهبه.

(1) اسمه غيلان بن عقبة بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة، يُكنى أبا الحارث، وذو الرمة لقب لقبته به مية وفيه
عدّة روايات. يُنظر: الشعر والشعراء، ج2/524، والأغاني، ج18/259.

(2) روايته في الديوان:

قَطَعْتُ بِهَا أَرْضًا تَرَى وَجْهَ رَكِبِهَا إِذَا مَا غَلَوْهَا مُكْفَأً غَيْرَ سَاجِعٍ.

يُنظر: ديوان ذي الرمة، ص167.

(3) زيد بن مهلهل من طيء جاهلي أدرك الإسلام، يكنى أبا مُكنف، من أبطال الجاهلية لقبه زيد لخيّل وذلك لكثرة خيله،
كان كريما جوادًا، وفد على النبي ﷺ فسرّ به النبي ﷺ وأسماء زيد الخير. يُنظر: الشعر والشعراء، ج1/286.

(4) وهو لعدي بن الرقاع، يُنظر: الديوان، تحقيق: نور القيسي، وحاتم الضامن، ص88.

المشهد الخامس

أثناء حديث المَعَرِّي عن عودة الجالين عن ديارهم بسبب جفلة الخوف من غزو الروم، في أثناء عودتهم عمدوا إلى المواضع التي خبئوا فيها رجالهم؛ فما كان إلا أن التبس عليهم بعضها؛ لأنهم وضعوها في حال الخوف والذهول، وشبه حال الاختلاط بحال التباس الألفاظ في شعر الفرزدق⁽¹⁾ وهو يُعرف بوضع الكلام في غير موضعه:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلَكًا أَبُو أُمِّهِ حَيَّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ⁽²⁾.

وهذا البيت من أمثلة التعقيد اللفظي والمعنوي عند البلاغيين، فالبيت يفتقر للفصاحة التي حددها العلماء، والتعقيد يعود لصعوبة استخلاص المعنى والتباسه على القارئ، فالمعنى بالنسبة للفرزدق سهل الوصول إليه فهو العالم بالعربية وقوانينها، فالفرزدق العربي الأصيل العارف بحدودها، ولا يشتكي العجمة وفقر اللغة.

ونظم البيت كما نراه في غاية التعقيد اللفظي، وكان من حق الفرزدق أن يقول: وما مثله في الناس أحد يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه.

ويرجع خلل التركيب في نظم كلمات البيت بالتقديم والتأخير، وبالفصل بين كلماته التي يجب تجاوزها واتصال بعضها ببعض؛ وهذا كله قد جعل الكلام غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد.

فالكلام -كما يتضح- ملتبس، يتداخل مع بعضه بشكل لا يستطيع فهمه إلا من يتأمل النص مرارًا كي لا يقع في التباس الألفاظ ووضعها في غير موضعها.

(1) اسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفين بن مجشع بن دارم بن مالك، الفرزدق لقب غلب عليه، هو وجريز والأخطل أشعر طبقات الإسلاميين، وهو المقدم عليهم. يُنظر: طبقات فحول الشعراء، ص 298، الشعر والشعراء ج 1/471، الأغاني ج 9/221.

(2) هذا البيت للفرزدق، يمدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك.

الأمثال

المثل لغة واصطلاحاً

المثل عند صاحب الصحاح (393هـ): "مِثْلٌ: كلمة تسوية. يُقال: هذا مِثْلُهُ ومِثْلُهُ كما يقال شِبْهُهُ وشَبَّهَهُ بمعنى... والمِثْلُ: ما يُضْرَبُ به من الأمثال"⁽¹⁾.

أما عند ابن فارس (395هـ): "الميم والثاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على مناظرة الشيء للشيء؛ وهذا مِثْلٌ هذا، أي نَظِيرُهُ، والمِثْلُ والمِثَالُ في معنى واحد.

وربما قالوا مِثِيلٌ كشبيه؛ تقول العرب: أَمِثَلُ السُّلْطَانِ فلاناً: قَتَلَهُ قَوْدًا، والمعنى أَنَّهُ فعل به مِثْلَ ما كان فَعَلَهُ؛ والمِثْلُ المِثْلُ أيضاً، كشَبَّهَ وشَبَّهَ. والمِثْلُ المضروب مأخوذٌ من هذا، لأنَّه يُذَكَّرُ مَوْزَوًى به عن مِثْلِهِ في المعنى"⁽²⁾.

وفي لسان العرب (711هـ): "والمِثْلُ الشيء الذي يُضْرَبُ لشيء مثلاً فيجعل مِثْلَهُ... والمِثَالُ: المقدار وهو من الشَّبه، والمِثْلُ: ما جُعِلَ مِثَالاً أي مقداراً لغيره يُحْدَى عليه"⁽³⁾.

وبعد هذا الاقتفاء لكتب المعاجم نراها كلها دائرة في نفس الفلك حول المركز الأساس، فالمِثْلُ مماثلةٌ وشبهٌ ونظيرُ الشيء ومناظرته، والمقدار الذي يحتذى به كما تجيء بمِثْلٍ من أمثال العرب على موضوع يتلخص في كلمات المِثْلِ المعدودات، والجوهري في صحاحه وضع ظلَّ الكلمة وقضى أمرها لما قال: "ما يضرب به الأمثال"، وفي الاصطلاح تمتد اليد العليا لتصافح اللغة بالاستفادة من حياض دلالتها اللغوية للكلمة.

عرفه ابن عبد ربه الأندلسي: "إنَّ الأمثال وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني... تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق به في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشَّعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عم عمومها حتى قيل أسير من مثل"⁽⁴⁾.

(1) الصحاح، الجوهري، ج5/1816.

(2) مقاييس اللغة، ابن فارس، ص938.

(3) لسان العرب، ابن منظور، ج11/611-612.

(4) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ج3/486.

وعند الفارابي (339هـ): "ما ترضاه العامة والخاصة في اللفظ والمعنى حتى ابتذل فيما بينهم، وتحدثوا به في السراء والضراء، فاستدروا به الممتنع من الدرّ، وتوصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرجوا به من الكرب المكربة، وهو من أبلغ الحكمة؛ لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصّر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة"⁽¹⁾.

وهو يركز على المقصدية التي يختص بها المثل فتبلغ المقاصد به وتُحقق المطالب والمساعي، وهذا في حد ذاته الإقناع الكامن وراء المثل، فتآزر العامة والخاصة هو محل توافق بينهم على دلالاته، وكذا الاقتناع بمغزاه وما يؤول إليه من معاني ذات حصن لا يؤتى إلا من قبيل موقف مماثل للقضية التي طرح فيها وقيل فيها.

إذن تذهب الباحثة أن المثل هو القول الذي شاع ذكره وحفظ عن العرب، فسار به الركبان يتمثلون به في المواطن المشابهة، قطعاً للشكوك، ولتحقيق اليقين، وهذا في حد ذاته مقصد الحجاج وإقامة الدليل بالمثل.

الأمثال ضمن مشاهد الرسالة

المشهد الأول

قوله: "كَالْأَشْقَرِ إِنْ تَقَدَّمَ نُحِرَ وَإِنْ تَأَخَّرَ عُقِرَ"⁽²⁾.

المثل يضرب لما يُكره من وجهين⁽³⁾، ونقوله العرب تشاؤماً بالأشقر من الأفراس، وكان لقيط بن زرارة يوم جيلة على فرس أشقر فجعل يقول: أشقر إن تتقدم تتحر، وإن تتأخر تُعقر.

وقالها الصّاهل في زعمه أن الأفراس هي من تحارب مع فرسانها، وذوات الجبهة تعاني الأمرين في الحروب، وتتقدم لتقاتل وتلتقي السهام والنبال في المعارك، أما الشّاحج يحمل الأثقال ويبقى في مؤخرة الجيش لا ينتابه أي صارم، ولا يلقي العدو لهم بالاً، فلا يصابون بطعنة ولا ضربة، وهذا يدرج ضمن حجاج المثل الساخر حيث يصنف على أنه أعلى مرتبة في

(1) ديوان الأدب، الفارابي، ج74/1.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص116.

(3) مجمع الأمثال، الميداني، ج140/2.

بيان الحُجَّة وإقامة الدليل وإفحام الطرف الآخر، وهو استراتيجيَّة تخاطبية لها أثرها البليغ في الرد وبيان الحُجَّة، وذلك لما تقدمه من صورة متعددة الأبعاد في رسم مآلاتها، فالحرب والشَّاحج والصواهل كلها ارتسمت من خلال هذا المثل الحِجَاجِي بالغ الصورة والتأثير في القراء وفي استكمالهم رسم البيان لنتائج القول الخطابي.

قوله: "أَجُودُ مِنْ حَاتِمٍ"⁽¹⁾.

يضرب في الكرم والجود⁽²⁾، وبرهن عليه الصَّاهِل في أن لحوم الفروس تُأكل بخلاف لحوم الشواحج، واستدل على ذلك بالمثل الذي سار به الركبان يتحدثون به عن كرم حاتم لما عقر فرسه لامرأة طرقتة معها أيتام، ليحل نزاعاً قائماً بأنَّ لحومهم كانت تؤكل في الجاهلية ثم تركها الشارع فيما بعد.

وقال كذلك ضمن الأمثلة المستشهد بها: "رُبَّمَا كَانَ السَّكُوتُ جَوَابًا"⁽³⁾، كقولهم: ترك الجواب جواباً، وهذا يقال للرجل الذي يجلَّ خطره على أن يكلم بشيء فيُجَاب بِتَرْكِ الجَوَابِ⁽⁴⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص118.

هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج، كان جواداً شجاعاً شاعراً مُظَفَّراً، إذا قاتل غلب، وإذا غنم نهب، وإذا سُئل وهب، وإذا ضُرب بالقِدَاح سَبَق، وإذا أُسِرَ أطلق، وإذا أُنْزِي أنفق، وكان أقسم بالله لا يقتل واحداً أمه. ومن حديثه أن ماوية امرأة حاتم حدثت أن الناس أصابتهم سنة فأذهبت الخُفَّ والظلف، فبنتا ذات ليلة بأشدَّ الجوع، فأخذ حاتم عدياً وأخذت سقانة فعَلَّتاها حتى ناما، ثم أخذ يُعَلِّلني بالحديث لأنام، فرققت له لما به من الجهد، فأمسكت عن كلامه لينام ويظن أنني نائمة، فقال لي: أنمت؟ مراراً، فلم أجبه، فسكت ونظر من وراء الخباء فإذا شيء قد أقبل فرقع رأسه، فإذا امرأة تقول: يا أبا سقانة أتيتك من عند صبية جِياع، فقال: أحضريني صبيانك فوالله لأشبعنهم، قالت: فممتُ مُسرعة، فقلت: بماذا يا حاتم؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقام إلى فرسه فذبَّحه، ثم أجاج ناراً ودفع إليها شفرة، وقال: اشترِي وكلي وأطعمي ولدك، وقال لي: أيقظي صبيتك، فأيقظتهما ثم قال: والله إن هذا للوم أن تأكلوا وأهل الصَّرم (الصَّرم - بالكسر - جماعة البيوت) حالهم كحالكم، فجعل يأتي الصَّرم بيتاً بيتاً ويقول: عليكم النار، فاجتمعوا وأكلوا، وتفتَّع بكسائه وقعد ناحية حتى لم يوجد من الفرس على الأرض قليل ولا كثير، ولم يذُقْ منه شيئاً. وزعم الطائيون أن حاتماً أخذ الجودَ عن أمه غنية بنت عفيف الطائية، وكانت لا تليق شيئاً سخاء وجودا.

(2) مجمع الأمثال، الميداني، ج1/182.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص166.

(4) مجمع الامثال، ج1/302.

لما تنازع الصَّاهِلُ وَالشَّاحِجُ في قضايا عدة، ودلل الصَّاهِلُ على صحة أقواله بكثير من الحجج والبراهين، ما كان من الشَّاحِجِ إلا أن تمثّل بسكوته.

فاللسان يبين عن الإنسان، ومضى لمربطه بعد قوله المثل، والتزم السكوت وتعهّد بعدها أن يجيبه في مرة أخرى، مع اعتقاده أن الإكثار مظنة العثار في هذا الموطن فأجل الرد لموطن آخر.

المشهد الثاني

ذكر المثل القائل: "أَكْذَبُ مِنْ فَاحِشَةٍ"⁽¹⁾.

قيل لأن حكاية صوتها "هذا أوانُ الرُّطْبِ" تقول ذلك والطلع لم يطلع بعد، وقال:

أَكْذَبُ	مِنْ	فَاحِشَةٍ	تَقُولُ	وَسَطُ	الْكَرْبِ
وَالطَّلُعُ	لَمَّا	يَطْلُعُ	هَذَا	أَوَانُ	الرُّطْبِ ⁽²⁾ .

واحتجّ به الشَّاحِجُ بسبب انقياد البعير لقولها وتزويرها مقالته وإلقائها على البعير بهتاناً، فما كان منه إلا أن بهشّ بفمه بعد الريّ جحفة الشَّاحِجِ.

وقوله: "كَفَى بِرُغَائِهَا مُنَادِيًا"⁽³⁾.

يضرب في قَضَاءِ الحاجة قبل سؤالها، ويضرب أيضاً للرجل تحتاج إلى نُصْرته أو مَعُونَتُهُ فلا يحضر، ويعنلُ بأنه لا يعلم، وكذلك لمن يقف بالباب فيقال: أُرْسِلْ مَنْ يَسْتَأْذِنُ لَكَ، ويقول: كفى بعلمه بوقوفي ببابه مستأذناً لي، أي قد علم بمكاني فلو أراد أَدِنَ لي"⁽⁴⁾.

قصده الشَّاحِجُ قبل تلقينه ما تيسر من الأخبار المستطرفة، واحتج به على مقام وصول البعير للحضرة العالية، وأمره برفع صوته بالعجيج، لعله يفهم منه وتقضى حاجاته من خلال ما يلقيه من تلك الأخبار.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 211.

(2) مجمع الأمثال، الميداني، ج 2/167.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص 221.

(4) يُنظر: مجمع الأمثال، الميداني، ج 2/142.

"فررتُ من السيل الرابع إلى المعطشة المهلكة"، وهو معنى المثل ولفظه: "اضطرَّ السَّيْلُ إِلَى مَعْطَشَةٍ"⁽¹⁾.

يضرب لمن ألقاه الخيرُ الذي كان فيه إلى شر⁽²⁾.

بعد أن تعرض البعير لشتم الشَّاحِجِ وذلك لعدم فقهه لمقالته وما جاء به على الباب الذي ذكره منذ البداية، وهو الخطاب المتَّبَع على نحو ابن دريد وابن فارس، ضرب أمثلة ثلاثة في فساد اختياره وعدم إجادته في الاختيار، فالبعير لم يفهم ولم يفتن للمقالة التي جاء بها الشَّاحِجُ منوالاً على الكتب سالفة الذكر، فكان فهمه سطحياً كأنه لم يسمع كلمة عربية قط على حسب ما زعم الشَّاحِجِ في مقالته. وضمن المثل هذا قوله: "كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ"⁽³⁾.

الخلتان من الإساءة تجمعان على الرجل؛ لا يفيد هذا الكلام هذا المعنى، بل يفيد أنه يضرب لمن هرب من خلة مكروهة فوقع في أشد منها، وقال الشاعر:

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار
فكان هروبه من الصَّاهِلِ أخفَّ مما لقيه بعد من مقابلة أبي أيوب وقله فهمه لمقالته.

المشهد الثالث

ومن أمثلته: "الغمرات ثمَّ ينجلين"⁽⁴⁾.

وهو للأغلب العجلي، وورد بلفظ: "غَمَرَاتٌ ثُمَّ يَنْجَلِينَ"⁽⁵⁾ يضرب في احتمال الأمور العظام والصبر عليها.

قاله الشَّاحِجُ أثناء حديثه عن بوارد جفلة الناس، وما يُحتمل من تصور يحدث أثناء هذه الفتنة ومن بينها ترك الناس لضانهم ومواشيهم ودواجنهم، وقال هذا المثل محتجاً بالصبر

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص351.

(2) يُنظر: مجمع الأمثال، الميداني، ج1/421.

(3) المرجع السابق، ج2/149.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص429.

(5) ورفع (غمرات) على تقدير هذه غمرات، وواحدة الغَمَرَات -وهي الشدائد- غَمْرَةٌ، وهي ما تغمر الواقع فيها بشدتها؛ أي: تقهره. المثل في مجمع الأمثال، الميداني، ج2/58.

على الشدائد لهذه الكائنات التي تترك في الحرب تلاقى حتفها؛ فالكل من البشر يخرج لينجو بنفسه ويحفظها من المحتمل حدوثه من حرب وغيرها، وأما الحيوانات فتبقى بدون نفير في ديار أصحابها تنتظر.

وقوله: "بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ"⁽¹⁾.

هذا من قول طرفة بن العبد حين أمر النعمان بقتله⁽²⁾، فقال:

أبا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضَنَا حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ.

يضرب عند ظهور الشرين بينهما تفاوت.

وهذا كقولهم: "إِنَّ مِنْ الشَّرِّ خِيَارًا"⁽³⁾.

وفيه يحتاج الشَّاحِج على مواسسته الكائنات دون الإنسان التي بقيت لتلقى حتفها في هذه الجفلة؛ وهو ليس ببعيد عن المثل السابق الذكر أعلاه، وقيل في موطن مواساة أبي عقبة (وهي كنية الديك)، فالبقاء لملاقاة الحنف خير من أن تكون قد دليت في وطيس حامٍ أو أن تغلى في إحدى وهي القدر.

وقال كذلك: "تَعِيمُ كَلْبٍ فِي بُؤْسَى أَهْلِهِ"⁽⁴⁾.

ويروى عند الميداني: "تَعِمَ كَلْبٌ فِي بُؤْسِ أَهْلِهِ".

وذلك أن الجذب والبؤس يكثر الموتى والجيف، وذلك نعيم الكلب. ويضرب هذا للعبد أو العون للقوم تصيبهم شدة فيشتغلون بها، فيغتنم هو ما أصاب من أموالهم⁽⁵⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص430.

(2) يُنظر: مجمع الأمثال، الميداني، ج1/94.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ج1/10.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص455.

(5) يُنظر: مجمع الأمثال، الميداني، ج2/336.

يتحدث الشَّاحِج عن نفسه محتجًا بقول العرب هذا المثل في الراحة على حساب شقاء الآخرين⁽¹⁾، فهو بجلاء الناس عن أماكنهم وديارهم سيحلو له المكان، فجلاء البستاني عن الحدائق وتركه للسقيا سيجعل من الشَّاحِج حيوانًا يفوز براحة بضع ساعات من اليوم، فهو بذلك مثله مثل الكلب الذي يشقى أهله وينعم هو بجيفتهم فيسمن وينعم.

المشهد الرابع

تمثل على أقواله بالمثل: "الصدق ينبي عنك لا الوعيد"⁽²⁾.

يضرب مثلًا للرجل يتهدد ولا يُقدم، يقول: إن صدق اللقاء ينبي عنك، لا المكر والتهدد، أي يُبْعِد⁽³⁾.

احتج بها على غدر زعيم الروم وفشله في كل محاولة لغزو بلاد المسلمين فهو يهدد في كل مرة ثم لا يقدم على غزوهم. ومن ذلك أيضًا: "آخر الدواء الكي"⁽⁴⁾.

في حديثه عن مرض باسيل وصداعه والمسامير التي غزت رأسه فهو يعالج بالكي، ثم استدل على صحة هذا القول بالمثل الوارد ويروى: "آخر الدر الكي". "لَا تَسْخَرِ مِنْ شَيْءٍ فَيَحْوَ لَكَ"⁽⁵⁾؛ أي: يرجع إليك⁽⁶⁾.

المشهد الخامس

من الأمثلة ضمن هذا الباب الأخير: "عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السَّرَى"⁽⁷⁾.

(1) قَالَ الشَّاعِرُ:

تَرَاهُ إِذَا مَا الْكَلْبُ أَنْكَزَ أَهْلَهُ يُفَدَّى وَحِينَ الْكَلْبُ جَذُلَانُ نَاعِمُ.

مجمع الأمثال، الميداني، ج2/336.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص557.

(3) يُنْظَرُ: جمهرة الأمثال، للعسكري، ج1/475.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص560.

(5) المصدر السابق، ص562.

(6) يُنْظَرُ: المستقصى في أمثال العرب ج2/255، والعقد الفريد ج3/14.

(7) رسالة الصاهل والشاحج، ص616.

يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة⁽¹⁾.

فهذا سبيل الوصول بعد الشقاء ومن يتخذ الليل جملاً، يبلغ مع الصباح أملاً، وقال الشَّاحِج المثل يحتج لثعالة حال الجالين عن البلد في العودة إلى ديارهم، مستخدماً النكت العروضية على الفأل وعلى الطيرة، وهنا استدل به للفأل من جالية سُريّة⁽²⁾ وما لقيت من العيش أثناء غيابها عن قريتها.

وأخيراً ذكر المثل القائل: "بَيْنَهُمْ عِطْرُ مَنْشِمٍ"⁽³⁾.

يضرب في الشرّ العظيم⁽⁴⁾، ذكر المثل ولكن ليس بلفظه، وتمثّل به في حديثه عن كلمة (مرعش)، فاستدل أنها في ذات المذهب لكلمة منشم وأنه من شم، ومرعش من عش، فمجيئه بالمثل هذا على وجه التدايل والحجاج.

(1) وأول من قاله كما روى الميداني عن المفضل هو خالد بن الوليد لما ابتعثه الصديق للعراق وقام بتعطيش الإبل ثم سقيتها حد الارتواء ثم كتبها وكعم أفواها، ثم سلك المقازة حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والخيّل، وخشى أن يذهب ما في بطونه الإبل نحر الإبل واستخرج ما في بطونها من الماء، ومضى، فلما كان في الليلة الرابعة قال رافع: يُنظروا هل تَرَوْنَ سِدْرًا عِظَامًا؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك، فنظر الناس فرأوا السدر، فأخبروه، فكبر، وكبر الناس، ثم هجموا على الماء، فقل خالد:

لله	دُرٌّ	زافع	أنّي	اهتدى	فَوَزَ	من	فُرَاقِرٍ	إلى	سُوى.		
خِمْسًا	إذا	سار	به	الجيش	بكى	ما	سَارَهَا	من	قبله	إِنْسٌ	يُرى.
عِنْدَ	الصَّبَاحِ	يَحْمَدُ	القَوْمُ	السُّرى	وَتَجَلَّى	عَنْهُمْ	غِيَابَاتُ	الْكَرى.			

يُنظر: مجمع الأمثال، الميداني، ج2/336.

(2) يذهب ياقوت لضم أولها وفتح ثانيها "سُريّة" وهي قرية من أغوار الشام. يُنظر: معجم البلدان، الحموي، ج3/219.

(3) قال الأصمعي: "منشِم - بكسر الشين" اسم امرأة عطّارة كانت بمكة، وكانت خُزاعة وجُزهم إذا أرادوا القتال تطيّبوا من طيبها، وإذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم، فكان يقال: أشأم من عِطْرِ مَنْشِم.

مجمع الأمثال، الميداني، ج1/93. رسالة الصاهل والشاحج، ص650.

(4) يُنظر: مجمع الأمثال، الميداني، ج1/93.

الفصل الثالث

آليات الحجاج اللغوية في رسالة الصّاهل والشّاحج

المبحث الأول: الروابط الحجاجية

يعدُّ الخطاب الحجاجي خطابًا لسانيًا، يُساهم في تكوينه تضافر مجموعة من الوسائل اللغوية، والتي تعمل على ترتيب القول والحجج المذكورة في النصوص، وكل ذلك لضمان انسجام النص وتآلف أجزائه وتماسكها، وعن عمل الروابط وفق المستوى التداولي؛ فتشغل وظيفة مهمة كونها تعمل على الربط بين الحجج والنتائج في القول، إضافةً لإكساب النص قيمةً تأثيريةً ضمن النظام الخطابي، ولا يمكن إغفال ما تؤديه الروابط من عملية إسناد أدوار تداولية حجاجية معينة للوحدات الدلالية داخل الأقوال والكلام.

وفعل الحجاج في الكلام يميزه الروابط والأدوات الموجهة لمقصدية القول، وهذه الوجهة الحجاجية "هي التي تحدد طرق الربط بين النتيجة وحجتها"⁽¹⁾.

فالرابط يسعى للربط بين وحدتين دلالتين - أو أكثر - في إطار استراتيجيّة حجاجية واحدة وفق النظرة الحديثة وتصور الحجاج الجديد، وقد خالف هذا التوجه رؤية من سبق، والتي كانت تنصّ على أن الربط يتم بين قولين أو أكثر، فدحض هذا التصور وهدّمت أركانه؛ كَوْن عملية الربط معقدة البناء، فقد يكون الربط للأقوال ضمن حالات خاصة⁽²⁾، وقد يربط بين قول وسلوك غير كلامي أو إشارة تعبيرية إلى غير ذلك من التصورات الممكنة.

وأشار العزاوي⁽³⁾ إلى أنواع الروابط الحجاجية، ومنها:

- روابط التعارض الحجاجي، مثل: (بل، لكن، مع ذلك...)، روابط التساوق الحجاجي، مثل: (حتى، لا سيما...).
- الروابط المدرجة للحجج، مثل: (حتى، بل، لكن، مع ذلك، لأن...)، والروابط المدرجة للنتائج، مثل: (إذن، لهذا، بالتالي...).
- الروابط التي تُدرج حججاً قوية، مثل: (حتى، بل، لكن، لا سيما...)، والروابط التي تُدرج حججاً ضعيفة.

(1) نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ص376.

(2) يُنظر: اللغة والحجاج، العزاوي، ص29.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص30.

أولاً: روابط التعارض الجبجي

الربط الجبجي (لكن)

تعدُّ (لكن) من الحروف نادرة البناء التي لا مثال لها في الأسماء ولا في الأفعال، وقد تناولها العلماء بالدرس والشرح والتكوين، فهي من الأدوات التي تنفي كلاماً وتثبتُ آخر، وتستخدم (لكن) للاستدراك⁽¹⁾ وقد تأتي للإضراب⁽²⁾، وتعمل (لكن) لدفع توهم ولّده الكلام السابق ونسبة الحكم، ولا سيما أن ما بعدها يخالف ما سبق توهمه قبلها.

وعند الزجاجي⁽³⁾ والزمخشري⁽⁴⁾ للاستدراك؛ وذلك بتوسطها بين كلامين متغايرين مخالفين للنفي والإيجاب، فتستخدم لاستدراك النفي بالإيجاب أو العكس، والحديثُ عنها بابٌ يطول عند علماء النحو في تكوينها وتحليلها ودلالاتها، ولا يمكن فصل جهودهم العظيمة عن ما جاء به العرب بعد ذلك لتتميمه وإكمال تشييد صرح الأقدمين.

اتسع الحديث في مجال الروابط عند (ديكرو) واهتمامه بكلمات الخطاب، وكان يؤكد أن الروابط لا تنحصر في وظيفة أحادية فقط هي (الأغراض اللغوية)؛ بل تؤدي كذلك أغراضاً استدلاليةً بالإضافة إلى الوظيفة الرابطة، ويصوغ (ديكرو) قاعدة (لكن) العامة على الشكل الآتي: (ق لكن م) (P mais Q).

فقيمتها الإبلالية تكون من خلال الربط بين القولين المتناقضين المتعارضين بوجهٍ ما، وذلك بوضعها بين المعطى والنتيجة، وأصحاب النظرية الجبجية⁽⁵⁾ يستندون في تقييم نمط:

(أ ← لكن ← ب)، وهي مكافئة لقاعدة ديكرو = (P mais Q).

- إن المتكلم يقدّم (أ) و(ب) باعتبارهما حجتين، الحجة الأولى موجهة نحو نتيجة معينة(ن)، والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة له أي (لا-ن).

(1) يُنظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: رجب عثمان محمد، ج4/1975.

(2) الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ص617.

(3) كتاب حروف المعاني، الزجاجي، ص15.

(4) المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، ص119.

(5) اللغة والحجاج، العزاوي، ص58.

- إن المتكلم يقدم الحجة الثانية باعتبارها الحجة الأقوى، وباعتبارها توجه القول أو الخطاب برمته.

وبهذا يعد (لكن) من الروابط الحجاجية التي من مهامها سوق الحجج أو الرابط بين الحجج المتعارضة، وبهذا فهي من الروابط المدرجة للحجج القوية.

يقول المعري: "وَإِذَا رَكَّبْنَا الْقَضِيَّةَ الثَّنَوِيَّةَ الْكَلِيَّةَ، فَجَعَلْنَا الْمَحْمُولَ جِنْسًا وَالْحَامِلَ نَوْعًا، فَالْقَضِيَّةُ كَذِبٌ لَا مَحَالَةَ. وَإِذَا عَكَسْنَا ذَلِكَ فَجَعَلْنَا الْمَحْمُولَ نَوْعًا وَالْحَامِلَ جِنْسًا، كَانَتْ الْقَضِيَّةُ صَدَقًا. فَنَقُولُ: كُلُّ رَجَزٍ شِعْرٌ، فَيَكُونُ قَوْلًا صَادِقًا. وَإِنْ قِيلَ: كُلُّ شِعْرٍ رَجَزٌ، فَذَلِكَ بَاطِلٌ مِنَ الْمُقُولِ. وَمَا أَدْفَعُ أَنَّ الرَّجَزَ أَوْعَفُ مِنَ الْقَصِيدِ، وَلَكِنَّهُمَا جِنْسٌ وَاحِدٌ"⁽¹⁾.

نلاحظ من خلال المثال أن الرابط (لكن) لم يأت للإبطال؛ بل هناك فرق بين (لكن) الحجاجية والأخرى الإبطالية، أما الوظيفة التي جاءت بها كانت للتعارض الحجاجي ولو في وجه واحد بين الذي تقدّمها وما تأخر عنها، فهو يطرح الرأي ونقيضه وما يعتقدّه الخصم، ويرد في النهاية المؤشر وفق ما يراه صحيحًا حسب رؤيته وتحليله، وموافقة المقام للواقع.

"وَمَا أَدْفَعُ أَنَّ الرَّجَزَ أَوْعَفُ مِنَ الْقَصِيدِ" فهذه الحجة مهدت لنتيجة: أَنَّ كُلَّ مِنْهُمَا يخضع لجنس مغاير ضمن أجناس الأدب، والراجز لا يرقى لمرتبة الشاعر، ووفق ما ذكره الإمام الزمخشري أن (لكن) لا تأتي في صدر الحديث؛ بل تتوسط القول⁽²⁾ وذلك من أجل الربط بين معنيين متناقضين إيجابًا وسلبًا.

والقسم (ب) الذي تولد بعد (لكن) فقد جاءنا بنتيجة مضادة مخالفة للنتائج التي تصورها العقل تسليمًا لملاءمة الحجة (أ)؛ فذهب القول لصالح النتيجة (لا-ن) = نتيجة مضادة، والقول جاء في القاموس الموسوعي للتداولية: "ولـ (Mais)؛ أي (لكن) خاصية حجاجية عجيبة متمثلة في أنها تؤلف بين علاقة القوة الحجاجية، وعلاقة التناقض الحجاجي، وتجمع بينهما"⁽³⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص182.

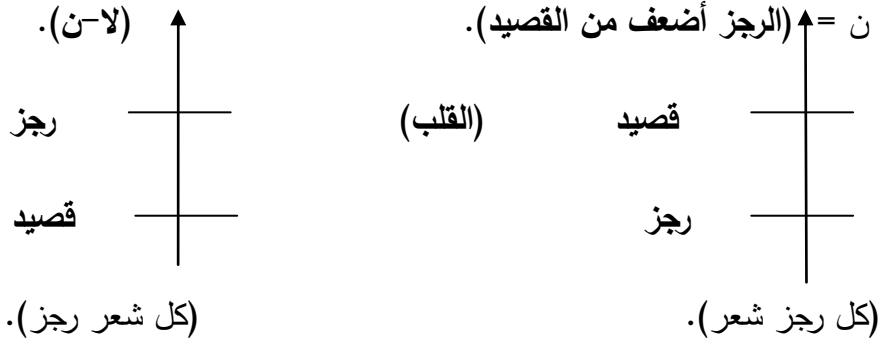
(2) شرح المفصل، ابن يعيش، ج4/560.

(3) القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشر وأن ريبول، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، ص301.

وبموجب قانون القلب يمكن تمثيل العلاقة على السلم الآتي:

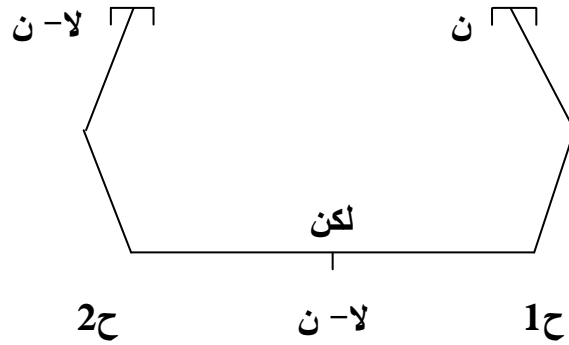
ق = (الرجز أضعف من القصيد) (لكن) م = (جنس واحد).

فالرابط يدل على نتيجة ضدية تقضي للتناقض المقامي للقول، مع أن الرجز أضعف من القصيد؛ إلا أن كلاهما يدرج في قائمة الشعر وفق سلم الإثبات والنفي:



فقانون القلب يوضح الوصف الضدي للمعاني التي يمكن أن يتضمنها الخطاب⁽¹⁾، وهذا بدوره يكسب الرابط صفة التعددية في الخطاب وتتنوع مقاماته الدلالية.

وهذا يمكن تمثيله على الترسيم البياني الآتي:



توضيح الرموز:

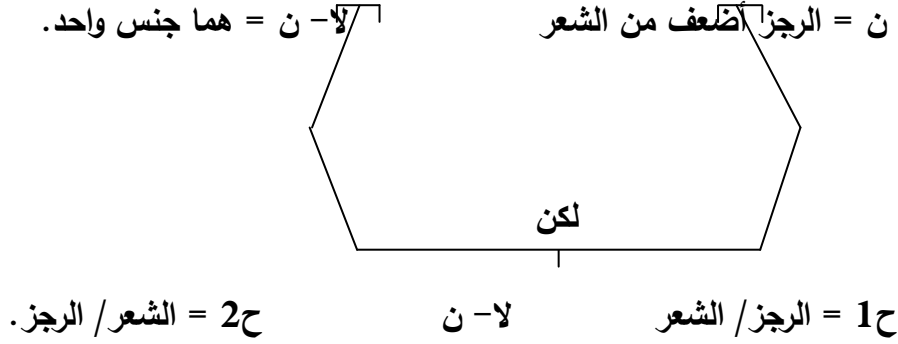
ن = نتيجة.

لا - ن = نتيجة مضادة.

(1) الاستدلال الحجاجي والتداولي وآليات اشتغاله، راضي الرقيبي، ص 106.

⌈ = العلاقة الحجاجية.

وبهذا فإن وظيفة الرابط الحجاجي في النص السابق يمكن أن تظهر من خلال العلاقة الحجاجية الآتية:



حيث من خلال الرابط الحجاجي (لكن) استطاع المتلقي أن يصل للمعنى المراد. فقد ناسبت الربط بين جملتين أولاهما منفية، ولأن النفي معنى واسع يكثر أن يحتاج المتكلم إلى زيادة بيان، ظهرت هذه في الحجة الثانية المتصلة بالنتيجة المضادة. ويركز المعري من خلال تسليمه بأن الرجز أضعف من القصيد، ثم يستدرك بواسطة (لكن) أنهما من جنس واحد، وكل منهما له المرتبة الفريدة ضمن الشعر العربي، والقضية نفسها أثارها المَعْرِي كذلك في رسالة الغفران⁽¹⁾، ويبدو أنها بابٌ يتسع الحديث فيه وفي تفريعاته وما للقصيد والرجز عند الكتاب والأدباء.

ما يهْمُنَا هنا أن المساحة التي تحدّث عنها المَعْرِي بعد (لكن)، وهي (ح 2) التي تم تسييرها نحو نتيجةٍ ضمنيةٍ مضادةٍ (لا-ن)، وهي غير المتوقعة بالنسبة لقارئ النص، فما بعد (لكن) يخالف ما قبلها، لذلك دفعت ما توهم القارئ وقوعه.

وفي نص آخر يقول المَعْرِي: "وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّ فِي نَوَاحِي (نجران) خَيْلًا لَهَا قُرُونٌ، فَلَيْسَ بِبَدِيعٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَلَكِنَّا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ"⁽²⁾.

(1) حيث يقول المعري في جنة الرجز الحديث المروي: "إن الله يحبّ معالي الأمور ويكره سَفْسَافَهَا" وإن الرجز لمن سَفْسَاف القريض؛ قصرتم أيها النفر فقصر بكم". يُنظر: رسالة الغفران، المعري، ص 374-375.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 316.

فليس ببديع من قدرة الله .. لكن = الله يخلق ما يشاء.

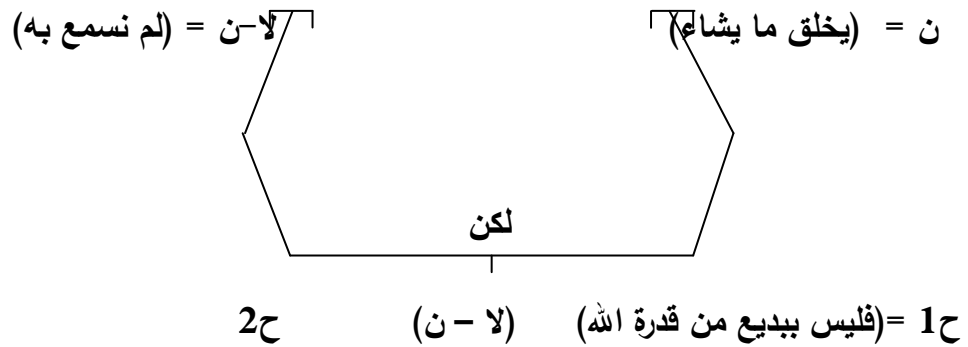
= وهو القادر على كل شيء سبحانه.

هذه نتائجُ ضمنيةَّة متوقَّعةٌ ضمن القول، والمتأملُ يرى أن النتيجة الضمنية كانت مضادةً لواقع السامع وفهمه لأحوال خلق الله وقدرته، وهذا هو عمل (لكن) الاستدراك: "ومعناها الاستدراك لمَّا أُضريت عن الأول بخبرٍ خفت أن يتوهم من الثاني مثل ذلك؛ فتداركت بخبره إن سلبًا أو إيجابًا، ولا بد أن يكون الخبر الثاني مخالفًا للخبر الأول لتحقيق معنى الاستدراك، ولذلك لا تقع إلا بين كلامين متغايرين في النفي والإيجاب"⁽¹⁾.

فالمعنيان اللذان جاءت (لكن) لتتوسطهما كانا متغايرين، والبعد الحجاجيُّ للرباط يتضح كونه يأتي للمخالفة، وبذلك يقرُّ (موشلار) أنَّ (لكن) تعدُّ رابطًا فاصلًا بين عنصرين متناقضين⁽²⁾، وتكتسب القوة من خلال جعل السياق صاحب طاقةٍ حجاجيةٍ قويةٍ.

لذلك نرى (العزاوي) تلميذ (ديكرو) لمَّا صنَّف الروابط⁽³⁾ جعل (لكن) من الروابط التي تدرج حجبًا قوية.

فالذي رأيناه بعد (لكن) ح 2 خدم (لا-ن)، يعني تخدم نتيجةً معارضةً للمألوف والمفهوم العام، ويمكن تمثيلها كالتالي:



(1) شرح المفصل، ابن يعيش، ج 4/560.

(2) يُنظر: العوامل الحجاجية، عزالدين الناحج، ص 162.

(3) يُنظر: اللغة والحجاج، العزاوي، ص 30.

حيث إن (ح2) أو (ب) خدمت (لا - ن)، وهي تعادل وظيفة البعد الحجاجي المخالف الذي تكسبه (لكن) للنص، والذي تظهر من خلاله معارضةً منافيةً للنتيجة المتوقعة.

يقول على لسان الشّاحج: "إِنْ قَالَتِ الْعَرَبُ: "جَاءَتْكَ بِحَاثِنِ رَجُلَاهُ" فَأَنَا أَقُولُ: جَاءَتْ بِكَ إِلَى حَاثِنِ رَجُلَاكَ. أَفَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ وَهَذِهِ الْمَطَايَا وَالْحَمُولَةُ الَّتِي فِي رُقْفَتِكَ تُصِيبُ نَقْعًا مِنْ قَبْلِ اسْتِقَائِي الْمَاءَ لَوُرُودِكَ وَوُرُودِهِن؟ وَلَا أَمُنُ عَلَيْكَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ غَيْرِي أَحَقُّ بِمُضَارَّتِكَ وَأَوْلَى بِشِرَاسَةِ خُلُقِكَ. فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيَّ مِنْ حَقِّ هَذَا الْكَلِمِ فَتَكُونَ قَدْ خَرَجْتَ مِنْ حِزْبِ الظَّالِمِينَ، أَوْ ادْعُو عَلَيْكَ فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ وَجْهَةً تُقْبَلُ وَهَزِيعٌ يَنْصَرِمُ وَفَجْرٌ يُسْفِرُ وَشَمْسٌ تُشْرِقُ"⁽¹⁾.

فتضمن القول الرابط (أ ← لكن ← ب).

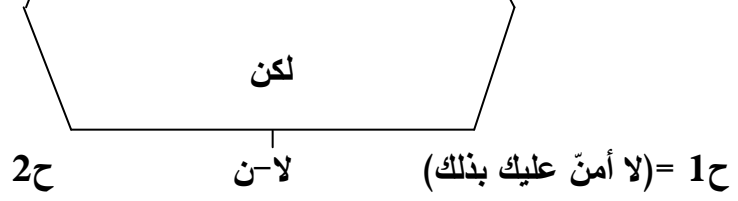
وخدمت (ب - ح2) (لا - ن)، ومن السهل أن نتوقع النتيجة الضمنية التي مؤداها: (يغفر الله لك).

والتفسير الذي أدّى لهذه النتيجة أن هذه الشخصية من بداية المشهد الأول تجلّت حكمته في كل موقف كانت تتحدث به من عفوٍ وصفحٍ غلبَ عليها.

أما مع سياق (لكن) كانت الحجة تخدم نتيجةً غير متوقعةٍ بقوله: (ولكن غيري أحق بمضارتك وأولى بشراسة خلقك ..)، فالوظيفة الحجاجية التي أدتها (لكن) ضمن الحديث هي توسط رأيين متناقضين متناقضين؛ الأول ذكره لما يخدم البعير من سقيا وورود الناهل والشراب وقت الحاجة، والثاني يقدّم فيه بشاعة خلق البعير وما صدر منه من فعل منافٍ للحاجة التي يخدمه بها الشّاحج من إنكار المعروف والرد عليه بشراسة الخلق، ويدعوه لإخراج حقه، وفصل الشّاحج القولين (لكن)، كي يجعل السامع يقف بعمق على الهوة المطروحة، والتي تفصل القول ثم التناقض بين الجمل والأفعال.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص214.

ن = (ولكن يغفر الله لك). لا-ن = (ولكن غيري أحق بمضارتك وأولى بشراسة خلقك).



فهذه (لكن) وتلك مقاصدها التي آلت إليها، فتوجيهها الحجاجي في كل مسألة كان يسلم لتعارض حجاجي لا يتوقعه السامع؛ فما قبلها يخدم نتيجة معارضة لمذهبها.

الرابط التعارضي (بل)

تعدُّ (بل) من حروف المعاني التي ذكرها العلماء ضمن حروف العطف، ووظيفتها ربط أجزاء القول مع إيجاد علاقة بين تلك الأجزاء، ويستخدم هذا الرابط للإبطال والحجاج معاً مثله مثل (لكن)، ومن حالاته:

1- يأتي ما بعدها مفرداً.

2- أن يأتي جملة.

فإن كان الذي بعده مفرداً؛ فله حالان⁽¹⁾:

- أ. إن تقدّمه أمرٌ أو إيجابٌ نحو: (اضرب زيداً بل عمراً)، فإنه يجعل ما قبله كالمسكوت عنه، ولا يحكم عليه بشيء، ويثبت الحكم لما بعده.
- ب. وإن تقدّمه نفيٌ أو نهْيٌ نحو: (ما قام زيدٌ بل عمرو)، و(لا تضرب زيداً بل عمراً)، فإنه يكون لتقرير حكم الأول وجعل ضده لما بعده.

أما إذا جاء بعدها جملةٌ فيكون بمعنى الإضراب:

- أ. إما للإضراب الإبطالي⁽²⁾؛ ويعني العدول عن موضوع إلى موضوع آخر، وهو إبطال حكمٍ لمتقدمٍ بحكم المتأخر، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾⁽³⁾.
- ب. وإما للإضراب الانتقالي من غرضٍ لآخر، مع بقاء الحكم السابق على ما هو عليه وعدم إلغائه وإبطال ما تضمّنه⁽⁴⁾، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾⁽⁵⁾.

(1) الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ص235.

(2) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم، ص256.

(3) [الأنبياء: 26].

(4) الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص235.

(5) [المؤمنون: 62-63].

يتفق النحويون على أن الرابط (بل) يستخدم للإضراب الإبطالي أو الانتقالي، فهو يتقاطع مع (لكن) كونهما للتعارض الحجاجي؛ بحيث تكون (بل) رابطةً بين حجتين لا تنتميان إلى قسم حجاجي واحد.

فهي تأتي لتدارك كلامٍ غلط فيه⁽¹⁾، فتترك شيئاً من الكلام وتأخذ غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾⁽²⁾.

يلحق الزجاعي على ذلك بترك الكلام الأول، وأخذ بـ(بل) في كلام ثانٍ⁽³⁾، وهذا تصريح بتكون الكلام من حجتين وربط بينهما.

ويؤكد ابن هشام⁽⁴⁾ قول ابن يعيش في فصل (لا وبـل ولكن)، بحيث يكون ما بعدها مخالفاً لما قبلها، ويقول: "وأما (بل) فللإضراب عن الأول، وإثبات الحكم للثاني سواء كان ذلك الحكم إيجاباً أو سلباً، نقول في الإيجاب: (قام زيد بل عمرو)، ونقول في النفي: (ما قام زيد بل عمرو)، كأنك أردت الإخبار عن عمرو فغلطت وسبق لسانك إلى ذكر زيد فأثبت بـ(بل) مضرباً عن زيد ومثبتاً ذلك الحكم لعمرو..."⁽⁵⁾.

يستفاد من هذا الحديث أن (لكن) و(بل) تساهمان في إنتاج سلمٍ حجاجي بذلك النفي الذي يسبقها، وهذه نقطة الانطلاق في السلم وترتيب الحجج ضمنه، حيث إنَّ سرَّ العملية الحجاجية ضمن (بل) أن المرسل يتوصل بها لترتيب حججه في السلم، بما يمكن تسميته بالحجج المتعاكسة، وذلك بكون بعضها منفي، والبعض الآخر مثبت⁽⁶⁾، وتربط (بل) بين الحجج والنتائج، وأما النتيجة المضادة (لا - ن) فهي نتيجة القول الكلية، والحُجَّة بعد (بل) تكون أقوى من التي قبلها؛ والحجتان تخدمان نتيجتين متضادتين.

(1) كتاب حروف المعاني، الزجاعي، ص14.

(2) [ص: 2-1].

(3) كتاب حروف المعاني، الزجاعي، ص15.

(4) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ج1/119.

(5) شرح المفصل، ابن يعيش، ج8/104.

(6) إستراتيجيات الخطاب، عبدالهادي الشمري، ص514.

ومن الأمثلة على الرابط (بل) الآتي:

يقول المعري: "وَعَرَّائِرُ الْحَيَوَانِ قَلَمًا تَعْتَرِفُ بِالْفَضِيلَةِ، بَلْ تَجِدُ أَدْنِيَاءَ الْعَالَمِ يَدْعُونَ الْفَضْلَ عَلَى أَهْلِ الْأَقْدَارِ، وَالْمُنْغَمِسِينَ فِي الضَّعَةِ تَلْهَجُ أَلْسِنُهُمْ بِالْإِفْتِخَارِ. وَرُبَّمَا صَوَّرَتِ الْغَرِيزَةُ لِصَاحِبِهَا مَا يَقَعُ الْإِجْمَاعُ عَلَى بَطْلَانِهِ"⁽¹⁾.

فالمثال جاء على صيغة (ح1) ← بل ← (ح2)، والرابط (بل) أقام علاقةً مركبةً من علاقَتين حجاجيتين، حيث:

العلاقة (1): بين الحُجَّةِ الأولى التي تأتي قبل (بل) لتخرج بنتيجةً ضمنيةً من نمط (الحيوانات لا تمتلك عقلاً - بالبديهة - والتمايز بالعقل عند ذوات الألباب).

العلاقة (2): وهي الكلام الذي تولد بعد (بل) والنتيجة الضمنية فرزتها مجموعة من الفئات لحُجَّةٍ واحدة وهي:

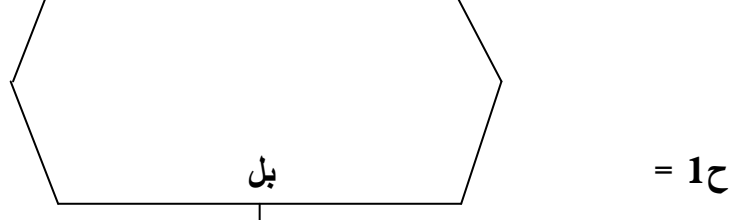
(ف1): تجد أدنياء العالم يدعون الفضل على أهل الأقدار.

(ف2): والمنغمسين في الضعة تلهج ألسنتهم بالافتخار.

(ف3): صورت الغريزة لصاحبها ما يقع الإجماع على بطلانه.

وهذه تُحِيل بدورها لنتيجةً ثانيةً ضمنيةً مضادة وهي من نمط (التواضع من شيم الكبار والعقلاء)، والتي تمثل في الترسيم التالية: (لا - ن).

ن = (التمايز بالعقل عند ذوات العقول) لا-ن = (التواضع من شيم الكبار والعقلاء)



(وَعَرَّائِرُ الْحَيَوَانِ قَلَمًا تَعْتَرِفُ بِالْفَضِيلَةِ). (لا-ن). ح2 = (ف1) + (ف2).

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص168.

حيث إنّ (ح2) تناقض وتعارض ما قبل (بل)؛ لأن الاستدراك يتطلب وقوعه في هذا المقام التعارض الذي سنّته (بل) لها في مدارات العربية مذ كانت.

ويتابع المعري: "ويُوردك نَمِيرَ المَاءِ مَنْ غيرِ أَنْ تُعَارِكَ عَلَيْهِ حَوْمًا، وَلَا تَزَاحِمَ عَلَيْهِ فِي مَوْرِدِكَ عَرْجًا، بَلْ تَنْفُخْ حَبَابَ الحَوْضِ أَوْ الغَدِيرِ لَاهِيًا فِي شُرَيْكَ مُتَهَنِيًا فِي ذَلِكَ بِعَبْكَ وَرَشْفِكَ، لَا تخَافُ مِنْ عَصَا تُقَرِّعُ وَلَا زَجَرٍ يَرَوْعُكَ وَيَذَعْرُكَ؛ وَأَنْ يُعْفَى ظَهْرُكَ مِنَ الأَعْبَاءِ فَيَخْلُو جُثْمَانُكَ مِنَ الجَلْبِ والدَّبَرِ، وَتُسْرَحَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ العِضَاءِ فِيهَا القَتَادَانِ الأكبرُ والأصغرُ، والسَّلْمُ والَطَّلُحُ والعُرْفُطُ والسَّمُرُ والشَّبَهَانُ"⁽¹⁾.

تعدّ (بل) -على اختلاف توجهاتها الحجاجية- من الأنماط التركيبية الدلالية التي خرجت لمعنى الاعتراض؛ فجاءت وتوسطت بين الحجتين حيث سبقها نفي وما بعدها كان مثبتًا، والعلاقة الحجاجية القائمة بين نفي الزحام على المورد واستدراكها باللهو على حباب الحوض أو الغدير باستخدام (بل).

وتلخيص القول إن الشّاحج يدعو أبا أيوب لإخراج حقه منه، وغسل الحقد من قلبه يتطلب من البعير أن يقدم مقابلًا، ثم يكون الدعاء له بالابتهاال أنف الذكر، مستخدمًا الرّوابط الحجاجية لتقوية مذهبه وتوجهه.

والمتأملُ موضع (بل) الحجاجية، يلاحظ أن التوسط كان بين قولين متنافيين أو متناقضين متعارضين.

(ح1 ← بل ← ح2).

حيث مجيء (ح2 وفئاتها) مساندةً للنتيجة (لا - ن)؛ يعني نتيجة معارضة لما قبلها (ح1)، والنفي الذي دعم هذه الحجة أفضى إلى حجة مثبتة مخالفة لـ(ن) المتوقعة، ومن حيث

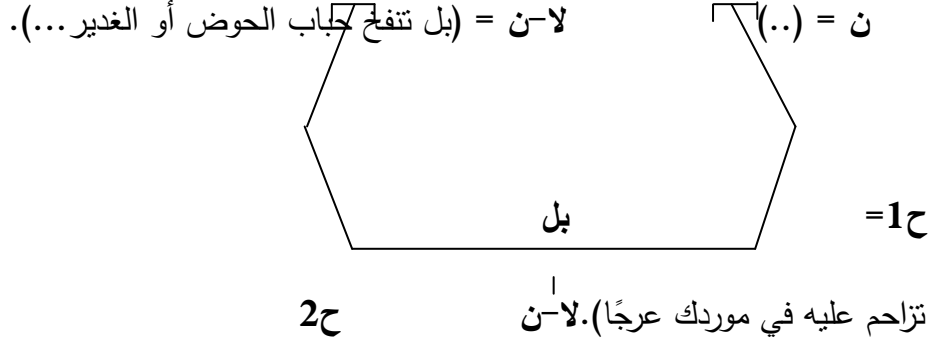
(1) والشَّبهَانُ نبت يُشْبِهُ الثَّمَامَ، ويقال له الشَّهْبَانُ. قال ابن سيده: والشَّهْبَانُ والشُّبُهَانُ ضَرْبٌ مِنَ العِضَاءِ، وقيل: هو الثَّمَامُ، يَمَانِيَةٌ؛ حكاها ابن دريد؛ قال رجل من عبد القيس:

بِوَادِ يَمَانٍ يُنْبِتُ الشَّتَّ صَدْرُهُ، وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبُهَانِ

ويقول الجوهري: "والشَّهْبَانُ: ضَرْبٌ مِنَ العِضَاءِ".

ابن منظور، لسان العرب، ج4/2191، ورسالة الصاهل والشاحج، ص216.

القوة ما بعد (بل) يمثل دوماً الحُجَّةَ الأقوى من (ح1)، حيث تشير للمعنى الكلي وبها تقام الحُجَّةُ وعليها يقع الضاغط الاختياري اللفظي والفعلية.



فالرابطُ (بل) استُخدِمَ للإضراب الانتقالي؛ حيث انتقل المتكلم من مقام ذكر المخاوف والمخاطر التي تحفُّ البعير ومنها العَرَجُ (قطعان الإبل)، التي قد تصل إلى خمسمائة وإلى ألف كلها تلتف على المورد لسدِّ عطشها؛ وارتقى في إثرها صاعداً لذكر ما سيجنيه من سعادة في عدم مزاحمة مورده لاهياً في تنعمه ورشفه لماء الغدير، وهذا المبلغ الحجاجي الذي تسعى (بل) من خلال استخدامها إلى تحقيقه وهي طريقة بناء الحجج وصولاً إلى نتيجة يبتغيها المحاجج؛ حيث "الانتقال من درجة دنيا في الحجاج إلى درجة أعلى"⁽¹⁾، فدحضت (بل) ما قبلها وجاء بالأقوى والأظهر؛ كونها من الأدوات التي تستخدم لإدراج حجج قوية.

والمتمأملُ وظيفة الفئات المتعددة بعد (بل) يجدُّ أن (ح2) قد تعددت فئاتها، كذلك فمن المعتاد أن نرى حُجَّةً واحدة بعد الرابط الحجاجي؛ لكن الحجج هنا تعددت وتكاثف حضورها بقوة الرابط الحجاجي، نذكرها على النحو الآتي:

الحجج التي جاءت مباشرةً بعد الحُجَّة الثانية تكونت بعدها من أربع فئات حجاجية قولية، وهي:

ف1: تنفخ حباب الحوض أو الغدير لاهياً في شريك متهنياً في ذلك بعبك ورشفك.

ف2: لا تخاف من عصا تقرعك ولا زجر يروعك ويزعرك.

ف3: وأن يعفى ظهرك من الأعباء فيخلو جثمانك من الجلب والدبر.

(1) إستراتيجيات الخطاب، الشهري، ص515.

ف4: وتسرح في أرضٍ كثيرةٍ العضاه فيها القتادان الأكبر والأصغر، والسلم والطلح والعرفط والسمر والشبهان.

من هنا اتضح أن الحجة الواردة بعد هذا الرابط الحجاجي (ح2) من حيث تعدد فئاتها وتكاثر حضورها أقوى وأشد تأثيراً من (ح1) "ولا تراحم عليك في موردك عرجاً"، وبهذا:

ف(لا - ن) النتيجة المضادة هي المعتمدة لأنها اعتمدت على مجموعة من الفئات المساندة ووقعت بعد (بل) الاستدراكية، كما في الرسم البياني المقابل:



ثانياً: روابط التساوق الحجاجي

الرابط الحجاجي (حتى)

تعدُّ (حتى)⁽¹⁾ من الأدوات الرابطة في العربية والتي كثر استعمالها؛ لتنوع دلالاتها ووظائفها في الجملة العربية، فهي الرافعة والناصية والجارة والعاطفة⁽²⁾، "وتأتي لانتهاء الغاية وهو الغالب، و(التعليل)، وبمعنى (إلا) في الاستثناء وهذا أقلها، وقلَّ من يذكره"⁽³⁾، وقد استخدمت كمؤشر حجاجي واضح يبين في رسالة المعري، وهذا الرابط له أهمية بالغة من خلال علاقته القوية مع المعنى المضمَر الضمني.

(1) ورد في حاء (حتى) لغتان:

أولها: المشهورة عند العرب بالحاء (حتى) وبها قال أهل فريش وجل العرب قديماً وحديثاً.

ثانيها: (عَتَى) بقلب الحاء عيئاً، وهي لغة منقولة عن هذيل وثقيف؛

وبها قرأ ابن مسعود قول الله تعالى: ﴿ ليسجننه عَتَى حين ﴾. [يوسف: 35].

ويضيف المرادي على هذه لغة ثالثة وهي إمالة الألف قال: "وهي لغة يمنية: يُنظر: لسان العرب ج7/2، 768، والكشاف ج2/319، والبحر المحيط لأبي حيان ج5/307، والجنى الداني ص558، وهمع الهوامع في شرح جمع الجوامع ج4/167.

(2) يُنظر: معاني الحروف، الرمانى، ص164.

(3) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ص131.

وتتصرف على الأوجه الآتية:

- إن كان ما بعدها جملةً اسميةً أو فعليةً أو شرطيةً كانت حرف ابتداء⁽¹⁾، وما بعدها جملةً مستأنفة.
- وإن كان ما بعدها اسمًا ظاهرًا أو مصدرًا مؤولًا ولا يصح العطف كانت حرف جرّ تجرّ ما بعدها.
- وإن كان ما بعدها يصح عطفه على ما قبلها⁽²⁾ فهي حرف عطف.

ولعلماء العربية اختلافاتٌ شاسعةٌ في ترجيح تلك المسائل وبيانها ليس يتسع المقام لذكرها⁽³⁾، لكن الذي يغلب عليها أنها حرف يأتي لانتهااء الغاية كما ذكرنا آنفًا⁽⁴⁾.

وما يهمّ في موضوع الحجاج أن تكون (حتى) الحجاجية عاطفة⁽⁵⁾ ذلك لأنها تتوسط دليلين أو تؤكد أحد دليلين يخدمان النتيجة التي يقصدها المتكلم، وتأتي جارةً إذا كان ما بعدها داخلًا فيما قبلها⁽⁶⁾، وقال ابن مالك: "(حتى) لانتهااء العمل بمجرورها أو عنده؛ يعني أنه يحتمل أن يكون داخلًا فيما قبلها، أو غير داخل".

فإذا قلنا : ضربت القوم حتى زيد.

(1) قال ابن هشام -رحمه الله: "أي: حرفًا تُبتدأ بعده الجمل أي تستأنف؛ فتدخل على الجملة الاسمية كقول جرير: فما زالت القتلى تمجّ دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل.

... وعلى الفعلية التي فعلها مضارع..؛ كقول حسان:

يُغنّون، حتى ما تهرّ كلابهم، لا يسألون عن اليوادر المقبل.

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ص137. ويُنظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، الأشموني، ج206/3.

(2) بيان المسألة وشروطها؛ يُنظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، ص135.

(3) ذكر المرادي أقوال العلماء في (حتى) واختلافهم في بابها مدللًا على تلك بأقوال البصريين والكوفيين وما آل إليه العلماء بعدهم . يُنظر: الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ص542 ويُنظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب، ج4/1975، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص131، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ج5/258.

(4) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، ص131.

(5) اللغة والحجاج، للزاوي، ص72.

(6) الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص545.

ف(زيد) يجوز أن يكون مضروباً انتهى الضرب به.

ويجوز أن يكون غير مضروبٍ انتهى الضرب عنده.

وَحُكِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ أَنَّ (حَتَّى) الَّتِي لِلْغَايَةِ تُدْخِلُ وَتُخْرِجُ⁽¹⁾، يُقَالُ: ضَرَبْتُ الْقَوْمَ حَتَّى زَيْدٍ فَيَكُونُ مَرَّةً مَضْرُوبًا وَمَرَّةً غَيْرَ مَضْرُوبٍ.

أما المعطوف عند نحاة العرب فله شرطان:

1. أن يكون بعضاً ما قبلها.
2. أن يكون غايةً لما قبلها، في زيادة أو نقص، والزيادة تشمل القوة والتعظيم، والنقص يشمل الضعف والتحقير.

وهذا ما قدمه (ديكرو وانسكومبر) للأداة المقابلة لـ(حتى) في الفرنسية وهي (Meme)، والحجج التي تقع (حتى) بينهما يجب أن تنتمي لفئة حجاجية واحدة؛ بحيث تخدم نتيجةً ضمنيةً واحدةً، والحجة بعد (حتى) هي الأقوى من التي قبلها⁽²⁾. ويكون الجمع بين الدليلين بثلاثة أمور (متوافرة):

- 1- ما قبل حتى (ح) تخدم (ن).
- 2- ح 1 و ح 2 تخدمان (ن) واحدة
- 3- الحجة التي تلي (حتى) تضيف طاقة حجاجية للحجة التي تسبق الرابط⁽³⁾.

ومن الأمثلة في الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ:

"وَرُبَّمَا كَانَ ابْنُ أَخْدَرَ⁽⁴⁾ فِي عَذَاةٍ⁽⁵⁾ قَدْ بَعْدَ بِهَا عَنْ الْأَدَاةِ، حَتَّى إِذَا الْعَطَشُ حَرَّقَهُ وَأَمَرَهُ بِالْمُورِدِ لِيَطْرُقَهُ، وَرَدَّ أَمِلًا بَرْدَ الْمَاءِ يُطْفِئُ بِهِ مَا اسْتَعَرَّ مِنْ لَهَبِ الْأَظْمَاءِ"⁽⁶⁾.

(1) الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص545.

(2) يُنْظَرُ: اللغة والحجاج، العزاوي، ص72.

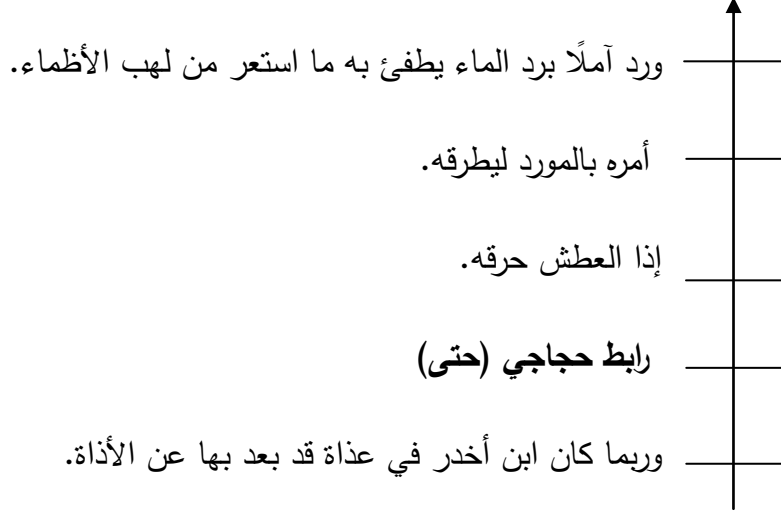
(3) الحجاج في الشعر العربي القديم، سامية الدريدي، ص315.

(4) ابن أخدر: هو حمار الوحش.

(5) العذاة: الأرض الطيبة الكريمة.

(6) رسالة الصاهل والشاحج، ص135.

دور (حتى) إقامة علاقةٍ ترابطيةٍ في القول، ويظهر ذلك من خلال عملها على تناسق الخطاب الموجّه، حيث يتم وضعها كرابطٍ ترتيبيٍّ للأقوال المذكورة ضمن السياقات، ويمكن تمثيل علاقته التراتبية الحجاجية بالآتي: (حتى ب < ب).



فكل الحجج قبل الرابط أو بعده تتساند وتتواتر جميعها لخدمة نتيجة واحدة هي (الاتواء من الظماً)، ردًا على ما قبل (حتى) وتفسيرًا بديهيًا لما جاء بعدها؛ فالدلالة المقصودة للرابط تتفرع، وهذا التفرع يمكن أن يتضح ببسرٍ من خلال السياق التداولي⁽¹⁾ للنص، ونسلم إلى أن دلالتها المعنوية تختلف من تركيب لآخر، ويعدُّ المؤشر المذكور مهمًّا لإدراك العملية التأثيرية التوجيهية لأي نص دلالي؛ ليس لإقامة جسر التواصل فقط؛ بل الإقناع بين الباث والمتلقّي لفهم مقامات التخاطب والمعرفة بين الأطراف.

ودلالة (حتى) هنا كانت للغاية؛ يعني لما وصل به العطش أقصاه وحرقه، ورد مورد الماء ليسدَّ هذا العدو وما أحدثه من اشتعال اللهب في عروقه، فالرابط له دورٌ في الترتيب بين الأقوال كما هو ملاحظٌ من خلال السلم القولي، وكل حدث قد ذكر في الحديث قوى السابق دون أن يكون له الغلبة.

(1) يُنظر: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقيبي، ص 108.

يقول المَعْرِي: "وَلَوْ تَحَرَّى فِيَّ التَّطَوَّعَ مُتَحَوِّبٌ فَقَادَنِي بِرَسَنِي حَتَّى أَقِفَ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ لَأَلْقَيْتُ (مَسْأَلَةً) ثُمَّ فَرَعْتُهَا فَخَاضَ فِيهَا الْفُقَهَاءُ وَالْمُتَكَلِّمُونَ وَالشُّعْرَاءُ سَحَابَةً لِيَلْتَهُمْ تِلْكَ"⁽¹⁾.

والصورة هذه من استخدامات (حتى) التي للتعليل والسببية، ويعدُّ ما قبل (حتى) علةً لما بعدها، وفي المعنى هي مساويةٌ للأداة (كي) كونها الأخرى للتعليل (... كَي أَقِفَ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ).

ح1: كانت عبارةً عن فئةٍ حِجَاجِيَّةٍ (شرطية) واحدة من القول، وقد علَّلَ بمجيء النتيجة بعد (حتى) تتفرع كالاتي:

الرابط قبلها (حتى).

(ن) تتكون من (ف1): من ذلك المجلس بمرأى ومسمع.

(ف2): لألقي مسألة.

(ف3): ثم تفريعها ليخوض العلماء والفقهاء والمتكلمون والشعراء سحابة ليلتهم تلك في المسألة لعمقها ودقتها. (الحجاج = ثني أعناق الكلام من خلال أسنة الحروف العلانية).

فالنتيجة كانت عبارة عن ثلاث فئات حِجَاجِيَّةٍ كلها نتيجة قولية لما قبل الرابط (حتى)، وهذا ضمن الحجاج الالتوائي الساخر من الطبقة -الرجال- التي تقصد باب عزيز الدولة للتكسب.

وهذه التراتبية المتحققة من خلال الرابط الحِجَاجِيَّ (حتى) وكيفية ورود الأقوال ممهّدة مرتبة في سياقها ترتيباً منطقيّاً بحسب ما يمليه المتكلم، ويصدقه عقل السامع.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص189.

الرابط الحجاجي (ثم)

يعدُّ الرابط (ثم⁽¹⁾) بضمّ الثاء؛ حرف عطف يدل على أن الثاني بعد الأول (يقصد ما بعد ثم) وبفيد الترتيب بمهلة⁽²⁾؛ أي: للتراخي، وهو كذلك عند جمهور العلماء، أما ما خرج عن التراتبية وهذا التعميم فقد تأولوه⁽³⁾.

يقول المعري: "فَالْجِنْسِيَّةُ قَرَابَةٌ بَيْنَ الْمُتَجَانِسَاتِ، ثُمَّ يَتَقَرَّعُ ذَلِكَ إِلَى تَرْتِيبِ الْأَنْوَاعِ: فَالْحَيَوَانُ كُلُّهُ جِنْسٌ بَيْنَهُ تَقَارُبٌ بِالْجِنْسِيَّةِ، فَقَدْ جَمَعْتَنِي وَإِيَّاكَ الْحَيَوَانِيَّةُ، وَكُونُنَا مِنْ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ قَرَابَةٌ ثَانِيَّةٌ. وَأَخْصُ ذَلِكَ أَنَّنا مِنْ ذَوَاتِ الْحَافِرِ"⁽⁴⁾.

(ثمّ) هنا تدل على الترتيب والتراخي، فالجنس بالنسبة للأنواع والفصائل الحية ينقسم لأقسام منها الحيوان، وكلا الصّاهل والشّاحج جمعهم الحيوانية، والحيوان من أوصافه وأنواعه ذوات الأربع؛ فهما من نفس القرابة؛ فكلاهما يتفق بأطرافه الأربعة، ثم أنهما من ذوات الحافر.

والذي أضيف إلى النص من خلال (ثمّ) الترتيب في الأقوال المذكورة، وجعلها وفق سلمية معينة في التدرج وتفسير وتحليل مكونات الأشياء.

وهذه صورة عالية في البيان ويمكن أن تدرج وفق (حُجّة الاشتمال)⁽⁵⁾، والتي يذكر من خلالها المتكلم الكل، ثم يبدأ بتجزئة أقسامه شيئاً فشيئاً حتى يصل لأصغر جزء مكون له. ويمكن تمثيلها كالآتي:

(1) يقول ابن هشام: "يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة". مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ج1/124.

(2) يُنظر: الزجاجي، حروف المعاني، ص16 والجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص426.

(3) يُنظر اختلاف العلماء في (ثمّ): الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص426، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ج1/124.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص170.

(5) هذا النوع من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية: وهو أن ما ينسحب على الكل ينسحب على الجزء من هذا الكل. يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، الدريدي، ص210.

(ثُمَّ)	
والأخص من تلك العوام (أنهما من ذوات الحافر).	
وهم من ذوات الأربع (قاربة ثانية).	
الحيوانية عامل مشترك بينهما.	
ثم ب < ب < ب يتفرع ذلك إلى ترتيب الأنواع.	
فالجينية قرابة بين المتجانسات.	

وأعلى السلم يناظر القارئ القول الأقوى حجاجياً؛ حيث قطع فيه القول والبيان على الصَّاهِل لما سمع هذه الأقوال المتتاليات، والغرض التخاطبي ضمن هذا السياق هو من أتاح وفرض استخدام أداة الربط (ثم) دون غيرها من الرِّوَابِط؛ لدالتها على المعنى المذكور الموجه أطرافه باستخدامها، فالحقائق المنطقية المذكورة بدون أدنى شك تجعل ذهن الصَّاهِل -على اعتباره الشخصية العاقلة كما هي مفهومة من ظلال المَعْرِي الذي جعل لهما العقل الحافظ- وغيره يذعن لها، وأضف إلى بيت القصيد هذا أن عملية رصد هذه المعاني وفق التراتبية المذكورة يوجب التمييز بين ثلاثة تركيبات دلالية حاول (كورنيلي⁽¹⁾ - Cornlier) تقديمها، وهي:

- المعنى الأقوى (Sens fort).
- المعنى الأدنى (Sens minimal).
- المعنى السِّيَاقِي أو المختبر السِّيَاقِي (Information contextuelle).

فالمعنى الأدنى هو ما خرَّجه علماء العربية للحرف الرابط دون سياق فهو معناه وبابه الذي وضع فيه؛ وهو هنا مع (ثم) للترتيب كما رأينا، أما المعنى الأقوى فهو ما يمكن أن يأتي المعنى الأقوى الذي يُكتسب حيث يرجح للتمييز بين المعاني، ونراه هنا قد اكتسب صفة البيان ضمن الحديث، حيث كانت أقوى به ومعه، أما المعنى السِّيَاقِي لتحليل الدلالة المنطقية للحرف (ثم) فقد جاء هنا للكشف والتوضيح وإقامة الحجج على الصَّاهِل بعدما أدَّى الوظيفة الأولى وهي

(1) مقارنة نظرية في مظاهر الربط الحجاجي لبنية الاقتضاء، أحمد كروم، ص 218.

الترتيب ثم البيان ثم السياق، فقد أفصح عن معان عدة مكتسبة للحرف الرابط من خلال دلالة الأقوال المتتابة له، فالحجاج يساهم في دمج خطة بيانية ضاغطة لها تأثيرها الفاعل ضمن الرابط الساري في الجملة تركيباً ودلالة وتداولاً.

ومثال آخر لـ (ثم) في نص المَعَرِّي حيث يقول: "بَلْ يُقَدَّرُ عَلَيْهَا مَا هُوَ أَشَدُّ وَأَشَقُّ: وَقَوْعٌ فِي الشَّرِكِ وَقَدْ أَحْكَمَ فَلَا تَقْدِرُ عَلَى الْخَلَّاصِ، ثُمَّ يَعْمَدُ إِلَيْهَا طِفْلٌ عَارِمٌ فَيَشُدُّ خَيْطًا فِي السَّاقِ وَيَأْخُذُ طَرَفَهُ بِيَمِينِهِ وَيُرْسِلُهَا مِنْ كَفِّهِ لِتَطِيرَ، فَإِذَا عَلَتْ فِي الْهَوَاءِ وَهِيَ مِنْ ذَلِكَ الْمُرتَبَطِ فِي مُهْلَةٍ، جَذَبَهَا إِلَيْهِ حِينَ تَرْتَفِعُ إِذَا لَمْ يَبْقَ مَهْلٌ مِنَ الرِّبْطِ⁽¹⁾..."⁽²⁾.

نتيجة القول ترد بعد الحجج ومقتضى القياس بعد تحليل الحجج على السلم وهي كالآتي:

(ن = صورة كلية لاستحضار الجمل الدعائية على الفاخنة التي أوقعت بين الشاحج وأبي أيوب).

(ق5)	(فإذا علت في الهواء وهي من ذلك المرتبط في مهلة... مع جوابها).
(ق4)	(ويرسلها في كفيه لتطير).
(ق3)	(ويأخذ طرفه بيمينه).
(ق2)	(فيشد خيطاً في الساق).
(ق1)	(ثم يعمد إليها طفل عارم).

بعد توجيه النص باستخدام (بل) التعارضية، يأتي بتوجيه مركب من أداة العطف (ثم) مع الفعل المضارع (يعمد) إلى ترتيب النسق النصي وفق المنطق والواقع، فبعد (ثم) وهي أداة الوصل التي للترتيب، من خلالها يظهر النص مرتباً متناسقاً الصورة والبنية، وبعدها يتألف النص من أخوات (ثم) من الباب نفسه فيتبع جملتها بـ (الفاء + يشد) الفاء مع المضارع؛ وكذلك يحدد المسار ويقويه باستخدام (الواو + يأخذ) و(واو + يرسلها)، كلها تعمل على تقوية الحكم فيما بينها.

(1) الرِّبْطُ: ما ارتُبط من الدواب.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص218.

واللافت للنظر داخل تركيب الفقرة السابقة أن المعطوفات لمّا اتصلت بالأفعال كانت كلها متجهةً للمستقبل، مرتبةً متناسقةً مدّت النص بقوة حجاجية موجهة لمرادها، فحديثه كان يختص بما يستقبل من الزمان وليس عن الذي مضى.

ثالثاً: روابط التعليل الحجاجي (المدرجة للحجج)

أضف لروابط الحجاج (ألفاظ التعليل) التي يستخدمها المرسل كي يعمل على تركيب خطابه وترتيبه وبناء حججه فيه⁽¹⁾، وقد بنى المعري نصوص رسالته على كثير من التعميمات؛ ثم ما يلبث أن يبرر لأقواله ويلتمس لها سبباً وتعليلًا، مستخدماً ألفاظ ذلك الباب، أمثال: (لأن، بسبب، بحجة)، وهي الألفاظ التي تعمل على تزويد القول بقوة حجاجية تبريرية، تؤدي بالذهن وصاحبه للإدعان والتقرير.

أولاً: الرابط (لأن)

يعدّ من الروابط التفسيرية التعليلية التي يستخدمها الأشخاص لتبرير أفعالهم وأقوالهم وما يصدر منهم، ويتكون الرابط (لأن) من حرفين: لام التعليل، وأداة التوكيد (أن)، ولعلها أهم أدوات التعليل وأكثرها شيوعاً ولا غنى للمتكلم عن هذه الأداة التي يعمد فيها المتكلم لتأكيد كلامه.

يقول المعري: "والإبلُ أكثرُ افتِنَانًا في الأصواتِ، لأنّ من أصواتِها: الحنينَ والأطِيطُ"⁽²⁾ والسَّجَّعَ والتَّحَوُّبَ والعَجِيجَ والجَرَجَرَةَ⁽³⁾، والهدرَ وأصنافه؛ وهي: الفحيخُ والكتيتُ والكشيشُ والقصفُ والقرقرةُ والزَّغْدُ والشَّحْشَحَةُ والقَلْخُ⁽⁴⁾. ومن أصواتِها الرغاءُ والبُعَامُ. وكلُّ ذلك، على اختلافه، لا تتألفُ منه الأوزانُ. وكذلك أكثرُ أصواتِ الحيوانِ، لا تَعْتَدُلُ ولا يمكنُ دخولُها في المنظوم، لأنّها تُقَطَّعُ الأجراسَ أو تَمُدُّ، فيكونُ كالذي جمعَ بين ساكنين أو أكثر⁽⁵⁾.

(1) يُنظر: إستراتيجيات الخطاب، الشهري، ص478.

(2) وأطِيطُ الإبلُ: صوئها. وأطَّتْ الإبلُ تَطِيطُ أَطِيطًا: أَنْتَ تَعَبًا أو حَنِينًا أو رَزْمَةً.

(3) والجَرَجَرَةُ تَرْدُدُ هديرِ الفحل، وهو صوت يردده البعير في حَنَجَرَتِهِ،

(4) القَلْخُ والقَلِيخُ: شِدَّةُ الهديرِ.

(5) رسالة الصاهل والشاحج، ص163.

(ق4)	↑	(وكل ذلك، على اختلافه، لا تتألف منه الأوزان).
(ق3)	—	(ومن أصواتها الرغاء والبغام).
(ق2)	—	(والهدر وأصنافه وهي: الفحيح... والزرغد والشحشحة والقلخ).
(الرابط)	—	(لأنّ) = (من أصواتها: الحنين... والتحوب والعجيج والجرجرة).
(ق1)	—	(والإبل أكثر افتتاحاً في الأصوات).

(سلم حجاجي مكون من أربعة أقوال).

تشكل (ق4) القول الأقوى بعد الرابط (لأن)؛ لارتباطها فعلاً بحقيقة الواقع كون هذه الأصوات جميعها على سكناتها المتتابعات وحركاتها المتواليات لا تشكل أوزاناً ولا تؤلف نظاماً ولا نقول به نثرًا؛ فهي كل ما تستطيعه هو التعبير بتلك الأصوات بدون نباهة منها لمُرادها.

وقد استطاع العامل الحجاجي توجيه السلم لأعلى قمم القول الحجاجية (أعلى السلم)، التي كان لها الأثر في المطابقة والتصديق، فالعوامل تعمل إذن ليس لصالح التغيير الذي يتشكل للكلمة بعد وقوعها عقب تلك العوامل أعني الوظيفة النحوية؛ بل لها مؤشر حجاجي يبلغ بالكلام غاية القول وقوته، وللناظر في سياقات القول التركيبية والدلالية هذا الأثر وما يصحبه من تغيير بإضافة الأدوات والعوامل الحجاجية؛ وتحفل ألفاظ المعرّي بكثرة هذه الروابط للمتضمن نصوصه، فسببٌ واحدٌ غير كافٍ كي يستدل على صحة مذهب، فهو الحذف بأفانين القول وجماليات التراكيب وبنائها، والأقوال في كل مرة تتشابه على صعيد اللفظ لتسعف ذاتها في القوة الحضورية الحجاجية، والمقام يساندها في إكسابها قوة أخرى في توطيد الحجج وتراتبها.

وفي القول سلم حجاجي آخر ورابطه القول الحجاجي هو (لأن) التعليلية:

(فيكون كالذي جمع بين ساكنين أو أكثر).	↑
(لأنّها = تقطع الأجراس أو تمد).	—
(وكذلك أكثر أصوات الحيوان، لا تعتدل ولا يمكن دخولها في المنظوم).	—

فقطع الأجراس هي تلك الأوزان على غيِّها التي لا تنتظم عامَّةً على ألسنة الشواحج غير الكاملة، أو تُمدَّ إن مُدَّت فتخرج عن طور التفعيلات الخيلية؛ فلا يمكن لها على تعدد هذه الفنون الصوتية أن ترسم لوحةً شعريةً بتفعيلةٍ أو تولِّفَ قصيدةً مجزوءةً مهما كلفها ذلك، مستخدمًا توجيه الرابط (لأن) نحو النتيجة.

وبهذا تحتكم الحجج وتقف في مظانها حتى يُدلى بهذا الرابط الذي يحمل دلالات توجيهية سببية بعده؛ ليحلَّ ما أشكل وما افتقر إليه ما قبله من (ق1).

فهي في نهاية المطاف (كل تلك الحيوانات على تلون أصواتها وتعددتها) ربما تولِّف عقداً بسكنات باهتات، وهذا من المحال في العربية.

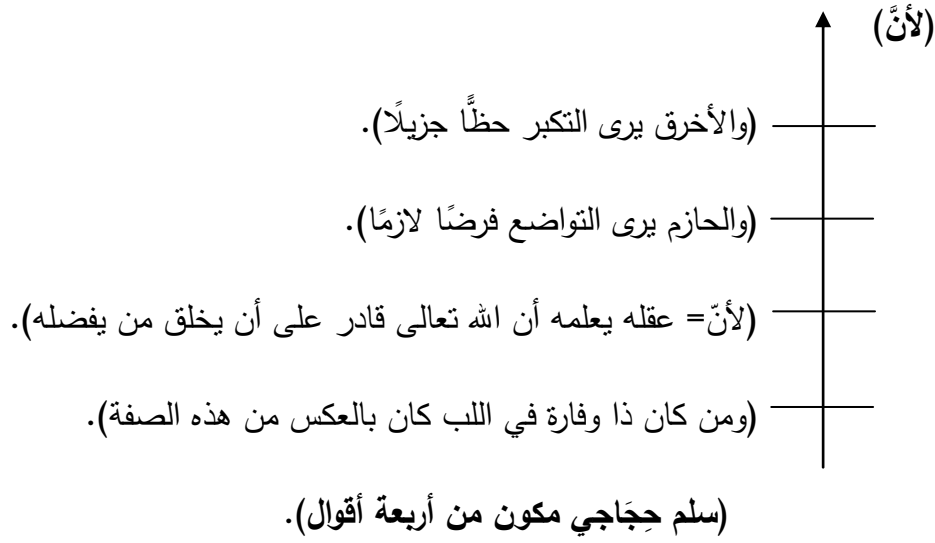
وفي هذا القول رؤية حجاجية ساخرة من المعري على لسان الصَّاهِل، يسخر من دعوة الشَّاحج إمكانيته نظم القصائد، وهو بهذه العبارات كأنما يوجه رسالة مبطنةً مبهمَةً رموزها، ويومئ لشعراء تلك الحقبة الذين كانوا يترددون على بلاط عزيز الدولة، فهو إذ يطرح هذه القضية يجعلها محطَّ نظر ساخر.

فالمعري على قدره في لزومياته ورسائله ودواوينه لا يمكن له أن يقبل أبيات منسوجة للتكسب مفتقرة لعناصر التبيين وأعمدة البيان، فيجعل الشَّاحج مهياً لقول التفعيلات (وهذا محال وتخيل). ليسدَّ مسد هؤلاء الشعراء الذين يقتاتون من شعرهم بكلمات غوغائية لا عاطفة ولا صدق في تركيبها كما يرى بذلك المعري⁽¹⁾.

ويقول كذلك: "وَمَنْ كَانَ ذَا وَقَارَةٍ فِي اللَّبِّ كَانَ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ؛ لِأَنَّ عَقْلَهُ يُعْلِمُهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِنْ يَفْضَلِهِ. وَالْحَازِمُ يَرَى التَّوَاضِعَ فَرْضًا لَازِمًا، وَالْأَخْرَقُ يَرَى التَّكْبَرَ حَظًّا جَزِيلًا"⁽²⁾.

(1) ويظهر هذا في قوله: "وبعض من لا يعرفه من العامة يظنُّ أنه من أهل العلم. كذبت الظنون، لو كان كذلك لَوَلَّب من حضرة (السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء) - أعز الله نصره - لأنه كما قيل في المثل: لا مخبأ لعطر بعد عروس. ولكنه، المسكين لا يَبْهَجُ لِتَأْثُرِ كَذْبِ عَلَيْهِ" ينظر: رسالة الصاهل والشاحج، ص241.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص168.



بدأ العبارة بشرط حجاجي، والحُجَّة في وفارة اللب عُلِّت بالرباط (لأنَّ)، ثم ترابعية سلمية من أقوال عدة، كلها تقوم على موضع حجاجي مذهبه المضمَر في العبارة الآتية: (أن المتواضع يرفعه الله بتواضعه وخفض جناحه لمن غيره من المؤمنين تأسيساً بنبي الأمة ﷺ)، فهو المبدأ المبني عليه تلك الأقوال.

وإن صاحبت القول وجدت المغزى من تلك الألفاظ البيّنات، ثم التوجيه ضمن السلم قد قوّاه الرباط التعليلي (لأنَّ)؛ ولهذا القول ما بعده من أنفة الصّاهل واعتداده بذاته، وقدرته وسخريته من الشّاحج وتصغيره وعدم الاهتداء لمساعدته، وكانت النتيجة مساندة داعمة - بقوة الرباط المذكور - للحُجَّة والتي كانت مقدمة القول وبدايته.

وفي هذا يتضح مذهب (لأنَّ) في تقوية النتائج والأسباب، وكيف للكّتاب أن يستخدموها داعماً حجاجياً للحجج التي قبلها، وقد استخدمها المعرّي بكثرة ضمن القسم الرابع⁽¹⁾ من رسالته؛ معللاً لأفانيه القولية والطيرة والفأل التي كان يضرب المثل فيها على أسماء المدن التي هاجر منها أصحابها.

(1) على كثرة ورود الرباط؛ إلا أنه ضمن القسم الرابع والذي يبدأ من الصفحة (506) كان يتردد بكثرة على قلم المعري، وذلك لحاجته لتفسير الأقوال التي كان يدلي بها شخصه، حيث أن كل واحد منهما كان يفصح عن تمكن من العربية ومعرفة بأسرارها، فكان الواحد منهم يطرح القول المكون من أكثر من قول موري ثم يرجع عليه الكرة فيفسر الألفاظ كلمة كلمة، ليبين للطرف الآخر علوه وضلّاعته في العربية.

ثَانِيًا: لَامُ التَّعْلِيلِ

تسمى عند أهل النحو بلام (كَيِّ)، وسميت لام (كَي)؛ لأنها تفيد ما تفيد (كَي) ⁽¹⁾، وهي مكسورة في ذاتها، ناصبة لما دخلت فيه وفي أوله (ياء) أو (تاء) أو (نون) ⁽²⁾، أمّا الزجاجة فقد أوجز الحديث بأنها تتصل بالأفعال المستقبلية؛ والفعل بعدها ينتصب عند البصريين بإضمار (أن)، وعند الكوفيين اللام بنفسها ناصبة، وفي كلا المذهبين متضمنة لمعنى (كَي) ⁽³⁾.

إذن تعدُّ (لام التعليل) المختصة بالمضارع من أدوات الربط، والتي يأتي ما بعدها سببًا وعلّةً وتبريرًا لما قبلها، فالتوجيه ضمن الرابط (اللام) من مقويات الحجج ونتائجها.

يقول المَعْرِي: "جَادَ نَاسِكٌ بِالْبُرَةِ" ⁽⁴⁾ لِيُسَمَحَ لَهُ بِمِلْءِ الْجَرَّةِ. وَتَتَّبَعَ الرَّاعِي بِالصُّبَّةِ أَنْ يَقَ الْكَلَا فَاْمَعَنَ طَلَبًا، لِثُرْوِيهِ بَعْدُ حَلَبًا. وَأَضَافَ الرَّجُلَ مُضِيفٌ لِأَمْرَيْنِ: إِمَّا لِثَنَاءٍ يَكْتَسِبُهُ، وَإِمَّا دَفْعًا لِمَذْمَةٍ تَجِدُّهُ" ⁽⁵⁾.

ضمن هذه الفقرة ذكر (لام التعليل) مدرجة للنتيجة بعدها، ومن المهم أن يعي القارئ وظيفة اللام وبُعدها الذي لا يقف عند النحو والتركيب فحسب؛ بل يتعداه للدلالة الحجاجية وما تحدثه من تداول بين السياق والقارئ، موجهة المحمول في طيات العبارات وترسيخ القوة الحجاجية في القول.

الحُجَّة (المقدمة): جاد ناسك بالبرّة.

الرابط الحجاجي: (اللام).

النتيجة: السماح بملء الجرة.

(1) يُنظر: الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص115.

(2) رسالة في اللامات، أبو جعفر النحاس، تحقيق: طه حسين، ص148، والجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص115.

(3) يُنظر: كتاب اللامات، الزجاجة، ص66.

(4) الحنطة.

(5) رسالة الصاهل والشاحج، ص129.

والمعاملة الأخيرة ضمن هذه الفقرة:

الحُجَّة (المقدمة): تتبع الراعي بالصُّبَّة.

الرابط الحجاجي: (اللام).

النتيجة: ترويه بعدُ حلبًا.

فموضع الرابط بعد الحجج متصل مباشرة بالنتيجة بعده من أجل التعليل والتبرير؛ فهو يطرح هذه القضية أن بني البشر يخلصون لاحتياجاتهم ليس فيما بينهم فقط؛ بل مع الأجناس والكائنات الأخرى لفائدة تلو فائدة، والمصلحة مقابل المعونة ومد يد العون.

والمعري بهذه يطالع مسألة معيبة على أهل زمانه، فهو قبل إدلائه على لسان شخوص الرسالة بتحميل المقصود للصاهل الذي بدوره سيتجه لباب الأمير مقدمًا القصيدة التي هي محل النزاع والخصومة، فهو بذلك يشبه الشعراء الذين يحجون وفودًا لعتبات العزيز للتكسب كما هو مشهور عن أهل الشعر في تلك الفترة.

فالرابط بذلك يسوق النتيجة بعده، ولا نعدم وجود التلميح في نصوص المعري الفائضة بالمعاني والتي تجر الكثير من الدلالات المتساوقة في بُنى النص وأطواره، فهذه إنما أحد صور الواقع التي تشربتها أفكار المعري وعكس بريقها على صفحات رسالته هذه، وهي على لسان الصاهل والشاحج أشد عيبًا وتكيليًا بطائفة الشعراء تلك.

وقال المعري: "أَفْتَرَاهُمْ مَرُّوا فِي سَبِيلِهِمْ بِ (قَاصِرِينَ، وَالْأَنْدَرِينَ)؟ أَتَدْرِي يَا ثَعَال لِمَ جُمِعَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ وَإِنْ كَانَتْ لَا تَعْقِلُ؟ إِنَّمَا فُعِلَ بِهَا ذَلِكَ لِيُخْبَرَ أَنَّهَا ذَاتُ دِهَاءٍ وَشِدَائِدٍ. أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَقِيَ مِنْهُ الْبَرْحِينَ وَالْأَمْرِينَ وَالْأَقْوَرِينَ؟⁽¹⁾ إِذَا أَرَادُوا تَعْظِيمَ الْأَمْرِ جَمَعُوا مَا لَا يَعْقِلُ جَمَعَ مَنْ يَعْقِلُ لِيُعْلِمُوا أَنَّ أَمْرَهُ مُنْكَرٌ"⁽²⁾.

- حُجَّة: إنما فعل بها ذلك.

- رابط: (لام التعليل).

(1) الأمرين بكسر الراء، وكذا البرحين والأقورين. قال أبو منصور: جاءت هذه الأحرف على لفظ الجماعة بالنون، عن العرب، أي الدواهي، وفتحها، على التنثية.

تاج العروس، للزبيدي، ج13/106.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص617-618.

- نتيجة: يخبر أنها ذات دهاء وشدائد.

وفي ذات الفقرة حُجّة موجهة بالرابط اللام.

- حُجّة: إذا أرادوا تعظيم الأمر جمعوا ما لا يعقل جمع من يعقل.

- الرابط: (لام التعليل).

- النتيجة: يعلموا أن أمره منكر.

والرابطان إنما جاءا لتبرير وتعليل النتيجة المتصلة بهما في كل جملة مركبة منهما، ففي الأول يُخبر المَعْرِي على لسان الشّاحج محاورًا ثعالة أن العرب تجمع (البرحين والأمريين..)، بالياء والنون لما يجيء بعدها من مكاييد وشدائد تلحق الضرر بمن وقعت عليه.

ورأينا التوكيد إذ تصدر الجملة وهو من العوامل التي تساهم كذلك في تدعيم موجة الحجاج وتوجيهها نحو مسارها الحجاجي، ثم يمضي نحو الحُجّة فالرابط والنتيجة التي التصقت بجدار الرابط، فقامت به تدعيمًا للحُجّة المؤكدة قبلها، وتسايرًا مع المعنى الضمني الذي تكون من الثلاثية الحجاجية.

وبعدها ضمن المثال الأخير يبدأ بصدارة الجملة الشرطية مفتتحًا تركيبها من (إذا) التي للشرط، ثم تلاه الجواب، ثم تعليل ذلك الجواب برابط حجاجي مكون من (اللام) والتي بعدها النتيجة مباشرة دون فاصل، فهذا الرابط له الوظيفة الحجاجية والتداولية والدلالية؛ وليس التركيبية فحسب كما أشرنا أعلاه، وعلى قوله احتج بأبيات من الشعر ضمن هذه المسألة.

وهذه بلاغة بيان المعري الذي ينبئ عن قريحة فذة وحجم معرفته اللغوية وحجّاه الذي يقطع الشك باليقين، وهذه كلها توجيهات بالحجاج للتصديق والإذعان ترتبت على الرابط (اللام) وما له من وظيفة حجاجية توجيهية، حيث أدّت بالنص ودفعته نحو اليقين والمنطق.

رابعاً: أدوات الربط الإضافي الحجاجية

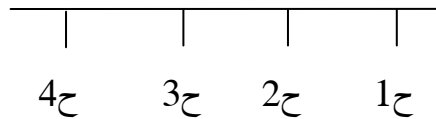
وبها يتم ربط اللاحق مع السابق بشكل منظم للبحث عن الانسجام الكلي للنص والعنصر اللساني المرجو فهمه وتكاملته.

أولاً: العطف بـ (الواو)

تستخدم الواو لعطف الأشياء على مصاحباتها، وانتهى مجموع ما ذكر من أقسامها إلى خمسة عشر؛ وأولها عند ابن هشام (العاطفة)، ومعناها عند جمهور النحاة مطلق الجمع⁽¹⁾، فتعطف متأخراً في الحكم كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾⁽²⁾، ومتقدماً نحو قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾⁽³⁾، ومصاحباً: ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾⁽⁴⁾.

تستخدم الواو كأداة ترتيبية لتوالي الحجج ووصلها بعضها ببعض، فهي ضمن ما يسمى بالوصل الإضافي؛ فكل حُجَّة تأتي معطوفة بـ (الواو) تقوي الحُجَّة وتدعمها وتوجهها نحو الإقناع، وتعمل على الربط النسقي أفقياً على عكس السلم الحجاجي وتتجاوزته إلى الترتيب العمودي⁽⁵⁾.

ويكون بالشكل الأفقي الآتي:



تعمل الواو على الربط الأفقي النسقي ما يوحى به:

1- الجمع بين الحجج ورصفها وربط المعاني.

-
- (1) الجنى الداني في حروف المعاني، ج1/ 158، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، ج1/ 391. وموسوعة معاني الحروف العربية، علي جاسم سلمان، ص233.
- (2) [الحديد: 26].
- (3) [الشورى: 3].
- (4) [العنكبوت: 15].
- (5) إستراتيجيات الخطاب، ص472.

2- زيادة التماسك النصي.

3- ضبط مكونات الخطاب ضمن منهجية مقدمات ونتائج في القول الحجاجي الواحد.

وهذا ما يتضح من خلال العلاقة الناجمة (علاقة التتابع).

يقول المَعَرِّي: "الْقَدْرُ نَوَّعَان: جَدَّ وَحَدَّ؛ فَالْجَدُّ يَرَعَى النَّعَمَ وَرَبُّهُ نَائِمٌ، وَيَحْفَظُ بَيْتَ الْمُكْثَرِ وَقَعِيدَتُهُ غَائِبَةٌ، وَيَحُوطُ اللَّاعِبَ وَإِنْ لَمَسَ بِيَدِهِ الْأَرَاقِمَ⁽¹⁾، وَيُطْعِمُ الْهَجْرَسَ⁽²⁾ فَرِيَسَ الضَّيِّعِمِ، وَالْغَرَابَ الْأَبْقَعَ قَنِيصَ الْبَارِ الْأَشْهَبِ، وَيُقِيمُ الْحُرَّةَ عَلَى رَأْسِ الْأُمَةِ، وَيَجْعَلُ حِجْلَ الْخَذَلَةِ فِي سَاقِ الْكُرَوَاءِ، وَسَوَارَ الْغَيْلِ النَّاعِمِ فِي ذِرَاعِ الْمَدْشَاءِ⁽³⁾، وَيَكْسُو الْوَادِعَ وَإِنْ غَفَلَ عَنْ طِلَابِ الشَّرَفِ"⁽⁴⁾.

يكمن دور الرابط ضمن هذا المثال في نسج عملية خطابية داخل حدود النص، حيث تعمل على التآلف والتماسك في البنى النصية الظاهرة والمضمرة، فتؤدي كلها بالمكتوب وتوجهه بقوة الرابط وصنعتة الدلالية الحجاجية نحو الإقناع، إضافة لتقوية الحجج المذكورة، وذلك من خلال عمل الحجج على زيادة نصيب الحجة السابقة في الدعم والمساندة، وإقامتها بقوة داخل الإطار النصي، وهذا من شأنه أن يساند نفي سقوطها فالرابط كالداعم المثبت لتلك الحجة، وأضف لهذه الوظيفة العملية الترتيبية التي يسعف النص بها من خلال استثمار دلالاته الحجاجية التوجيهية.

فالمَعَرِّي ضمن هذا المثال يَدشّن أقوالاً على لسان الشَّاحِج بتوظيف حكمته البديعة، وبراعة القول، وتمكنه من الإعداد المؤطر من التَّصوُّص المتآزرة ضمن نفي الفكرة المطروحة، بحيث لا يغيب عليه أدنى ذرة من حيثيات الظاهرة المتحدِّث عنها، فيقسِّم بالعطف، ويفصل القول مرتباً بقافية معنوية سامقة المغزى قوية البنيان.

(1) وَالْأَرْقَمُ: أُخْبِتُ الْحَيَّاتِ، وَأَطْلُبُهَا لِلنَّاسِ، أَوْ مَا فِيهِ سَوَادٌ وَبَيَاضٌ، أَوْ ذَكَرُ الْحَيَّاتِ، وَالْأُنْثَى: رَقْشَاءُ.

(2) الْهَجْرَسُ، بِالْكَسْرِ: وَلَدُ الثَّعْلَبِ، وَعَمَّ بَعْضُهُمْ بِهِ نَوْعُ الثَّعَالِبِ: وَاسْتَعَارَهُ الْحَطِيبَةُ لِلْفَرْزَدَقِ فَقَالَ:

أَبْلَغَ بَنِي عَيْسٍ، فَإِنَّ نَجَارَهُمْ لَوْمْ، وَإِنَّ أَبَاهُمْ كَالْهَجْرَسِ

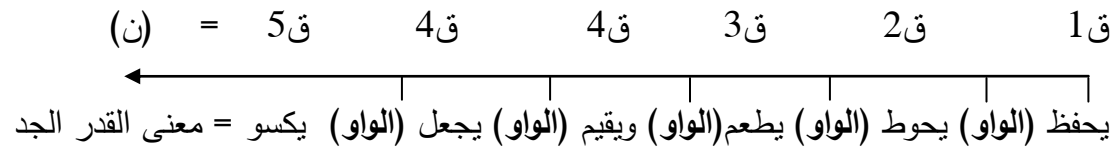
يُنْظَرُ: لِسَانُ الْعَرَبِ مَادَّةُ (هَجْرَس).

(3) وَفِي لَحْمِهِ مَدْشَةٌ أَيْ قَلَّةٌ. يَقَالُ: يَدُّ مَدْشَاءٌ وَنَاقَةٌ مَدْشَاءٌ. يُنْظَرُ: لِسَانُ الْعَرَبِ مَادَّةُ (مَدَش).

(4) رِسَالَةُ الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ، ص 107.

(ويحفظ بيت المكثّر وقعيدته غائبة)، (يحوط اللاعب وإن لمس بيده الأرقام)، (يطعم الهجرس فريس الضيغم)، (الغراب لأبّقع قنيص الباز الأشهب)، (يقيم الحرة على رأس الأمة)، (يجعل حجل لخدلة في ساق الكرواء)، (سوار الغيل الناعم في ذراع المدشاء)، (يكسو الوادع وإن غفل عن طلاب الشرف).

فهذه الحجج المدرجة المرتبطة فيما بينها بالوصل الإضافي ماجاءت إلا لتصبّ في جدول النتيجة التي تدل على الأعمال الشاقة المكلف بها الشّاحج في مسكنه فهي ضمن الجدّ، وأما الحد⁽¹⁾ فجعل له تفصيلاً آخر يتكون من (الواو) العاطفة كذلك؛ ليبين التماسك في الفكرة ومؤداها الحجاجي كما في الترسيم الآتي:



فالواو = رابط حجاجي قام بوصل الحجج وترتيبها في علاقة تنابعية لتقوية النتيجة الضمنية والتي هي (بيان معنى القدر الجد)، فالرابط الحجاجي هنا قام بوظيفة (التوجيه والتقرير)، حيث نسجت بفعل التتابع أثراً للقول الذي تسلمه المتلقي تدريجياً ما قاد إلى التسليم والإقناع.

وقال في موضع آخر: "أفتراني أجعلُ حَكَمًا عَلَى نَفْسِي مَن قَدْ شُهِرَ بِهِذِهِ الشَّيْمَةِ؟ وَمَنْ اسْتَرَعَى الذَّنْبَ ظَلَمَ⁽²⁾، وَمَنْ صَدَّقَ كُلَّ بَارِقٍ أَخْلَفَ، وَلَكِنْ اطْلُبْ حَكَمًا سِوَى هَذِهِ فَقَدْ اسْتُهِرَ عَنْهَا مَا تَعْلَمُ. وَلَا تَدْعِنِي إِلَى الْغَرَابِ فَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَمَّاهُ فَاسِيقًا، وَلَسْتُ بِمُحَكَّمِ أَهْلِ الْفِسْقِ؛ وَلَا إِلَى الزُّرْيَابِ، فَإِنَّ بِهِ صَرَخًا وَإِنْ كَانَ عَالِمًا بِاللَّغَاتِ مُنْصَرِفًا فِي أَجْناسٍ

(1) وهو المنع وقد ذكر تفصيله في رسالة الصاهل والشاحج، ص108.

(2) أي: ظَلَمَ الغنم، ويجوز أن يراد ظلم الذنب حيث كُفِّه ما ليس فيطبعه؛ ويضرب لمن يولي غير الأمين، وقالوا: إن

أول من قال ذلك أكنم بن صَيْفِي. يُنظر: مجمع الأمثال، الميداني، ج2/302.

الْقَوْلِ. وَلَوْ عَدَلْتَ عَنْ ذَوَاتِ الْجَنَاحِ إِلَى ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ لَكُنْتَ أَقْرَبَ إِلَى النَّصْفَةِ. وَهَذِهِ الْإِبْلُ قَدْ جَاءَتْ لِلزَّوْدِ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَسْتَظْهَرَ لِعِلْمِكَ فَاجْعَلِ الْحَكَمَ بَعْضَهَا تَوْفِّقٌ فِي ذَلِكَ⁽¹⁾.

فالفقرة تصدرها استفهام توبيخي: (أفتراني أجعل حكما ...؟)، وهذا بدوره موجه عميق الدلالة في انزياح النص وعدوله عن المراد الحقيقي له، ثم يُجاب عليه باستخدام (الواو) وجملة شرطية.

وأدار برحى الحجاج جملة أخرى تدعم سير الحجة لتسير مساره المقصود: (ومن استرعى الذئب ظلم، ومن صدق كل بارق أخلف)، فهما جملتان شرطيتان تقومان ببعضهما وتقوى الحجة بهما معاً.

ثم (الواو)، والرابط تعارضي (لكن)، و(لا) الناهية، وفعل (تدعني) تبدأ بـ(الواو)، وجلّها موجّهات تدعّم النص وتقوي مساره.

(ولكن اطلب حكماً سوى هذه⁽²⁾؛ فقد اشتهر عنها ما تعلم؛ ولا تدعني إلى الغراب...).

وكذلك ويقومها جملة معطوفة أخرى، ثم (ولست...) نافية قبلها أداة الوصل الإضافي (الواو)، وهي تعمل عمل التوبيخ والترتيب في الجمل، وتؤدي إلى الاتساق والتناسق والتماسك والخروج بقلب لغوي يرقى ليكون نصاً علائقياً كثير الحجاج واللجاج مرتب الألفاظ عميق البنية، مع دقة التركيب والدلالة والتوجيه الحجاجي الذي اكتسبه من الرابطة (الواو)، وهذه الجمل على كثرتها وما لها من علائق داخلية تؤدي بالنص للمضي نحو الهدف والوظيفة المرسومة له، لو قمنا بتحكيماها على السلم الحجاجي متضافرة كلها تصب في نتيجة واحدة.

وهي ممثلة على السلم الآتي:

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص198.

(2) يقصد (الفاخنة).

(ن = تحكيم ذوات الأربع والعدول عن ذوات الجناح والإطراح بشاهدتها وعدم الإخذ بمشورتها).

- | | | |
|------|-------|---|
| (ق9) | _____ | (وهذه الإبل قد جاءت للورد فإن...توفق في ذلك). |
| (ق8) | _____ | (ولو عدلت عن ذوات الجناح إلى ذوات الأربع...النّصف). |
| (ق7) | _____ | (وإن كان عالمًا باللغات منصرفًا في أجناس القول). |
| (ق6) | _____ | (ولا إلى الزرياب فإن به صرعا). |
| (ق5) | _____ | (ولست بمحكم أهل الفسق). |
| (ق4) | _____ | (ولا تدعني إلى الغراب). |
| (ق3) | _____ | (ولكن اطلب حكمًا سوى هذه فقد اشتهر عنها ما تعلم). |
| (ق2) | _____ | (ومن صدّق كل بارق أخلف). |
| (ق1) | _____ | (ومن استرعى الذئب ظلم). |

(سلم حجاجي مكون تسعة أقوال متتالية رابطها هو الواو).

وهذا يلخص القول باستخدام السلم الذي من آلياته الرابط (الواو)، حيث كل هذه الأقوال تدعم نتيجةً وحدةً تعمل على تقويتها وإبرازها، وهي الواردة بعد (ق9) وتماسك القول قد استمدّ بناءه من (الواو) الرابطة للحجج، ورأينا تعدد الأقوال ووقوع الواو بينها لا يؤثر في بيان النص ودلالته المعنوية، بل يعمل على إعادة الترتيب للألفاظ ومحيئها مرتبة متساوقة من أجل أن تصب كلها في نتيجة قولية واحدة.

المبحث الثاني: العوامل الحجاجية

تعدّ العوامل جزءًا لا يتجزأ من العملية الحجاجية، حيث يتم من خلالها توجيه المُتلقّي نحو غايات الخطاب وتحقيق الأهداف المرجوة من خلاله، وذلك لما تحويه هذه العوامل من عناصر توجيه مركزية لها الأثر في القصد وترك التأثير الحجاجي الذي يسعى صانع النصوص لبنائه وتكوينه، محاولًا من خلال ذلك إشراك المُتلقّي ضمن هذه العملية عن طريق الأدوات والإشارات والتي تُعمل فكر المُتلقّي وتشغله.

يقرّ (موشلار - Moeschler) و(ريبول - Reboul) أن العوامل الحجاجية تعدّ من الآثار الظاهرة التي تؤكد حجاجية الملفوظ⁽¹⁾، ويشترك (ديكرو)⁽²⁾ معهما أن العوامل تعمق التوجيه وتقويه ضمن المقصد المحقق والمراد تبليغه ضمن النصوص.

أما عن (رودولف قيلقون - R. Ghiglione) يرى أنه علاقة ورقة وبطاقة؛ حيث تساعد على تحقيق إحدى وظائف اللّغة وإتمام اللعبة الحجاجية⁽³⁾.

وبهذا تعدّ العوامل ذات دور فعال لإتمام العملية الحجاجية، من أجل توجيهها وتحقيق الوظائف المرجوة من اللّغة، والقصد من اللعبة الحجاجية هي العملية التي يشترك في تفعيل الأدوار فيها كل من أطراف الحجاج، وأهمها النص الحجاجي الذي هو مركز اللعبة وبؤرة الانطلاق فيها، ومن خلال أركانه وقواعده تتفاعل العناصر للوصول لنتيجة قولية قاطعة.

وعرفه في موضع آخر لدى كتابه (في مصنف الحجاج والبلاغة): "يمكن اعتبار كل خطاب ذا مدى تأثيري تضمنه أدوات لُغوية، تساعد المتقبل على اكتشاف ما يعتبره الباب واقعيًا صحيحًا"⁽⁴⁾.

وترى الباحثة من خلال قول (رودولف) أنه ينسج علاقة واضحة بين الخطاب المؤثر والفعال بالأدوات بحسب ما تمليه ظواهر اللّغة وقواعدها، والأدوات المقصود بها؛ العوامل

(1) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عزالدين الناجح، ص34.

(2) ينظر: المرجع السابق، ص34.

(3) يُنظر: المرجع نفسه، ص16.

(4) المرجع نفسه، ص16.

اللُّغَوِيَّةُ التي يُؤْتَى بها من أجل تركيبٍ سليمٍ للجمل قوي الدلالة والتوجيه لمقصدِيَّتِها، حيث بقدر فعالية تلك العوامل وأهمية وجودها في النص بقدر ما يتحقق الإقناع والتأثير.

والواقع الصحيح هو العملية المقصدِيَّةُ سليمةُ الأركان والتي تصل للأفهام بشكل جليٍّ واضح نتيجة الأدوات وسُبُلها التأثيرية والإقناعية في متلقِّي النص.

وعملية التأثير هذه لا يمكن أن تتحقق دون توظيف هذه الأدوات التوجيهية في النصوص بعامة.

والتعريف الثالث: عدَّ فيه العامل محرِّكاً رئيساً تقوم عليه عملية التخاطب⁽¹⁾، فهو بمثابة القائد للعملية التخاطبية التواصلية، وللعلماء في ذلك آراء؛ فلا تقف وظيفة هذه العوامل ضمن النحو ودائرته بل تسلك مسارات الدلالات والتواصل.

وهو يلح بهذا القول على أهمية العامل في العملية الإبلاغية التوجيهية والإقناعية.

وتعدُّ العوامل من الأدوات اللُّغَوِيَّةُ الحِجَاجِيَّةُ، وهي التي تقوم بحصر وتقييد الإمكانيات الحِجَاجِيَّةُ التي تكون لقول ما⁽²⁾، وتشمل أدوات الحصر والنفي، وبعض المكونات اللُّغَوِيَّةُ، مثل: (تقريباً، وقليلًا، وكثيرًا)، وما أشبهها من المكونات التي تؤدي لتوسيع دائرة الاحتمال أو تضيقها.

وظيفة اختيار المُتَكَلِّمِ الملفوظ، ودخول العوامل الحِجَاجِيَّةُ عليه أنفع في إقامة الحُجَّة من الملفوظ العادي بدون من تلك العوامل.

إذن الواضح من الحديث أن وظيفة العامل لا تداني وظيفة الرابط في عملية الوصل وإعمال التأثير وتفعيل بنى النص وتوجيهها لمراد المخاطب.

وترى الباحثة أن العوامل هي عناصرُ اللُّغَةِ التي لا يمكن الاستغناء عنها ضمن مؤشرات الكلام، فهي التي تساهم في تقييد الجمل وبعث الدلالة على الوجه النسبي الذي يسعى

(1) يُنظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، ص 17.

(2) اللغة و الحجاج، العزاوي، ص 27.

موجّه النصّ للوصول إلى مقصديّته، وبقدر ما يصيب المتكلّم في اختيار مباني تلك الأدوات بقدر ما يحقق دلالة النصوص على الوجه المطلوب تأديته، ويحمل على شحن البعد الأدائي والدلالي طاقة تداولية طويلة المدى.

أولاً- أسلوب القصر

إن الحديث عن أسلوب القصر يشبه تمامًا جلّ المصطلحات البلاغيّة السابقة؛ كونه لا توجد دائرة محددة قد نرسمها على الزمن بالتحديد، فالعلوم تنشأ وتتطور من بذرة ثم تنمو وتتقلب لتظهر لنا كشجرة طيبة أصلها ثابت في كتب ومؤلفات السابقين، ويبدأ فرعها بالنمو والوضوح عند من جاء بعدهم ممن قعد وأصل ووضع الحدود وفصل، ويقتصر القول هنا عن مصطلحات الحصر، وهي:

- القصر بالنفي والاستثناء.

- القصر بـ(إنما).

- القصر بالتقديم والتأخير.

أ. القصر بالنفي والاستثناء

أطال العلماء في الحديث عن النفي والاستثناء في مؤلفاتهم ولم يكن الجرجاني (471هـ) أول من أشار إلى هذا المصطلح⁽¹⁾، لكن البذرة قد استوت على سوقها عند هذا العالم الجليل في كتابه دلائل الإعجاز.

يتحدث الجرجاني عن هذا العنوان بقوله: "الخبر بالنفي والإثبات نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون الأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإن قلت وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد؛ لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون زيداً"⁽²⁾.

(1) بدأ الحديث إشارة عند الخليل (ت175هـ)، ثم تلميذه سيويه (ت180هـ)، وبدأ العلم فكرة على فكرة تتكون، حتى وصل طور (المصطلح) كامل الثابت والأركان عند شيخ العربية الجرجاني (ت471هـ) رحمه الله.

(2) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص332.

فاستخدامه لنفي الشك وإسكان نفس السامع الذي ينكر أن الذي من بعيد هو زيد، فيأتي هنا للتأكيد ولدفع التوهم والتردد والإنكار وإقامة طاقة إقناعية باستخدام القصر وأداتيّه.

والملاحظ من السابق أن الجرجاني عقد أثناء حديثه عن القصر ما يقتضيه النظم من ربط بين النحو والمعنى الدلالي للجملة فهو لا ينظر فقط؛ بل يخضع الأمثلة بالدليل لما يتوصل إليه من فكر عظيم ولب ذكاء متنبه لأواصر المعاني الخفية في ذات الجملة؛ لتبين لنا كيف استوى القصر في هذا المضممار على سوقه وأصبح ضمن حدود البلاغة وضمن مصطلحاتها.

ومن جانب آخر رأينا أن الحديث تفوق لدى السابقين فقط في دائرة النحو، وإن كانت بعض الإشارات فهي ليست مقصودة لذاتها، إنما لبيان ما يتوصل إليه العالم في ذلك الوقت، لكن الجرجاني بعقده فصلاً للحديث عن القصر وتلويحه بالبيان وإدراجه كقضية معنوية لها أسسها وقواعدها فهي حقيقة قد اكتملت لديه.

وإن تحدثنا عن العلماء الذين بعده فهم قد أفادوا من بحر علمه وروافد فكره، حتى السكاكي إنما وضع مشكاة النور مقتدياً بالجرجاني وما نظره وطبقه في الدلائل.

والأمثلة في رسالة المعري على هذا كثيرة ممتدة يطالعنا منها المثال الآتي:

يقول المعري: "لَمْ تَتْرَكَ مُنَاصَاةَ السَّلْمَةِ مِنْ حَصَاةٍ لِحِفْظِ الْكَلِمَةِ. وَمَا يَلِجُ قَوْلُكَ الثَّانِي، فِي مَسْمَعِي، إِلَّا وَالْأَوَّلُ قَدْ مُحِيَ مِنْ خَلْدِي. فَاطْلُبْ لِرِسَالَتِكَ غَيْرِي. وَالصَّاهِلُ عَجَزَ عَنْ حَمْلِ الْأَخْفِّ وَهُوَ الْمَنْظُومُ، فَكَيْفَ أَحْمِلُ الْأَثْقَلَ مِنَ النَّثْرِ، وَلَوْ بَيُوتًا مِنَ الشَّعْرِ كَثِيرَةً؟"⁽¹⁾.

فالعامل الجرجاني في السياق المعنوي للجملة، كان له الأثر في تكثيف الدلالة الجرجانية للنص؛ فالقصر بأداة (ما ... إلا) قد عمل على حصر الإمكانيات الجرجانية في قول البعير، وهو يحتج أن النثر أصعب في الحفظ من الشعر وأثقل من المنظوم (وهي حجة بنيت على القياس، سليمة في أركانها والواقع يصدقها)، فما يلبث الشاحج قول جملة ثم ينتقل إلى غيرها إلا ويكون حظ الأولى عند البعير نسيانها ومحوها من ذاكرته.

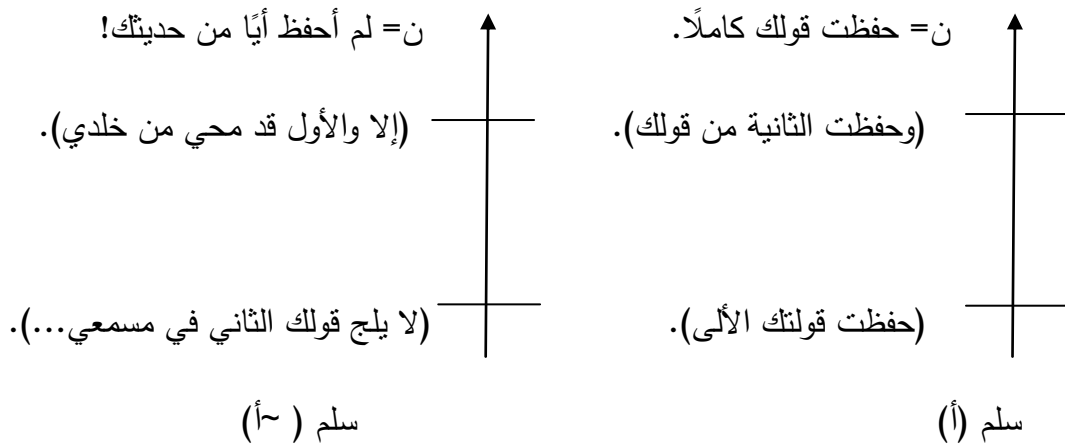
(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 375.

فهو من خلال استعانتة بأداة الحصر في اللفظ، يقيم الحُجَّة باستخدامها؛ لتقوى في ذهن السامع، فتكون الحسرة في صدر الشَّاحِج أشدَّ وأكثر إيلاَمًا، وتدفعه للرد عليه باستخدام المقارعة التي تقام على أسلوب اللجاج والإكثار من الشواهد والتمثيل على أقوال كل منهما، لينتصر لرأيه ومذهبه، وهذه وظيفة الحصر الظاهرة في السياق.

وما يلاحظ في عمل القصر أن ما بعد (إلا) يكون أقوى من القول قبلها؛ ففعل المحو للفظ الأول من الذهن أقوى حُجَّة من حفظه للقول الثاني.

وهنا يمكن تمثيل ما يعرف بالتساند الحِجَاجِيّ على سلم القلب، فالحُجَّة الأخيرة قد عملت على تقوية المعنى الدلالي والموضعي للحقيقة التي قبلها:

وتمثيل الأول على قانون القلب كآلاتي:



إن حفظ المقولة الثانية أقوى دليلاً على حفظه للأولى ضمن سلم (أ).

وعدم حفظه للأولى هو أقوى دليلاً على عدم اطلاعه على تفاصيل القول بعدها واضطرابه في حفظها، وعدم الحرص على تتبع الكلام، وهو يحتاج بحجج أخرى من قبيل أن الصَّاهِل أعياه حفظ المنظوم، وما الخصومة بينكما إلا بسبب هُزئه من نظمك للشعر ورفضه حمل بيتين لتعزيز الدولة، فكيف وكوني البعير أحفظ المنثور من الحديث - وهو الذي يضرب

به المثل في الجهل والخفة على عِظَم خلقته - وهذا الباب الذي طرقه يسمّى ضمن الحِجَاج بالنموذج المعاكس أو المضاد⁽¹⁾.

فهذه المساندة قد ظهرت في القول أن النتيجة دعمت الحُجّة وعملت على تقويتها، والذي ساهم في تفعيل دور النص الحِجَاجيّ (العامل اللُّغوي) وما صدر عنه من تأثيراتٍ ضمنية في الحديث والمناظرة الحِجَاجيّة، والتي خلقها المَعَرّي ضمن نصوصه البارعة.

ويتابع المَعَرّي: "وَأَمَّا تَخْوِيفُكَ إِيَّاي بِدُعَائِكَ، فَإِنَّ الْوَحْشَ الرَّاتِعَةَ تَبْتَهِلُ عَلَى الْأَسَدِ مِنْذُ كَانَتْ الْخَلِيقَةُ، وَمَا لَقِيَ مِنْ دُعَائِهَا إِلَّا خَيْرًا؛ وَكَذَلِكَ خَشَّاشُ الطَّيْرِ يَدْعُونَ عَلَى الْبَازِ وَالْأَجْدَلِ⁽²⁾، وَمَا يَزْدَادَانِ بِذَلِكَ إِلَّا رَغْبَةً فِي صَيْدِهِنَّ. وَالطِّبَاءُ وَالسُّمَاسِمُ⁽³⁾ يَرْغَبْنَ إِلَى اللَّهِ فِي هَلَاكِ الذَّنْبِ وَالْكَلْبِ الصَّائِدِ، فَمَا سَمِعَ مِنْهُنَّ دُعَاءً"⁽⁴⁾.

أطراف الحوار:

- الشّاحج.
- البعير.

الدعوى وإبطالها باستخدام عامل القصر وبعض الألفاظ اللُّغويّة:

حاول المَعَرّي من خلال النص أن يقدّم حِجَاجاً واضحاً يقطع فيه على الشّاحج مناظرته للبعير، وذلك من خلال الاحتكام إلى اللُّغة وتراكيبها.

ويظهر ذلك في مساهمة العوامل ذاتها، والعمل على خلق الإقْناع وزيادة نسبته من خلال الوظيفة الحجاجية المتمثلة في الرابط ذاته، فاللُّغة عامة حِجَاجية في أصلها وجوهرها، وما تحويه من تراكيب غاية الإقْناع وعمق الدلالة في مقاصدها.

(1) وسيأتي الحديث عنه لاحقاً في تناول الحجج المؤسسة لبنية الواقع وهي عنوان المبحث الثالث من الفصل الرابع.

(2) الأجدل هو الصقر، وفي الحديث يهوي يهوي هويّ الأجادل.

(3) السُّمَاسِم: هو الثعلب؛ وجمعها (سَمَاسِم).

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص 375.

وفي هذه المناظرة الحجاجية بين كل منهما محاولاً إثبات أطروحته، ترى العمق اللغوي في نص التعبير مكثرًا لحد بعيد من استخدم أدوات القصر، والتي تحصر الإمكانات ضمن القول المذكور.

فهو يقرر ضمن بنية النص ومحتواها القضوي أن تخويف الشَّاحج بالدعاء عليه لا يزيده إلا عدم الاكتراث بأقوابيله، والبعد الحجاجي للفقرة لا يقف عند الأداة وحدها، فمجمل الكلمات على تراتبها، تحمل شحناتٍ دلاليةً مؤثرةً في السياق القصري، مساهمة في توجيه استخدام الحجج المذكورة في سياق بطلان دعوة التخويف.

حُجَّة 1: (فإن الوحش الرائعة تبتهل على الأسد).

نتيجة 1: وما لقي من دعائها إلا خيراً.

حُجَّة 2: وكذلك خشاش الطير يدعون على الباز والأجدل.

نتيجة 2: وما يزدادان بذلك إلا رغبة في صيدهن.

حُجَّة 3: والظباء والسماسم يرغبن إلى الله في هلاك الذئب والكلب الصائد.

نتيجة 3: فما سمع منهن دعاء.

فهذه كلها دعوى البعير لإبطال حُجَّة الشَّاحج، والذي عمل على تقوية حجاجه الأسلوبية استخدام القصر بـ(النفي والاستثناء)، والكلمات التي تعدُّ في ذاتها عنصراً فاعلاً لتكوين الخطاب المقامي للحجاج وتقويته، فالمقام للاستنكار. وهذا بدوره يغذي القيمة الحجاجية لأسلوب القصر الذي يقع هنا لإقناع المخاطب المنكر لدعوى المُتَكَلِّم.

وقد أسهم العامل الحجاجي (ما - إلا) في توجيه الخطاب الحجاجي إلى نتيجة واحدة؛ وهي مذكورة في سياق إبطال دعوة التخويف، وإن تكرر هذه النتائج عبر العامل الحجاجي وجّه الخطاب في إطار ما رآه المخاطب.

ب. القصر ب (إنّما)

تعدّ (إنّما) من الحروف المركبة من (إن) الناسخة، و(ما) التي قامت بكف عملها، ولها استخدام ضمن دلالتها العميقة غاب عن كثير من العلماء عدا الجرجاني، فكان في مظان علمائنا⁽¹⁾ أن دلالتها ترتبط بكونها تدخل على الجملة الاسمية فيبطل عمل إن، وفي حال دخولها على الجملة الفعلية توصف بأنها موطئة أو مهيئة⁽²⁾.

تتّبّه الجرجاني لهذا في قوله: "واعلم أنّه ليس يكاد ينتهي ما يعرض هذا الحرف من الدقائق"⁽³⁾.

ويتابع الجرجاني ضمن تأمله لعمل (إنّما) ودلالاتها في السياق واستنكاره مذاهب العلماء قبله وإغفالهم لدور الدلالة: "وأمر آخر، وهو ليس ببعيد: أنّ يظنّ الظانّ أنّه ليس في انضمام (ما) إلى (إن) فائدة أكثر من أنّها تبطل عملها، حتّى ترى النحويين لا يزيّدون في كلامهم على أنّها (كافة)، ومكانها هاهنا يزيل هذا الظنّ ويبطله"⁽⁴⁾.

فعمل هذه الأداة لا يقف عند تركيبها وكفّ عمل (إن)؛ إنّما بغية دلالتها واتصالها في النصوص أبعد من هذا المقصد، كونها تزيد من حصر الإمكانيات والقصر ضمن بلاغة النصوص، ووقوفها لا يحده التركيب بل الدلالة وما تفعله من تأثير وإقناع، كونها تأشيرًا حجاجية جديدة ضمن أسلوب القصر.

نرى كتب النحو قد أضافت هامش (ما الكافة) تحت باب (إن) ولم نجد لها عنوانًا مستقلًا بذاتها في كتب أهل النحو وآرائهم، والجرجاني إذ يتحدث عن (إنّما) يعرض بأهل النحو دون تجريح وإسفاف لمذاهبهم⁽⁵⁾، وهذا من أدب العلماء وتقديرهم لجهود بعضهم، لكنه يضيف ويجتهد في ربط السياق بالدلالة، ويؤيد السكاكي ما ذهب إليه الجرجاني حيث التخصيص

(1) حروف المعاني، الرماني، ص 89، وأمالى ابن الشجري، ج 559/2، والجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص 395.

(2) يُنظر: الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، ص 395.

(3) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص 353.

(4) المرجع السابق، ص 354.

(5) في حديثه عن تناول العلماء لباب (إنّما) ودلالاتها التركيبية. يُنظر: المرجع السابق، ص 352.

والحصر "قصر الصفة على الموصوف ليس إلا تأكيداً للحكم على تأكيد"⁽¹⁾، وهذه غاية العام (إنما) توجيه وحصر القول وفقاً لإرادة المخاطب.

يقول المَعْرِي: "إِنَّمَا أَرَادَ مَاءٌ يَكُونُ مَعَ الدَّرَةِ فِي الصَّدْفَةِ، فَإِذَا شَقَّتْ خَرَجَ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَذْبًا".

استخدم المَعْرِي أداة القصر (إنما)، ليجتج بأقوال بعض الناس في معنى كلمة من الملفوظات التي ذكر فيها التعمية والإلغاز، ومن خلال هذه الأداة يُكسب النص طابعاً حجاجياً، كونه يقوم بتحويل المعنى إلى غيره، وإثبات الرأي باستخدام هذا العامل الذي يضطلع بقوة توجيهية لمقصد المُتَكَلِّم.

وفي ذات النص (لَا يَكُونُ إِلَّا عَذْبًا)، قصر بـ(النفي والاستثناء)، فقد جمع النص بين أداتين من أدوات القصر، كلاهما يؤدي بالسياق إلى المعنى المقصود، والمراد توصيله بدقة كي يقيم الحُجَّة بقوله⁽²⁾.

ج. القصر بالتقديم والتأخير

إن مسألة التقديم والتأخير من قضايا العربية التي اختصت بها، فهي تكشف عما تتمتع به اللغة من مرونة ولين وسهولة تحريك لتراكيبها دون تأثير جلي على المعاني، وهذا لا يعني فضاء الدلالة من اكتساب ظلال قد تزيد وقد تنقص بحسب ما تمليه ظواهر اللغة عليها.

إن بعض اللغات قد تنفر بعض الشيء من تقديم وتأخير كلمات تراكيبها، فقد يؤدي ذلك لفساد واضح في معانيها، وإخفاء لمعالم الجمال الذي يكتسبه النص، فما كان منها إلا أن أسقطت (التقديم والتأخير) وأغلقت بابه، وشاءت العربية أن تتمرس وتظهر ببديع جملها وقوتها ضمن هذا الأسلوب، والذي لا يأتي في العبارة من قبيل اللغو، دونما أن يظهر النص بفصاحة وحلة بهية تكاد دلالتها تختلف عن التركيب الذي قد تألفه العين.

(1) مفتاح العلوم، السكاكي، ص403.

(2) يُنظر كلام السكاكي السابق.

وهذا بابٌ عزيزٌ على طالبيه أن يقرأ ما جاء به شيخ العربية في دلائله، حيث يقول:
"وهو بابٌ كثيرُ الفوائد، جُمُّ المحاسن، واسعُ التصرف، بعيدُ الغاية، لا يزال يفنرُ لك عن بديعة،
ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنتظر فتجد
سبباً أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّم فيه شيءٌ، وحول اللفظ عن مكانه إلى مكان" (1).

حيث ربط القضية ضمناً بالدلالة وما يعملهُ التقديم من جمال في التركيب والإنشاء
والبنية للنصوص التي يطرقها، ولطافة في التركيب والمذهب الذي يؤدي بصاحبه لأمر كان
يجعلها لولا ما حدث في النص من تقديم لبنى وتأخير أخرى.

ويقول: "مِنْ أَيْنَ كَانَ نَظْمٌ أَشْرَفَ مِنْ نَظْمٍ؟ وَبِمَ عَظُمَ التَّفَاوُتُ؟ وَاشْتَدَّ النَّبَاتَيْنِ، وَتَرَقَّى
الأمرُ إِلَى الإِعْجَازِ..." (2).

وهنا يربط هذا المصطلح بباب الإعجاز البياني والدلالي الذي جاء في كتاب الله،
ودلالات العرب في شعرهم ونثرهم.

والذي يعقد أصل التقديم والتأخير وزمامها قواعد بليغة على المؤلف أن لا يخرج عن حدودها،
وهي كباقي ظواهر البلاغة، إذ نشأت في حُسن النحو والتفسير، ثم قَعَدَتْ وعُلِمَتْ بفهم دقيق
لمجاريها، من خلال تأديتها لجماليات الكلام ضمن علوم العربية.

أما حِجَاجِيَّةُ العبارة ضمن التقديم والتأخير فهذا موضوع يرتبط ببعد غاية التقديم التي أثارها
الشيخ الجرجاني. وعن الأمثلة الواردة في الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ، فهي كثيرة حقاً، حاول المَعَرِّي من
خلالها معالجة قضايا المطروحة من خلال اعتماده الأساليب البَلَاغِيَّةَ على تنوعها، وكان القصر
بـ(التقديم والتأخير) واحداً منها.

يقول المَعَرِّي: "وَمَا فَارَقْتُ مَسْمَعَكَ قَصِيدَةً إِمَّا قَصِيرَةً وَإِمَّا طَوِيلَةً" (3).

(1) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص106

(2) المصدر السابق، ص111.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص383.

الأصل في العوامل أن تقدّم على معمولاتها، والقاعدة هذه تعمل وفق وظائف لغة النص وأبعاده، فَلِعَرَضِ حِجَاجِيّ قَدَّمَ الشَّاعِرُ المفعول به (مسمَعَك) على الفاعل (قصيدة)، وفيها توجيه للمتلقى بأن يلقي انتباهه جيّدًا، فهذا السمع هو أصل التواصل كي يتابع سماع ابتهالات الشّاحج ودعائه عليه، وذلك بعد رفضه نقل رسالته للسيد عزيز الدولة، ففي هذه المقام حصر وقصر على عدم مفارقة سماع البعير لقصائد تتلى عليه، وفيها تشديد العقوبة، ويظن القارئ ضمن هذا السياق اتصاله بحُجّة التناقض وعدم الاتفاق، فهو إذ يدعو عليه بأن لا يفارقه سماع القصيد كان قد سبق هذه الدعوة : "وَحَدِيثَ بِالرَّجَزِ وَأَخَذَ الْقَصِيدِ مِنْكَ"⁽¹⁾.

وهذا الإيحاء ينجلي لما نعلم أن القصد ليس كذلك؛ بل البعير إذا سمع الحداء امتدّ عنقه ورحبت خطوته وأدركته أريحية في مشيته. أما المقصود بالرجز، فهو داء يلحق البعير فلا يقدر على القيام؛ ومن ذلك قول أوس بن حجر:

أَلَا تَقْبَلُ الْمَعْرُوفَ مِنِّي تَعَاوَرْتُ مَنُوءَةً أَسِيْفًا عَلَيْكَ ظِلَالُهَا
هَمَمْتُ بِمَعْرُوفٍ فَقَصَرْتُ دُونَهُ كَمَا هَمَّتِ الرَّجْزَاءُ شَدَّ عِقَالُهَا
والقصيد قد سار فيه الشّاحج يعني العود؛ قال أبو زيد الطائي:

فَدَعَا دَعْوَةَ الْمُخَنَّقِ وَالتَّلْبِي بُ مِنْهُ بِعَامِلٍ مَقْصُودُ جَائِعُ
إنّ فالتقديم والتأخير كان له عاملٌ أساسٍ في إثارة المُتَلَقِّي، ثم المعاني التي قصد إليها الشّاحج في النص والتي كان لها الأثر في التوجيه وإقناعه.

وقال المَعَرِّي: "أَخَذَ مِنْ جِلْدِكَ الْعَنْبُرُ"⁽²⁾.

وفي هذا المثال تقدم شبه الجملة الجار والمجرور على الفاعل للتبويه ولمقصد حِجَاجِي بالغ، فكلمة من جلدك فيها شد انتباه السامع كي يعير المرسل انتباهه ليتلقى النص الذي بعدها،

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص383.

(2) المصدر السابق، ص383.

وفيهما دلالة غاية في التأثير والإفئاع، ولطافة تعبير كما هي دلالة التقديم الظاهرة في كافة النصوص.

ثانياً - التوكيد

يستخدم التوكيد لدلالات متعددة في اللغة، ويخضع ضمن الإطار الأسلوبي التكويني لها تحت بندٍ لفظي ودلالي، فاللفظ هو الدائرة الأوسع من دلالة التوكيد، ثم الدلالة وهي اللفظ المضمر الثاني الذي يراد من خلاله توجيه الكلام للسبيل المقصود.

تعريفه وغرضه

أما عن تعريفات علماء اللغة له، قول ابن فارس: "الواو والكاف والداد: كلمة تدل على شد وإحكام. وأوكد عَقْدَكَ، أي: شده"⁽¹⁾.

ويقول ابن منظور: "وَكَّدَ الْعَقْدَ وَالْعَهْدَ: أَوْثَقَهُ، وَالْهَمَزُ فِيهِ لُغَةٌ. يُقَالُ: أَوْكَدْتُهُ وَأَكَّدْتُهُ وَأَكَّدْتُهُ إِكْدَادًا، وَبِالْوَاوِ أَفْصَحُ، أَيْ شَدَّدْتُهُ، وَتَوَكَّدَ الْأَمْرُ وَتَأَكَّدَ بِمَعْنَى... قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: التَّوَكُّدُ دَخَلَ فِي الْكَلَامِ لِإِخْرَاجِ الشَّكِّ وَفِي الْأَعْدَادِ لِإِحَاطَةِ الْأَجْزَاءِ، وَمَنْ ذَلِكَ أَنْ تَقُولَ: كَلَّمَنِي أَخُوكَ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلَمَكَ هُوَ أَوْ أَمَرَ غَلَامَهُ بِأَنْ يَكَلِمَكَ، فَإِذَا قُلْتَ كَلَّمَنِي أَخُوكَ تَكْلِيمًا لَمْ يَجْزِ أَنْ يَكُونَ الْمَكَلَّمَ لَكَ إِلَّا هُوَ"⁽²⁾.

إذن التوكيد يرد في الكلام لإخراج الشك، وإزالة التوهم من الكلام المؤكد لرفع اللبس، وتضييق دائرة المعنى المقصود.

ذكر (الاسترابادي)⁽³⁾ الغرض من أسلوب التوكيد، وعمل على حصرها في مواطن ثلاثة:

- أحدهما أن تمنع المُتَكَلِّمَ غفلة السامع عنه.
- ثانيها أن يدفع ظنه بالمُتَكَلِّمِ الغلط، فإذا قصد المُتَكَلِّمُ أحد هذين الأمرين فلا بد أن يكرر اللفظ الذي ظن غفلة السامع عنه، أو ظن أن السامع ظن به الغلط.

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس، ج6/106.

(2) لسان العرب، ابن منظور، ص4905.

(3) ينظر: شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، الاسترابادي رضى الدين، تحقيق: رحاب عكاوي، ص316.

- الثالث أن يدفع عن نفسه ظن السامع به تجوزاً.

وهذه المواطن المذكورة في قوله تؤدي وظيفة حجاجية في مجموعة سياقات.

التوكيد في رسالة الصاهل والشاحج

بالرجوع لنص المعري، يمكن القول إن أسلوب التوكيد كان في الرسالة من خواصها الأسلوبية، والتي ظهرت فيها بشكل مطرد، حيث قام المؤلف باستخدامها بشكل واضح على السنة الشخوص، فكل منهم يحتج برأيه مؤكداً صحة مذهبه.

واستخدم من المؤكدات (إن - أن - نون التوكيد - لام التوكيد) وغيرها من الأدوات، ومن خلال بعض الأمثلة نوضح الطاقة الحجاجية لأسلوب التوكيد.

يقول على لسان الثعلب: "صَدَقْتَ أَيُّهَا الشَّاحِجُ، إِنَّكَ لِلْكَهْلِ الْمُجَرَّبِ وَإِنِّي لَرَاغِبٌ فِي اسْتِمَاعِ مَا عِنْدَكَ مِنَ الْأَمْثَالِ، وَلَكِنَّ الشَّمْسَ قَدْ هَوَتْ لِلْغُرُوبِ، وَإِنِّي مُنْصَرِفٌ إِلَى مِصْرِ الْجَالِينِ"⁽¹⁾.

أفادت (إن) في السياق توكيد النسبة بين اسمها وخبرها، حيث يعمل على تأكيد ما يقصد منه، مع إزالة الشك من ذهن متلقي النص، فهو يؤكد أن هذا القول لا يصدر إلا عن مجرب عاش مع تجارب عديدة وعاينها.

وتوكيد آخر برغبته في استماع الحديث من الشاحج المجرب للأمر.

وقيمة القول الإقناعية تكمن في القياس المضمّر الآتي:

المقدمة الكبرى: من يقدم على الاستماع من الذي عاش وعان الأمور على مر الدهور يناله الحظ الوفير من الحكمة.

المقدمة الصغرى: الثعلب يحاول أن يبقى لكن الوقت يداهمه.

النتيجة: ولكن الشمس قد هوت للغروب، وإنني منصرف إلى مصر الجالين.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 505.

وحاول تدعيم الأقوال بمؤكدات ظاهرة، حيث إن تضافر تلك المؤكدات يؤدي إلى رفع مستواها الحجاجي، وزيادة قوتها، والإعلاء من درجة ارتقائها على السلم الحجاجي.

خصوصًا إن كان القائل يشعر بشكوك تراود المستمع والمُتلقّي في خطابه له، فتعمل تلك المؤكدات على الزيادة من درجة الإقناع وإزالة الشك.

وتمثيل ذلك على سلمية البلاغة⁽¹⁾:



فوردت (إنك للكهل المجرب) في ذروة السلم الحجاجي، وهذا للدلالة على ما في نفس الثعلب من إعجاب بحديث الشّاحج، وسبل تفكيره في إلقاء الكلام على غير وجهه، مع مراده لمعانٍ غير ظاهرة في النص، وهو ما يكون على جهة الإلغاز والتورية، وهذا المستملح عند العرب، فقد قالوا: "خَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا"⁽²⁾.

وسلمية القول الأخير، في حديثه عن رغبته بالسماع والإطالة فيه، بيد أن الوقت يداهمه، فهو يريد الإسراع لمصر الجالين كي يأتي بزيادة في القول؛ ليمتع الشّاحج الذي أشفق عليه من طوال دوامه على حاله، فهو معصوب العينين مقيد في مكانه.

(1) وهي ضمن تصنيف السلمية التي اتبعتها الدكتور عزالدين الناجح في كتاب العوامل الحجاجية في اللغة العربية ومن بينها:

- سلمية المعجم.
- سلمية الصرف.
- سلمية البلاغة. وقدمت الباحثة شرحًا واقفيًا ضمن السلمين الأول، وهنا اكتفي بالإشارة لسلمية التوكيد ضمن سلم البلاغة.

(2) البيان والتبيين، الجاحظ، ج1/92.

إني لراغب في استماع ما عندك من الأمثال.

إني لراغب

إني راغب

أنا راغب

حيث تصدر القول الرابع أعلى السلم الحجاجي، وهذا دلالة على قوته وطاقته الحجاجية التي تسبق في الإقناع ما جاء تحتها من جمل.

ثالثاً - عامل النفي

يعدُّ النفي من الظواهر اللغوية التي امتدَّ شيوعها في اللغة العربية، وهو ضمن الأساليب التي تتحدد مصائر دلالاتها ضمن مناسبات الأقوال وأسبابها، واستخدامه في اللسان العربي؛ لدفع تردد وقع في ذهن السامع، أما الباب المعنوي الذي يطرقه فهو من منازل التراكيب التي تخرج القول من المثبت إلى المنفي، وتعمل على إخراج الحكم من الإيجابي لعكسه؛ وذلك من خلال المقيدات اللغوية التي تستخدم لذلك الغرض.

وتفرد الباحثة الحديث عن المقيدات وهي عناصر ثلاثة:

النفي بـ(لا).

النفي بـ(لم).

النفي بـ(ليس).

أ. النفي بـ(لا)

تستخدم (لا) لنفي الأسماء والأفعال، وقد أطل العلماء في الحديث عنها ضمن تبويبات النحو العربي، وتتعدد الآراء نتيجة تعدد الدلالات التي تخرج إليها (لا)؛ فقد تأتي مع الأفعال ويختلف الحديث فيها مع المضارع وكذلك الماضي، ثم الأسماء ولها اختصاص نحوي مخالف إذ هي دخلت على النكرة أو المعرفة، وغير ذلك من الأبواب المتشعبة واسعة الذكر.

وتُخصَّص في الجمل والتراكيب للنفي، وهي قرينة لغوية مهمة تُرشح ضمن النص بفكر التوائى الدلالة، والزمانية للفعل أو الاسم بحسب ما يمليه السياق على النافي.

يقول المَعْرِي: "وَهَذِهِ الْمُثَلَّةُ لَا يَرْضَى بِهَا الْبَاعَةُ وَلَا أَهْلُ الدَّنَاءَةِ، فَكَيْفَ يَحْتَمِلُهَا الْعَدْلُ الْمَرْضِيُّ، وَإِنَّمَا نَقْبَلُ شَهَادَةَ الرَّجُلِ إِذَا جَمَعَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْمَرْوَةِ"⁽¹⁾.

هذا جاء على لسان الجمل، محاولاً سحب البساط من تحت قدمي الشَّاحِج، ووضعه في مأزق التلعثم، لدحض حجته التي أدلى بها، فقد فهم أن (الساج) بمعنى الخشب الذي يجلب من الهند، فاستخدم النفي وعامله (لا)؛ لينفي ادّعاء الشَّاحِج وكلامه الذي لا يُقْبَل عند أهل الدناءة فكيف عند أهل العدل، فهو مرفوض مبني على ادّعاء كاذب وحُجَّة واهية.

ودلالة السياق احتوت على قول عميقٍ ضمن القوة الحِجَاجِيَّة للمعنى، فرفض أهل الدناءة للقول هو أشدُّ وأعمقُ دلالةً على سذاجة الشَّاحِج، وفساد رأيه وقوله، فكيف لو سمع أهل العدل ذلك القول، وهو في كل الأحوال لا يعتد له برأي، كونه لا يجمع بين الدين والمروءة كما نعته أبو أيوب.

ويقول المَعْرِي: "فَأَمَّا طَبَقَةُ جَرِيرٍ وَمَنْ بَعْدَهُ إِلَى الْيَوْمِ، فَلَا يَعْزِضُ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِاسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنْ هَذَا الْوِزْنِ عَلَى الْأَصْلِ"⁽²⁾.

يتحدث في السياق عن استخدام الخماسي الذي قبل الضرب، حيث نفرت منه الغرائز وكان مستخدماً عند أهل الجاهلية بكثرة، لكن طبقة جرير ينفي عنها استعمالها هذا الوزن، فهو يحاول تفتيت الرأي المضاد ودحضه وإزالة الشكوك ضمن العامل (لا).

يقول المَعْرِي: "وَأَنَا مَعَ هَذَا الْيَمِينِ، لَسْتُ بِالشَّاكِرِ لَهُ، وَلَا الْمُحَمَّدِ فَعَالِهِ"⁽³⁾.

والعامل ضمن هذا السياق هو النفي بـ(ليس) وكذلك (لا)، فتعاله يستخدم ضمن القسم عامل (النفي)، ليؤكد على ما يرجوه وما يصبو إليه، مقارناً بذلك اليمين وعامل النفي، ومحاجاً بهما لتوجيه القول، لأجل زيادة القوة الإقناعية فيه، والطاقة الحِجَاجِيَّة التأثيرية؛ فالجدد والإنكار بنية أصيلة في (النفي)، تعيد ترتيب البداية لدى السامع، وكذلك يحاول جعل الكرة لصالح أطروحته.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص332.

(2) المصدر السابق، ص630.

(3) المصدر نفسه، ص699.

ب. النفي بـ(لم)

يقول المَعْرِي: "وَأَنْصَرَفَ غَيْرَ شَاكِرٍ وَلَا مَشْكُورٍ. فَلَمَّا رَدَّنِي إِلَى الْمَرْبِطِ، لَمْ يَلْبَثُ أَنْ جَاءَ الزَّارِعُ فَحَلَّنِي لِلْعَمَلِ. فَيَا لَكَ يَوْمًا مَا أَطُولُ!"⁽¹⁾.

استخدم المَعْرِي الأداة (لم) لنفي الحال، والذي قد يعتقده السامع من طول النعيم بعد رجوع الشَّاحِج من رحلته إلى مربطه، لم يكن الأمر كذلك؛ بل جاء صاحبه، وحلّ مربطه؛ ليخرج للعمل من جديد، ونفي الحديث فيه قطع للشك الذي قد يراود المُتَلَقِّي من تغير السياق والمقام، وهذا حديث يدلُّ على حسرة تناغم المقام الحِجَاجِي لصاحبه، والقول الذي تصدره لينفي الراحة والنعيم الذي قد يدعيه الصَّاهِل للشواحيج، وأن العذاب هو ما تلقاه الخيول في ساحات الوغى، وليس كالشَّاحِج الذي يأتيه الموت بيد القضاء، كَحَمَامِ الحرم الذي هو في النعيم يحرم قتله ومسه، وبذلك شبه حال الشَّاحِج.

يقول المَعْرِي: "وَلَمْ نَكُنْ لِنَرْضَى فِي مُجَازَاتِهِمْ بِالْمُمَاتِلَةِ، وَلَكِنْ نُضَعَفُ وَنَزِيدُ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى يَجْزِي عَلَى السَّيِّئَةِ وَالْحَسَنَةِ بِالْخُلُودِ الدَّائِمِ إِمَّا فِي الشَّقْوَةِ وَإِمَّا فِي النَّعِيمِ"⁽²⁾.
في هذا المثال ينفي الثعلب أن تكون المجازاة بالمثل، كقول مَنْ قال:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجْهَلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

فالجزء من العرب على من يكذب ويحاول المساس بهم يكون بالتضعيف والزيادة، ثم إن ذلك يقيسه على فعال الله تعالى، والذي يجازي على السيئة بالشقوة الدائمة، وعلى الحسنة بالنعيم الدائم، وهكذا التضعيف في وجدان العرب والزيادة في المجازاة، والله المثل الأعلى.

وعامل النفي هنا (لم) الذي ينفي فيه عن السيد عزيز الدولة وملته أفعال النقص، ويحاول إبطال حجج الروم، وما يدعيه القوم من أقاويل لا صحة لها، مستدلًا على قوله بالأدلة والبراهين، وهو بذلك النفي يحدد جهة الحِجَاج ومقصده، من نفي الضعف عن العرب والمسلمين في تلك الفترة؛ "قالنفي إنكاراً يتعقب قولاً سبق ادّعاؤه أو إثباته، فهو دائماً فعل ارتجاعي أوثق بالرد، وليس فعلاً ابتدارياً.." ⁽³⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص100.

(2) المصدر السابق، ص553.

(3) بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، ص227.

ومن خلال أداة النفي يمكننا تحديد الاعتراض على حُجّة الخصم وما يذهب إليه صاحب القول من فضح لمغالطاتهم وتفعيل الدور التشكيكي لها، وهذا يعمل على فتح ثغرات في البناء الإقناعي الذي يستند إليه⁽¹⁾، مما يؤدي لإلحاق الضعف بدعوى الخصم وتذليلها الشكوك والإطراح.

يقول المعري: "لَمْ يَكُنْ لِيَشْكُرَ الْعَارِفَةُ فِي صَدْرِ الْعُمَرِ وَيَكْفُرَهَا مِنْ بَعْدِ الشَّيْبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ طِبَاعِ الْآدَمِيِّينَ"⁽²⁾.

يدحض القائل بالنفي وعامله (لم) قول العامة الذين نسبوا الفسق لمضيء الدولة، فهو بالقسم ينفي عنه ما لحق به من وصف بالخيانة، فلم يكن ليشكر عزيز الدولة في أول عمره، ثم يكفر النعمة في آخر حياته، وهذا ليس من طباعه؛ فاستخدم (لم) ليقطع ويجزم بالقول صدق وسلامة تاريخ الرجل وعفته، وبذلك يقيم الحُجّة على أصحاب القول، مع أن كلاب مضيء الدولة قد أخرجه من أرضه، وهو دلالة قاطعة على صدقة وهذا العارض لم يمنعه من قول الحق وإحقاقه.

والملاحظ في الحديث أن النفي لم يكن آخر الحديث، بل جاء بفعل تعويضي عن المنفي، وهو نفي آخر في حديثه، فالنفي لا يقف عند حدود الجحود، بل يحاول إنجاز فعل التعويض الذي يتمثل في إبطال المعلومة التي يدلي بها الخصم، ويمدّه بمعلومة أخرى يعتبرها المناظر صحيحة⁽³⁾، وتمثل ذلك في حديثه (وليس ذلك من طباع الآدميين)، ثم المثل الذي جاء به على سبيل عقد موازنة بين مضيء الدولة، والسيد عزيز الدولة.

ج. النفي بـ(ليس)

تعدّ (ليس) من الكلمات الدالة على نفي الحال، وقد جاءت مطردة في رسالة المعري، لينفي بها مقالته، واستخدامها كذلك تفرضه المقامات والأحوال ضمن التراكيب، وستظهر دلالة نفيها جلية من خلال الأمثلة التالية:

(1) يُنظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، ص227.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص699.

(3) يُنظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، ص225.

يقول المَعْرِي: "وَلَيْسَ مِنْ خَوْفِ الْجُوعِ عَلَى السَّمَكَةِ جُعَلْ لَهَا طُعْمٌ فِي الشَّبَكَةِ"⁽¹⁾.

حاول الصَّاهِل من خلال النفي بالعامل (ليس) نفي الحال على الإطلاق، وزيادة في الإقناع، وإبراز الحجج وتوصيفها ضمن الحديث عن الإنسي الذي لا يحفظ قرابة إنسي، فكيف له أن يحسن للكائنات التي تسدُّ رمقَ جوعه، وهي السبب في استمرار سلسلة حياته وكيونته، فالإنسان قلماً يجيء بإحسان، إلا وهو يأمل جزاءً عليه أكثر مما ناله، والمثل المضروب أن الطعم الذي يوضع في الشبكة ليس خوفاً على جوع السمكة؛ بل محاولة في صيدها والمحيلة والمراوغة كي تدخل شبكة صيادها.

فالنفي له وظيفة اشتغالية تشيئية للحُجَّة المطروحة، والتي يحاول من خلالها دحض ما يذهب إليه المدعي، ليسعى لتفنيته أسس الرأي المضاد، أو نزع المصادقية عنه، ثم إثبات الرأي المتبني⁽²⁾، وهي الآراء العديدة المذكورة من الصَّاهِل ردّاً على دعوى الشَّاحج وما يلقاه من شقاء دائم، ثم لا يجد ما يضمّد كسر هذا الشقاء ويعمل على جبره.

يقول المَعْرِي: "وَقَدْ يَقُولُ الشَّابُّ الْمُقْتَبِلُ لِلشَّيْخِ المُسِنَّ وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا قَرَابَةٌ وَلَا مَعْرِفَةٌ يَا عَمَّ. وَهُوَ يَرِيدُ التَّقَرُّبَ مِنْهُ وَالتَّحْنَنَ"⁽³⁾.

وهي كذلك دحض قول قد تفضّل به الصَّاهِل، فردّاً عليه الشَّاحج بالنفي مستخدماً (ليس)، والتي من خلالها سعى لتصحيح فكرة قائمة على بنیان خاطئ قد أدّعه الصَّاهِل من نفي الخؤولة، فحاول ضرب التمثيلات القائمة على ذات الركيزة والبنية، ومن ذلك قوله:

- وجائز في المنطق أن يقول (العبسي عنتره) للرجل من ولد حام لا تضمه وأم العبسي قبيلة من قبائل الحبشة ولا بلد من بلادهم: يا خالي⁽⁴⁾.

- وقد جاء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقول للرجل من هلال بن عامر: (يا خالي)؛ لأن بعض نسائهم ولدت بعض أجداده صلى الله عليه وسلم.

فهذه بعض الأمثلة التي اتبعها في الجملة المنفية مستخدماً العامل (ليس)، ليصل لمقصد حجاجي مفاده أن هذا من باب التودد والتحبب، فكل البشر من ولد آدم عليه السلام، لكن

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص129.

(2) بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، ص223.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص170.

(4) المصدر السابق، ص170.

الأعراق تختلف والأنساب متباعدة مترامية الأطراف، متألفة في بعضها ومختلفة في الكثير منها، وما أنساب الحيوانات وأعرافهم إلا كبنى البشر في سلسلة تباعدها.

فَد(ليس) جاءت لإنكار مذهب الصَّاهِل وحجته ودحضها، وجعل (ليس) في النَّص للنفي والحِجَاج لرأيه، وألبسها وظيفة تقويمية، حيث جرَّء القول، وعمد إلى تفريعه، ثم أخيراً الإيضاح وإقامة الحُجَّة.

ويقول المَعَرِّي: "وَالنَّفُوسُ بُنِيَتْ عَلَى السَّخَطِ وَجَنِي الذَّنُوبِ. وَلَيْسَ يَرْضَى عَنِ الرَّجُلِ وَلَدُهُ فِي كُلِّ الْأَحْيَانِ، فَمَا بَالُ جَارِهِ الْجُنُبِ وَعَشِيرِهِ الْبَعِيدِ"⁽¹⁾.

في هذا السياق استخدم (ليس) لنفي الحُجَّة التي أقامها الصَّاهِل بغير تحقق ولا كشف عن ملابسات ما طرحه من دعوى، ثم يبنى القول على أن المدح والهجاء لا يصدق الشَّاعر في قولهما، والنفوس متقلبة بنيت على السخط وجني الذنوب، فقد لا يرضى الابن عن والده في بعض المواقف؛ فكيف له أن يرضى في كل الأوقات عن جاره وعشيرته البعيد، وهي ثنائية ضدية أقيمت على النفي لما له من قيمة حجاجية في عقد المتناقضات، ويهدف المَعَرِّي من خلال الطرح كله إلى طرح تصور فني وإدلاء آرائه في الشعر وأهله، وما بُني من أحكام في شعرهم قد تفهم على غير بناء سليم من قارئها.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص175.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: السَّلْمُ الحِجَاجِيّ والمَوَاضِع

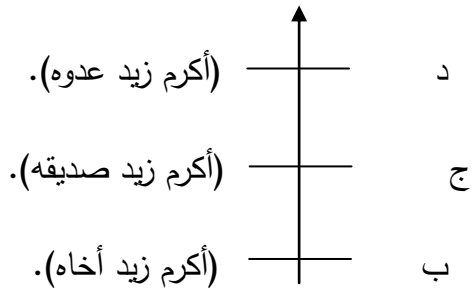
إن بمقدور المتكلم صناعة النصوص والجمال وفق ميزان معلوم المحددات والمؤشرات، وذلك عند توفر تقنيات الحِجَاج وروابط القول، بحيث يكون للمتكلم سلطةً من خلال المعايير التي تضبط قوله وأحاديثه، ويمكنه ذلك من ضبط مسار الأقوال واختيار قوة الحُجَّة الممكنة، وفقا لمؤشرات القيم على ما يعرف بالسلم الحِجَاجِيّ والذي سبق تعريفه؛ وهو بدوره يحتكم لقوانين وشروط محددة نتعرف عليها في هذا المَبْحَث.

يعدُّ السلم الحِجَاجِيّ معلماً جليّ الوضوح والدلالة في أي خطاب حِجَاجِيّ، وذلك لما يعتري تلك التراكيب اللفظية من تفاوت في قيم حُجَّجها، فمنها القويّ، ومنها الأقلّ قوة، ومنها الضّعيف، وذلك يؤدي لتراتبية في العلاقة بين الحجج جميعها.

إذن إن أول ما يحكم هذه الأقوال هي (العلاقة التراتبية)⁽¹⁾، والتي ذكرها الدكتور (طه عبدالرحمن) في مؤلفه، فالعمل الحِجَاجِيّ يكمن في تضافر هذه الحجج وترتيبها بحسب قوتها.

وعمد الدكتور لتقييد السلم الحِجَاجِيّ بإيفائه لشرطين يعتمدان على الاستلزام والدلالة، ويعني ذلك القول الذي يقع في أعلى السلم واجب أن يستلزم جميع الأقوال التي تقع دونه، والقول في أعلى السلم يشكل أقوى الحجج المطرحة دلالة على المعنى المراد.

(أ) نا = (زيد من أنبل الناس خلقاً وأكثرهم كرمًا).



حيث إن كل من (ب) و(ج) و(د)، ترمز للأدلة، و(نا) ترمز للمدلول منها.

والتطبيق سيكون ضمن السلمية المعجمية، وسلمية الصرف.

(1) يُنظر: اللسان والميزان والتكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، ص276.

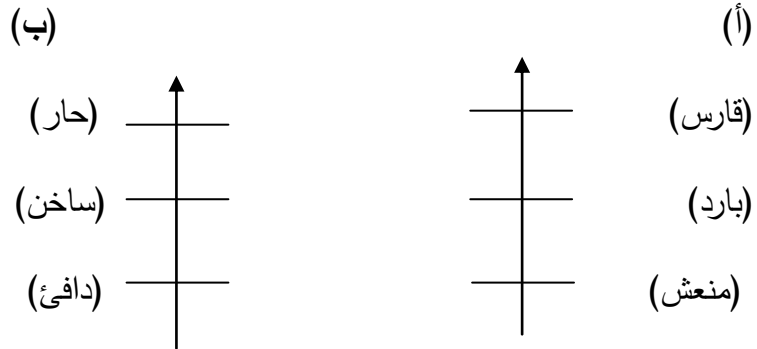
أولاً- سلمية المعجم

يعتمد المؤلف من خلال سلمية المعجم إلى الاسترسال في ذكر المعاني (الصفات) التي تنتمي لفصيلة لغوية واحدة؛ لكن الانتماء هذا لا يعني تساويها في السلم؛ بل هناك تمايز من حيث القوة الحجاجية للكلمة والمرادفة لها.

وقد يعتري سلم (ديكرو) شيء من الإبهام في توضيح معاني السلم الحجاجي التركيبية، والتي أدت لعسرٍ في إمكانية هضم أجزائها؛ لكن مع سلمية المعجم بات الشيء أقرب فهمًا وأيسر تداولًا.

ومن تلك الأمثلة التي وضحها (ديكرو) في كتابه السلاسل الحجاجية⁽¹⁾ صفات حالة الطقس (منعش، بارد، قارس) أو (دافئ، ساخن، حار)، وهي مرتبة من الأصغر للأكبر، وأساسها هي قيام المعجم على ضرب خاص من التقابل، ويأتي وفق الترسيمات الموضحة أدناه، حيث تختلف من حيث قوتها وتراتبها، كالآتي:

والاسترسال في ذكر الملفوظات، مثل:



الذي نلاحظه أن الكلمة التي وقعت في أعلى السلم (أ) بميزان اللغة تعتبر المؤشر الأعلى لانخفاض درجة الحرارة، والظاهرة التي تقوم عليها السلمية يحكم أطرافها والأجزاء المكونة لها علاقة تقوم على الاستلزام وهذا ما قصده (موشلار)⁽²⁾.

وملخص القول إنّ درجات السلم تقتضي وجود الضعيف والقوي والأعلى والأسفل وهكذا؛ وقس عليه ارتفاعها في السلم (ب)، فملفوظ (حار) هو الأعلى في سلم الحجاج كونه يدل على درجة أعلى من كلمة ساخن أو دافئ، وهلمّ جزًا.

(1) يُنظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، ص121.

(2) المرجع السابق، ص121.

والمفاد من هذه الفقرة أن كل كلمة تحتكم لمظهرين⁽¹⁾ حجاجيين:

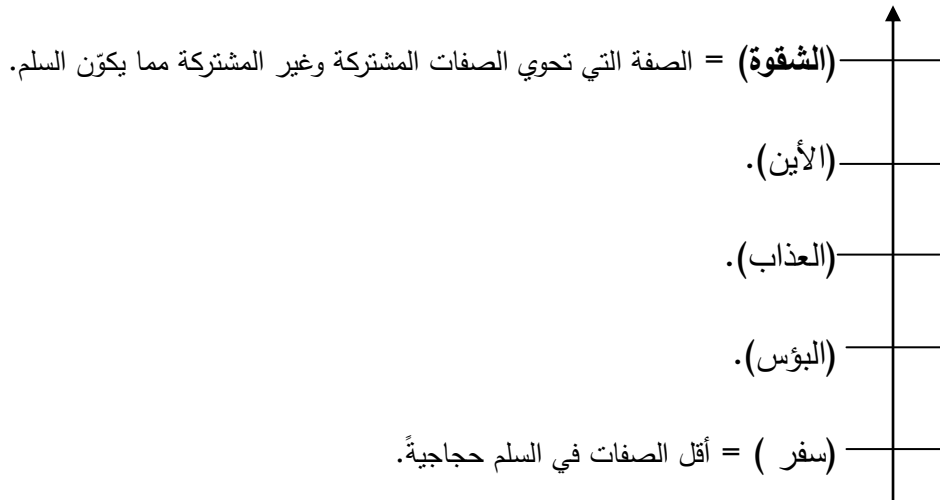
- المظهر المعياري: وهو ما يوفره الصرف (إذن) من إمكان التواصل في الخطاب مثل:
علي ذكي إذن ينجح.
- المظهر الانتهاكي: وهو يكشف بدوره عن استرسال الخطاب، بـ(رغم أن)، مثل: الماء دافئ ورغم ذلك يمكن شربه.

والضابط لهذه المعجمية وظيفة اللغة المرجعية، وما يحكم ملفوظاتها من دلالات ومعانٍ، تجعلها تخضع لذات المعجم، على اختلاف الدلالات ودقة تمايزها. فأساس هذه السلمية هي قيام المعجم على ضرب خاص من التقابل، ويقصد بالتقابل ذلك الاسترسال في معاني المفردات المذكورة للكلمة الواحدة وتتابعها في السياق الواحد.

ومن الأمثلة الكثيرة التي وردت ضمن سلمية المعجم في رسالة المعري:

قوله: "وَتَسَافِرُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَتُزَاحُ مِنْ هَذَا الْبُؤْسِ الدَّرْبِ، إِذَا كَانَ سَفَرُهَا لَا يَنْفَعُ وَعَذَابُهَا يُجَدِّدُ وَلَا يَقْنَعُ لَهَا الْقَدْرُ بِالْأَيْنِ⁽²⁾ حَتَّى يَأْمَرَ بِتَخْمِيرِ الْعَيْنِ... وَيَوْمُهَا فِي الشَّقْوَةِ نَظِيرُ الْيَوْمِ⁽³⁾".

هي قيام المعجم على ضرب خاص من التقابل، والتقابل يعني الاسترسال في ذكر الملفوظات مثل:



(1) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عز الدين الناجح، ص124.

(2) الإعياء والكلال.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص90.

الأول (السفر) هو قطعة من الشقاء والعذاب، والحديث ضمن هذا الباب عن ما يلقيه من يؤس معيشة وإطباق العذاب وتشابه أقدار الحياة؛ فهذه الأوصاف المدلو بها في النص والمكونة لأطراف القول كلها يجمعها سلم معجمي واحد، وهو ما تلاقيه الدابة من عذاب وإعياء وكلل وطول مجاهدة وجهد وشقاء، وتعدد الألفاظ قد انسل من لفظة (سفر)، والتي حدث النبي ﷺ عنها بأن (السفر) قطعة من العذاب بما يمنع أهله من المأكل والمشرب والمسكن والنوم وغيرها، ثم (البؤس) الذي لا يكتب له الخلود بل فترة وجيزة، ثم تتبدل حال صاحبه إلى نعيم.

و(العذاب) ينبثق عن (البؤس) وهو أعلى مرتبةً منه في السلم، وهذا العذاب يتولد عنه الإعياء والكلل وهو (الآين)، وكذلك ورد أعلى درجة منه، ثم انتهاء مدة (الآين) لها أثر على نفسية صاحبه، وأخيرًا (الشقوة) وهي الشدة والعسر، وقد ورد ذكرها في كتاب الله تعالى بمعنى (الشهوات) التي أدت بهم إلى الشقاء الدائم في جهنم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾⁽¹⁾.

وقال: قال ابن جريج: "بلغنا أن أهل النار نادوا خَزَنَةَ جهنم: أَنْ ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفُ عَنَا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ، فلم يجيبوهم ما شاء الله، فلما أجابوهم بعد حين قالوا: ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال. قال: ثم نادوا مالكًا: يا مالك ليقض علينا ربك، فسكت عنهم مالك خازن جهنم أربعين سنة، ثم أجابهم فقال: إِنَّكُمْ مَآكِلُونَ. ثم نادى الأشقياء ربهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فسكت عنهم مثل مقدار الدنيا، ثم أجابهم بعد ذلك تبارك وتعالى: ﴿أَحْسِنُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾⁽²⁾...⁽³⁾.

فهم خالدون مخلدون في الشقاء وألوان العذاب في جهنم.

وقال المعري: "... فَتَلْقَى تَحْتَهُ مِنَ الظُّمَأِ وَمِرَاسِ الْخِنْتَارِ مَا يُهَوِّنُ عَلَيْهَا الشَّجَبَ. تَحْمِلُ الْمَزَادَةَ الْمُزَوِيَّةَ وَكَبِدُهَا صَادِيَّةٌ، وَتَصْمُتُ عَنْ اقْتِضَائِهِ بِالْمَأْرِيَةِ وَالْحَاجَةِ بِأَدِيَّةٍ"⁽⁴⁾.

(1) [المؤمنون: 106].

(2) [المؤمنون: 108].

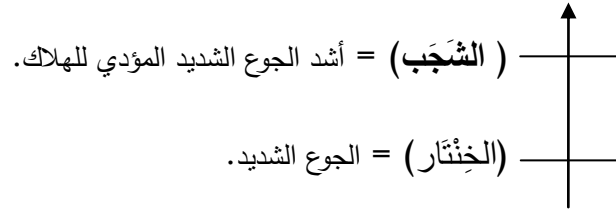
(3) تفسير الطبري، ابن جرير الطبري، ج 247/9.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص 123.

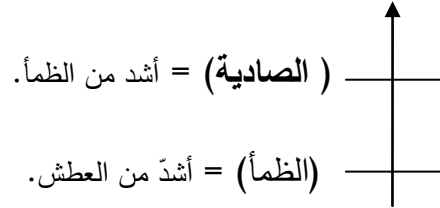
ذكر المَعْرِي لفظين يدلان على الهلاك، حيث تستوجب الكلمة في أعلى السلم الكلمة التي دونها وتستلزمها وتدل عليها، لكن الكلمة الأعلى في السلم مرتبة من حيث الدلالة؛ فقوتها الدلالية على المعنى أقوى حِجَاً من الكلمة التي دونها ضمن السلم، وهما:

(الخنثار) معناها: الجوع الشديد.

وكلمة (الشَجَب)، وتعني: الهلاك، وتمثيلها كالاتي:



وفي ذات السياق سلمية معجمية أخرى، حيث ذكر كلمة (الظماً)، وهي مرتبة ثانية بعد (العطش)، ثم لفظة أخرى تدل على مرتبة أعلى من الظماً، وهي (الصدى)، وتعني: شدة العطش⁽¹⁾.



وهذا ترتيب من حيث مراتب الحاجة إلى الماء وشربها، وقد ذكر ذلك الثعالبي في فقه اللغة حيث قال: "أول مراتب الحاجة إلى شرب الماء: العطش، ثم الظماً ثم الصدى .."⁽²⁾.

والعلاقة التراتبية واضحة للألفاظ التي تدرج تحت معنى اللفظ الواحد، ولا خلاف أن درجة قوتها ودلالة تعبيرها تختلف من لفظةٍ لأخرى، وذلك بحسب السياق الذي يدرج فيه اللفظ وبحسب الحالة التي تعبر عنها.

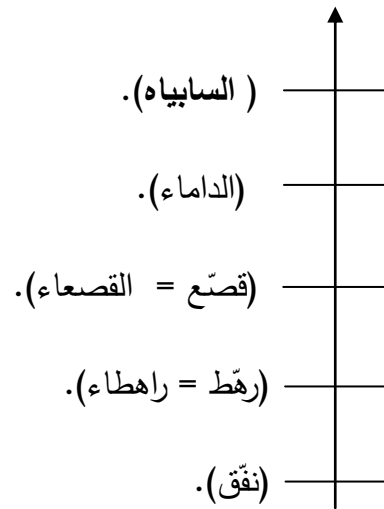
(1) لسان العرب، مادة (صدي) ابن منظور، ص241.

(2) فقه اللغة، الثعالبي، ص 278.

ومن الأمثلة كذلك قول المعري: "وَأَمَّا الْيَرْبُوعُ، فَهُوَ فِي الْوَطَنِ مَسْبُوعٌ. نَفَقَ وَرَهَّطَ وَعَنَقَ لِنَفْسِهِ وَقَصَّعَ، وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ دُمَمَةً وَسَابِيَاءَ، وَكُلَّ ذَلِكَ هَرَبٌ مِمَّا قُدِّرَ وَهَيْهَاتَ! (بِبَقَّةٍ فُضِيَ الْأَمْرُ) (لَا الْمَرْءُ فِي شَيْءٍ وَلَا الْيَرْبُوعُ)"⁽¹⁾.

ذكر الملفوظات التي تتبع للباب الواحد وهو نفق اليربوع:

(أ)



ضمن هذا السلم تشكل المفردات (نفق) و(رهط) و(قصع) و(الداماء) و(السابياه) معجمًا دلاليًا واحدًا أوحد، كلها تجتمع لتدل على جحر اليربوع ومكوناته، وكل تربة من هذا الجحر لها اسمٌ دالٌّ على وظيفتها ضمن بيته، ولها مكان خاص بها، حيث لا توظف استعمالاتها إلا لما وضعه لها المعجم الوظيفي للكلمة دون غيرها.

قال ابن الأعرابي في النفق الذي ينسب لليربوع: "قُصَعَةُ الْيَرْبُوعِ أَنْ يَحْفَرَ حَفِيرَةً ثُمَّ يَسِدُّ بَابَهَا بِتَرَابِهَا، وَيَسْمَى ذَلِكَ التَّرَابُ الدَّامَاءَ. ثُمَّ يَحْفَرَ حَفْرًا آخَرَ يُقَالُ لَهُ: النَّافِقَاءُ وَالنُّفَقَةُ وَالنَّفَقُ فَلَا يَنْفِذُهَا، وَلَكِنَّهُ يَحْفَرُهَا حَتَّى تَرَقَّ، فَإِذَا أُخِذَ عَلَيْهِ بِقَاصِعَائِهِ عُدَا إِلَى النَّافِقَاءِ فَضَرِبَهَا بِرَأْسِهِ وَمَرَقَ مِنْهَا. وَتَرَابُ النُّفَقَةِ يُقَالُ لَهُ الرَّاهِطَاءُ"⁽²⁾. السابياه ترابٌ رقيقٌ يُخْرِجُهُ الْيَرْبُوعُ مِنْ جُحْرِه⁽³⁾، وهو أصغر مكونات الجحر.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 151.

(2) الرَّهْطَةُ وَالرَّهْطَاءُ وَالرَّاهِطَاءُ، كُلُّهُ: مِنْ جَحْرَةِ الْيَرْبُوعِ وَهِيَ أَوَّلُ حَفِيرَةٍ يَحْتَفِرُهَا، زَادَ الْأَزْهَرِيُّ: بَيْنَ الْقَاصِعَاءِ وَالنَّافِقَاءِ يَخْبَأُ فِيهِ أَوْلَادُهُ.

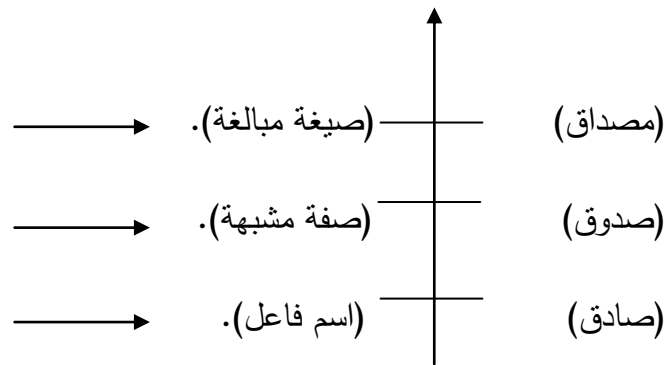
(3) يُنْظَرُ: لِسَانُ الْعَرَبِ مَادَّةُ (نَفَقَ)، ابْنُ مَنْظُورٍ، ج 236/12.

فهذه الألفاظ تجمع في ذات المعجم الوظيفي لدعائم جحر اليربوع وأجزائه، وكلها تساهم في تكوين بنائه، وصيرورة سكنه فيه، وهو عرض تتكامل أطرافه، وتتم بتتمة الحديث عن وظيفة كل كلمة من الكلمات التي وردت على السلم، فنَقْ (هي بداية العمل، ثم رَهْط) أي اتخذ تراباً للنَّفَقَة، وَ (قَصَع) هي الحفرة المكونة بعد التنفيق، وسدّة الباب تسمّى (الدّمة)، وآخر القفل لفقة هي (السابياء)، وهذه هي ما أخرجه من نفقه من تراب رقيق؛ فهذه الحُجّة بجمليها قد ساقها للحديث عن ما يكابده هذا الكائن من ملحق بني آدم له لقتله، فكان الهروب له في بطن الأرض وجوفها؛ وكل الصور التي ذكرها تأسيساً للشاحج فيما يلقاه من (أَيْن) من البشر.

وهذا المعجم على غرابته وعلو كعبه البياني؛ ليس بغريب على فتيق اللسان وذليقه المعرّي، وما أكثر ما ورد من سلال معجمية في رسالته، فهو الحُذَاقِيّ الفهم النحرير، وبكل ما تآلف من نسق لجمليّ وبديعها تراه بذلك يبني حِجَاجاً من عمق اللُغة وصميمها لا يكون إلا لسواه، فتارةً تجده العالم والفيلسوف، وأخرى الفقيه الطّين، وهو الصانع الماهر لتراكيب اللُغة في كل مرة من نسجه لكلمات الرسالة دقيقة المدارك، وعميقة المعاني.

ثانياً - سلمية الصرف

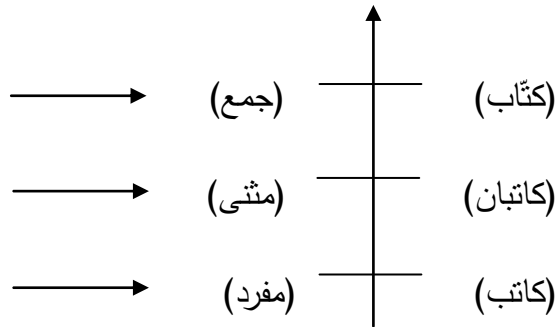
تمثل سلمية الصرف العماد الثاني لقيم السلم الحِجَاجِيّ فزيادة الحروف على المباني تؤدي لزيادة في رتبته على درجات السلم؛ ويعني أن القوة في الكلمة تزيد من توجيهها وتوجهها نحو مرادها، ومن الأمثلة التقريبية قبل البدء في التحليل ضمن الرسالة:



الانتقال من هذه الصفات (اسم الفاعل) الذي هو أقل مرتبة من (الصفة المشبهة) في التعبير عن دلالة الصفة للاسم؛ لأن اسم الفاعل يحدث في إحدى الأزمنة وليس على الدوام،

بعكس الصفة المشبهة التي للمعنى الحاضر باستمرار وسمتها الثبوت، والأعلى منهما صيغة المبالغة؛ لأنها تحمل في مضمونها الكثرة والزيادة.

لذا فعلية إنتاجها تقتضي زيادة خاصة من خلال ميم (مفعال)، والحركة الطويلة قبل آخرها، ولا يختص الأمر ويقتصر على تصريفية الأسماء والصفات؛ بل يتعداه إلى الجموع في العربية⁽¹⁾: من جمع قلة، وجمع الجمع، وجمع الكثرة، إلى غيرها، مثل:



ويذهب الدكتور الناجح للكشف عن هذه السلمية عن طريق المفردة ذاتها؛ ثم يكسو أصلها من زيادات على مستوى تكونها من خلال بعض الصرافم⁽²⁾ إلى الأصل، ويرى أن كل زيادة في المبنى تؤدي لزيادة معنى جديد.

وترى الباحثة أن كيفية الكشف عن أصول السلمية لا تقف عند حدود المفردة بل تتصافر في ذلك مرجعية اللُّغة أولاً، ثم مفردة الكلمة ودلالاتها خلافاً لما ذهب إليه الدكتور، فالقاعدة أولاً التي ذُكرت ليست على إطلاقها، فقولنا: (كتاب) كلمة مكونة من أربعة حروف، وجمعها (كتب) وهو جمع مكون من ثلاثة حروف يدخل تحته الاسم الذي قبله.

والقاعدة وإن كانت تجوز على بعض الأفعال والأسماء فينبغي رفع التعميم والشمول، ثم إن الكلمة وإن زادت الحروف على أصلها تتغير دلالتها وفقاً للمعاجم وما تحويه اللُّغة من دلالات عديدة للكلمة الواحدة في حد ذاتها.

فإن قلنا: (كتاب) فهو اسم الجماد مكون من مجموعة أوراق.

(1) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، عزالدين الناجح، ص126.

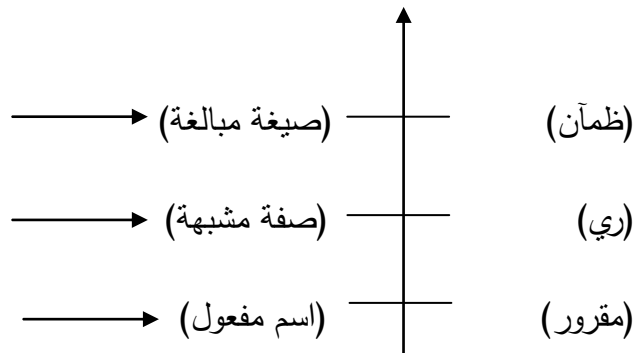
(2) المرجع السابق، ص126.

أما (كاتب) فهو اسمٌ دالٌّ على صاحب حرفة -مثلاً-، ولك أن تقيس على ذلك الكثير من الكلام.

فالوظيفة المرجعية إذن هي الميزان لكل الكلمات مجردة وفي الزيادة.

قال المَعْرِي: "وَقُلْتُ: الصَّبْرُ عَلَى الْفَنَاءِ أَقْبَلُ مِنْ سُوءِ الصَّنَاعَةِ .. وَالْجَمْرَةُ إِلَى الْجَمْرَةِ نَارٌ يَنْتَفِعُ بِهَا الْمَقْرُورُ، وَالنَّعْبَةُ مَعَ أُخْتِهَا رِيُّ الظَّمَانِ"⁽¹⁾.

هذه سلمية تعددت فيها الأسماء واختلفت فيها أوزانها، فمنها ما جاء صيغة (اسم المفعول)، وما يعلوه على السلم جاء على صيغة (الصفة المشبهة)، وعلى رأس السلم وردت (صيغة المبالغة)؛ حيث تشكل من حيث الاستلزام الأعلى احتواء للكلمة التي دونها ثم في الدلالة فصيغة المبالغة الأقوى دلالةً على الصفات لما يصاحب تركيبها من عمق دلالي. وكلها على تنوعها قد استخدمت هذه الألفاظ لأجل التأثير في القراء. ولتوضيح المفردات الواردة على السلم الجاجي، كالاتي:

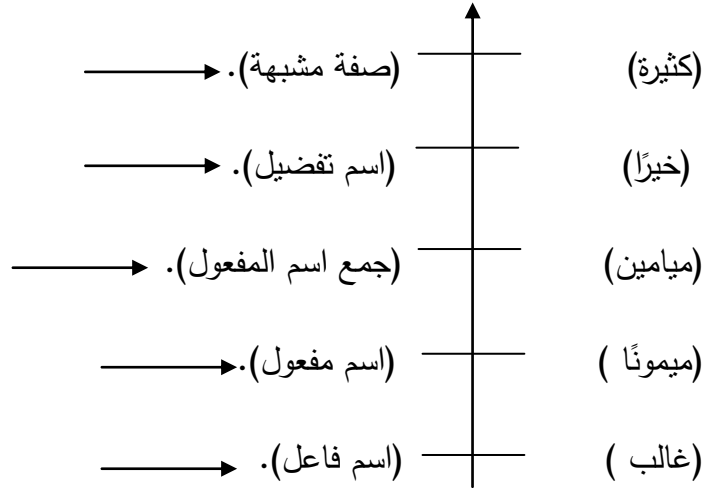


للمتأمل في تقليبات الكلمات العربية، يشعر أن لكل معنى وظيفةً دلاليةً تتحدد قوتها ودرجة تأثيرها في القارئ كلما كانت تتبع لمشتقات من النوع العميق في الدلالة، فاسم الفاعل أقل تعبيريةً في المعنى من اسم المفعول، ويليه هنا (الصفة المشبهة) و(صيغة المبالغة) التي فيها دلالة المبالغة، وزيادة الإقناع في دلالتها تنعكس على السياق وفضائه، ثم على قارئ النص. و(مقرور) وهي اسم مفعول أقل تعبيريةً في المعنى من الصفة المشبهة (ري)، أما

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص86.

صيغة المبالغة فتأتي لها تعميق دلالة المفردة (ظمان) في المعنى زيادة الحركة الطويلة ما لا يتمكن من تحقيقه اسم المفعول أو الصفة المشبهة.

ونضيف مثالاً آخر: "مَا لِحَالِكَ مِنْ غَالِبٍ، فَبُورِكَ صَبَاحُ النَّعَالِبِ. مَا زِلْتَ مَيْمُونًا مِنْ رَهْطِ مَيَامِينَ، فَعَمِرَ بِكَ نَادِيكَ، وَلَا فَقَدَ خَيْرًا وَادِيكَ؛ وَسَكَنْتَ فِي أَرْضِ كَثِيرَةِ الْوُجَرِ وَالِدِّحَالِ"⁽¹⁾.



بالتردد على السلم من الضعيف فالقوي فالأقوى بالنسبة لدلالة المعنى وكثرته وتوجيهه للقوة الحجاجية للكلمة، فاسم الفاعل أولاً ثم اسم المفعول، وبعده اسم تفضيل درجته أقوى من اسم المفعول في تحميل الكلمة قوة أكبر من الدرجة التي تحتها، وأخيراً صفة مشبهة في دلالتها الثبوتية، هي الأجدر بأن تقع أعلى السلم الحجاجي، فالمعري خبير بنصوصه وكيفية تفعيد الكلمة في مكانها، وتتظير مقام يخص دلالتها وتوجيهها وهذا من كمال بيانه وبديعه، ومعرفته بخصوصية الكلام وتعدد دلالاته؛ وإن كانت رمزية المفردة قد جعلت لنفسها موضعاً بالغاً ضمن إطار اللغة؛ فإن الذي أعطاها التمايز هو وظيفة اللغة المرجعية.

ثالثاً - سلمية النظام البلاغة

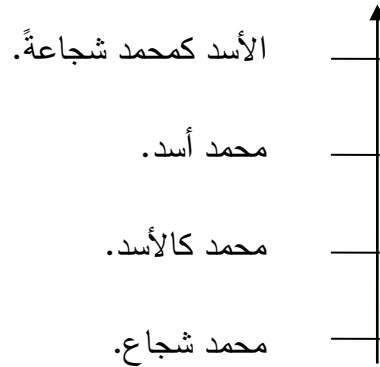
إن لنصوص الحجاج المفعملة بالصور والمبنية في أساسها على عناصر التشبيه والاستعارة قوة في حاجيتها ودرجة تأثيرها في نفس متلقيها، ويمكن تمثيل هذه بدرجاتها على سلمية تتبع في نظامها وعلاقتها منحى بلاغياً تراتبياً وهو (سلم النظام البلاغي) والمقصود به: "ما يوفره المكون

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص412.

البلاغي للملفوظ من قيمة مضافة عبر تلونات جهازه ليحتلّ درجة مهمة من السلم الحجاجي وبالتالي يكون ذا طاقة حجاجية تدفع المتقبل إلى الإذعان والتسليم⁽¹⁾.

ويمكن إدراك هذه السلمية من خلال درجتي الخطاب وهما (الحقيقة والمجاز)، حيث إن كل مجاز يقوم على تراتبية وما يؤكد ذلك التشبيهات وتدرجها في الكشف عن الصور المقدمة في النصوص وأضرب الاستعارات وصروف الكنايات⁽²⁾.

ومثال هذا القول الذي يدعم عدم قيام التشبيهات رغم تنوعها بنفس الوظيفة الحجاجية في الملفوظ ما يأتي:



فظاهر وجلي في التشبيه المقلوب الذي يتصدر ذروة السلم البلاغي وهو (الأسد كمحمد شجاعة) فيه عمق دلالي يصرح له أن يكون هو الأعلى والأقوى في الدلالة على المعنى.

وقواعد التشبيه من حيث وقوعه على السلم البلاغي كالاتي:

(1) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص 127.

(2) المرجع السابق، ص 127.



فالمعنى على هذا النحو المعيار فيه مدى الخفاء والتجلي في المعاني المدلو بها في النصوص: "فالحجاج هو لعبة المعنى بين الظهور والخفاء، وأطرف الحجاج وأنجعه ما كان المعنى فيه يتراوح بين الظهور والخفاء"⁽¹⁾.

ويصدق هذا على الاستعارة كذلك فهي كالتشبيه، فمنها القوي ومنها الضعيف والأضعف.

من ذلك قوله: "أَمَا أَنَا فَيَاسَرْتُ أَصْحَابِي وَيَاسَرُونِي، وَوَجَدْتُ الْمَيَاسِرَةَ أَفْضَلَ مِنْ الْمُعَاسِرَةِ: أَخْفُوا جَمْلِي وَأَمَرْتُ بِالصَّبْرِ نَفْسِي، فَخَمَدَ لَهَيْبِ الْفِتْنَةِ وَغَيْرَى الذَّمِيمِ"⁽²⁾.

(1) العوامل الحجاجية في اللغة العربية، ص128.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص610.

ق3	خمد لهيب الفتنة. يكون القول بالاستعارة الأقوى من الأقوال تحتها.
ق2	الفتنة نار.
ق1	الفتنة كالنار. افتراض للتشبيه قبل أن يكون استعارة.

فالقول الأول في أسفل السلم دلالته مقارنة بالقول الثاني أقل حجاجية منه مع أنه الأكثر جلاءً ووضوحًا واكتمالاً لأركان التشبيه-ما عدا وجه الشبه-، أما القول الثاني فهو تشبيه بليغ مفقّد لوجه الشبه والأداة موجز لكنه الأقل من الثالث حجاجًا، والاستعارة الواردة في (ق3) هي الأقوى في الدلالة والحجاج من الأقوال والواردة أدناها، فبقدر فهم القارئ لدرجات الخطاب المتزاوية بين الحقيقة والمجاز يستطيع الكشف عن تجليات الحجاج وتفاعلاته التأثيرية الإقناعية في حال قراءته لأي نص جمالي أدبي فاعل.

تطبيقات قوانين السلم الحجاجي

أولاً- قانون الخفض

يعدّ من القوانين الأساسية ضمن قواعد السلم والتي تؤثر في الأقوال، وفي ما مضى تم ذكر نصّ هذا القانون؛ وهو أنه إذا صدق القول الحجاجي في مراتب معينة من السلم فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تحتها؛ ونفي دلالة قول في السلم يفيد دلالة الرتبة الأقل، واتجاه السلم في الدلالة يكون هبوطاً وخفضاً وليس إلى الصعود؛ ويكون بمعنى أقل منه⁽¹⁾.

ومثال ذلك للتوضيح:

(سمين ومتوسط ونحيف) فإذا نفينا أن أحدهم ليس سميناً، فهذا يمكن أن يكون متوسطاً أو نحيفاً، ولا يعني بحال من الأحوال أن يكون بديناً، وإن قلنا إنه ليس متوسط في البدانة فإنه يعني ما هو أقل من ذلك يعني أنه نحيف.

(1) المظاهر اللغوية للحجاج مدخل إلى الحجاجيات اللسانية، رشيد الراضي، ص121.

من أمثلة ذلك في رسالة المعري: "وَلَا أُحْمِي لَهَا وَطِيسَ الْقَوْمِ"⁽¹⁾.

تؤول هذه الجملة حسب قانون الخفض أن الوطيس يُحمى في حال كان الجو باردًا أو ما يشبهه؛ ففي هذه الحالة يستبعد أن يكون الجو باردًا ما دامت الجملة منفية؛ فإما أن يكون الجو حارًا أو معتدلًا وما بينهما.



حيث تدل كل من (ق ← أ ، ب ، ج) على الأقوال الطبيعية ضمن سلم الخفض، وما يمكن أن يدل اللفظ عليها.

و (ق ~) تدل على نفي القول.

() تدل على العلاقة التراتبية على السلم الجاجي، وتتطلق من الإثبات إلى النفي أو إلى الخفض على السلم الجاجي.

(لا أحمي لها وطيس القوم) نفي لجملة (أحمي وطيس القوم).

والأقوال فوقها تؤدي إليها فمثلاً قولنا بنفي (ق ج ~) = (الجو ليس حارًا)، فهذا يعني أنه معتدل، ودلالة (لا أحمي وطيس القول) = دلالة أن (الجو لطيف وليس بقارس ولا شديد البرودة)، ولا يعني بحال من الأحوال أنه حارٌّ أو شديد الحرارة، ولو قلنا أن الجو ليس معتدلًا

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 129.

فإن الدلالة في قانون خفض تتجه للمعنى الأقل رتبةً منه وهو بدلالة (ألا أحمي وطيس القوم)، يعني أنه لطيف لا يحتاج لإشعال النار وإيقادها.

فدلالة الأقوال في قانون خفض لو تم نفيها، فيستوجب على العقل أن ينزل بالمعنى إلى الرتبة تحت القول المنفي.

ثانيًا - قانون تبديل السلم (النفي)

ذكرنا سابقًا مفاد هذا القانون، فإذا كانت (ق) قولًا يخدم نتيجة معينة، فإن (لا-ق) ينبني عليها الحصول على نتيجة مضادة وهي (لا-ن)، إذا كان قولًا ما دليلًا على مدلول معين، فإن نقيضه دليلٌ على نقيض مدلوله⁽¹⁾.

مثاله قول المعري: "أَنَّ للسيد عزيز الدولة مجلسًا يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعر"⁽²⁾.

القول يمكن تفسيره على النتيجة الآتية:

- للسيد عزيز الدولة مجلسًا يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعر، إذن عزيز الدولة رجلٌ علم وأدب وسياسةٍ ودين، ولديه فهم بعلم الكلام والمتكلمين.

أما ما يفترض إذ كان منفيًا سيخدم النتيجة المضادة بعد إذن، وهي:

- ليس للسيد عزيز الدولة مجلسٌ يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعر، إذن عزيز الدولة ليس رجل علم وأدب وسياسةٍ ودين وتكلم.

ويمكن تمثيله على السلم وفق قانون تبديل السلم:

↑ن = (عزيز الدولة رجل علم وأدب وسياسةٍ ودين وتكلم).
ح1 (السيد عزيز الدولة مجلسًا يجتمع فيه الفقهاء وأهل الكلام والأدب والشعر).

(1) مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، حسين مسكين، ص 166.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 189.

(سلم أ)

لا-ن = (عزيز الدولة ليس رجل علم وأدب وسياسة ودين وتكلم).
ح1

(سلم ب)

- فالحُجَّة الأولى ضمن (سلم أ) كانت بدلالاتها قد قوّت ودعمت النتيجة.
- وفي المقابل النفي ضمن (سلم ب) زاد قوة النتيجة المنافية للقول الأول.

ثالثاً - قانون القلب

نذكر بمقتضى القانون أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على دالة معينة؛ فنقيض الثاني أقوى من نقيض الأول في التدليل على نقيض المدلول⁽¹⁾. ويعدُّ هذا القانون الداعم لقانون النفي، وبينهما علاقة تماثل في انسجام البنية وتداخلها على السلم الحجاجي، وهذا التكامل يظهر عبر خاصية التعارض؛ لأن الأقوال الواردة في هرمية السلم الحجاجي المستند إلى حجج ترانجية بعضها أقوى من بعض، ويعارض الأقوال الأخيرة، وإن كانت أقوى من مما سبقها، إلا أنه يكون الأشد والأقوى في الإقناع والتأثير⁽²⁾، فالحُجَّة الواقعة أعلاه هي التي تكون في جانب النتيجة، وتعمل على تقويتها وزيادة بعده الحجاجي.

ومثال آخر: "فَأَعْطِ مَالَكَ مَنْ ذَمَّكَ، إِنَّهُ إِذَا كَثُرَ أَهْمُكَ"⁽³⁾.

يفهم أن هناك استلزام ضمني يُفسَّر كالاتي:

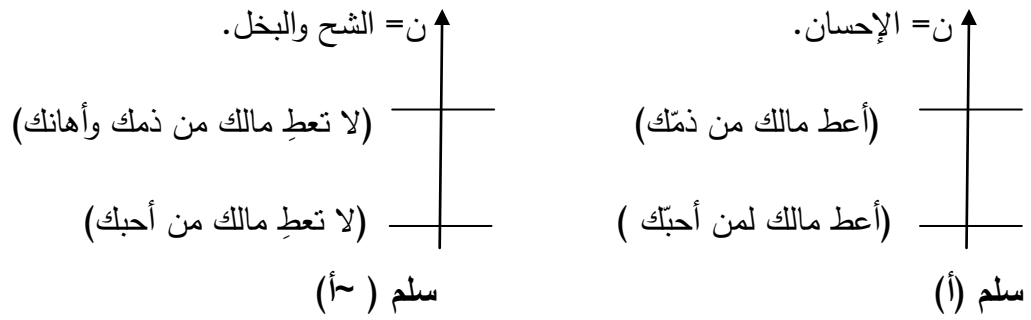
- إعطاؤك المال لمن ذمك أشد بلاغةً، ودليل أقوى على إعطائك إياه لمن أحبك.
- كثرة المال تورث الهم وتورق المضجع وتجعل الإنسان كثير الحيرة في القادم.

وتمثيل المبدأ الأول على قانون القلب كالاتي:

(1) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، ص278.

(2) مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، حسين مسكين، ص166.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص682.



ووفق قانون القلب إن إعطاء المال لمن ذم صاحب المال أشدُّ بيانًا وأقوى في الدلالة على إحسانه وعفوه وسعة صدره من إعطائه المال لمن أحبه.

وعدم إعطائه المال لمن أحبه وهي نقيضة القول أسفل السلم (أ) هي أشدُّ بيانًا على شح الإنسان وعدم إكرامه القريب والحبيب، فهيئات له أن يكرم من هو عدو له ومن قام بذمه.

ثانيًا - المواضع والمبادئ الحجاجية

يأخذ الموضع الحجاجي قلبه التكويني من المنطق الأرسطي وهذا ليس بغريب عن جدول الحجاج الأول ومنهله؛ فقد صرح (ديكرو) بأن أصول مدرسته اللغوية الحجاجية قد استمدت قوامها من الأصل الأرسطي.

فإذا أردنا تعريفه وفق المدلول المنطقي العام، فلا يجب علينا أن نغض الطرف عن فلسفة أرسطو، ووضع الموضع خارج دائرة التفكير التحليلي التي رسمها؛ حيث تعدّ المواضع أحد أهم مكونات (الأورغانون) الذي يحمل اسم المواضع⁽¹⁾ وهو المتداول بين الناس باسم كتاب الجدل.

ويرى (ابن رشد) أن المواضع: "أحوال وصفات عامة وقوانين يصار منها إلى استنباط المقدمات الجزئية في قياس قياس"⁽²⁾.

هو كما يشار إليه ضمن التعريف من المظنونات غير الأكيدة على وجه الصدق، لذلك نقول أنها نسبية، ويعني أن المقدمة قد تستنبط من آخر ويأتي غيره بمقدمة مخالفة تبطل مقدمة الأول وهكذا.

ويقرر كل من (انسكومبر) وزميله (ديكرو) أن الترابط الخطابي بين (ملفوظ/1/حجة) (ملفوظ/2/نتيجة) يمكن تحقيقه من خلال إعمال المبادئ هذه، والتي تسمى بـ(المواضع).

إن الروابط والعوامل وفق النظرية الحجاجية لا تقوم بهما فقط؛ بل جدير باستمرار تلك العملية أن توجد ضمانات لتتيممها وقيامها على ضوابط سليمة تسمى (المبادئ)، وهذه بدورها تقابل مسلمات الاستنتاج المنطقي في المنطق الصوري⁽³⁾ أو الرياضي، وهذه هي قواعد عامة تجعل حجاجًا خاصًا ما ممكنًا.

يقول الباحثان: "... إذا كنا نستنتج من ملفوظ (م) ملفوظًا (ف)؛ فإن ذلك ليس لأن (م) يشير إلى واقعة (ل)، و (ف) يشير إلى واقعة (ق)، وأن حدوث (ل) يجعل من حدوث (ق) أمرًا

(1) يُنظر: مفهوم الموضع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكومبر وديكرو، رشيد الراضي، ص196.

(2) يُنظر: المرجع السابق، ص196.

(3) يُنظر: اللغة والحجاج، العزاوي، ص31.

محققاً؛ بل لأن (م) يعترض (ل) بوجه يجعل من المشروع إعمال موضع أو سلسلة من المواضع تقودنا إلى الملفوظ (ف) الذي يمكن أن نرى قناعاً لسانياً لـ (ق)"⁽¹⁾.

إن وظيفة هذا الموضع إحداث ترابطٍ وتأليفٍ وتألفٍ للحجج ومخرجاتها، وهذه كلها تخضع لقواعد الموضع وليس استناداً إلى طبيعة الوقیعة الخارجية.

وعليه ترى الباحثة أن الموضع هو مجموعة اعتقاداتٍ قياسيةٍ تؤدي لتألف الخطاب وتماسكه، وما يمكن إحداثه من صقل الحجج بنتيجة حتمية تقوى وفقاً لقاعدة هذا الموضع وقوته ودرجة قولبته للمقدمات والتي بدورها تقضي بكليتها لنتائج موافقة لها.

ونصوص المعري كانت ثريةً بالكثير من المضمرات القياسية والمبادئ، نذكر منها: "لا يَكُونُ النَّبِيُّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِلَّا عَالِماً بِجَمِيعِ أَصْنَافِ الْعِلْمِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْآدَمِيُّونَ"⁽²⁾.

وهذا في ذاته وأصله قد انبنى على مبدأ من مقدمة صغرى وهي: إنَّ هو إلا وحي يُوحى.

النبي عالم بصنوف العلم عدا الشعر؛ لأن الله - تعالى - قد خصّه بالرسالة والوحي من عنده والنبوة من بين أبناء البشر؛ فبهذا نسلم ولا لاجبة ولا مرأ في هذه القضية.

أما عن تخطي الشعر دون العلوم؛ فهذا إنما تعبد النبي ﷺ بتركه وهجره، فما هو بشاعر ولا ينظمه لا قريب ولا بعيد؛ فالشعر هوى وما كان النبي ينطق عن الهوى، وكل الآيات هي كلام الله المنزل عليه بواسطة جبريل -عليه السلام-

فالاستدلال كالاتي:

المقدمة الكبرى: لا يكون النبي إلا عالماً بجميع أصناف العلم الذي يعرفه الآدميون.

المقدمة الصغرى: إن ما يتحدث به الأنبياء هو وحي الله إليهم.

(1) يُنظر: مفهوم الموضع ونطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكومبروديكرو، ص200.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، المعري، ص183.

النتيجة: محمد نبي الله وهو موحى إليه، لذلك خصّ بالعلم في جل مشارب العلوم، ولو سُئل لأجاب وأفحم خصمه.

يقول المعري: "أَعْرَكَ أَنَّ جَاهِلًا مِنَ الْقَوْمِ كَانَ يَدْعُو أَمَّكَ فَرَسًا"⁽¹⁾.

هذا استفهام من الصَّاهِل لتوبيخ الشَّاحِج في مظنته وعدم تفريقه بين الخيول والحُمُر؛ فهو بهذا النَّص أقامه كذلك على مبدأ الجاهل من لا يستطيع أن يفرق في نظره بين الأفراس وغيرها من الدواب على الخلاف الظاهر بينها وكلاهما يتميز في نظر العاقل.

الاستدلال:

المقدمة الكبرى: أغرك أن جاهلاً من القوم كان يدعو أمك فرساً.

المقدمة الصغرى: الجاهل بما يعتريه ويلف إدراكه من قلة إدراك لا يستطيع التمييز بين الأجناس.

النتيجة: الصَّاهِل يختلف عن الشَّاحِج بدلالات كثيرة.

والأسماء على مسمياتها حتى في جنس الحيوان وذات الحافر، فالصَّاهِل يعد عدة الفارس في صولاته وجولاته في الحروب وما أشبهها؛ أما الشواحج فما كانت لتعد لمثل هذه المواطن على ضعفٍ فيها فهناك من المفارقات الكثيرة بين هذين الجنسين.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص113.

المَبْحَثُ الرابع: الأفعالُ الكلاميةُ

أولاً- الإخباريات

إنَّ للأحداثِ التخاطبيةِ وظيفةً تكوينيةً تجعلها قادرةً على بناء التراكيب بشتى الصور والألوان، حيث تفصح من خلالها عن إنجاز الأفعال التي لها دورٌ في تأطير عملية التواصل، وإنجاز الحوار بين أطراف عملية الخطاب.

واللُّغة تعمل وفق ترسيمةٍ خاصةٍ قادرةٍ على جعل سياقاتها المختلفة ذات بعدٍ إفهامي، وهذا الفهم يتطلب من المستمع أن يعيَ بدور الكلام الموجه، وذلك من خلال صنفه التي تتشكل منها وما يتمخض عنها من وظائف أبرزها الحِجَاجِيَّة والإفْناعِيَّة حيث تجعل السامع وفق خط سير محدد، يسلم بمضمون الكلام وأنواعه، كي يكون محاوراً سليم المذهب والفكرة، فهو ضمن أفعال الكلام يواجه جملة من السياقات والمقامات التي تجعله على توافق حوارِي حيوي تؤدي لإشراكه ضمن العملة الكلامية التفاعلية.

من خلال هذا الباب نجلو الغبار عن الوظيفة الحِجَاجِيَّة التي تنطوي عليها الأفعال الإخبارية، وغرضها الإنجازي هو وصف المتكلم لإحدى الوقائع من خلال قضية ما⁽¹⁾، ما يميز هذه الأفعال أنها تحتل الصدق والكذب، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، وشرط الإخلاص يتمثل في النقل الأمين للواقع بغير تزيف.

والإخباريات التقريرية قد تزامن ظهورها في رسالة المَعْرِي في إطار حديثه عن عصره، وما فيه من تغيرات وتحولات، ونقده لداء اللجلجة في عصره، لا سيما الجانب الذي قد لازم الرسالة من بدايتها، قبل أن يعطف الخيال على الحوادث الجارية في المقدمة، والتي تحدث فيها عن سبب إرساله للرسالة، ورفع التظلم عن أبناء أخيه فيها، وستذكر الباحثة ذلك مفصلةً لأحكام هذا الفعل الإنجازي.

إنَّ القوة الإنجازية المباشرة للإخباريات تتمثل في: الوصف والإخبار والتقرير.

(1) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي، محمود نحلة، ص49.

أما عن القوة غير المباشرة المستلزمة الضمنية: ما ظهر من تقرير وتعظيم ومدح ودم واستعطاف وتعريض ودعاء وتمنٍ وغيرها.

وعن قوانين الخطاب المستخدمة ضمن التحليل، فهي كالآتي:

- الإخبار: وهو الشرط الواجب خضوع كل تلفظ له، ثم هو ينبني على الحُجّة وهو أساس التقارير، ومنه تنبع قوتها.
- الإفادة⁽¹⁾: وفيه يُدلي المتكلم بما فيه الفائدة والنفع للسامع.
- الشمول⁽²⁾: مفاده أن يُعطى المخاطب من المتكلم قدرًا كاملاً قدر المستطاع وشاملاً عن قضية ما، أو ما قد يهمه من الخطاب ومضمونه.
- الصدق: يتمثل في نقل الحقيقة وعدم التزييف والتلفيق في الحديث وحيثياته.

أولاً: بداية الرسالة وهي الجانب الذي افتقر للخيال والتصوير، وهذا مجال الإخباريات، والتي مفادها الصدق الذي هو أحد أعمدة قوانين الخطاب فيها:

افتتح المَعْرِي رسالته بالبسملة، ثم الصلاة على النبي معلم الناس الخير، ثم التسليم على الحضرة العالية (عزيز الدولة) وكان السياق للإخبار، ويتضمن الاستعطاف والتودد البالغ للحضرة العالية، وعن الحجاج فقد كان مناسباً مستلزماً، والأفعال اللُغويّة ملائمة خلت من أفعال الأمر والجانب الذي يصدر من جهةٍ عليا، فكان ببالغ الأدب يستخدم الجانب الإخباري، دون إنشاء واستعلاء فيه.

يقول فيها: «أُسَلِّمُ عَلَى الْحَضَرَةِ الْعَالِيَةِ نَسْلِيْمَ الْعَاجِزِ الْمُقْصِرِّ، كَمَا يَنْظُرُ الْهَادِي الْمُدْلِجُ إِلَى فَرْقَدِ اللَّيْلِ، وَالْيَمَانِيُّ الْمُشِيمِ إِلَى سُهَيْلٍ. وَأَصْحَابُ الرَّاحِ يَتَعَوَّذُونَ مِنْ مُغْنٍ إِذَا ارْتَجَلَ شُنْمٌ...»⁽³⁾.

(1) القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشر وآن ريبول، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، ص233.

(2) المرجع السابق، ص234.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص81.

هذا إخبار لتصوير حالة المَعْرِي من عزيز الدولة، والحِجَاج فيه مقتبس من التمثيل بصورة العاجز الذي لا يملك إلا تشبيه نفسه بالضال يهتدي بفرقد ليل، وما ساقه من أوصاف أخبر عنها عن شخص عزيز الدولة.

وهذه الرمزيات (هادي، مدلج، فرقد، ليل، يمانى، مشيم، سهيل)، تحمل في خلفيتها قوة وصيرورة حِجَاجية، والذي شحنها بطاقتها الحِجَاجية تكوينها وتركيبها المعجمي أولاً، ثم تداوليتها ووضعها ضمن السياق الكلي، والذي زادها جلاءً وظهوراً وحِجَاجاً وتوافقاً مع مضمارها.

وهذه الخاصية لها في (اللغة والتداول) قد أهلتها لتكون ذات صبغة حِجَاجية، مع ترشيحها لتكون من معجم الخطاب الحِجَاجي وقوام جداوله اللغوية⁽¹⁾، فلكل كلمة -بناءً على تلك الخصائص- حركة تقصي فيها غيرها وتعوضه وتحل محله ليكون الخطاب أوغل في الحِجَاج وأذهب في الإقناع⁽²⁾. فالصور التي تضمنها والأفعال إنما دلت على عجز المتكلم ورقته وحلاوة طبعه وتقديره، وتعظيم المشار إليه، فهو فرقد الليل وسهيل في علوه ورفعته، وكالجبل في شموخه وهيبته، والأوصاف العديدة التي طرزها بحق الحضرة العالية.

وقال: "قَدْ أَضَاءَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ"⁽³⁾.

وهذه جملة خبرية تحتوي على فعل كلامي مباشر، الغرض منه التقرير، والماضي مع أداة التوكيد زيادة أخرى في التوكيد والإخبار.

وقوله كذلك: "وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، أَنِّي اسْتَنْزَرُ لِي(السَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَمِيرِ الْأَمْرَاءِ خَلَّدَ اللَّهُ أَيْامَهُ) كُلَّ كَثِيرٍ، فَلَوْ حَمَلْتُ إِلَى حَضْرَتِهِ الذَّهَبَ لَطَنَنْتُهُ صُفْراً، أَوْ الْإِيمَانَ لَحَسِبْتُهُ نِفَاقاً وَكُفْراً"⁽⁴⁾.

(1) ينظر: الحجاج في القرآن، عبدالله صولة، ص74.

(2) وتسمى تلك الخصائص (خصائص الكلمة الحجاجية)، وتسمى تلك الحركة (حركة الكلمة الحجاجية). ينظر: المرجع السابق، ص74.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص82.

(4) المصدر السابق، ص83.

تبدأ الفقرة بأفعال الإخبار والجمل الدعائية، لتبين مقام عزيز الدولة في نفس المَعْرِي، وتقص عن بالغ الحب الذي استحكم في قلبه وبلغ فيه كل مذهب، فهو ببالغ الثناء يشيد به، ويحاول بكل بلاغة أن يغيث المقام بجماليات الأسلوب، معدداً مناقبه ومحاسنه، ومفاد الأفعال الكلامية التعظيم والاستعطاف، ودعم الأفعال بعلم الله المسبق لحب المَعْرِي لعزيز الدولة، مع إضافة (قد)، فهذه الزيادة فيها من العظمة فوق التعظيم، كون لفظ الجلالة حضر في الجملة.

والججاج ضمن هذا القول قد ينبني على مواضع مبهمّة ضمنيّة، يطالعنا بها السياق ويدلنا عليها، ومنها:

- الأمراء يملكون من الكنوز العظيمة تمكن لهم السلطان والهيبة وتثبت حكمهم.

والواضح من خلال هذه المقدمة المبالغ فيها، أن المَعْرِي يقصد المنفعة ويسير اتجاه التصريح بها، فالقول يدل عليها قبل معرفتها، ونراه عمدًا لتدعيم الجمل الإخبارية بججاج استدلالي من أمثلة العرب، وأقوال الحكماء، والشعراء⁽¹⁾، ليزيد الأفعال الإخبارية حُجّة فوق الججاج الذي يضطلع فيها وفي حكمها واستلزاماتها.

ويكمل المَعْرِي: "لَا جَعَلَنِي اللَّهُ مِمَّنْ يَعُدُّ الصَّرِيَّةَ"⁽²⁾.

وهو فعل مباشر يحمل دلالةً إنجازيةً مباشرة، وهي النهي، والدلالة الضمنية المستلزمة، وهي الدعاء والرجاء، وهنا يستعطف عزيز الدولة ليشده للأمر المعني فيما بعد.

ويتابع المَعْرِي في المقدمة: "وَأَذْكُرُ حَاجَتِي قَبْلَ أَنْ أُبْرِمَ فَأُجْرِمَ، لِأَنَّ مَنْ أَتَى بِالْإِبْرَامِ وَقَعَ فِي عَظِيمِ الْإِجْرَامِ"⁽³⁾.

وهذا تصريحٌ إخباري في ذكر حاجته وسبب إرساله للرسالة، وهو تمهيدٌ لفعل كلامي مستلزم غير مباشر، وهو ذلك التعقيد اللغوي الذي سيأتي بعد الإفصاح عن المباشرة بمعرفة

(1) وقد ظهرت تلك الحجج واضحة ضمن مبحث الشاهد والمثل.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 83.

(3) المصدر السابق، ص 84.

عميق اللُّغة وعوبصها، وهذا قد استبان من قوله: (قَبْلَ أَنْ أُبْرِمَ فَأُجْرِمَ)، وسيأتي الحديث عن الاستلزام الحواري المتضمن ضمن هذه الجملة.

الفعل الكلامي الكلي: وهو ما نتج عن تلك الفقرات المتتابعات الإخباريات كلها، وقد توافدت من أجل تعظيم الملك وإكباره، فكل الأفعال ومستلزماتها الضمنية كانت قد أفادت المعنى العميق الكلي الذي تنبأه الفعل الإخباري من خلال دلالة السياق عليه.

والأفعال الجزئية التي حُطت تحته هي التقرير والحث والإرشاد، فالمتكلم ينبه على عظمة هذا العزيز، ويعرض وينفي ويخبر ويثبت ويثني ويرشد ويؤكد.

الإخبار بسبب إرسال الرسالة:

يقول شيخ المعرفة: "إلي -أطال الله بقاء السيد عزيز الدولة وتاج الملة أمير الأمراء- أولاد أخ قد أودموا على أنفسهم من خدمتي ما ليس بلأزم؛ وأصغرهم سنًا طفلٌ صغيرٌ قد وكل بي في الصبابة، كلما أحس بحمام اليائوسة لدي أحيائها بالحمم؛ إلى غير ذلك من المآرب، لا يمكن قضاؤها بنفسِي" (1).

- السياق: واضح من خلاله يذكر سبب إرسال الرسالة ويخبر عن أبناء أخيه والتظلم الذي وقع بحقهم، ومالهم من حق على المعري واجب الأداء لما يقومون تجاهه من خدمته وتقديم العون له، كونه ضريرًا لا يستطيع القيام على نفسه.
- ومقام القول بعد مقدمة خبرية عقدها المعري، وذكر أوصاف الملك ببالغ الثناء والمدح والتعظيم وما يقدمه المادح بحق ممدوحه.

بنية الفعل الكلامي:

القوة الإنجازية الصريحة: إخباره عن معاناة أولاد أخيه.
"إلي أولاد أخ" ← قوة إنجازية مستلزمة: التماس السماح والعفو من الحضرة العالية والتكريم بالصفح عن الأرض وذويها.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص84.

فهو بهذه الفقرة يطرح الإخبار والمكون الأساس الداعي لبناء الرسالة، ويعرض بالرفع الذي كتب أن حقاً يجب على هؤلاء الأولاد أن يقدموه لخزنة عزيز الدولة.

وقدم المَعْرِي فعلاً إنجازياً فيه تعظيم لمقام العزيز، وهو: (أطال الله بقاءه).

ثم ذكر أولاد أخيه، ودعم الحجة باستلزام مضمر، ومن الحق على من يتلقى المعونة أن يقدم مهمة أوكلت إليه بحق كل الذي يلقاه من مساعدة وتودد منهم، وكان منه أن يقدم الرسالة النثرية وهو مقبل على ذلك ببالغ الاستحياء والخجل فهو يكمل ويقول: "وَكَانَ يَجِبُ عَلَيَّ مِنْ قَرطِ الإِجْلَالِ أَنْ أَقُولَ لَهُمْ... يَا بَعْضِي دَعُ بَعْضًا"⁽¹⁾.

القوة الإنجازية المصرح بها: هي مدح عزيز الدولة وإجلاله.

يَا بَعْضِي دَعُ بَعْضًا

قوة إنجازية مستلزمة: وهي التعظيم بنسبة عزيز الدولة إليه

وكان حبه وثناء هذا الملك العادل يخص المَعْرِي من فرط إجلاله وتقديره له.

فهو بتكرار بعض عبارات التعظيم يحاول أن يلتمس العفو من عزيز الدولة وهو بمكان العبد لسيده، فيقدم أنجع ما لديه من معجم مدحي تلفظي، ومزية التكرار لألفاظ الإجلال فيها تقوية وتوجيه للحجاج الفعلي الإنجازي وإكسابه هيبة حضور، كما وفيه ترسيم لمعالم التصديق التي ترتبت على ما بعده.

وبعد التكرار أشد أثراً في متلقي النص لتعدد أبعاده وما تؤول إليه التراكيب ضمن عملية التكرار، فهو الحامل لإضافات دقيقة الفهم لما كرر مدحه، حيث يستعيد المتكلم ما قاله، ويضيف إليه ما يجعله بعيداً كل البعد عن التماثل التام في تكرار الكلام ذاته⁽²⁾، والمَعْرِي خبير بأنفس الملوك، مطلع رغم قيوده على زوايا القصور وخبايا الملوك.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 85.

(2) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 172.

ومن ذلك قوله في تكرار اللفظ دونما تماثل تام: "وَلَكِنْ حَمَلَنِي أَطِيطُ الْحَاسَّةَ وَعِلْمِي بِكَرَمِ الشَّيْمَةِ، عَلَى النَّهْضَةِ بِغَيْرِ جَنَاحٍ، وَرُكُوبِ الصَّعْبَةِ بِلَا أَحْلَاسٍ. وَأَنَا أَجَلُّهُ لِفَهْمِهِ وَفُطْنَتِهِ، مَثَلُ مَا أَجَلُّهُ لِعِزِّهِ وَسُلْطَانِهِ"⁽¹⁾.

فالمتكلم حين يستعيد ما قاله ضمن الجملة، ثم يزيد عليه ضمن حديثه (وأنا أجله لفهمه وفطنته، مثل ما أجله لعزه وسلطانه)، إنما ينطلق من أمر كي يبني عليه، فما كان مقدمة يصبح حُجَّةً، وما كان حُجَّةً يصبح مقدمةً لحُجَّةٍ أخرى، فقوله أنا أجله نتيجة فهمه وسلطانه، فالفهم والسلطان حُجَّةٌ لاحترام السيد عزيز الدولة، وفيما بعدها يقول: (مثل ما أجله لعزه وسلطانه) فهي كذلك نتيجة أكبر لحُجَّةٍ كبرى؛ وهي العز والسلطان، وهما حجتان لنتيجة الإجلال والتقدير الذي يوليها للسيد عزيز الدولة.

← قوة إنجازية صريحة: وتحمل معنى التقرير والإخبار بشمائل العزيز من فهم وفطنة، وحسن سلطته لرعيته.

← معنى استلزامي: وهو الثناء عليه، ثم حثه على قبول الرسالة بإفاضة معاني التعظيم كلها متكافئة، وهي التي تعمل على إذعانه وقبوله هذه الأطروحات الواردة.

فهو ينهج تبعاً للسياقات السابقة مقصدية رسمها لنفسه، ويخطو على إثرها مدح وتعظيم السيد عزيز الدولة؛ معترفاً بفضله وكرم شيمه، مما جعله يكتب دون قيد⁽²⁾؛ وأطلق لنفسه التحليق في اللُّغة بغير جناح، معتمداً على حدة ضلّاعته باللسان العربي، والتي يقدم اللُّغة من خلاله بحجّاج واضح بين جليّ في عميق الجمل المقدمة بحرص بالغ على اتساق بديعها، يرتجي فيها إقناع الملك والتأثير في حضرته، وهذه النهضة كشفت لحروفه قبس الأنوار بتعنتها من البلاغة والبديع، ثم جمعها ضمن عقد مترابط متراص العبارات الثرية بالحب والود الظاهرين، ثم الاحترام والتبجيل لما يعلم عنه من فهم وفطنة للمدارك والأقوال، ولولا علم المعرّي بذلك ما كانت ليسلط غريب اللفظ على عباراته -وهو مداد القلم العلّائيّ في مجمل أدبه-

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 85-86.

(2) وربما كان القيد من الإحسان المنتظر من عزيز الدولة ومن وجد الإحسان قيّداً؛ تقيداً.

وأسطره في الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ، فهذا قد ظهر على بعدين ضمن الألفاظ بصريها واستلزاماتها المتضمنة المعاني كما ظهر في الترسمة أعلاه.

ويضيف المَعَرِّي ضمن الجانب الإخباري: "وَلِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَرِيضَةٌ لَيْسَتْ بِالْأَرِيضَةِ، هِيَ مِنْ قَلَّةِ الْعَمَلِ كَالْمَرِيضَةِ. غِرَاسُهَا لَيْسَ بِعَمِيمٍ، وَثَمَرُهَا بَيْنَ الثَّمَرِ كَبْنَى يَرْبُوعَ فِي بَنَى تَمِيمٍ؛ إِلَّا أَنَّ أَوْلَئِكَ حُمِدُوا فِي الْعَارَةِ، وَذُمَّ هَذَا حِينَ يُغَيَّرُ. وَحِينَ يُخْتَبَرُ لَا يَطِيبُ مِنْهُ الْخُبْرُ. وَمَا سَقِيَ مِنْهَا بِالْأَبْقِ⁽¹⁾ وَالْأَدِيمِ، فَهُوَ الْعَنَاءُ الْمُنْصَبُ فِي الْحَادِثِ وَفِي الْقَدِيمِ؛ يَشْتَكِيهِ الْمَالِكُ وَمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ"⁽²⁾.

بنية الفعل الكلامي:

← الإخبار: عن أرضِ القوم التي هي موضع الشكوى، فهي لا تسمن ولا تغني من زرع وحصاد، دائمة الجذب لا ثمر ولا شجر.

← قوة إنجازية مستلزمة غير مباشرة، تتضمن أفعالاً كلامية خلف المعنى الأول، وقد تحدث السياق بدلالته عنها؛ وهي:

- الشكوى من حالهم.
- التعريض برافع القضية.
- التماس العذر لهؤلاء القوم وحاجتهم.
- واستعطاف عزيز الدولة على أبناء أخيه.

ويتابع المَعَرِّي بذكر أوصاف هذه الأرض العليلة التي لا أخضر فيها ولا حصاد يُرجى من ورائها، ويخبر عن فقرها وشحها، وبالتالي فقر من يتبع لنسبتها والعاملين عليها.

(1) قال ابن منظور: "وَالْأَبْقُ، بِالْتَحْرِيكِ: الْقَنْبُ، وَقِيلَ: قَشْرُهُ، وَقِيلَ: الْحَبْلُ مِنْهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ زَهِيرٍ:

القَائِدَ الْخَيْلِ مَكُوبًا دَوَابْرُهَا، قَدْ أُحْكِمَتْ حَكَمَاتِ الْقَدِّ وَالْأَبْقَا.

يُنْظَرُ: لِسَانُ الْعَرَبِ، ابْنُ مَنْظُورٍ، ج 9/1.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 89.

ويذكر الشكوى من حالها فغراسها ليس بعميم، وخيرها ليس بالوفير، ويتمثل بذلك الأمثال والأقوال، والأرض من قلة عملها كالمريضة لا خير فيها ولا منها، فهو يذكر الحجج والنتائج بشكل واضح في نثره، وهو بذلك يُكسِبُ نصوصه قيمةً إقناعيةً من خلال العملية الإخبارية التي امتلأت بالطاقة التأثيرية لمتلقي النص وقارئه.

والتماس العذر في قوله: "يَشْتَكِيهِ الْمَالِكُ وَمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ" يقصد فيه الأرض؛ ثم استلزام ضمني للاستعطاف من قوله عن مائه المنتزع: "كَافِرٌ غُفِرَ لَهُ بَعْدَ مَا مَسَّنَّهُ سَقَرٌ"، ويقصد بالمعاناة التي تلحق بالدواب الدائرة حيث يستخرج الماء من باطن البئر من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، ولنا هنا صورة حجاج ساخر تقتضي وجود الرافع الذي حمل الشكوى، فكل البلاء الذي قد بُليت به هذه الرقعة من الأرض كيف بحضرته أن يرفع شكوى على أرض تشتكي قلة إنتاجها وما تتلقاه من رعاية، وهذا قمة الحجاج الساخر المبطن في النص.

وهنا يفرض اللفظ على القارئ أن يعي بقراءتين نصيتين متلازمتين، فتتأسق الخطاب أو تتغامه هو من يفرض ألا يلتقي فضاء حجج الفرضية الواحدة بفضاء حجج فرضية هي مختلفة عنها؛ أدركنا أن الفضاءين يلتقيان متى كان المقام ساخرًا⁽¹⁾، وهنا يسترعي انتباه القارئ لمقولة المعري عن الأرض، والأصل من رافع الشكوى أن يتحرى صحة فاعلية الأرض وإنتاجيتها حتى يصدق عليها إخراج زكاتها وزكاة العاملين عليها، والقراءة الأولى هي ما تمّ ظهوره في النص الأصلي واضحًا جليًّا؛ أما الثانية فما بدر عنه من حجاج ساخر مبطن مقدم من الافتراضات الساخرة وحججها ونتائجها وهي ما يؤول من معان ساخرة ضمن السياق فقوله:

- غرسها ليس بعميم.
- وثمرها بين الثمر كبنى يربوع في بني تميم.
- وحين يختبز لا يطيب منه الخبز.
- وما سقي منها بالأبق والأديم فهو العناء المنصب في الحادث وفي القديم.
- كأن ماءه المنتزع كافرٌ محتقرٌ، غفر له بعد ما مسته سقر.

(1) يُنظر: الحجاج في الشعر، سامية الدريدي، ص 164.

هذه كلها حجج على أن الأريضة -وتصغيرها لاحتقارها واحتقار فقرها- هي مريضة؛ وهنا يتمثل الفضاءان فضاء الحُجّة الأولى ونتيجتها، والحُجّة الثانية ونتيجتها الساخرة وهي المقصد من حديث المَعْرِي، والذي يود إيصاله للمتلقي فاهم الحديث رغم وعورته، فهو المقام الساخر إذن والتسفيه ممن رفع الشكوى وأدّعاها.

ويقول: "تَوَدُّ بِهَيْمَةً أَصْعَدَتْهُ، لَوْ كَانَتْ فِي سَوَادِ ذِي الْقَرْنَيْنِ، تَحْمِلُ أَوْتَادَ خِيَامٍ أَوْ غَيْرَهَا مِنْ أَنْقَالِ اللَّثَامِ، وَتُسَافِرُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَتُرَاحُ مِنْ هَذَا الْبُؤْسِ الدَّرْبِ. إِذْ كَانَ سَفَرُهَا لَا يَنْقُذُ وَعَذَابُهَا يُجَدِّدُ"⁽¹⁾.

الإخبار عن دابة مسؤولة عن المساعدة في إخراج ماء البئر.

والقول الاستلزامي المفهوم من الحديث؛ أنه يكتفي عن الشّاحج نفسه الذي سيجعله محور الشخوص في الرسالة، وهو تلك الشخصية الرئيسة التي تنطلق منها حركة زمن محور البدء، وتتحبك الأحداث وصولاً لنهايتها، والشّاحج معصوب العينين هو أساس تلك الرسالة، ويكاد المَعْرِي يتمثل في شخصه ويطلق أسلوب الفكاهة والسخرية ضمن الإلغاز والتعمية واختبار أبناء زمانه بتأويل عميق أحاديثه وكلامه.

أما الوظيفة الحجاجية من القول المذكور:

سبق وأن ذكرنا أن من وظائف الفعل الكلامي التّداولي والتي ترتبط بمقصدية المخاطب هي الوظيفة الحجاجية، والتي تمثلت في كثير من أشكال الفعل الإخباري في مجمل الرسالة على كافة أشكاله ومقاصده.

وهذه الوظيفة تزيد من القوة الإنجازية للفعل، والتي تحدث عنها كل من (أوستين وسيرل)، لا سيما التي لها ارتباط بوظيفتي التأثير والإقناع⁽²⁾.

فقوله: "وَأَيُّ قُوَّةٍ لِلْمَخْلُوقِينَ؟"⁽³⁾

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص90.

(2) يُنظر: التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ص65.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص92.

هذه حُجَّةٌ فيها استلزام حوارِي، وكأنَّه يقول إنَّ القوةَ لله جميعاً وبنيَّ آدمٍ ضعيفٌ لا حول ولا قوةَ له.

فالفعل وما نشب بعده من استفهام له نجاعة حِجَاجِيَّةٌ ليست لغيره؛ وذلك أنَّ الاستفهام يضخم الخلاف أو يحلّ مسألة عميقة، وكأنَّه برهان استدلالِي، وهنا برهن بشكل قطعي لا مجال للجاج فيه، وهو حقيقةٌ تصدح أنَّ (لا قوة بعد قوة الخالق).

فالوظيفة هنا تودّي بصورة تلميحِيَّة؛ أي أنَّ الاستفهام فعلٌ حِجَاجِيٌّ بالقصد المضمر فيه وفق ما يقضيه السياق⁽¹⁾، (أيّ) فالتعيين هنا واجب أن يرد عليه لا قوة إلا بالله، فتخرج للمعنى الضمني الاستلزامي وهو الاستتكار والنفى.

وغاية الاحتجاج بالاستفهام حمل المخاطب على أمرٍ قد استقرَّ عنده ليعترف به، وهنا يضطلع الدور الحِجَاجِيٌّ بوظيفة إفحامِيَّة⁽²⁾ من خلال الاستفهام بطبيعة المقام والسؤال، فهو يحمل المُتَلَقِّي على الإذعان لما يذهب إليه من فداحة المطروح.

"أيّ قوة للمخلوقين؟"

الاستفهام في هذه الجملة لا ينتظر جواباً؛ وإنما لنفي القوة عن المخلوقات، والله وحده ذو القوة المتين، وهنا تجدر الإشارة أنَّ عنصر المساءلة ضمن المقامات بصورة عامة يولد أهمية بالغة له بعد حِجَاجِي، وذلك من خلال الإشكال الذي يحدثه، فالسؤال والإشكال يتماهيان، فإذا بالسؤال يحيل على صعوبة معرفية تودي بالقارئ لضرورة اختيار، فمتى طرح السائل سؤالاً، فإنه يدعو المُتَلَقِّي إلى اتخاذ قرار من خلال البحث عن الجواب، وحتى إن وجد جواباً، فجوابه يثير أسئلةً عدة⁽³⁾، وهذا ما تمثله أهمية المساءلة من إحداث النقاش والحِجَاج لدى أطراف العملية الكلامية، فإذا بالكلام والحِجَاج متصلان على نحو عميق وإذا بالحِجَاج يتمثل في كل نوع من أنواع الخطاب⁽⁴⁾.

(1) إستراتيجيات الخطاب، الشهري، ص482.

(2) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص136.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص141.

(4) الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص141.

ولما نجيء لتصنيف المعاني التحويلية للاستفهام، يطالعنا نوعان⁽¹⁾:

1- الدلالات الأولية: التي تكون في أغلب الأحيان هامشية جانبية، وهو المعنى المسيطر، أو الأصل، ويقصد به الإنجاز المباشر؛ وهو في هذه الجملة الاستفهامية متعجباً مستنكراً نافياً؛ أي: لا قوة لأحد.

2- الدلالات النهائية: وترى الباحثة أنه يقصدُ بها المعاني الثواني أو معنى المعنى، حيث تتصل بخيطٍ متين بالمقصدية وغرض المتكلم؛ فالمَعَرِّي تصدر عنه هذه الجمل، وهو خبير المواقف المضرس المجرس من الأمور وشدائدها؛ فالمراد ليس السؤال على حقيقته، ولكن ما بعده من دلالات قصدية تضمنها القول من نفي القوة عن البشر.

(1) وهو تقسيم اتبعه الدكتور حسام قاسم في كتابه تحويلات الطلب. يُنظر: الكتاب، ص121.

ثانيًا - التوجيهيات (الأمريات)

هي النوع الثاني من الأفعال الكلامية والتي رسم معالمها النهائية (سيرل)، وتعرّف على أنها: "نوعٌ من أنواع الأفعال الكلامية يستعملها المتكلمون لجعلوا شخصًا آخر يقوم بشيء" (1)، والمسؤول عن شرط المطابقة بين العالم والقول هو المُتلقّي، وغرضها الإنجازي هو توجيه المخاطب إلى فعل شيء معين ومحاولة التأثير فيه (2).

فهي تصدر من جهةٍ عليا على وجه الإلزام، ووجه الحجاج فيها ما ينتج عنها من تأثير في المُتلقّي، فهذه الأفعال تعمل على إشراك المُتلقّي من خلال إصدار ردة فعل تجاه المتكلم. وتنقسم إلى قسمين (3):

- توجيهات نفسية: وهي عبارة عن توجيهات تصدر عن المتكلم، من أجل توجيه المُتلقّي بشكل انفعالي؛ ليحثه ويحرك مشاعره كي يمارس أحد الأفعال أو يمتنع عن فعلها، ومن هذا النوع: العتاب - الطمأنة.

- التوجيهات الطلّبيّة: يتم صدورها عن المتكلم من أجل توجيه المخاطب والتأثير فيه، مع خلوها من الجانب الشعوري - غالبًا - ولا بدّ أن يكون الفعل قابلاً للتنفيذ.

ومن المجالات التي تتفرع عنها: الاستفهام والنداء والأمر، وكلّ واحدة من هذه الأفعال تحوي قوة إنجازية مباشرة وأخرى ضمنية مستلزمة؛ ففي الاستفهام تظهر قوة إنجازية مباشرة، وهي السؤال والفهم، وفي الأمر والنهي (الطلب) إما بالأداء أو الترك.

والقوة الإنجازية المستلزمة؛ هي:

تقريرٌ وإنكارٌ وتمنٍ وتعجبٌ ونفيٌ وتوبيخٌ ونصحٌ وإرشادٌ ووعيدٌ وتهكمٌ، إلى غير ذلك من قوى مستلزمة مقامياً.

(1) جورج يول، ترجمة: قصي العتّابي، التداولية، ص 90.

(2) يُنظر: آفاق البحث اللغوي، محمود نحلة، ص 49، ونظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين

العرب، طالب سيد هاشم طبطبائي، ص 31.

(3) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، على محمود الصراف، ص 216.

والموجهات اللغوية تحمل طاقاتٍ حجاجيةً تستثمر من قبل المتكلم، فتكون قادرة على توجيه الملفوظات تبعاً لمقصديّة المتكلم ومتطلبات الكلام، ومن هنا ينسجم ثلوث الخطاب بالاستلزام الحاصل وفق التوجيهات، وطبيعة الخطاب في الصّاهل والشّاحج قد حوت الكثير من الموجهات في الحوارية التي دارت بين أطرافها.

ومن ذلك قول المعري: "فَأَعْطِ مَالَكَ وَلَوْ مِنْ دَمِّكَ، إِنَّهُ إِذَا كَثُرَ أَهْمُكَ"⁽¹⁾.

← القوة الإنجازية الصريحة: الأمر ورد مصرحاً به، وهي نصيحة لا تصدر إلا من عاقل وكأنه يرمي لغرض مغلف يقصد به باب الملك.

← القوة الإنجازية المستلزمة: هي لتنبية السامع وإرشاده، وفيها شيء من باب الاستعطاف، كونه يطرق برسالته هذه باب الملك، فالزمان والمكان قضية مهمة لمعرفة حيثيات الحديث ومراميه.

أما الإخبار الواقع في قوله: "إنه إذا كثّر أهلك"، فإن المال لا يتكاثر وينمو من ذاته، بل هناك عامل عليه يؤدي لتكثيره، وهو صاحبه.

- بنية سطحية: إذ كثّر المال أهلك صاحبه بتبعاته وما فيه من حقوق وواجبات عليه، فقد يهلك صاحبه بكثرة التفكير والتنقيب والعمل الدائم على تكثيره.
- بنية عميقة: وكأنه من خلال النص يدعو لدلالة أعمق، وهي: (قلل من المال، تعش هانئ البال)، ففي قوله: (إذا كثّر أهلك)؛ يعني حال كثرته ما حاجة المرء له إذ يجعله كثير الهم.

وهنا الخطاب المغلف لعزير الدولة، والذي يفرض جنوده جبايا الأموال على الأراضي العاملة وغير العاملة، ويدعوه للتوسط والاعتدال، لكن عن طريق لعبة اللّغة وذكاء ألفاظها، والاختباء خلف شخوص الرسالة، باستخدام التأثير والإقناع والبيان بالحُجّة والدليل على صحة أقواله ونصحه.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص96.

وقول المَعْرِي ضمن الجانب التوجيهي: "وَفِي أَيِّ شِقْوَةٍ لَا أَضَعُ مُعَلَّى الْقِدَاحِ؟ أَلَسْتُ فِي عَنَبَةٍ الشَّتَاءِ يَأْخُذُ عَبَاةَتِي الْأَجِيرُ فَيَنْدَفَقَ بِهَا فِي اللَّيْلِ، فَأُمَارِسُ قُرَّةَ الْأَشْهَبَيْنِ؟" (1).

الفعل الكلامي:

← فعل القول (الاستفهام): وهو الفعل الكلامي المباشر من خلال لفظة (أي)، ويحمل وراءه قولاً ذا دلالة ثانية.

← قوة إنجازية مستلزمة غير مباشرة: تضمن المعنى الثاني للقول التقرير والتوكيد، فالشاحج يواصل الحديث عن العناء والمشقة التي يلقاها في مكانه، فهو غير معذور ولا متروك رغم ما فيه من عصب لعينه.

والاستفهام ضمن الباب وكل باب يأتي وفق ترسيمة تعينية واجبة، حيث تعمل على إجبار المخاطب الإدلاء بأجوبة يفرضها عليه البعد الاستفهامي الاقتضائي، ويسمى (بلونتين) هذا النوع بـ (الاستفهام الحجاجي)، ولا يكاد يتفق في الدلالة والكيفية المعنوية مع الاستخبار وطلب الجواب؛ بل يتوصل به لإفحام الطرف الآخر، والعمل على إدخاله في مسد فكري خالٍ من الدعائم البرهانية.

وخروج الاستفهام الحقيقي إلى الاستفهام البلاغي التبليغي الحجاجي المقصدي يطرح لهدف في ذاته، وليس لهدف الاستجواب، ويتجلى ذلك واضحاً في التقنيت الإفحامي (2) الذي تفرضه تلك الوظيفة الحجاجية للاستفهام.

وهذا ما يفرضه السياق على السامع بأن لا يذهب بالمعنى الحرفي لاستئصال العلل وتتبع الإجابات وفق النص، بل من الأوجب أن يبني حجته على مضمون القول ومستلزمه، حيث إنّ الطاقات الإقناعية تقوم على المعنى الضمني.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 101.

(2) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 136.

وتذكر (سامية الدريدي) أن (ديكرو) تعرض من خلال نظرية المساءلة لهذا الأمر، وبين أن الافتراضات الضمنية في بعض الأسئلة هي التي تجعل من الاستفهام أسلوباً حجاجياً لأي إجابة، مهما كان نوعها لا بد أن تسلم بتلك الافتراضات⁽¹⁾.

الفعل الناتج عن القول (التأثيري) = هي حالة الاستعطاف التي يحاول المعري من خلالها أن يستثير فيها أحاسيس عزيز الدولة، ويساهم في ذلك من خلال:

الفعل اللغوي ← ومتضمن الدلالة ← والناتج.

ومن أقواله ضمن التوجيه: "فَمَا بَالِي يَا خَالِي، لَا أَعْرِفُ فِيكَ بِشَاشَةً لِلْمَسْأَلَةِ؟ لَا تَكُنْ مِنَ الَّذِينَ إِذَا طُلِبَتْ مِنْهُمْ الْحَاجَةُ سَكَتُوا، وَإِذَا سُئِلُوا فِي الشَّيْءِ الْمَعْرُضِ نَكْتُوا. اسْقِ نُغْبَةً مِنْ صُفْنِكَ⁽²⁾ يَفِيضُ لَكَ رَبُّكَ مَنْ يَمْلَأُ مَزَادَتَكَ؛ وَأَطْعِمِ الْمُقْوِي ثَمَرَةً مِنْ دَجُوبِكَ⁽³⁾ يَحْفَظُ رَبُّكَ حَائِشَكَ⁽⁴⁾؛ وَأَعِنِ حَاطِبَكَ بِالشَّبِّمِ يُعْظِمُ نَارَكَ، وَأَنْصِرِ الْمَظْلُومَ بِالْكَلِمَةِ تَنْصُرَ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ؛ وَاعْدُ الْبَائِسَ أَكُنْ مُعَلِّيكَ، وَكُنِ السَّابِقَ أَدْعَ مُصَلِّيكَ. وَأَعِزِّ الْجَارِزَ مُدِيَّةً يُطْعِمُكَ مِنْ أَطَايِبِ الْجَزُورِ، وَأَعْطِ الْمُورِدَ مَرَسًا يَرَوْ غَنَمَكَ؛ وَلَا تُضَيِّعَنَّ حَقَّ الرَّحِمِ فَإِنَّهُ لَا يُجْهَلُ"⁽⁵⁾.

استهل القول بـ (استفهام)، ثم تلاه قبل النتميم للجملة باعترض فيه (نداء)، وهو من التوجيهات الطلبية كذلك.

- (الاستفهام) فعل كلامي مباشر، تضمّن الاستكثار والتعجب، فهي مستلزمة للمقام وقد جاء إثر إعراض الصّاهل عن حديثه وتعجّبه من مقولاته.
- و(النداء المعترض) للاستعطاف وللالتماس، مستخدماً الأداة (يا)، ثم (خالي) بإضافة ياء المتكلم إليها، زيادةً في الاستعطاف والالتماس.

(1) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص 142-143.

(2) الصّفْنُ (بالضّم): وعاءٌ من جلد كالسّفرة يجعل فيه أهل البادية زادهم ، وربما استقوا به الماء كالذّلّو.

(3) دَجُوبُ: الوعاء، والغِرَارَةُ، أو جُوَيْلَقٌ يكون مع المرأة في السّفَرِ للطّعام وغيره.

(4) الحائشُ: المَجْتَمع من الشّجر نخلاً كان أو غيره ، وهو في النخل أشهر.

(5) رسالة الصاهل والشاحج، ص 105.

- وتألف السياق من (نهى) وهو فعلٌ طلبى للكفّ، وفيه الاستلزام ومعنى المعنى للتعريض بالصَّاهِلِ، مستخدماً قوى إنجازية غير مباشرة تحمل في مضمونها:
- النَّصَح والإرشاد والتوجيه والتحذير، ملتصقاً بذلك حق الخوولة من الصَّاهِلِ، وهذا يعرف من خلال الاستلزام الحواري لسياق الخطاب النَّصِي الذي ورد فيه.

تعديل القوى الإنجازية:

إنَّ الجملَ المتناسقة ضمنَ الإطارِ النَّصِيِّ السابق قد تراتب فيها القول بظهور عدة أفعال كلامية خطابية طلبية، وكل الذي ورد من قبيل تقوية الفعل الكلامي.

وقد افتتح القول بالاستفهام، الذي غرضه التعجب والإنكار؛ ثم قرنه بـ(نداء) يقوي من خلاله فعل الحِجَاج التوجيهي ومعنى المعنى، ثمَّ النهي المصرح بقوله: (لا تكن) مراعاةً للمقام ثم استخدم الشرط (إذا.. سكتوا).

والأمر بعده (اسقِ نغبة من...); وهو للإرشاد والتوجيه كذلك.

فتتضافر الأفعال الكلامية -على تعددها- ساهم في تعديل قوى الإنجاز في القول، وهو يحاول توجيهه لفعل تأثيري يفهم من السياق، والفعل هذا يساهم في تعديل مسار ردة فعل الصَّاهِلِ من خلال الحجج المذكورة، فغايتها كانت للإقناع والتأثير، وهي غايةٌ في الدقة وسلامة المسلك اللُّغَوِي المتبع.

ويحاول المَعَرِّي بصورة ما أن يمثِّل شخصيته بالشَّاحِج الناصح الأمين رهين محبسه معصوب العين.

وقوانين الخطاب من إخبار وتقصٍّ وشمولٍ وصدقٍ وإفادَةٍ، قد اتبعه المَعَرِّي بشيء من الإتيقان والحرفية ضمن سرده لأقوال الشخص، وعمل بمساهمة الفنان البارِع في حياكة لوحة نادرة حية متحركة، قام بصياغة أطرها من الواقع، بغض النظر عن عملية استنطاق الحيوانات، إلا أن الأخبار الواردة كانت سليمة الأصل من لغويات وأدبيات ونحويات، وكذلك صدق الواقع الاجتماعي والسياسي في الفترة التي عاشها، فقد كان مسلكه غاية الصحة بعيداً من التزييف

والتحريف، وكل المستوى التخاطبي على اجتماع شخوصه قد تألف من سلطةٍ سرديةٍ أحادية المنطلق من ذات المَعْرِي، وكان يحرك دُمَاهُ عن طريق اللُّغَة ولعبتها النَّصِيَّة؛ فَالْحَوَارِيَّة التي نتجت عن كليهما مما سبق سرده، يؤول بنا إلى الكشف عن حِجَاجٍ مغلفٍ عميقٍ مكثفٍ بذكاء العارف، قام بتكوينه حِجَاجِيًّا من الدرجة الثانية؛ والتي تهتم بالمعاني الثواني من دلالة المعاني على التوجيهات التي سبق ذكرها من أمريات ونواهِ واستفهامات وطلبات بشكل عام.

وكلها كانت ترمي لإحداث عمليةٍ إقناعيةٍ تأثيريةٍ لدى الطرفين المتحاورين؛ ولنا في ذلك خيرٌ شاهدٍ ما نقله من أحاديث من سيرة النبي مسندة متواترة⁽¹⁾، وقصص الشعراء وأشعارهم، وغيرها من نواذر طريفة في قوامها.

يقول المَعْرِي: "رَعَمْتَ أَنِّي خَالِكٌ؟! وَأَيُّنَ الْآفِقُ مِنَ اللَّئِيمِ وَلَدْتَهُ غَافِقٌ؟ وَمَا بَيْنَ الشَّرْبَةِ وَالصَّرْبَةِ مِنْ سُهْمَةٍ؟ وَمَا قَرَابَةُ الْبَيْدَانَةِ إِلَى الرِّيدَانَةِ؟ لَيْسَتْ الرُّقْلَةُ عَمَّةً لِلشَّيْخَةِ وَلَا خَالَةً. مَا لِلْجَبْسِ الْهَدَانِ وَتَنْسَبُ فِي عَبْدِ الْمَدَانِ!"⁽²⁾.

الخطاب من الصَّاهِلِ يحاور الشَّاحِجَ، ومباني القول على النحو الآتي:

الاستفهام: وهو المباشر الظاهر من خلال القول.

زعمت أني خالك!؟

← قوة إنجازية مستلزمة غير مباشرة: التهكم والإنكار والنفي، وهذا ما جاء وراء الاستفهام ودليل السخرية والتهكم من الشَّاحِجِ على ما ادعاه من نسبة ليست في محلها.

(1) في حديثه عن قصص النسب احتج الشاحج ببعض الأدلة:

- إن العامري ليحس بالسعدي.
- وإن الرجل من بلي ينتصر من فتى من ولد مرة بن عوف؛ وما بينهما إلا صهر البلوية.
- وحسبك بما يعتقده بنو النجار في بني عبد المطلب.
- وزهرة برسول الله ﷺ أحق من بني أمية.

يُنظر: رسالة الصاهل والشاحج، ص105-106.

(2) المصدر السابق، ص110.

وبنية الفعل الكلامي:

حيث إن المقام الاستفهامي فيه مجال يفتح الباب على مصراعيه لطرح الثنائيات الضدية؛ ليكون أقوى في نفي حُجّة الطرف الآخر ودحض شبهه ومغالطاته.

(الآفق⁽¹⁾) و (لئيم).

(الشرية) و(الصرية)⁽²⁾.

(البيدانة)⁽³⁾ و(الريدانة)⁽⁴⁾.

(الرقلة)⁽⁵⁾ و(للشيحة)⁽⁶⁾.

(الجبس الهدان)⁽⁷⁾ و(عبد المدان)⁽⁸⁾.

(السبد)⁽⁹⁾ و(أُبْد)⁽¹⁰⁾.

هذه الأقوال المطروحة وما تمخض عنها من تناقض، لها أثرٌ حجاجيٌّ بثنائياتها المذكورة، ويُعدُّ الاستفهامُ بَيِّن الدلالةِ ضمنَ العمليةِ الحجاجيةِ التوجيهيةِ، فهو يتميز بقدرته على الربط وترتيب الأقوال بشكلٍ متتالٍ، ثم من باب الدلالة قادر على إحداث العملية الإقناعية باستخدامه ضمن عرضه لباب الثنائيات، وأسلوب الحُجّة قد قطع الشك على الشّاحج وما ذهب إليه من سمادير وأقوال مبهمة لا أساس لصحتها-من وجهة نظر الصّاهل-.

(1) الذي بلغ الغاية في الكرم والفضل والعلم.

(2) اللبن الحامض.

(3) البيدانة: الحمارة الوحشية.

(4) يقال: ريح رَوْدٌ لينة الهُبوب

(5) الرُقْلَةُ: النُّخْلَةُ الطويلةُ.

(6) الشَّيْحُ: نبتٌ سُهْلِيٌّ من الفصيلة المركبة، رائحته طيبة قويّة، كثير الأنواع ترعاه الماشية.

(7) اللئيم الأحمق الثقيل الوخيم.

(8) أشراف بني الحارث بن كعب.

(9) السُّبْدُ: طائرٌ مخطّط الريش، واسع الفم، مفلطح الرأس والمنقار، إذا أصابه الماء جرى عنه سريعاً لأنه لئِنُ الريش.

(10) ولُبْدٌ: آخر نسور لقمان.

وقد أدرج (أوستين وسيرل) الاستفهام ضمن الأفعال الإنجازية، على معرفة منهم بخروجه، وتعدد أشكال المعاني الاستلزامية التي يقصد بابها.

وأشار (ديكرو) أن غاية الاستفهام تتمثل في فرض إجابة محددة على المخاطب، يملئها الناشئ عن الاستفهام، فيتم توجيه دفة الحوار الذي تخوضه معه لوجهته التي نريد.

فالأسئلة الحجاجية هنا لها دورها في توجيه رحي الإقناع والتثبت من صدق القول وعدمه، وخروج الاستفهام للنفي والإنكار هو بلاغة الحجاج ذاتها، ويعلق الدكتور (صولة) أن خروج الاستفهام إلى النفي هو عدول نوعي عن الوظيفة الأصلية، وهنا يكمن السر في بلاغة السؤال وتداوليته.

وقوله: "أَمْ عِنْدَكَ أَنَّ (نَعَالِبَ جُلْهَمَةَ) كَنَعَالِبَ صَادَقَتْ مُرْهَمَةً، فَوَبَّرَهَا بِالْقَطْرِ بَلِيلٌ، وَكُلُّهَا إِلَى قَوْتِ الْعَيْلَةِ خَلِيل؟ أَمْ ظَنَنْتَ أَنَّ (ذُنْبًا، جَدَّ سَطِيحٍ) كَذَنْبٍ يَهْتَلِ بِجَدِّ نَطِيحٍ؟ أَمْ (أَسَدًا وَهُوَ أَخُو كِنَانَةَ) كَأَسَدٍ حَمَى الْبُنَانَةَ؟ أَمْ (نَعْلَبَةُ أَبُو قَيْسٍ) كَأُمِّ التَّنْقُلِ حَلِيفِ الْكَيْسِ؟"⁽¹⁾.

فبنية الخطابات في النص السابق تألفت من مجموعة استفهامات حجاجية، وقد قامت على ثنائيات تسمى (ثنائية الهدم والبناء)، سعى من خلالها لتقويض حجة الخصم، والعمل على هدمها، وذلك من خلال بناء حججه على مجموعة أقوال مدعمة حجاجياً من مفارقات سليمة التكوين والأساس من الواقع، وما تربطها من علاقة تصدق عليها عملية الاستفهام الضدي.

الفعل الكلامي المباشر: هو الاستفهام الواضح ذو البعد الحجاجي، والذي يتحقق تماماً بمعرفة المعنى.

الفعل الاستلزامي: فقد تضمن القول السابق معنى التكذيب، وهو (إنكار إبطالي)؛ أي أن ما بعده غير واقع، وصاحبه كاذب ملفق مخطط، والإبطالي يختلف عن (إنكار التوبيخ) في

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص112.

أن التّكذيب أمر غير واقع، ولذلك سمي إبطالي، وهو ما يقوم فيه المستفهم بإبطال وقوع النسبة أي نفيها⁽¹⁾.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن (غرايس) تحدث عن عملية الاستلزام الحواري، وعن عملية الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى الضمني المستلزم خطابياً.

أما القوة الإنجازية الحرفية: فهي المؤشرات اللغوية الواردة في النص.

وَقَالَ أَيُّضًا: "سُبَّ صَاحِبِكَ وَكُلْ خَيْرَيْتَهُ"⁽²⁾، وَلَا تَذْكُرْ فِي ذَلِكَ مَعْرِفَتَهُ، اضْرِبْ عَسِيفَكَ⁽³⁾ وَاغْصِبْهُ قَبْضَهُ، وَاحْذَرْ أَنْ تَقْذِفَ رِيضَهُ"⁽⁴⁾.

صدر الحديث بأمرين في البداية، وهما القول المباشر، ويعقبهما (نهى)، ثم أفعال كلامية ثلاثة، وهي أمر كذلك.

فهو بأمره يستخفّ الشّاحج ويتهكم من ضعفه، وإن كان قد ظهر بلباس الناصح، فالكلام المورى يظهر للقارئ عكس ما يرتسم له من ظهر الحديث، فنبرة القول كلها استهزاء من أفعال الشّاحج وادعائه معرفة أحوال الكلام وتقلباتها، لكن هذه الوقعة الكلامية لا تخفى على الشّاحج ويرد عليها ردًا مؤلمًا فيما بعد.

الفعل التأثيري

الغرض الكلامي للأمر المتتابع والنّهي ضمن هذا الحديث وإن كان يدل استلزامًا على التهكم، فهو يصاحب أثرًا في نفس الشّاحج، مقررًا أن الصّاهل إنما بحديثه هذا يتناقل عليه متهاوَجًا، وكأنه من فصيل ملائكي يخلق بجناحين أو نحوه.

وبنية القول الداخلي الموجه دلاليًا:

(1) البلاغة العربية، وليد قصاب، ص96.

(2) الخيزنة: اللحم الرّخصة اللينة.

(3) العسيف: هو الأجير.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص121.

إنّ هذه الأفعال الطَّلِبِيَّة المعطوفة على بعضها، أدت في ذات الفعل اللُّغَوِي قوة توجيهية حِجَاجِيَّة للجمل المتتابعات متراسة، وكأنه يعاتبه إن كنت قوي بنية اللُّغَة قادرًا على نظم الأقوال فأنت القادر على نظم الأفعال فكن صاحب فعل قبل القول.

وهي حِجَاجِيَّة لُغَوِيَّة قوية الأساس بإنشائه هذه الدلالة من القوة التوجيهية التي كونتها الأفعال الطَّلِبِيَّة وما أدته من حِجَاج بعيد ضمن بنيتها.

فلغة التوبيخ والتهكم كانت حاضرة واضحة الصدى لمن عرف مآل الصَّاهِل ومقصدية من حديثه، ولم يكن الأمر ليخفى على الشَّاحِج.

ثالثاً - التعبيرات

أفعال هذا المجال هي تلك الأفعال التي "يعبر فيها المتكلم عن حالته النفسية تجاه أشياء محددة، أو شخص ما، أو شيء بعينه، أو موضوع أو فكرة"⁽¹⁾.

والغرض الإنجازي لهذه الأفعال هو التعبير عن المواقف وما يتداخل النفس من مشاعر وأحاسيس، بحيث تتوافر فيها شروط الإخلاص، لكنها قد تفتقر لاتجاه المطابقة والمقايضة مع الواقع المحكوم ببيئانه وظهوره، فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات مطابقة للعالم، ولا العالم مطابقاً لها، واتجاه المطابقة هو الاتجاه الفارغ عند (سيرل) وليس هناك شرط محدد للمحتوى القضوي، وعادة ما ترتبط هذه الأفعال بالمتكلم أو المخاطب⁽²⁾، ويدخل فيها عبارات الشكر والتهنئة والاعتذار والمواساة⁽³⁾.

أقسامها:

- تعبيرات اجتماعية: هي التي تتصل بوجودان المتكلم، ولكنها تقتضي مشاركة من المُتَلَقِّي، بحيث يلتفت المتكلم إلى حالة المُتَلَقِّي، كون هذا المُتَلَقِّي مشاركاً أساسياً في الموقف التداولي والججاجي⁽⁴⁾، دونما انتظار ردة فعل منه، ويتابعه المتكلم بملاحظة أسارير نفسه.

- تعبيرات نفسية: تختص بوجودان المتكلم وتعبر عن حالته النفسية، ومشاعره الذاتية، ولا تقتضي الضرورة مشاركة من المُتَلَقِّي⁽⁵⁾.

فالأخيرة (التعبيرات النفسية) قد يولي المتكلم المُتَلَقِّي عنايةً بكلماته والتعبير عما يدور في مخيلة أنفاسه، وفي الجانب الآخر قد لا يُعار انتباهاً من المُتَلَقِّي، فالتعبير يكون أحادي الجانب، ولا يتطلب في التعبيرات النفسية إشراك المُتَلَقِّي ضمن العملية الخطابية.

(1) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، علي محمود الصراف، ص212.

(2) نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، طالب سيد هاشم الطبطبائي، ص30.

(3) يُنظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي، محمود نحلة، ص50.

(4) يُنظر: الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، علي محمود الصراف، ص214.

(5) يُنظر: المرجع السابق، ص214.

ومن صيغ التعبيرات النفسية الواردة عند المَعْرِي: "إِلَى حَضْرَةِ مُوَاسٍ آسٍ، قَدْ بَسَطَ آمَالَ النَّاسِ؛ أَدِيبٌ آدِبٌ مَا هُوَ بِجَدِيبٍ وَلَا جَادِبٍ. كَاذَ يَكُونُ عَدْلُهُ فِي الْآفَاقِ مَطَرًا، وَتَأَرَّجَتِ الْبِلَادُ بِثَنَاءٍ عَلَيْهِ فَهَمَّ الْجَوُّ أَنْ يَكُونَ عِطْرًا. أَقَامَ السُّوقَ لِلْفَصَاحَةِ، وَأَذَكَّى الْقُلُوبَ بِالتَّذْكَرَةِ، وَأَيَّقَظَ الْعُيُونَ مِنْ طُولِ الرِّقْدَةِ"⁽¹⁾.

المعنى الصريح: ورد في النص قوة تعبيرية على لسان المَعْرِي، حيث كان يجريها ضمن شخص الصَّاهِل الذي هو في طريقه لعزير الدولة، وشرع يجمع صفاته ومناقبه ومحاسنه؛ فكل ما ورد من معاني كانت توحى عما في نفسه من تأدب وإجلال لعزير الدولة، وهي كذلك نفس المَعْرِي، وتعكس ما يكنه له من احترام وود.

الاستلزام الحوارية: هي ما ظهر من المعاني الضمنية في الفقرة وهي الشكر والثناء والمدح لهذا العزيز.

أما دور الحجاج في التعبيرات:

اختيار الألفاظ وتنميقها في باب المدح والثناء على عزيز الدولة، كان يعلي من الوظيفة الحجاجية للكلام ومقدماته ونتائجه، وكان سعي المَعْرِي في استنطاقه تلك العبارات المدحية وإيحائه من خلال تسطيرها في جمل كلها حياة تفوح بالألوان؛ إنما يدل على حجاجية صورته التعبيرية، وإبلاغها في نفس السامع الأثر عميق المدارك، وهو يسير من خلال ذلك لزيادة درجة حضورها وفعالية قيمتها الحجاجية.

إن عملية التنويع في ذكر الصور والسعي الحثيث من قبل الكاتب على ترتيب أجزائها وتوافق مكوناتها، يعمل على تفعيل الحجاج وتنشيط تقنياته داخل النص؛ ونرى الجمل الفعلية واستخدام الماضي الذي يدل أسلوبياً على التوكيد والإلزام وثبات الصفة في الموصوف وبُعد أثرها، وكذلك الخلط مع الجمل الاسمية الوصفية، كل ذلك من باب إثراء نبرة الخطاب، وشد الانتباه وإعمال التأثير والجذب لدى السامع، فشخص المَعْرِي لا يخفى عليه هذا الأثر داخل عباراته.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، المعري، ص 95.

وعلى مستوى لغة النص حاول المَعْرِي أن يحدث رجفةً تسير يمنةً ويسرةً في صدر من يتلقى هذه الرسالة، ويقرّع أجراس سمعه كي يعمل ذهنه في استنباط المعاني والبحث الدؤوب عن دلالتها؛ وهي حجاجية نصية أخرى للأفعال الكلامية ضمن معجم التعبيرات العَلَّائية، وهذا ضمن ما يسمى عند (عبدالله صولة) بـ (الحيلة الحجاجية)⁽¹⁾، فهو يحاول من خلال هذه المقدمات على طول ما فيها من ثناء ومدح أن يستعطف عزيز الدولة محاولاً تكثيف البديع اللفظي؛ لإقامة الحجة ببيانه وأسلوبه المتين.

يقول المَعْرِي: "فَضَحَّ الشَّاحِجَ وَقَالَ: مَا هَذَا يَا أَبَا أَيُّوبَ؟ لَقَدْ سَفَهَ حِلْمُكَ وَخَفَّ وَزْنُكَ وَتَفَرَّتْ نَعَامَتُكَ. فَمَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ أَلَيْسَ عَلَى ظَهْرِي يَسْتَقِي رَبُّكَ إِذَا مَرَرْتَ فِي أَسْفَارِكَ فَتَشْرَبَ النَّهْلَ وَالْعَلَّالَ مِنَ الْعَذْبِ النَّاجِعِ مِنْ غَيْرِ طَلَبِ ثَوَابٍ عَلَيْهِ؟"⁽²⁾.

الحمولة الدلالية للعبارات اللغوية التي وردت ضمن الفقرة:

← المحتوى المعنوي: المعنى الظاهر للحديث، هو تسفيه البعير على ما اقترفه من إثم تجاه الشَّاحِج، ذاكراً فضله عليه.

ولا بدّ من الإشارة هنا أن الشَّاحِج هو الدابة نفسها التي ذكرها المَعْرِي في الأرض القاحلة، وذكر صروف العذاب الذي تلاقيه في أرضه، فهو عمل على استئصال هذه الدابة من المكان ذاته موضع الشكوى؛ لينبني الحوار على الصدق، ولنقل مشاعر الألم والعذاب للسيد عزيز الدولة.

← القوة الإنجازية الحرفية: فهي المؤشر المقوي للأسلوب الظاهر وهو الاستفهام وأداته (ما)، فالمعنى الصريح يتألف من هاتين القوتين.

أما المعنى الضمني؛ فمكوناته هي الجزئيات الآتية:

المعنى العرفي: وهو الاقتضاء، وفي هذا المقام اقتضاء تسفيه البعير وتوبيخه على ما صدر منه، وأن يشبه في خفته وقلة فهمه (النعام في طيشها).

(1) في نظرية الحجاج، عبدالله صولة، ص156.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص207.

- القوة الحواريّة الاستلزامية: والبعد الذي تولّد من الاستفهام من تعبيرٍ عن حالة الشّاحج النفسية وما صدر عنه من توبيخ؛ وتصوير المَعْرِي لحالة الشّاحج الشعورية مستخدماً بعض القوى لتعديل إنجازية الحوار وججاجيته، ومنها:
- (فضج الشّاحج): فيها تحول من حال لحال، تستلزم في دلالتها الغضب والسخط.
- (ما هذا يا أبا أيوب؟): المعنى الاستلزامي التعريض بفعل البعير وسوء خلقه.
- (لقد سفه حلمك وخف وزنك!): هنا معنى استلزامي آخر للذم والتعجب.

ويقول: "وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِهَذَا الضَّرِيرِ، لَهُ جُزْءٌ فِي مِلْكِكَ وَهُوَ يَسْمَعُ خَبَطَ حَوَافِرِكَ وَالنَّبَأَةَ مِنْ شَحِيجِكَ فِي لَيْلٍ وَنَهَارٍ، كَيْفَ لَا يَزْجُرُكَ عَنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ إِنْ كَانَ قَدْ عَلِمَهَا مِنْكَ؟ وَكَيْفَ يَصِلُ إِلَى عِلْمِ تِلْكَ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!"⁽¹⁾.

هنا فعلٌ تعبيرِيٌّ عن دواخل نفس أبي أيوب، وما يدور في مخيلته من عجب من المَعْرِي كيف له أن يحوي شاحجاً بهذه الصفات -على اعتبار أنه يفهم ما يبدر منه-.

مبدأ يصيغه التعجب وإبداء العجب، واستخدام اسم الإشارة (هذا)، تنبيهاً وزيادة في تعديل القوة الإنجازية للتعبير المطروح، وأمّا الضرير (يقصد المَعْرِي نفسه) ساخطاً عليه من بشاعة ما سمع من مقالة الشّاحج في مسائل التورية عن سوء فهم لمقاصدها.

(كَيْفَ لَا يَزْجُرُكَ...؟): استفهام ينبئ عن دلالة إفساحية متعددة المشارب، عمل الإنجاز في تناغم مقصديتها التوجيهية.

والمعنى الضمني الذي تولّد عنه: التعجب والزجر والتوبيخ والتهويل، وفيه تخطيطٌ بارعٌ من المَعْرِي الفاهم لتلك المقالة، وما ينتج من خبط حوافر الشّاحج، ثم علم المَعْرِي بأنباء ما يصدر من أصوات شحيج الدابة الملازمة له ولمسكنه ليل نهار؛ وتلك صورة كافية للربط بين حقيقة الدابة التي في بداية النص وكيفية كشفها وإبانتها عن زاهر المعاني ومكاثفة بيانها، على الرغم من أنها مشدودة العين مشبهة بحال المَعْرِي الممتع بفهمه وبصيرته؛ فهو فتيق اللسان

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص240

يحاول أن يعرض لنا شخصية الشَّاحِجِ اللِّسَنَةِ مِنْهُ فَصَاحَتُهُ، ويكشف عن نبوغ في معرفة حدود اللُّغَةِ وغريبها كنبوغه.

والربط التعجبي له دَلَالَةٌ جَوَارِيَّةٌ عَظِيمَةُ الأَثَرِ والإِفْنَاعِ، وتوجيه المستمع نحو المقصد العام من النص المنسوج.

وللمعرِّي صورة تعبيرية حاول رسمها من خلال قول أبي أيوب: "وَلَوْ عَلِمَ كَانَ ضَعِيفًا رَكِيكًا خَلِيقًا أَنْ يَحْتَمِلَ كُلَّ ضَمِيمٍ وَأَنْ يَصْبِرَ عَلَى كُلِّ آذَانَةٍ. وَبَعْضُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ مِنَ الْعَامَّةِ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنَ أَهْلِ الْعِلْمِ. كَذَبَتِ الظُّنُونُ، لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَوَلَبَ مِنْ حَضْرَةِ السَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَمِيرِ الْأُمَرَاءِ - أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ - لِأَنَّهُ كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ: لَا مَخْبَأَ لِعِطْرِ بَعْدَ عَرُوسٍ"⁽¹⁾.

فهو من خلال هذا النزوع، يبوح بحقيقة كافية في صدره وهو يَنْفِثُ عَنْهَا، ويبين عن الذي يدور في خلدِه من حقائق عرفت عن المعرِّي في زمانه، حيث يؤكد على: "وَلَكِنَّهُ، الْمُسْكِينُ لَا يَبْهَجُ لِثَنَاءٍ يُكَذِّبُ عَلَيْهِ"⁽²⁾.

فتمنعه عن الوقوف أمام أبواب الملوك وعتباتهم، إنما هو عفة نفسٍ، وجبهة الكريم وناصيته لا تسمح لعلو خلقه أن يتصنع القول ويبتذله منافياً الصدق والحق متملقاً.

فهو يضع لعزیز الدولة بشكل إيحائي تعبري يفهم من السياق أنه يمتلك من القدرات اللُّغَوِيَّةِ ما تعجز بابه على اجتماع الشعراء والأدباء كافة، لكن أصالته تعجزه عن فعل هذا الصنيع، وهو التكسب بلغته وجمالها وسحر وعمق معجمها، وهذه دلالة ضمنية عَفٍّ مشربها عن الظهور والوضوح، ليس خوفاً؛ بل تأدباً مع الحضرة العالية.

والصورة الخبرية فيها الإنجاز التعبيري، وصناعة تلك الصورة تتم من خلال ما يدور في بال المعرِّي، وما يود إيصاله بلغة غير مباشرة لعزیز الدولة، فهذا الفكر يورق مضجعه، ولا يرى إلا الراحة في الابتعاد عن أبواب التكسب بالعلم والألسنة، وحاجة أدباء عصره كانت تقضى

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 241.

(2) المصدر السابق، ص 241.

عند عتبات الملوك، ولا يرى المَعْرِي العَرَّ إلا بالتذلل على عتبات من خلقه، فضعة النفس وانحدار الكرامة يبدأ من التذلل بالأقوال المتملقة والود الخؤون في غير أهله.

أما عن الجمل أبي أيوب فقد مثَّل وسيلة النقل للمقالة التي دارت في مخيلته⁽¹⁾، وظهرت من خلال ألفاظه ساكنةً مستقرّةً عن ثقةٍ وحياءٍ بطريقةٍ مراوغةٍ يتمثل بها أذكىاء الحروف واللُّغة، لكنه حاول إيصالها بطريقةٍ لبقةٍ مبطنةٍ فيها الكثير من الدلالات.

فالاستلزام الحوارى الواقع فى المقالة إنما هو من باب التعجب الذى يمدُّ جسوره عن طريق التعبيرات النفسية، مخبرًا بزهد المَعْرِي واستغنائه وتعففه، وكل ما فى الأمر هو إلحاح أصحاب الحاجة من أبناء أخيه بإرسال هذه المقالة وتنصيبها لعزير الدولة.

ولا يغيب عن السياق الضمنى الامتتان للملك المقدّر للعلم والعلماء، وأنه جدير بأن يحظى المَعْرِي ببابه، حتى يكرمه ويرفع مكان أدبه؛ فشرط التعبير هو الحديث عن حالة شعورية نفسية يسبقها العزم والنية والصدق فى المحتوى الخطابى؛ ليكون التأثير ناتج الحديث والقول.

وزيادة الإخبار على مجملها افتقرت لـ شروط الملاءمة:

- فقد افتقر النص للفعل القضوي المشروط ضمن العملية الكلامية عند (سيرل).
- هذا وأضف أنه لم يذكر الشرط التمهيدي كون المخاطب لم يطلب ولم يتوجه بأمرٍ صريح إلى متلقي التعبير وهو من الضروري ذكره ضمن الملاءمة عند (سيرل).
- وكذلك افتقاره لشرط الإخلاص كونه لا يريد منه الإنجاز بقدر ما يود إظهار ما فى دواخله من مشاعر تجاه الشّاحج ومقالته؛ فاكتفى بامتطاء تقطيب الموبخ للسامع.

يقول المَعْرِي: "مَا لِحَالِكَ مِنْ غَالِبٍ، فَبُورِكَ صَبَاحُ النَّعَالِبِ. مَا زِلْتَ مَيْمُونًا مِنْ رَهْطِ مَيَامِينٍ، فَعُمِرَ بِكَ نَادِيكَ، وَلَا فَقَدَ خَيْرًا وَادِيكَ؛ وَسَكَنْتَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ الْوَجْرِ⁽²⁾ وَالِدَّحَالِ⁽³⁾،

(1) أعني المعري.

(2) وَجَرُ الْحَيَوَانِ: الْمَغَارَةُ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا فِي الْجَبَلِ.

(3) الدَّحَلُ : نَقَبٌ ضَيِّقٌ قَمَهُ ثُمَّ يَتَسَعُ أَسْفَلُهُ حَتَّى يُمَشِي فِيهِ، الْجَمْعُ أَدْحَلُ وَأَدْحَالٌ وَدِحَالٌ وَدُحُولٌ وَدُحْلَانٌ.

يَبْأَسُ الْكَلْبُ الصَّائِدُ أَنْ يَصِلَ بِهَا إِلَيْكَ، وَمَنْعَكَ فِيهَا الضَّرَاءُ وَالْأَشْبُ مِنْ أَنْ يَطْمَعَ فِيكَ جَارِحٌ
مِنْ الطَّيْرِ؛ وَسَاعَفْتُكَ التُّرْمَلَةُ⁽¹⁾، وَلَا نَأَتْ عَنْ وَجَارِكَ سَمَلَةٌ⁽²⁾.

الدلالة التعبيرية للقول:

المعنى الصريح: في السياق كثير من العبارات الدعائية، والتي حاول أن يشق من خلالها مبالغة في تقدير الثعلب، والذي يجول البلاد ويأتي بالأخبار له، كونه حبيس المكان مقيد الأركان بعصبة عينيه.

المعنى العرفي والاستلزام الحواري: فهي ما ورد عن الأفعال التعبيرية من ثناء ومدح، و العبارات التقديرية التي عبر فيها عن عظيم امتنانه للثعلب، ذاكراً شريف مناقبه، والأسطر على طولها قد ضجت بالمعاني الدعائية؛ وكأن الشَّاحِج يواسي نفسه بذلك من فقدته الأمل من كل من الصَّاهِل وأبي أيوب وعدم نقلهم لمسألتهم؛ فقد سدَّ رمق مسعاه عند الثعلب وحط تأمين آماله لديه، فهو الذي يطوف البلاد، ويأتي بأخبار القوم من مشرق الأرض ومغربها، وكان الشَّاحِج حريصاً على معرفة أخبار عزيز الدولة، ثم من يَفِدُ إليه، فَوَكَّلَ بذلك الثعلب مراسلاً أميناً ناقلًا له الوضع بدقائقه وتفصيله.

والجمل الدعائية مهامها الوظيفية في النص تقوية روابط سياق العبارات، وتعمل كذلك على توجه حجج القول إلى المسار المقصود، وهو قبول الثعلب عرض الشَّاحِج، والتطوُّف بالبلاد، كونه كان مبادراً من الأساس متطوعاً في هذه المهمة التي أعجب بها الشَّاحِج، فهو يسعى لمعرفة كل جديد على ساحة البلاد وبلاط العزيز، ومن يؤمُّه من أدباء وشعراء.

(1) التُّرْمَلَةُ: أنثى الثعالب.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص412.

رابعاً - الوعديات (الالتزاميات)

الصنف الرابع من الأفعال الكلامية عند (سيرل) وهي تعبر عن "التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل" (1).

ويعبر (جورج يول) عنها: "الملزمات، وهي أنواع أفعال الكلام التي يستعملها المتكلمون ليلزمون أنفسهم بعملٍ مستقبليٍّ، وتعبر عما ينويه المتكلم من وعود وتهديدات وتعهدات" (2).

وشرطها العام يرتبط بوجوب تعبير القضية التي يدور إنجاز الفعل حولها بالمستقبل، وشرط الإخلاص فيها يتحقق بوجود القصد جدياً من قبل المتكلم.

وعملية الإنجاز تكون من المتكلم أو من السامع كونه من ضمن المجموعة الخطابية، وفيها يأخذ المتكلم على عاتقه أن يجعل العالم ملائماً للكلمات التي تصدر عنه بحيث يلزم نفسه بالعمل على ما تحدث به.

وهذا لإطار يدخل فيه أفعال الوعد والوعيد والضمان والإنذار، وذكر العواقب من الآليات المباشرة الصريحة والتي تذكر في قول المرسل عن طريق الأوامر والنواهي.

يقول المَعْرِي على لسان الشَّاحِج: "فإن شئت أن تخرج إلي من حق هذا الكلم فتكون قد خرجت من حزب الظالمين، أو أدعو عليك في كل صباح ومساء وجهمة تقبل وهزيع ينصرم وفجر يسفر وشمس تشرق" (3).

- المحتوى المعنوي الظاهر: فيه يدعو الشَّاحِج لحمل الدعوى لتعزيز الدولة، وهو شرط العفو، وإن لم يستجب لهذه الدعوى فسيلزم نفسه (الشَّاحِج) بالدعاء عليه (الجميل) كل صباح وعند كل مساء.

وقد توافرت شروط الملاءمة ضمن حديثه:

(1) الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، علي محمود الصراف، ص211.

(2) التداولية، جورج يول، ترجمة: قصي العتابي، ص90.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص214.

- الفعل المطلوب تحقيقه: وهو حمل رسالة لعزیز لدولة مقتضاها مجموعة من الألفاظ، لها في السمع ظاهر، وفي المعنى باطن، ينحو فيها ما ذكره ابن دريد في الملاحن، وابن فارس في فتيا فقيه العرب؛ حيث أمره بحفظها وحسن تخزينها كي يصل بها إلى عزيز الدولة.
- شرط التمهيد: قدرة الشَّاحِج على إنجاز الفعل والعمل بالوعد الذي أخذه على عاتقه، وهو الدعاء حال عدم تنفيذ الشرط.
- الشرط الأساسي: وهو التأثير وإقامة الحُجَّة على البعير، لينجز الفعل الذي أراده منه الشَّاحِج.

ومن خلال الوعد والوعيد يعبر الشَّاحِج عما سيؤول إليه الأمر مستقبلاً، فإن تتصلَّ الطرف الثاني من الأمر الموكل به، فيعني ذلك قطع حبل الوصل بينه وبين النجاة، وسعى للتركيز وتسليط الضوء على آليات الحِجَاج اللُّغوي تحت الحقيقة القائلة: (دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب) وهي مقدمة انبثاق حِجَاجي، انطلق منها الحِجَاج ليكون أكثر نجاعةً، فحين يعرف ويتبين للقارئ سلامة المسلك الذي جاء فيه القول الحِجَاجيَّ أعلاه، يكاد السامع تنفر ذهنه قرعاً خوف تلك العبارات والوعديات، فالشَّاحِج وقد وقع عليه الظلم لما قامت الفاختة بتفريق التهمة عليه، فهو الآن يأخذ بثأره من البعير.

فقد استخدم المَعَزِّي بعض الوسائل التي تعمل على تعديل القوة الإنجازية ضمن الخطاب الذي شحنه باستخدام الثنائيات التي لها الدور الأساس في تنشيط الحِجَاج وتوظيفه ضمن القول؛ ليدل الطرف الآخر على الإقناع إثر فعل الوعيد الملازم للمعنى الضمني للخطاب، فهو يريد تبليغ المأمول والمراد فعله من باب الوعد، وهو يدير رحي خطابه الوعدي على تلك الثنائيات سواء أكان ذلك على مستوى الكلمة، أو الحِجَاج على المستوى التركيبي للفقرات المتتابعة المعطوفة، فكلها مترابطة تعمل على تقوية حِجَاجية بعضها.

والأفكار التي انطوى النص عليها:

- فكرة النجاة وذلك يتحقق إن أراد البعير تبليغ المراد، ونقل ما سيتلوه عليه من أقوال ضمن باب التورية كي يوصلها للسلطان.
- ومحور حجاجي ينطوي على الالتزام الحواري الأساس في الجملة، وهو الوعد والوعيد وما حواه من حجاج على مستوى الألفاظ المضمومة والمفردة.

من أمثلة ذلك: "(دُهُدُرَيْنِ، سَعْدُ الْقَيْنِ)" ⁽¹⁾ إِنَّ جُرْفَكَ لَمْتَهَدَّمٌ، وَإِنَّكَ لَمُجْتَرِيٌّ عَلَى الْكَذِبِ. وَمَا يَحْسُنُ بِمِثْلِي وَأَنَا مُخْلَفٌ عَامِينَ، أَنْ يَنْفُلَ بَاطِلًا وَلَا يَتَحَمَّلَ كَذِبًا. يَا نَعْلُ يَا وَغْلُ، لُعْنَتُ وَرُعْنَتُ وَطُعْنَتُ! رَبُّكَ مِنْكَ يَنْتَقِمُ" ⁽²⁾.

أولاً- من الأمور الملاحظ رؤيتها ضمن الوعديات أن يتوافر فيه شرط الجدية، حيث يقتضي من المخاطب أن يفصح عن جدية في كلامه، والفعل الإنجازي يكون مقصده: إعلام السامع ما يترتب على وقوعه في المخالفات؛ فالبعير ضمن محدودية فهمه لأقوال الشاحج التي بنيت على التورية ذكر بسخط وغضب ما يمكن أن يحل بهذا الكائن من لعنة وغضب وعار على إثر شناعة لفظه ومعانيه؛ موجهاً النص باستخدام توكيدات أدائية وأسلوبية قديمة البنيان قوية الإشارة لدلالة الضعف الذي دب في قوله.

أضف إلى القول أن ما يخطوه المعري من حجاج متنوع في تصدير الأقوال وفي المواضع والحقائق التي ينطلق منها حجاجه، كل هذه السبل التي يحاكمها لميزان أقواله، تحمل دلالاتٍ ضمنيةً جديرةً بالفهم والمعرفة، لما لها من أثرٍ في تحديد بوصلة الكلام بعدها؛ فالوعد الذي تم

(1) دُهُدُرَيْنِ: اسمٌ لبطلٍ، وللباطل، وللكذب، كالدُّهْرُ.

دُهُدُرَيْنِ: سعدُ القَيْنِ، أي: بطلُ سعدِ الحَدَّادِ بأن لا يُسْتَعْمَلَ لِنِشَاغْلِهِم بِالْقَحْطِ، أو أَنَّ قَيْنًا ادَّعى أن اسمه (سعدٌ) زمانًا، ثم تَبَيَّنَ كَذِبُهُ، فَقِيلَ لَهُ ذَلِكَ، أي: جَمَعْتَ بَاطِلًا إِلَى بَاطِلٍ، يَا سَعْدُ الْحَدَّادِ. وَيُرْوَى مُنْقَصِلًا، دُه: أَمْرٌ مِنَ الدَّهَاءِ، قُدِّمَتْ لَامُهُ إِلَى مَوْضِعِ عَيْنِهِ فَصَارَ (دُوهُ)، ثُمَّ حُذِفَتِ الْوَاوُ لِلْسَّاكِنِينَ، وَدُرَيْنِ، مِنْ دَرَّ: تَتَابَعَ، أي: بِالْغَى فِي الْكَذِبِ، يَا سَعْدُ، أَوْ كَانَ أَعْجَمِيًّا حَدَّادًا يَدُورُ فِي الْيَمَنِ فَإِذَا كَسَدَ فِي مِخْلَافٍ، قَالَ بِالْفَارِسِيَّةِ: دُهْ بَدْرُودَ، أي: بِالْوَدَاعِ، يُخْبِرُهُمْ بِخُرُوجِهِ غَدًا لِيُسْتَعْمَلَ، فَعَرَّبُوهُ وَضَرَبُوا بِهِ الْمَثَلَ فِي الْكَذِبِ، فَقَالُوا: "إِذَا سَمِعْتَ بِسَرَى الْقَيْنِ فَإِنَّهُ مُصَبِّحٌ".

يُنظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص395.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص235.

بقصدية وتوجيه من البعير كان مجاله هو التأثير المحقق للدفع وتوجيه عجلة الحجاج لمساره، وهو الأسلوب المتبع في قوة المعري الكلامية والسردية على امتداد الرسالة.

واستراتيجيته التصريحية من سخط وتوبيخ، قد ساهمت في تأطير بنى العمق المعنوي في القول، وبنيت على إدراج مواضع دقيقة من الوعديات التي انبثقت عنها من معنى المعنى.

ومن الوعديات قوله كذلك: "وَلَوْ سَمِعَ هَذِهِ الْحِكَايَةَ عَنْكَ أَضِرَّاءُ الْمَسَاجِدِ الَّذِينَ يُفَرِّقُونَ فِيهَا الْقُرْآنَ وَيُلْقِنُونَهُ النَّاسَ، لَا يَنْهَلُوا عَلَيْكَ فِي أَعْقَابِ الْخَتَمَاتِ، فَلَقِيتَ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا يَنْعَوِدُ مِنْ قَلِيلِهِ الْكَفَرَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ. وَلَوْ عَلِمَ هَذَا مِنْكَ قَوْمٌ يَتَوَسَّلُونَ فِي الْمَسَاجِدِ يَخْبِطُونَ الْأَرْضَ بِالْعِصَى، لَوَقَفُوا لَكَ فِي بَعْضِ طُرُقِكَ وَخَبَطُوكَ بِعِصِيهِمْ خَبَطَ الرَّاعِي السَّلْمَةَ، فَمَا أَجْدَرَ دَمَكَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ قَرَعًا جُبَارًا؛ وَلَدَيْهَا تَنْسَى مَا لَقِيتَ مِنْ وَبِيلِ الْغُلَامِ الْغَارِمِ الَّذِي يُسْتَأْجَرُ لِسَوْقِكَ"⁽¹⁾.

النص فيه مقدمة شرطية تحفها معالم الطلب، وما له من وظيفة تسمى عند (بيرلمان- وتينكا) بـ(الحجة التداولية). يتمخض عنها قوة تأثيرية وإيعاز بالسامع أن ينتبه للقادم من حديث المتكلم.

ومحور السبب والنتيجة كان له حضور ضمن الحجاج الظاهر، والمقدمة على براعتها تتوسل في ذاتها لإبراز قيمة حجائية⁽²⁾ بطريقة عرضها، والتمهيد للكلام من خلال سياق ألفاظها بأساليب فيها من الإثارة والتأثير بقارئها.

والمعنى الضمني له ما بعده من استئصال الدعاة والود الذي كان قد سلم به البعير لشخص الشاحج، فحال به الأمر والنقطة به الأحوال بعد سماع الفقرة، والتي ارتسم مفادها من التورية إلى توبيخ ووعيد.

والوعديات ضمن الحجاج وثيقة الصلة بمعاني الغضب والسخط، حيث تؤول إلى ما وراء القول من معاني دلالية استنباطية واستدلالات خفية.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص238.

(2) نظرية الحجاج، عبدالله صولة، ص23.

- المحتوى القضوي: وجدناه حاضراً، وهي المعاني التي كشفت عن مصيره من العذاب، وما سيلقى من بشاعته، مما جنى عليه مردود قوله، وما سيلقيه عليه الشياطين من رفقة تسلم على علامات جسده.
- القوة الإنجازية الحرفية: هي الشرط وأدواته (لو)، والتأكيدات الأدائية والأسلوبية.

المعنى الضمني:

- معنى عرفي: وهو اقتضاء ما سيلفاه من عذاب وهوان ومذلة، لو فهم عليه أبناء آدم الحديث الذي قاله في باب التورية.
- المعنى الحوارى الاستلزامي: هو تحذير البعير للشاحج وذمه؛ كونه لم يفهم التورية وما توحى إليه، وبعض الحملات الدلالية التي كونت الوعيد، هي: التعجب، والسخرية، والتوبيخ، والتهديد.

والمعري يحسن الأداء في كل مرة من اختيار المقدمات ومعطيات القول، وما ترتب على طريقة سرده من إعطاء الدور الحجاجي الحي المفعم بالحيوية والارتجال لكل شخص رسالته.

فمقدرته اللغوية البديعة على مستوى اللفظ ومستوى التراكيب الوصفية يكاد لا يشق لها غبار في قدرتها الحجاجية وقوتها التوجيهية للمعاني ودلالاتها، وسبب التميز العلائقي في تدشين تلك القوى ودب الروح في حجاجيتها على أي وجهة أرادها إنما هو عزيز الدولة ومقام المرسل إليه، فهو يتحرى الدقة في تسيير ألفاظه على الوجهة التي أرادها، فنجاعة الألفاظ وكفاءة المعاني كلها استمدت تتميق حضورها وكيان لمعانها من العزيز بدرجة كبرى، ولا شك أن حيثيات العمق قد كان للفظ المعري قبل ذلك فله شطحات الأديب الشاعر والفيلسوف الضارب في خلق النصوص بمنطق نادر ضمن الرسائل العميقة قبل أن تكون الصاهل والشاحج بديعته، فقد ظهر في رسائله كافة قبل ذلك قوي ساعد اللسان، فالقارئ أمام بحر متلاطم من البيان مفعم بإدارة الحوارية لكل شخص يحمل دلالات حجاجية حسن دورها وحسنت مآلاتها وإنتاجية نصوصها.

والوعد في القول من العقوبة والتعوز من قليل العذاب الواقع به، وما يلحق من ضرر بالشاحج، لو سمع رواد المساجد حديثه عن قراء الكتاب؛ وقد جمع بين المشقة التي شكى منها

الشَّاحِج في بداية الرسالة وهي استئجار الغلام الغارم له لسوقه والخروج به في النوادي، وهذا الاستدعاء له أثر في تبرير الحُجَّة المذكورة وإقامة ثنائية العذاب من الغلام والعذاب من أضراء المساجد، فيون شاسع بينهما، واستحضار للتحويل وفضاعة الحدث (لو) سمعوا بذلك القول؛ والترهيب والتخويف في قوله: "فما أجدر دمك عند ذلك أن يكون فرغً جباراً"، أي: هدرًا لا يطالب أحد به وعلى إثره تنسى ما كنت تلقى من شقاء من الغلمان.

الفصلُ الرَّابِعُ

تَقْنِيَاتُ الْحِجَاجِ وَأَنْمَاطُهُ فِي رِسَالَةِ الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ

أ. الحجج شبه المنطقية.

ب. الحجج التي تؤسس على بنية الواقع.

ت. الحجج المؤسسة لبنية الواقع.

تمهيد

ينطلق الحديث ضمن هذا الفصل عن البنية الحجاجية التي أسس لها المعري في انتقاء حججه والإدلاء بها خلال رسالته، فقد انبثت تلك على جملة من المقدمات والتي تتمثل في وقائع وأحداثٍ وافتراساتٍ وقيم، وقد حاول انتقاءها بعناية حتى يظهر لنا حجاجه غاية في الدقة والمتانة موظفًا من خلاله الإقناع والإمتاع في الآن ذاته.

فالوسائل المنطقية وآلياتها تعني جملة الأساليب التي تعتمد قوانين المنطق، والتي تؤدي إن اعتمدناها في الخطاب إلى إقناع المتلقي بما طرح عليه من أفكار، وما عرض عليه من آراء.

وهذه المقاربة المنطقية قد تتعلق ببنية الخطاب، ومنها ما يعود إلى العلاقة بين أقسامه ومفاصله الكبرى، ومنها ما يرجع إلى الحجج والأدلة والبراهين، وتتكشف معرفة الحجة بمطابقة حقيقتها لأقيسة الواقع ومطابقتها إياه، ولكن لا تعد هي إياها، فمبدأ التطابق فيها ليس مطلقًا، فيكون شبه التوافق بين الأجزاء وليس كليتها، ويظهر ذلك من خلال الحجج والأصناف الكبرى التي ستعرض لها الباحثة فيما سيأتي من بيان لبنية المقاربة شبه المنطقية للحجاج في رسالة المعري.

والأصناف الكبرى لهذه الآليات:

1. الحجج شبه المنطقية: Quasi-logical arguments
2. الحجج التي تُؤسس على بنية الواقع: Arguments based on the structure of reality
3. الحجج المؤسسة لبنية الواقع: The foundational arguments for the structure of reality
4. الحجج التي تستدعي القيم: Arguments that call for values
5. الحجج التي تستدعي المشترك: Arguments that call the joint

وستقوم الباحثة بدراسة الحجج الثلاثة الأولى، مع تحليل جزئياتها وعناصرها المكونة لها.

المَبْحَثُ الأولُ: الحجج شبه المنطقيّة Quasi-logical arguments

يقعُ الإشكال ضمن هذه الحجج في إمكان تصنيفها، فقد يعترى القارئ شيئاً من الشكوك في جانب منطقيتها؛ والمفترض في أيّ حُجّة أن تكون منطقيّة أو لا منطقيّة، أما هذه فهي بمثابة المنزلة التي بين المنزلتين فإنها تشكّل إشكالاً محيراً.

ويوضح (بيرلمان) المقصود بها في قوله: "إنها حجج تدعي قدرًا محددًا من اليقين من جهة أنها تبدو شبيهة بالاستدلالات الشكلية المنطقيّة أو الرّياضيّة، ومع ذلك فإن من يخضعها إلى التحليل ينتبه في وقت قصير إلى الاختلافات بين هذه الحجج والبراهين الشكلية؛ لأن جهداً يبذل في الاختزال أو التدقيق فحسب -يكون ذا طبيعة صورية- يسمح بمنح هذه الحجج مظهرًا برهانيًا، ولهذا السبب ننعته بأنها شبه منطقيّة"⁽¹⁾.

إذن فهي تستمد قوتها ورسوخها من مشابقتها للطرائق الشكلية والمنطقيّة والرّياضيّة، فهي تشابهها في تشكيلها، وحقيقتها أن كلّ حُجّة منها تقوم على مبدأ منطقي كالتناقض والتماثل الجزئي أو التام، ومثل قانون التّعديّة، كما وتُبنى على الحجج شبه المنطقيّة التي تقوم على العلاقات الرّياضيّة، مثل علاقة الجزء بالكل وغيرها.

وأصناف الحجج شبه المنطقيّة:

- الحجج شبه المنطقيّة التي تعتمد البُنى المنطقيّة.
 - والحجج شبه منطقيّة التي تستند إلى العلاقات الرّياضيّة
- أ. الحجج شبه المنطقيّة التي تعتمد البنى المنطقيّة، وهي أنواع:

أولاً- التناقض وعدم الاتفاق

المقصود بالتناقض (Contradiction): هو أن تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحداها نفي للأخرى ونقض لها⁽²⁾.

(1) نقلاً عن: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 191.

(2) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص 325.

كأن يقال: (الكتاب في المكتبة؛ بل ليس في المكتبة)، فقضية الخلاف هنا هي قضية مجردة ضمن نظام شكلي واقعي.

ويُقصد بعدم الاتفاق أو التعارض بين قولين؛ وضعهما على محكّ الواقع أو الظروف، أو المقام لاختيار إحدى الأطروحتين، وإقصاء الأخرى لخطئها⁽¹⁾.

فالتناقض يحدث داخل النظام الواحد المشكلن؛ أما التعارض فهو بين علاقات الملفوظات بالمقام، ومن أمثلة ذلك عند المعرّي في رسالته:

قوله: "وَدَمَّ الْقَائِلُ مِنَ الشُّعْرَاءِ دَالٌّ عَلَى فَضْلِ الْمَذْمُومِ، مِثْلَ مَا دَلَّ الْمَدْحُ عَلَيْهِ. لِأَنَّ الْمَدْحَ وَنَقِيضَهُ إِنَّمَا يَكُونَانِ لِمَنْ عُرِفَ وَشُهِرَ"⁽²⁾.

فذكر هذه الحجة من باب الرد على ما ادّعاء الصّاهل في سياق القول، وذكره أن ولد الإنسان قد أحلّ بأسرة الشّاحج الذل والهوان، وأتبع بذلك قبيح المقال، وضرب بهن المثل في الذل والهوان، وقالوا⁽³⁾:

لَعَلَّكَ فِي حَدَرَاءٍ لُمتَ عَلَى الَّذِي تَخَيَّرْتَ الْمَغْزَى عَلَى كُلِّ حَالٍ.
عَطِيَّةٌ؛ أَوْ عَبْدٍ سِوَاهُ كَأَنَّهُ عَطِيَّةٌ زَوْجٍ لِلأَتَانِ وَرَاكِبٍ⁽⁴⁾.

واحتج أن هذه الكلمات سهام ليست ذات ريشٍ ونصالٍ، ثم أقام دعامة حديثه على الحجة التي جاءت هنا للتعارض وعدم الاتفاق؛ حيث نسب الفضل للمذموم والمدح ونقيضه لمن عُرِفَ وشُهِرَ؛ ومن شأن هذا أن يساهم في تدعيم القوة الحجاجية، وإقناع الطرف الآخر

(1) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص325.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص175.

(3) ينسب للفرزدق يهجو به جريراً ويفخر في القصيدة بقومه، ومطلعها:

تَقُولُ كُلِّيبُ حِينَ مَتَّ سِبَالُهَا، وَأَخْصَبَ مِنْ مَرُوتِهَا كُلُّ جَانِبٍ.

يُنظر: ديوان الفرزدق، لهما بن غالب، ص88.

(4) رواية الديوان:

عَطِيَّةٌ؛ أَوْ ذِي بَرْدَتَيْنِ كَأَنَّهُ عَطِيَّةٌ زَوْجٍ لِلأَتَانِ وَرَاكِبٍ.

يُنظر: المرجع السابق، ص90.

المدعي بحجته، فهو يصحح له ما تصوره من واقع باستخدام التناقض المطروح في القول من خلال جمعه بين صفتي المدح والذم وفي ظاهر القول عدم التناسب.

وسبيل الحجاج في حجة عدم الاتفاق إمالة اللثام عن التعارض⁽¹⁾ في ما يطرحه الخصم، حيث يسعى عادة للبحث عن مواطن الهزة الموجه ضمن الخطاب للخصم، أي مواطن التعارض معه.

ومن ذلك قوله: "أَلَسْتُ قَدْ دَفَعْتَنِي عَنْ دَعْوَى النَّظْمِ بِأَنَّكَ اخْتَجَجْتَ أَنِّي أَجْمَعُ بَيْنَ السَّاكِنِينَ فِي صَوْتِي مِنْ غَيْرِ وَقَفٍ يُدْرِكُ النَّفْسَ. وَهَذِهِ الْفَاخْتَةُ، بَيْنَ ابْتِدَائِهَا بِصَوْتِهَا وَسَكَوْتِهَا عَلَى آخِرِهِ، سَاكِنَانِ يَلْتَقِيَانِ لَيْسَا فِي وَقْفٍ"⁽²⁾.

وهذا القول في المعاتبة واستنكار فعل الصَّاهِلِ؛ واعتمد في تصويره على حجة قوامها عدم الاتفاق في أطراف الحديث وأقيسته، كون الشَّاحِجِ قد صَوَّرَ أن كلامه يجمع فيه بين ساكنين؛ ولما أراد أن يستدعي الصَّاهِلِ الفاختة كي تحكم للشاحج في جواز قوله الشعر أو عدمه، وهي في ذات الأمر تفعل ذات الفعل بجلاء بَيِّن لا يحتاج لتفسير وإيضاح.

وهنا يكمن الخلاف في القول والحجة، فالمقابلة لا تكون على حد قول الدكتورة سامية الدريدي بين مبدأ ونتائجه⁽³⁾؛ بل تتعداه لتكون بين فكرة ما ونتائجها السلبية إن قام المستمع بتطبيقها ومعاينتها واقعاً.

ففكرة الخلاف بين عقد المقابلة بينه وبين الفاختة كانت ذات نتائج سلبية؛ لأنها لم تقم على مبدأ العدل في القول، بل الجمع الذي بُني على المتضادات، فكلاهما ينتمي لجنس مغاير عن الآخر قبل كل شيء، فذوات الريش على بعدها من المقاربة بين الشواحي وفصيلتها؛ عدّها الصَّاهِلِ بمنزلتهم من ذوات الحافر من البهائم.

ومن هذه الحجج قول أحد الأعراب:

(1) يُنظر: الحجاج أطره ومنطلقاته، عبدالله صولة، ص326.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص196.

(3) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص194.

أَيَا رَبِّ إِنَّ الْقُرَّ أَصْبَحَ مُؤَذِّيَا وَأَنِّي لَسُبُّرُوتٌ وَمَالِي دِرْهَمٌ⁽¹⁾
فَإِنْ كُنْتُ يَوْمًا فِي جَهَنَّمَ مُدْخِلِي فَفِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمُ

في هذا السياق يحتج المَعْرِي بهذا البيت، ويمثّل من خلاله صورة أحد الأعراب الذين تكالب عليهم القرّ فأصبح مؤذّيًا، فهو الفقير المعدم الذي لا مال في يده يقيه تعاقب الليالي بصنوف البرد وألوانه، أما قوله: (ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم) فهذا تناقض لما هو شائع عند العامة من تعوذهم من سعيير جهنم وزفراتها؛ تناقضٌ مقاميٌّ ولفظيٌّ؛ فكيف يطيب العيش فيها؟ وكيف له أن يربط بين طيب العيش وجهنم في سياق واحد على بعد الفارق بين الهناء والشقاء، والنعيم والعذاب، والرغد والبؤس الذي فيها كائن قبل وجود الأحياء، وفيها يتلقفهم العذاب وهم فيه خالدون مخلدون، فدركات جهنم لا نعيم يسكنها ولا خير في أهلها ومن آل إليها؛ فليلها ونهارها متصلان بسوادهما وقتامة ما فيهما من مصير ومرجع ومأوى.

وهذا إنما هو دلالةٌ على سوء حظ هذا الأعرابي وجمعه من غلواء صدره بين المفارقات، معتمدًا على حُجّة التناقض في الطرح؛ ليقفنت سامعه بمصيره وكيف تطيب نفسه لشيءٍ من الحرّ.

ثانيًا - التماثل والحد من الحجاج

يعدّ من أصناف الحجج شبه المنطقيّة التي تعتمد بُنى منطقيّة؛ والتماثل التام مداره على التعريف⁽²⁾، ويستدعي أن يعمد المحتج لفكرة أو مبدأ إلى التعريف وضبط الحدود⁽³⁾؛ ويعني ذلك تعريف المفاهيم والأشياء أو الأحداث والوقائع، ولكن ما يقدمه من تعريفات لا تنتمي البتة إلى نظام شكلي؛ بل هي بذلك تدّعي قيامها بدور الضبط والتعريف والتحديد رغم افتقارها إلى الدقة

(1) روايته عند الأصمعي:

أَيَا رَبِّ إِنَّ الْقُرَّ أَصْبَحَ كَالِحَا وَأَنْتَ بِحَالِي يَا إِلَهِي أَغْلَمُ

المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين الأبيشي، تحقيق: محمد خير طعمه الحلبي، ص 685.

(2) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص 327.

(3) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص 200.

والوضوح⁽¹⁾، فهو إذن المحدّد ليس تمام المعرّف على الحقيقة لذلك سمّي الحجاج ضمن هذا الموطن حجاجاً شبه منطقي.

من ذلك مثلاً: (الرجل رجل)؛ والمراد: (الرجل هو الرجل).

فهذا من قبيل تحصيل الحاصل؛ لذلك قيل عن مثل هذه القضايا إنّ أحد ركنيها يردّ على الحقيقة، والآخر إنّما يأتي على وجه المجاز⁽²⁾.

فالرجل الأولى حقيقة وهي جنس الرجال؛ أما الثانية من باب المجاز بالأفعال والمناقب والشيم التي تجعل منه رجلاً يُشار إليه بالبنان بكل تلك الصفات والأفعال.

ومن الأمثلة عليها:

يقول المعرّي مستشهداً في باب حذف التنوين⁽³⁾:

كَفَانِي مَا خَشِيتُ أَبُو فِرَاسٍ وَمِثْل أَبِي فِرَاسٍ كَفَى وَزَادَا.

فالشاعر يصف ممدوحه بأنه يكفي من يعود إليه وقت شدته، معتمداً حجة التماثل في وصفه؛ فهو إذ يمدحه يقوم بضبط هذه الصفة وحدها والتعريف المقدم لها والذي بدوره لا ينتمي لنظام شكلي؛ يكتفي في ذكره أن يكون حدّاً ضابطاً لما جاء للتعريف عنه، فدلالة الأخير وتكراره لتأكيد التماثل في أبي فراس، هذا هو المحدد للموصوف من بعده والذي يُعقد عليه التماثل.

والمهم ذكره أنّ اللفظة الثانية دائماً هي من تحمل قيمة الدلالة للفظ، شأن ما تحدثه ظاهرة التكرار⁽⁴⁾، وهذا من قبيل تدعيم الحجة وإبلاغ مطلبها؛ ثم ليتحقق الإقناع والإمتاع في الآن ذاته.

ويقول الآخر⁽⁵⁾:

(1) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص200.

(2) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص327.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص480.

(4) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، ص327.

(5) ذكر ابن دريد البيت في الاشتقاق ونسبه للغساني؛ وهو عدي بن الرعلاء الغساني، شاعر جاهلي، والرعلاء هي أم الشاعر. يُنظر: الاشتقاق، ابن دريد، ص51.

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ⁽¹⁾.

فأعاد لفظة (الميت) ليقوم بحدّها وتقديم تعريف لها استناداً لحُجّة التماثل، وهو في ذات النصّ أقام كذلك حديثه على حُجّة الخلاف والتعارض، فيختلف اللفظ ولا يطابق المقام لما نقول (ميت الأحياء) فهو حي وميت في نفس الوقت.

وبعد هذا من باب المجاز؛ فمن وجهة نظر القائل أن الميت ليس من لفظ أنفاسه وودع الحياة ومن فيها؛ بل هو حقاً ذلك الذي نصب الحياة بين عينيه وعاش فيها كنيباً خائباً لا يُرتجى منه ولا يأتي بجميلٍ يجعل منه ذلك الإنسان محمودَ الفعال طيبَ العشرة كريمَ الخصال، وخموله أودى به إلى موت ذكره بين الأحياء، فموته وحياته سيّان.

والمقصود هنا هي حُجّة التماثل في بيان من هو (الميت)، ووضع ضابط له يعتمد في سياقه؛ لكنه على كل حال يخالف النظام الشكلي المألوف والذي يتصوره أي عاقل، فحدّ الكلمة وجعل لها تعريفاً، والتسوية رغم ما وقع فيها من غموض فهي مقنعة وإن تنافر التركيب من الجمع بين المتضادات، إلّا أن التوافق المعنوي أقام الحجاج وقدم الإقناع على التناقض الجازم بين الطرفين.

ثالثاً - الحُجّة القائمة على العلاقة التبادلية

وقائمة على قاعدة العدل وهي مما يعتمد فيه البنى المنطقيّة، وهذه الحجج تتمثل في معالجة وضعيتين من خلال طرحهما معاً؛ ويتم علاج إحداها بسبيل الأخرى معالجةً واحدة، وهذا يوحي بتماثل الحجتين وإن كانتا بطريقة غير مباشرة⁽²⁾.

والتماثل ضروري من أجل تطبيق قاعدة العدل؛ فهذه العناصر تنتمي إلى صنفٍ واحدٍ بكيفية واحدة⁽³⁾.

(1) ذكره ابن منظور في مادة (موت) وسياق حديثه عن الجمع بين اللغتين وهما: (مَيِّت ومَيِّت). يُنظر: لسان العرب، ج6/4295.

(2) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص328.

(3) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص201.

وقانون المبادلة أو التبادل هو علاقة منطقيّة خالصة غير أن الحُجّة تظل شبه منطقيّة فحسب⁽¹⁾؛ لأنها إسناد الحكم ذاته إلى أمرين ندّعي أنهما متماثلان، والحال أننا لو أخضعناهما إلى دراسة دقيقة لانتبهنا إلى فروق عديدة.

ومن الأمثلة التي قدمها الدكتور عبدالله صولة قول شوقي:

أَحْرَامٌ عَلَى بَلَابِلِهِ الدَّوْحُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جُنْسٍ؟

وذكر عدداً من الأمثلة التي فيها حجج عكسية تدعو إلى تطبيق قاعدة العدل على وضعيتين متناظرتين⁽²⁾.

ويتسع مقام ذكر هذه الحجج وتعددتها عند المَعْرِي، فكان في كل مرة يحسن أداء الاستعانة بها ضمن حديث شخوصه والأبيات التي استشهد بها، ومن ذلك استدلاله بقول الشاعر⁽³⁾:

أُنْحَى عَلَى الدَّهْرِ كَفًّا وَيَدَا أَقْسَمَ لَا يُصْلِحُ إِلَّا أَفْسَدًا⁽⁴⁾.
يُصْلِحُهُ الْيَوْمَ وَيُفْسِدُهُ غَدًا.

فهذه العلاقة العكسية فيها العدالة لما تؤول إليه الأمور والعناصر المنتمية إلى صنف واحد، وتعامل بكيفية واحدة، حيث أقيمت على وضعيتين متناظرتين، فالمعاملة واحدة ما يفعله

(1) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص201.

(2) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص328.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص479.

(4) روايته عند ابن قتيبة في الشعر والشعراء:

أَلْفَى عَلَى الدَّهْرِ رَجُلًا وَيَدَا وَالدَّهْرَ مَا أَصْلَحَ يَوْمًا أَفْسَدًا.

أما ذكره للعنوان الذي أدرج تحته البيت كان عن قديم الشعر الذي قاله أوائل الشعراء؛ فذكر قولاً لدويد بن زيد بن نهد القضاعي وهو شاعر جاهلي، ثم قوله: "وقال (الآخر)" بضمّ آخره؛ ولو كانت مفتوحة لجزمنا القول أن نسبته لدويد القضاعي تأتي في ذيل القول الأول له كما ذكرت الدكتور عائشة، وعدت نسبته لـ(دريد القضاعي) وصوابه دويد (دود) -ولا نجترئ على علمائنا بل نؤدي زكاة العلم ما استطعنا لذلك سبيلاً-. وفي أمالي المرتضي ذكر قصة المعمر دويد بن زيد وهو يحكي وصية لأبنائه وأتبعها بالبيت الذي ذكره ابن قتيبة منسوباً إلى أوائل الشعراء، ثم البيت الذي نحن بصدده برواية أبي بكر بن دريد. يُنظر: أمالي المرتضي، للشريف المرتضي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج237/1.

ونسبته في حماسة البحرني لسليمان بن المهاجر وهي مطابقة لرواية ابن قتيبة، يُنظر: حماسة البحرني، لأبي عبادة البحرني، تحقيق: محمد إبراهيم حور وآخر، ص422، ويُنظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، ص104.

الدهر من إصلاح يأتي الغد ليفسده بتعدد ألوان الفساد فيه وأشكاله، فلا شيء يبقى على حاله، والمماثلة هنا ضمنية تبدو من خلال القول لإقامة الحُجّة والدليل والإقناع بأن كل شيء يهلك وإلى فساد، ودوام حاله من المحال.

وهذا المبدأ ضمن الحجج أقيم على القاعدة التبادلية أي معاملة الأطراف بالمعاملة ذاتها، فالإصلاح تغشاه سكينه الأيام لفترة معلومة، ثم هذا الوفاق والهدوء يغزوه شتات الزمن وعوامل التغيير المناطة بحقيقته.

وقدم قول الشاعر⁽¹⁾ تمثيلاً آخر على الحُجّة القائمة على التبادلية:

ولمّا رمى شخصي رميتُ سواده ولا بُدَّ أن يُرمى سوادُ الذي يرمي.

وهنا احتكم الشاعر إلى مبدأ منطقي وقاعدة العدل والتي مقتضاها (ضع نفسك مكاني)، وهذا مذهب (ليونال بلنجي) والذي يرى أن الحُجّة التبادلية في معناها العام تمثل هذا الجوهر والاعتراض الشائع⁽²⁾، فلما رماه ما كان من الشاعر إلا أن رمى سواده وهنا يمكن الشاعر لألفاظه وبقيمها على قاعدة التبادل ولكل فعل ردة فعل؛ وكما يقول المتنبي:

وَمَا مِنْ يَدٍ إِلَّا يَدُ اللَّهِ فَوْقَهَا وَلَا ظَالِمٍ إِلَّا سَيِّئِلَىٰ بِأَظْلَمٍ.

والرمي كان في البيت مردود على مَنْ رمى والظلم مردود على الظالم؛ فالعلاقة واضحة في الحُجّة وبيانها ورجحان الكفة قد أُسس على قاعدة العدل المطروحة ضمن حُجّة التبادل؛ والتي حدث فيها التماثل ضمنياً في الوضعيتين، فلما أسند الرامي سهمه صوب شخص الشاعر ما كان منه إلا أن يبادل الرماية ردّاً على اعتدائه.

فأقام الحُجّة بناءً على التماثل الحاصل وإقامة التبادل والعلاقة العكسية، وكم في زوايا الكلام والشعر من خبايا لا تتكشف إلا لمن أطال النظر في بناها التي تقام على الحجج وعلاقاتها.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 489.

(2) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص 201.

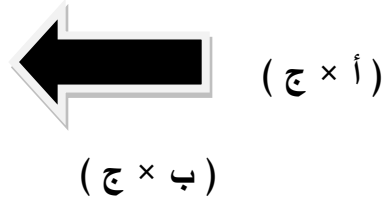
ب. الحجج شبه المنطقيّة التي تعتمد العلاقة الرياضيّة

تعتمد هذه الحجج علاقات رياضية في مجملها، والذي يعمل على بنائها ونسجها خلفيتها العميقة وتماسك أجزائها الداخلية، ويعمل هذا على تشكيل قوامها الحجاجي ومعينها الإقناعي⁽¹⁾، ومن أمثلة هذه الحجج:

- حُجّة التّعديّة.
- تقسيم الكل إلى أجزاء.
- الاشتغال.
- حُجّة قائمة على الاحتمال.

أولاً- حُجّة التّعديّة Infringement argument

تعدُّ أهم الحجج التي تعتمد العلاقات الرياضية؛ والأساس الذي تقوم عليه حُجّة التّعديّة المعادلة الرياضيّة الآتية: $(أ \times ب)$



بيان القاعدة: "العنصر (أ) في علاقة مع العنصر (ب) تربطه العلاقة ذاتها بعنصر ثالث (ج) ووفق مبدأ التّعديّة فإن العنصر (أ) تربطه نفس العلاقة بالعنصر الثالث (ج)"⁽²⁾.

والتّعديّة خاصية شكلية تتصف بها مجموعة من العلاقات، والتي تتيح للقارئ أن يثبت أن العلاقات الموجودة بين عنصرين (أ و ب) و (ب و ج) هي علاقة واحدة وإلى استنتاج أن العلاقة ذاتها موجودة بالتالي بين (أ و ج)⁽³⁾.

ويتمّ الوصول إلى هذه العلاقة يتم من خلال الإثبات والقياس المؤدي بدوره إلى الاستنتاج.

(1) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص203.

(2) يُنظر: المرجع السابق، ص203.

(3) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص328.

من ذلك ما ورد في رسالة المَعَرِّي⁽¹⁾:

أَلَا لَا يَجْهَلُن أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا⁽²⁾.

فهو يحتج بجهله بمن يجهل على قومه مستنداً على حُجَّةِ التَّعْدِيَةِ؛ وتمثيل ذلك باستخدام قانون التَّعْدِيَةِ:

من يجهل على قوم الشاعر يجهلون عليه جزاءً وعقاباً. (أ × ب)

عدو قومي أنا عدوه.



الجهل على قومه يثير غضبه وتعصبه لهم. (ب × ج)

فالعُدو يستحق معاداة القوم ومعهم الشاعر فعُدو القوم عدوه؛ إكراماً للقبيلة وانتماءً لها؛ فالجهل الأول قبيح وربما غير مقصود، والثاني على طريق الجزاء فليس بقبيح على سبيل التعدية وهو مقصود في ذاته.

وقانون التعدية الذي جرى تطبيقه وفق النص أعلاه مذهبه أن من آذى القوم سيؤذى؛ كونه مسَّ جزءاً من كيان الشاعر وخصوصياته؛ بل أكبر الخصوصيات، وهي القبيلة عند الجاهلي والعربي بشكل عام، فهو الذي كان يغضب لجرح القوم ويكي لبكائهم ويكون طرفاً مهماً في أخذ الثأر لها، أما اليوم فقد تحولت سيوف العربي لخشبٍ يعرضُ فيها مهزلته وضعفه أمام الأمم قاطبة لا يدرك مجد أبائه وثورتهم يوم كان لهم عزة فأعزهم الله.

وعمد الشاعر إلى تماثل الألفاظ تجويداً لها ومبالغة في إيقاع الأثر في نفس المُتلَقِّ فالجزاء بالمثل قولاً وعملاً، والغرض منه من عادى القوم فقد أذن بالحرب، والجهل ليس مكافئاً للذي سبقه؛ بل سيكال لهم صاعين من الجهل وفوق الجهل مرارات وحكايات.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص553.

(2) لعمر بن كلثوم في معلقته من الوافر، والتي مطلعها:

أَلَا هُبْنِي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي، عمرو بن كلثوم، تحقيق: إميل بديع يعقوب، ص64.

ومن الأبيات المستشهد به:

نَارِي وَنَارُ جَارِي وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تَنْزِلُ الْقَدْرُ⁽¹⁾.

اعتمد الشاعر⁽²⁾ علاقة التَّعْدِيَةِ في التوفيق بين النارين، فنار الجار هي ناره، وناره هي نار الجار، فهي واحدة وهذا مبالغة في الكرم وحق الجيرة وللجار ينزل القدر أولاً، ثم لصاحبها، وهذا آية في حسن الجوار.

والتَّعْدِيَةِ ضمن هذا البيت أقيمت على علاقة التساوي، واعتمد فيه على قول مجزوء يتمتع بمظهرٍ منطقيٍّ قويٍّ في الإشادة بحسن الجوار وبسط المعروف وكف الأذى فكلها تدخل تحت الإحسان للجوار؛ فصالح الدار من صلاح الجار وهذه تعديّة بحق معناها ولفظها.

ويقول شاعرٌ في بيتٍ على سبيل الاستشهاد:

ذَكَرْتُكَ ذِكْرَةً فَاصْطَدْتُ ضَبًّا وَكُنْتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ لَا أَخِيبُ⁽³⁾.

وهذا الشاعر يعدُّ ذكرى حبيبته وزيارتها خاطره أساساً لنجاح أعماله ودقة أهدافه، معتمداً حُجَّةَ التَّعْدِيَةِ في صوابه.

وأهم علاقات التَّعْدِيَةِ ذات الصبغة الجَجَاجِيَّة علاقة التضمن (inclusion)، وهذه العلاقة المنطقيَّة تبيِّن أن هناك قضيةً تتضمن قضيةً أخرى؛ فذكرها هو الأصل في الاصطیاد وعدم الخيبة؛ وكلما ذكرها ارتبطت الإصابة ودقة الهدف بها وحدها، فتضمنين الذكرى للاصطیاد هو سرُّ قيام التعديّة وتضمنينها بواسطة العلاقات، وكلما لمعت في خياله ذكرها كلما اصطاد ووفَّق في إصابته.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص571.

(2) وهو مسكين الدارمي: ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح، وبنو دارم من حنظلة بن تميم من العدنانية، كان شاعراً مجيداً سيّداً شريفاً؛ ومسكين لقب غلب عليه. يُنظر: ديوان مسكين الدارمي، تحقيق: عبدالله الجبوري وخليل إبراهيم العطية، ص45. وترجمته: الأغاني ج20/352، ومعجم الأدباء ج4/1299.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص148.

ثانياً - تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له

وتسمى كذلك حجج التقسيم أو التوزيع، كقولنا: الكلام اسم وفعل وحرف، والشرط في نجاح حُجَّة التقسيم أن يكون تعداد الأجزاء شاملاً⁽¹⁾، ويعدُّ هذا الصنف الذي نصه على (تقسيم الكل إلى أجزائه)؛ لبيان أن حكماً ما ينطبق تبعاً على الكل وأجزائه.

أما عن تصنيفها ضمن الحجج شبه المنطقيّة يبدو ذلك مقنعاً؛ كون الأقسام لا تعبر بدقة عن احتواء الشيء من جميع جوانبه موافقةً له في حدوده وقياساته ومكوناته الدقيقة؛ وأما عن صبغته الرياضيّة فهي واضحة؛ ويذكر (ليونال بلنجي): "إن الإشكال الذي تطرحه هذه الحُجَّة يتعلق بالقيمة الذاتية التي تستند إلى كلّ جزءٍ من الأجزاء، ويشبه علاقة الكل بأجزائه المكونة له بقطعة أدراج"⁽²⁾.

وذكره الدكتور عبد الهادي الشهري ضمن الآليات البلاغيّة وسمّاه بتقسيم الكل إلى أجزائه: "قد يذكر المرسل حجته كلياً في أول الأمر، ثم يعود إلى تفنيدها وتعداد أجزائها، إن كانت ذات أجزاء، وذلك ليحافظ على قوتها الحجاجيّة، فكلُّ جزءٍ منها بمثابة دليل على دعواه"⁽³⁾.

فيبدأ الكاتب بإدلاء حجته الأم، ثم يولّد لإثباتها مجموعةً من الأدلة لتقويتها حجاجياً، ولا تذهب فكرة تقليل الأدلة بتضعيف دور الحُجَّة وإلغائها أحياناً؛ فكلما حُذِف أحد الأدلة بطل عمل الحُجَّة وصارت أقرب إلى اختفائها.

وهذا بدلالته الاصطلاحية ذكر الشيء ثم تفصيله وذكر أقسامه؛ هو يعرف عند أهل البلاغة بـ(التقسيم)، فالمتكلم يعرض طرحاً نصياً يستقبل فيه وجه متلقيه بتعداد مجموعة حججٍ لنتيجة واحدة؛ تقوي هذه الحجج دور الأطروحات وفاعليتها داخل النص وخارجه بتفاعلها مع إقناع المتلقّي وإذعانه.

(1) ينظر: الحجاج أطره ومنطقاته، ص 331.

(2) نقلاً عن: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص 203.

(3) إستراتيجيات الخطاب، الشهري، ص 494.

يضطلع التقسيم كما غيره من الحجج بدور هام في تكريس دوره الحجاجي، وتقوية الكلام وتفعيل كيانه وديمومة مقصديته، فإمكانيات التقسيم الحجاجية بالغة الأثر وأشد اختصاراً لميزانية الكلمة الزمنية، وكذلك لبنائية الجملة وتركيبها.

وعند المعري كثر وتعدد ذكر التقسيم وتفرعاته لكثير من الأمور التي هو خير بأجزائها، وستعرض الباحثة لذلك عن طريق طرح الأمثلة ومدى تحقق الحجاج وفكرته الأساسية من إقناع في تلك النصوص.

يقول المعري: "وَقَالَ الرَّجَزُ ثَلَاثَةً"⁽¹⁾: فَرَجُلٌ لَمْ يَرَوْ عَنْهُ غَيْرُهُ، ك(رؤية، وهيمان ابن قحافة)⁽²⁾ وَغَيْرُهُمَا، وَرَجُلٌ غَلَبَ عَلَيْهِ الرَّجَزُ وَرُبَّمَا جَاءَ بِالقَصِيدِ، ك(أبي التَّجَم، والأغلب العجليين). وَرَجُلٌ كَانَ القَصِيدُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا جَاءَ بِالرَّجَزِ ك(جبرير، وذو الرُّمة). وَرُبَّمَا لَمْ يَرَوْ عَنْ الشَّاعِرِ رَجَزٌ أَلْبَنَتْهُ مِثْل (زُهَيْر، وَطُقَيْلِ الغنوي، وَقَيْسِ بْنِ الخَطِيم)⁽³⁾.

فقسّم المعري أصحاب الرجز ثلاثة أقسام:

- الأول: من قاله ولم يرو عنه أحد.
- والثاني: من غلب عليه قول الرجز لكنه قال القصيد كذلك.
- والثالث: قال الرجز لكن غلب القصيد على رجزه.

فهذه قسمة ثلاثية لقائلي الرجز، فذكر الحُجّة بكلّيتها في بداية النص، وبعدها فرّع هذه الحُجّة بأدلتها الثلاثة، ولو حذف إحدى هذه الأدلة لضعفت الحُجّة في دعواها.

ففي النهاية أصحاب الرجز ثلاثة وتقسيماتهم حاضرة.

(ن/ك: أصحاب الرجز ثلاثة)

(1) يبدو أن المعري لديه تحفظ على الرجاز وطبقاتهم فهو يراه من أسف القريض وأثار قضية الرجاز وجعل لهم مكانة دنيا في جنة الغفران في رسالته الموسومة ب(رسالة الغفران).

(2) شاعر، راجز، من بني عوانة بن سعد بن زيد بت مناة ابن تميم، ويقال أحد بني عامر بن عبيد بن الحارث، وهو من شعراء القرن الأول الهجري. ينظر ترجمته: المؤلف والمختلف ص261، ومعجم الشعراء ص547.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص189.

رجل لم يرو عنه غيره. (ح 1)

ورجل غلب عليه الرجز وربما جاء بالقصيد. (ح 2)

ورجل كان القصيد أغلب عليه وربما جاء بالرجز. (ح 3)

فهذا التقسيم لا رابع له؛ من خلاله عرض أن الرُّجَاز ثلاثة، وأنَّ أطروحته بعرضه لأنواع هؤلاء على اختلافهم روايتهم.

فتلك الحجج ثلاثتها تخدم نتيجة واحدة، فكلاهما يتشدد للآخر بمعرفة أصيلة بتراث الشعر والرجز ويبدع في إظهار حججه في تلك المعرفة، وكل منهما يبدع في ذكر محفوظاته عنه وعن أصحابه.

يقول المَعْرِي: "وَأَمَّا ذَمُّكَ بَنِي آدَمَ وَصِفَتُكَ إِيَّاهُمْ بِالْعُنْفِ الْمُفْرِطِ، فَإِنَّ إِحْسَانًا سَبَقَ فَرِيقَ، وَإِكْرَامًا مَا تَرَكَ لَكَ مَرَامًا: بَعُوكَ الْعُضَّ بِالذَّهَبِ فَأَطْعَمُوكَ، وَقَرَّبُوكَ فِي الْمَنَازِلِ فَأَكْرَمُوكَ، وَحَبَّوْكَ فِي الرَّبِيعِ الْبَاكِرِ نَضِيرًا، وَسَقَوْكَ فِي الزَّمَانِ الْوَمْدَ بَارِدًا نَمِيرًا، وَلَحَفُوكَ بِثِيَابِهِمْ فِي الْقَرَسِ وَأَثَرُوكَ عَلَى عِيَالِهِمْ بِالْقُوتِ وَاللَّبَنِ، وَصَانُوكَ أَنْ تَنْزُرَ فَتَضَعَفَ قُوَاكَ، أَوْ تَطْرُقَ حَلِيلَاتٍ لِسِوَاكَ؛ فَيَجِيءَ وَلَدُكَ مَشْهُورًا فِي الْحَيَوَانِ!"⁽¹⁾.

يلجأ المَعْرِي عن طريق مرسل نصّه بإيراد حجج بالغة الأثر لما أنكر الصَّاهِلَ على بني آدم عدم حفاظهم للود والخلة، حيث قال فيهم: "وبنو آدم كما علمتُ، لا يحفظون الخلة ولا يراعون الخدمة"⁽²⁾، فيقدِّم هذه ليعلي من شأن الحجج الداحضة لمقالة الصَّاهِلِ، وقدمها عن طريق التقسيم البلاغي المتبع فذكر أفضالهم على شكل تدريجي ليقنع الصَّاهِلَ بمقالاته، وتعاقد الحجج وبنائها على التقسيم فيه شيء من القوة في الادعاء وقطع الشبهة على المُتَلَقِّي بأن يذعن ويسلم لقول المرسل في دعواه، فهذا البرهان متعدد الحدود، ويتناول حقائق مختلفة وكلها تقود لنتيجة واحدة وهي إنكار الصَّاهِلِ وذمّه لبني البشر.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص173.

(2) المصدر السابق، ص118.

تحدث عن حاجات كل حيوان من طعام ومأوى ومشرب وقدمها على شكل أطروحة
حجاجية مقسمة كالآتي: (ن/ك: ذم الصَّاهِل لبني آدم وإنكاره فضلهم).

- ← بغوكَ العُضَّ بالذهب فأطعموك. (ح1)
- ← وقربوك في المنازل فأكرموك. (ح2)
- ← وحَبَّوكَ في الربيع الباكر نضيرًا. (ح3)
- ← وسقوكَ في الزمان الومد باردًا نميرًا. (ح4)
- ← ولَحَفُوكَ بثيابهم في القرس. (ح5)
- ← وآثروك على عيالهم بالقوت واللبن. (ح6)
- ← وصانوك أن تنزو فتضعف قواك. (ح7)

وهذه الحجج كلها دلائل لإكرام بني آدم، ونتيجة ذلك كله ذم الصَّاهِل للبشر وإنكاره فضائلهم وتكريمهم لدوابهم، وتوسل المعرِّي لإظهارها عن طريق التقسيم البلاغي وهذه من شأنه أن يعلي من التأثير في نفس المُتلقِّي.

ومن ذلك قول المعرِّي مستشهدًا بقول الشاعر⁽¹⁾:

يَا أَسْمُ صَبْرًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَدَثٍ إِنَّ الْحَوَادِثَ مُلْقِي وَمُنْتَظَرُ⁽²⁾.

ولبيد يذكر حقيقة لا بدَّ منها فحوادث الزمان وصروفه متنوعة تأتي الإنسان على غفلة ودون سابق ميعاد، وقد ينتظره حادث لا بدَّ من وقوعه، فهما طرفان يوضحان المقام تماشيًا مع الموطن الحجاجي المطروح.

وهنا المبدأ يسمَّى بالبرهان ذي الحدين، وهو عند (ببرلمان وتيتكا): "شكل من أشكال الحجج يتناول فرضيتين؛ ليستنتج أنه سواء وقع الاختيار على الأولى أو الثانية نصل إلى الفكرة

(1) وهو للبيد بن ربيعة العامري في ذيل ديوانه، يُنظر: ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص233. وبعض المصادر تنسبه لأبي زبيد الطائي.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص442

نفسها أو الموقف ذاته، وذلك لأحد الأسباب الآتية؛ فإما لأنهما تقودان إلى النتيجة ذاتها، وإما لأنهما تقودان إلى نتيجتين لهما نفس القيمة (ويكونان عادةً أمرين يخشى حدوثهما)، أو لأنهما يقودان في الحالتين إلى عدم الاتفاق مع قاعدة تنقيدها⁽¹⁾.

فحسب هذه الرؤية البرلمانية وتطبيقها على قول الشاعر، فالزمن حوادثه جمّة تستكّد العقل ومدارها على الأيام فمنها ما يزور المرء ومنها ما ينتظره، وفي النهاية كلها عارض في حياته لا بدّ من مجيئها.

ثالثاً - إدماج الجزء في الكل أو حُجّة الاشتمال

ومبدأ هذه الحُجّة رياضيّ كذلك ونصّه: "ما ينسحب على الكلّ ينسحب على الجزء من هذا الكل"⁽²⁾.

والعلاقة في إدماج الجزء في الكل منظورٌ إليها عادةً من زاويةٍ كميةٍ، فالكل يحتوي على الجزء، وتبعاً لذلك فهو أهمُّ منه وهو ما يجعل هذا الضرب من الحجاج في علاقة بمواضع الكم أو معاني الكم⁽³⁾.

فَأَنَّكَ لَمْ تَبْعُدْ عَلَى مُتَعَهِّدٍ بَلَى كُلِّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ بَعِيدُ⁽⁴⁾.

يحتج بشمولية بعد من تحت التراب وعدم قربه من أهله وأحبائه؛ فمن مات لا يمكن يعود إلى الفانية أبداً، وهذا هو دين الحياة ومصير كل من عليها إلى هلاك، وجميع من على الأرض إن لم يكن من الأموات فسيكون من الذين توسدوا الرمال وناموا تحتها إلى يوم يبعثون.

وكل واحد دُفِنَ تحتها هو أحد الذين وافتهم شمولية الموت، وكل ما عداه فممن غيبتهم القبور وكانوا رفاتاً فيها، وهذا كثيرٌ في مراثي الشعراء وذكرهم الاحتجاج بشمولية مصيبة

(1) نقلاً عن: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص209.

(2) المرجع السابق، ص210.

(3) الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص330.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص290.

الموت⁽¹⁾، فالكل إليها وكلُّ نعيم لبني آدم لا محالة زائل، ويبقى وجه الذي خلقه ذي الجلال والإكرام.

والبيت ذاته فيه حُجَّة أخرى هي حُجَّة التناقض، حيث ناقض الشاعر قوله في (المتعهد) وهو الميت الذي يتعهده بالزيارة مراراً؛ وفيه دلالة على قربه منه في قوله (لم تبعد)، فالميت من جهة الموت هو أبعد ما يكون عن الحيّ حتى لو كان بجانب قبره مسكّنه، وبهذا ردّ الشاعر على نفسه مناقضاً للمعنى الأول (بلى كل من تحت التراب بعيد).

ويقول:

عَجِبْتُ وَالْدَّهْرُ كَثِيرٌ عَجَبُهُ مِنْ عَنَزِي سَبَبِي لَمْ أَضْرِبْهُ⁽²⁾.

من الشموليات عجائب الدهر الكثيرة التي تطالع المرء مع مرور الأيام، والشاعر تعجب لإحدى العجائب المتصرفة مع الزمان وحوادثه وأحدها من العنزي الذي سبّه.

والعلاقة هي إدماج الجزء في الكل يُنظر إليها من زاوية كمية، فالكل يحوي الجزء؛ وتبعاً لذلك فهو أهم منه، فالدهر مصنفات عجائبه جمّة لا تنحصر، والعجيبة واحدة من بين شتّى العجائب المطروحة ودواليك.

رابعاً - حُجَّة قائمة على الاحتمال

يتحدث هذا النوع من الحجج عما يؤسّس على حظوظ المرء وما يرجو تحقيقه من إنجازٍ لأحداث معينة أو اتخاذ مواقف محددة ذات خلفية واضحة، وتذهب للإيمان بأن المطلق نادرٌ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون في غلب حالاته محتملاً⁽³⁾.

ومن ذلك قول المَعَرِّي: "وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِهَذَا الضَّرِيرِ، لَهُ جُزْءٌ فِي مَلِكٍ وَهُوَ يَسْمَعُ خَبْرَ حَوَافِرِكَ وَالنَّبَأَةَ مِنْ شَحِيجِكَ فِي لَيْلٍ وَنَهَارٍ، كَيْفَ لَا يَزْجُرُكَ عَنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ إِنْ كَانَ قَدْ عَلِمَهَا مِنْكَ؟ وَكَيْفَ يَصِلُ إِلَى عِلْمِ تِلْكَ؟ هِيَ هِيَ هِيَ! وَلَوْ عَلِمَ كَانَ ضَعِيفًا رَكِيكًا خَلِيقًا أَنْ يَحْتَمَلَ

(1) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص 211.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 441.

(3) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص 213.

كُلَّ ضَمِيمٍ وَأَنْ يَصْبِرَ عَلَى كُلِّ آذَاءٍ. وَبَعْضُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ مِنَ الْعَامَّةِ يَظُنُّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ. كَذَّبَتِ الظُّنُونُ، لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَوَلَّبَ مِنْ حَضْرَةِ (السَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمُلَةِ أَمِيرِ الْأُمَرَاءِ) - أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ - لِأَنَّهُ كَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ: لَا مَخْبَأَ لِعَطْرِ بَعْدَ عُرُوسٍ. وَلَكِنَّهُ، الْمَسْكِينُ لَا يَبْهَجُ لِثَنَاءٍ يُكَذِّبُ عَلَيْهِ⁽¹⁾.

تَمْتَلِكُ هَذِهِ الْفَقْرَةُ طَاقَةً حِجَاجِيَّةً اكْتَسَبَتْهَا مِنَ الْحُجَّةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْإِحْتِمَالِ، فَالْبَعِيرُ يَحَاوِلُ أَنْ يَقْنَعَ نَفْسَهُ بِوَضَاعَةِ الشَّاحِجِ وَصَدَقَ حُجَّتُهُ فِي مَنْ يَمْلِكُ هَذَا الشَّاحِجَ، فَمَحْتَمَلٌ أَنَّهُ ضَعِيفٌ رَكِيكٌ وَحَقٌّ لَهُ أَنْ يَحْتَمِلَ كُلَّ ضَمِيمٍ وَآذَاءٍ، فَالْمَعْرِيَّ يَتَحَدَّثُ عَنْ نَفْسِهِ فِي هَذِهِ الْفَقْرَةِ، وَيَضَعُ حُجَّةً يَعْبُرُ فِيهَا عَنِ الْإِحْتِمَالِ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ لِلصَّوَابِ مُؤَيِّدًا بِذَلِكَ مَا يَبْتَغِيهِ كَوْنُهُ لَا يَبْهَجُ لِأَيِّ ثَنَاءٍ لَا يَسْتَحِقُّهُ؛ فَهُوَ يَبْنِي نَصَهُ عَلَى الْحُجَّةِ الْإِحْتِمَالِيَّةِ غَيْرِ الْمَطْلُوقَةِ الَّتِي يَقْصِدُ بِهَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْ حَدِيثٍ.

وَيَقُولُ النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي⁽²⁾:

كَمْضِيئَةً صَدْفِيَّةً غَوَاصَهَا بَهْجٌ مَتَى يَنْظُرُ إِلَيْهَا يَسْجُدُ.

يَحْتَجُّ لِدَهْشَةِ الْغَوَاصِ بِالْدَّرَةِ الَّتِي وَجَدَهَا، فَمَنْ فَرَطَ الْإِعْجَابَ وَالسَّرُورَ وَالْفَرَحَ يَكَادُ يَهْلُ وَيَسْجُدُ لَشِدَّةِ مَا رَأَى مِنْ جَمَالِهَا وَحُسْنِهَا وَبَرِيقِهَا، وَهَذِهِ صُورَةٌ تَمَثِّلُ الْمَرْأَةَ بِالْدَّرَةِ فِي صِفَائِهَا وَرَقَّتِهَا؛ فَالْوَاقِعُ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَثِيرَةَ الْحُسْنِ نَقِيَّةَ الْمَحَاسِنِ وَبِهِيَّةَ الْإِشْرَاقِ، وَمَحْتَمَلٌ لِرَأْيِهَا وَمَنْ نَظَرَ لِحُسْنِهَا أَنْ يَسْجُدَ لِلَّهِ شُكْرًا أَنْ وَجَدَ مِثْلَهَا رَافِعًا صَوْتَهُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ وَظِيفَةُ الْحُجَّةِ الْمَذْكُورَةِ تَدْعِي جَمَالَ هَذِهِ الْمَحَارَةِ وَفَرَطَ الدَّهْشَةِ الَّتِي تَعْتَرِي غَوَاصَهَا أَنْ يَخْرُجَ بِالسَّجُودِ مَتَى مَا حَصَلَ عَلَيْهَا شَاكِرًا، وَهَذَا الشُّعُورُ بِهَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ فِي الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ أَمْرٌ إِحْتِمَالِيٌّ نَسْبِيٌّ لَيْسَ مَطْلُوقًا.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 241.

(2) المصدر السابق، ص 349.

المبحث الثاني: الحجج التي تُؤسّس على بنية الواقع Arguments based on the structure of reality

الصنف الثاني للمقاربة شبه المنطقية، وتعتمد الحجج ضمن هذا الصنف على علاقة تفسير وتوضيح الواقع والأحداث، وعلى علاقات حاضرة بين الأشياء المكوّنة للعالم؛ فالحجج هنا ما عاد افتراضاً وتضميناً بل أصبح تفسيراً وتوضيحاً، حيث يفسّر الأحداث والوقائع ويوضح الروابط والعلاقات بين عناصر الواقع وأشياءه⁽¹⁾، وتندرج ضمن هذه الفئة حجج العلاقات الكنائية والمجازية المرسلة⁽²⁾.

والمتكلم إنما يبني حديثه على هذه الحجج لبيان أنّ الأطرُوحَة التي يعرضها أكثر إقناعاً؛ وكلما كان اعتماده عليها كان أكثر تفسيراً للواقع وأنجع وأقدر على الفعل في المُتلقّي والتأثير فيه .

ومرتكزات هذه الحُجّة:

1. التتابع.
2. الغائية.
3. التعايش.

أولاً- التتابع (الاتصال التتابعي)

يتكون من؛ الحُجّة السببية والحُجّة البراغمية:

وفيها يكون الحجاج قائماً على تتابع الأحداث معتمداً في ترتيبه على رابط سببي، "واستخدام الرابط يسمح ببناء حُجّة مستندة تماماً على تعاضد في بنية الواقع"⁽³⁾.

والتتابع إنما "يكون بين ظاهرة ما وبين نتائجها أو مسبباتها"⁽⁴⁾، ويكون المرور في الاتجاهين من سبب إلى نتيجة ومن نتيجة إلى أسبابها.

(1) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص214.

(2) الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي، ص385.

(3) تاريخ نظريات الحجاج، فيليب وجوتيه، ترجمة: محمد الغامدي، ص50.

(4) الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص332.

الحُجَّة السببية

تتكون من ثلاثة أضرب⁽¹⁾:

- حجاج يرمي إلى الربط بين حدثين متتابعين بواسطة رابط سببي.
 - حجاج يرمي إلى أن يستخلص من حدث ما وقع سبب أحدثه وأدى إليه.
 - حجاج يرمي إلى التكهّن بما سينجز عن حدث ما من نتائج.
- يقول المعري: "وَقُلْتُ: الصَّبْرُ عَلَى الْفَنَاءَةِ أَقْبَلُ مِنْ سُوءِ الصَّنَاعَةِ، وَالْكَرِيمُ يَجِبُ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ، وَالْجَمْرَةُ إِلَى الْجَمْرَةِ نَارٌ يَنْتَفِعُ بِهَا الْمَقْرُورُ، وَالنَّغْبَةُ⁽²⁾ مَعَ أُخْتِهَا رِيُّ الظَّمَانِ"⁽³⁾.
- هذه مجموعة نصائح استوحاها المَعْرِي من واقعه؛ ليصبر أبناء أخيه على ما وقع بهم، مطالباً إياهم الصبر والأناة والتروي، مُقدِّماً رابطاً تتابعياً في سرد هذه الجمل.
- وهم على ما فيهم من عجلة قدم لهم المَعْرِي هذه النصائح؛ لكي لا يحملوه فوق طاقتهم من إلحاحهم الدائم عليه بإرسال رسالة لتعزيز الدولة ليصفح عنهم، فهذه الحجج منه تعالج بالإقناع حال المخاطب والمقصود من حديثه.

فالحجج السببية هنا من أجل الحُص والحُصص منه على الالتزام منهم والسير وفق ما يمليه عليهم؛ لكن الإصرار منهم حمله على فعل الذي قاموا بطلبه منه؛ فمجيء الحجج متعاضدة ضمن السياق إنما كانت لحمل المُتَلَقِّي على الإذعان وإقناعه.

يقول: "وَقَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَنْظِمَ هَذِهِ الصِّفَةَ فِي بَيِّنِينَ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ ثَلَاثَةً، فَإِنَّهُ أَسْرَعُ إِلَى حِفْظِ الْمُرْسَلِ، وَأَخْصَرُ تَكْلُفًا مِنَ اللَّفْظِ الْمُهِمَلِ. وَالْمَوْزُونُ أَذْهَبُ لِمَا فِي صَدْرِ الْمَحْزُونِ. وَمَا سُجِّعَ، دُونَهُ وَإِنْ رُجِّعَ. وَالْقَوْلُ الْمَبْنُوثُ كَالْبَعِيرِ الْأَوْرَقِ لَا يَنْبَغُتُ وَهُوَ مَحْنُوثٌ"⁽⁴⁾.

(1) الحجاج أطره ومنطلقاته، عبدالله صولة، ص332.

(2) النغبة: الجرعة. قال ابن السكيت: نَغِبْتُ مِنَ الْإِنَاءِ، بِالْكَسْرِ، نَغْبًا أَيْ جَرَعْتُ مِنْهُ جَرَعًا. يُنْظَرُ: لسان العرب مادة (نغب).

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص86.

(4) المصدر السابق، ص103.

في هذه الفقرة يربط المَعْرِي بين حدث تأليف أبيات موزونة بشكل تتابعي في رصد تلك الأحداث، معتمداً على حُجّة سببية في اختياره المنظوم دون المنثور، معللاً بنتيجة مؤسّسة على بنية الواقع، كون هذه القصائد هي أسرع لحفظ المرسل وأخصر تكلفاً في ألفاظها وأوزانها، معدداً بعض الأسباب التي تتوافق مع طبيعة الشعر حقاً.

فهذه النتائج التتابعية كانت سبباً في إقامة تلك الحجج وذكرها على الترتيب المصحوب لها؛ فشكّل لنا حُجّة ظاهرة بالشكل التتابعي السببي.

الوصل السببي

من طرق التعليل ما يسمّى بالوصل السببي، والتي يأتي بها المتكلم للربط بين الكلام والأحداث المتتابعة، وذلك بالربط بين المقدمات والنتائج، فتصبح النتيجة الكلية هي آخر ما ينتابح الحدث إليه، ويمكن للقارئ إدراك العلاقة المنطقية بين جملتين أو أكثر، ويقوم بدوره على اثنتين من الأدوات:

- أدوات ملفوظة دالة على التعليل أمثال: لأن، لذلك، لأجل ذلك⁽¹⁾... وهي علاقات منطقية ذات علاقة وثيقة بعلاقة عامة بين سبب ونتيجة.
- والنوع الأخير هو المقدر من الألفاظ التي تعمل على رصد تلك العلاقات السببية المنطقية الناتجة عن التعالق النصي بين الجمل المركبة والحجج، وهذا ما يسمى عند (كوهين) بـ(الربط بالقران).

يقول المَعْرِي: "كَلَّا يَا أَبَا أَيُّوبَ، وَلَكِنِّي أَجْعَلُ عَوْضًا مِنْ ذَلِكَ تَكْلِيْفَكَ حَاجَةً يَسِيرَةً إِذَا قَضَيْتَهَا نَعَشْتُ الْعَنْرَةَ"⁽²⁾ وَجَبَرْتُ الْكَسِيرَ وَاسْتَلْتِ (الصَغِينَةَ)⁽³⁾ وَمَحَوْتُ الْغَمْرَ"⁽⁴⁾.

(1) أبحاث في علم اللغة النصي، جاسم علي جاسم، ص21.

(2) العنْرة: الزَّلَّة؛ يُنظر: لسان العرب مادة (عثر). يعني جبرت الزلّة؛ ومن ذلك قول خفاف بن ندبة:

فَعَنْرَةُ مَوْلَى قَدْ نَعَشْتُ وَأُسْرَةَ كِرَامٍ وَأَبْطَالَ لَدَى كُلِّ مَأْزِقٍ

يُنظر: الأصمعيّات، عبد الملك بن قريب، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ص23.

(3) والمقام يوحي أن المقصود هو بالضاد المعجمة : (الضغينة)؛ حيث سقط سهواً بالصاد المهملة. "

ويقال: سَلَلْتُ ضِغْنٌ فَلان وضغينته إذا طلبت مَرْضاته. " يُنظر لسان العرب مادة (ضعن).

وفي الحديث: اللهم اسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي، يُنظر لسان العرب مادة (سخم).

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص217-218.

لو أننا ربطنا المقدمة الأولى بالنتيجة الكلية مباشرة لأصبح التكلف واضحاً، والنّص فيه شيء من الرّيبة والظنون؛ لذلك بُني النّص على الوصل السببي بالشرط الملازم لإقامة الحُجّة والدليل.

(ن = الصفح عن أبي أيوب ونسيان الذنب الذي اقترفه).

(محوت الغمر = وهذه آخر ما يجلوه مقتترف الذنب من نسيان الخطيئة بحق غيره).
(استللت الضغينة).
(جبرت الكسير).
(نعشت العثرة).

(سُلّم حجاجي مكون من أربعة نتائج موصولة ببعضها وصلًا سببيًا مضمّر الأداة).

وهذا تكليف من الشّاحج لأبي أيوب؛ إن فعله جنى العفو وفاز بالمغفرة والصفح؛ وإن لم يفعل فالبوء بسخط الشّاحج والدعاء المغلظ عليه.

فالوصل ابتدئ بالشرط ثم التوكيد المضمّر على ما سيحدث من تتابعات؛ فالعلة التي تنشأ قد أردفت توكيداً في دائرة الوصل السببي الذي يُكسب النّص تماسكاً وتسلسلاً منطقيًا هو أقرب للفهم وترسيخ المبدأ والنتيجة الكلية تحت بند الموضوع الأهم الذي يجلوه من وراء اللفظ، وهو أن هذه القاعدة التخاطبية⁽¹⁾ تقتضي من المتكلم إخبار المخاطب أقصى ما يمكن من الفائدة، فيصير بموجبه السامع إلى حمل القوة على إفادة أن العلاقة بين المقدم والذي يليه علاقة شرطية وتسير بالطرد والعكس لا طردياً فحسب.

وقال المَعَرِّي: "لِلّهِ أَبَوَاكَ مِنْ قَائِلٍ، مَا أَعْرَفَكَ بِمَوَاقِعِ الْقَوْلِ... وَلَوْ كَانَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٌ⁽²⁾ يَتَصَرَّفُ تَصَرَّفَكَ فِي الْأَدَبِ؛ لَكَانَ أَخُو ثَمَالَةَ⁽³⁾، وَقَدْ وَدَّعَ لِمَكَانِهِ الْعِرَاقَ. وَمَا أَزَجَرَكَ

(1) إستراتيجية الخطاب، الشمري، ص 481.

(2) أحمد بن يحيى بن يزيد النحوي، مولى بني شيبان، المعروف بثعلب، وفيات الأعيان وأنباء أبناء هذا الزمان ج 1/102، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج 1/396، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 2/412.

(3) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر وإلى ثماله والأزد يُنسب المبرد فيقال: "التمالي الأزدي" تاريخ بغداد ج 4/229، وفيات الأعيان، ج 4/314، أخبار النحاة البصريين، ص 105.

وَأَعِيفَكَ وَأُصْدَقَ فَأَلَّكَ وَطَيَّرْتُكَ! لو كنت إنسيًّا لظننتُكَ مِنْ لِهَبِ بْنِ أَحَجْنَ⁽¹⁾ وَهُمْ أَعِيفُ الْعَرَبِ⁽²⁾.

فقوله (لله أبواك من قائل) وحمله على استخدام الموجه القسمي لما كان من معرفة ثعالة بتقلبات الكلام وبراعته في تحليل الألفاظ على الطيرة والفأل؛ فهذه حُجَّةٌ باستخدام القسم، ونتيجة قوله استخدام جملة التعجب زيادة في التوجيه الحجاجي، على إثرها يتابع الحديث بالشرط المستخدم (لو كان أحمد بن يحيى يتصرف تصرفك في الأدب .. لكان أخو ثمالة ..).

فاستخدم ضرب المثل بالشخصيات وتشبيهه بصورة الكائن البشري الذي لو كان بصورة ثعالة العقلية لغلب المبرد في نحوه وأدبه، وهنا توجيه رابع وهو المجيء بصورة متحركة في كيان العلماء الأوائل.

وهذا ضمن الوصل السببي الشرطي المنسوج من أفكار المعري، وفيضان لغته الشاعرية بأبجديات سائرة تلتقط النجوم من الأفق؛ لتمتطي صهوتها صوره الكامنة في المزج بين البيان واللغة، ثم صقلها بمعرفة دقيقة بالحوادث؛ وهذا يتصل بالحجة الأولى وما آل إليه ثعالة من معرفة مواقع الأقوال، وفي البند الأخير من الحديث يتبعه على ذات النمط تعجب آخر يتكون من ثلاثة أفعال متتالية باستخدام الوصل الإضافي والأداة (الواو)، وهذه بلاغة المعري فهو وريث اللغة وسيدها في عصره.

أضف بيت القصيد بعد كل تلك الأمثلة المتتابعة ضمن الوصل، يعلل أخيراً باستخدام شرط خامس، وصورة كلية من الواقع بتشبيهه بقبيلة (لهب بن أحجن) وهذه قبيلة المبرد وتعرف بالكهانة وإصابة الظن، فنعالة هو بمكان المبرد النحوي والأديب؛ ولو كان للنتيجة الأخيرة اتصالاً مباشراً لتمّ التصديق، لكن التتابع في ورود الأمثلة إنما هو لغرض لإفهام والإقناع والتدرج والتراتبية في إدراج الحجج.

(1) لهب بن أحجن بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد؛ قال ابن مأكولا : قال الحسن الدار قطني: وهي القبيلة التي تعرف بالقيافة وجودة الزجر؛ والعيافة تعني التكهن وإصابة الظن.

يُنظر: الأنساب، لأبي سعيد السمعي، (ج5/28)

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص608.

وهذه العلاقاتُ على ما تضمنته من روابطٍ ظاهرةٍ أو مضمرةٍ داخل بُنى النص العميقة والمتآزرة لإحداث الإقناع؛ فقد تجسدت في الربط شبه المنطقي الذي أحدثته (الواو) مرة، وأداة (الشرط) و(القسم) و(التعجب) كلها قاربت ووجهت الحجج وعملت على توالي الطرح وتثبيت مغزاه، فالتعبور من (م1)⁽¹⁾ وهي الأصلية للنتيجة الأخيرة الكلية يؤدي لضعفٍ في ترسيخ المبدأ والموضع الحجاجي الذي تؤممه العبارة الآتية: (من يعرف بمواقع القول ومضائنه فهو سيد قومه وأعيانهم)، فهذا الموضع اكتسب القوة تارةً من تراتبية الحجج وذكرها بالتدرج، ثم من تدعيم الفكرة بأقوالٍ وصور واقعية وشخصيات لها باعها في تأطير العلوم والآداب وخلقها؛ وهذا كله أدى لتقوية الحجاج.

الحُجَّة البرغماتية Pragmatic Argument

ومبدأ التتابع يقام كذلك على حُجَّة أخرى هي الحُجَّة البرغماتية، والتي تختلف في جوهرها عن الحُجَّة السببية، ويعرفها (ليونال بلنجي): "ببساطة شديدة يمكن الحجاج البرغماتي من تقويم قرارٍ أو حدثٍ أو رأيٍ باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبية"⁽²⁾، فهي تظهر عند التشكيل في صحة أمرٍ ما حيث تكون النتيجة ذات أثر عميق على النفس.

فمدارها كما هو واضح أنها تؤثر في السلوك وتعمل على توجيهه باعتبار النتائج المترتبة على أي حُجَّة مطروحة، فليس التثمين مجرد عمل الحُجَّة البرغماتية بل توجيه الأعمال كذلك.

ومن الأمثلة عند المعري، قوله: "ولولا الإسلام لم تسلم أدياء العرب الشرف إلى بني عبد مناف و(سلمان)⁽³⁾ عند الميزان أرحح من الهزمنان، وخباب بن الارت وإن كان ينسب إلى النبط قد قرع ينسب في القبائل ذوات الحسب وما تعترف الحبشة في ديارها أن أمة من الأمم أفضل منها في السؤدد. وبلال بن حمامة لا يدعى لكعب بن مامة، وصهيب بن سنان لا يقر بالمنة لزياد بن جدهان"⁽⁴⁾.

(1) ملفوظ واحد وهو المقدمة الأولى للقول.

(2) الحجاج: مبادئه وطرقه، ليونال بلنجي، ص27. نقلاً عن الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص216.

(3) الفارسي الصحابي الجليل.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص167.

فالإسلام وظهوره كان له نتائج إيجابية شاملة تهّم كل الناس، فهو عن طريق سيل الحجج المتصلة ومن خلال العوامل الحجاجية الشرط والواو وغيرها استطاع أن يزيل الشك ويبدله باليقين في نفس المتلقي. فالإسلام الحُجّة التي يعلق عليها تسليم كل القبائل الشرف إلى عبد مناف، فمنهم نبي الرسالة وإلى سلالته ينتسب، والإسلام كان من نتائجه الإيجابية أن يساوى سلمان وخباب وبلال وصهيب بن سنان، وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم بغيرهم في كلّ شيء، وحالهم لولا الإسلام لا يمكن تصور عواقبه من مذلة وإهانة وتحقير، فكانوا أذلاء فأعزهم الإسلام، وعبيداً فجاء وحررهم.

وصاروا من القادة العظام يسيروا بالجيوش فاتحين بكلمة التوحيد وكل ذلك لأنهم مسلمون، وهناك نتيجة خفية سلبية فلو لم يكن الإسلام لمات هؤلاء النّلة تحت ظلم جلادي قريش وغيرهم ممن كانوا يستعبدونهم، فسندهم ومنجيتهم هو أن النبي ﷺ كان بين أظهرهم برسالة التوحيد، فكانت نتيجة الحُجّة (الإسلام) إيجابية تعالين وتُرى واقعاً.

فمن خلال الحُجّة البرغماتية نفى واقعاً كان من الممكن أن يكون حدوثه لولا الحُجّة التي ساقها وأكّدها بالحجج القطعية التي هي موجودة فعلاً؛ فنتائج الحدث الفعلي وهو (الإسلام) انعكست بصورة متنامية في إبراز النتائج الإيجابية، فأعزّ الله من آمن بنبيه، وردّ آخرين بغيظهم لم ينالوا خيراً.

ثانياً - الحجج الغائية

من أهم الوسائل التي يعتمد عليها الحجاج في المقاربة شبه المنطقية ولها أثر في توجيه السلوك لأن مدارها على الغاية، ويعبر (أوليفي روبول): "تضطلع الغائية التي يستعدها العلم بدور أساسي في الأحداث الإنسانية. منها نستطيع أن نشق حججاً كثيرة تؤسس كلها على الفكرة القائلة: بأن قيمة الشيء تتصل بالغاية التي يكون لها وسيلة؛ حججاً لم تعد تعبيراً عن قولنا بسبب كذا وإنما (من أجل كذا)"⁽¹⁾.

(1) مدخل إلى الخطابة، أوليفي روبول، ص 179. نقلاً عن: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 221.

فيستخدمها صاحب القول ليبرر فعلاً حتى لو كان في ذاته معيباً إلا أن له غاية من وراء عمله، فهو في نظره وسيلة مشروعة للوصول لغاية سامية من أجلها يبذل قصارى جهده مؤمناً بفعله وسلوكه. واعتبار الغاية يؤدي لأنواع عديدة من الحجج⁽¹⁾، منها:

- حجة التبذير Argument for extravagance.

- وحجة الاتجاه Argument Direction.

- وحجة التجاوز Argument of overtaking.

أولاً- حجة التبذير Argument for extravagance

من الأصناف التي تضم إلى الحجج التي تقوم على التتابع، وإن لم تكن ليعتمد فيها أساساً على السببية، وهي بحسب ما وضع (بيرلمان): "بما أننا شرعنا في إنجاز هذا العمل وضحيماً في سبيله بما لو أعرضنا عن تمامه لكان مضيعةً للمال والجهد، فإنه علينا أن نواصل إنجازهُ"⁽²⁾.

فغاية هذه الحجة إنجاز ما تمّ البدء به مهما كانت عواقبه، وعلى من قام بالسير ضمن هذه الحجة ضرورة إتمامها، ومن الأمثلة عليها:

قول الجعدي⁽³⁾:

وَإِنَّا لَحَيٌّ مَا نَعُودُ خَيْلَنَا إِذَا مَا التَّقَيْنَا أَنْ تَحِيدَ وَتَفِرَا.
وَنُنْكَرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا مِنْ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسَبَ الْجُونَ أَشْقَرَا.
فَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صِحَاحًا وَلَا مُسْتَكْرَا أَنْ تُعْقَرَا.

وهو ينسب الثبات للخيل في المعارك، وهي كناية عن ثبات قومه وشدة بأسهم عند اللقاء الجمع، وتعويد الخيل على الثبات نتج عن قوة شوكة قومه وشدة فرسانهم، فالكرُّ ليس من عادة العرب في الجاهلية، بل هم الأسود في ساحة الوغى.

⁽¹⁾ ينظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص226.

⁽²⁾ الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص333.

⁽³⁾ رسالة الصاهل والشاحج، ص608.

وحاول الشاعر أن يستحضر صورة ذلك أمام النبي ﷺ وهو يرسم له غايتهم وهدفهم في الحروب، حيث لا مفر إلا القتل، والقتل يولد القتل عندهم، فالغاية تبرر الوسيلة وهذا الفخر إلى الأهل الذين ينتمي إليهم، فقيمة القتل من نظره تتصل بغاية عربية وشجاعة لا يعرفها إلا من كان في صف العرب أو قاتل ضدهم.

والنابغة في قوله: (وَنُنَكِّرُ يَوْمَ الرُّوحِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا) يتحدث عن يوم الحرب (يوم الروع) كناية عن موصوف؛ وفي الشطر الثاني يتحدث عما يكثرونه من سفك لدماء أعداء الله ومن نتائجها وكثرة الإسراف في إيقاعها، فالجون يعني الأسود من الخيل يصبح أشقر.

فالتبذير في غاية الحجة وشكلها وليست مقصودة في ذاتها فمن اعتدى في قانون الإسلام يُعتدى عليه بالمثل.

ومن تلك الحجج كذلك قوله: "وَمِنْ عَجَائِبِ فِعَالِ الْإِنْسِ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا سُلُوكَ بَلَدٍ مَعْطَشَةٍ ظَمَّنُوا الْإِبِلَ عَشْرًا حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرَكِ الظَّمُّ لَهَا أُورِدُوهَا الرِّفَةَ، ثُمَّ سَلَكُوا بِهَا الْمَفَاوِرَ فَإِذَا عَزَّ الْمَاءُ؛ بَقَرُوا بِطُونَهَا فَشَرِبُوا الْفَطَّ. وَقَدْ وَصَفُوا ذَلِكَ وَتَنَاقَلُوهُ"⁽¹⁾، فَقَالَ (عَلْقَمَةُ بْنُ عَبْدِة)⁽²⁾:

وَقَدْ أَصَاحِبُ أَقْوَامًا طَعَامُهُمْ خُضْرُ الْمَزَادِ وَلَحْمٌ فِيهِ تَنْشِيمٌ⁽³⁾.

وهذه الوسيلة كانت غاية للحفاظ على ديمومة الحياة وبقائها فهي نفعية لكنها تعتمد التبذير في قتل هذه الإبل، لكن الإفادة منها عن طريق حفظ الماء في بطونها، إضافة إلى الاعتماد على لحومها لسد الجوع الذي يتولد مع طول المسير للحروب والمعارك؛ فالوسيلة تبدو غاية في ذاتها يسعى إليها الأفراد وينشدونها، وبيت علقمة توضيحًا وتأكيديًا لكلام المعري كون

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص123.

(2) علقمة بن عبدّة بن ناشرة بن قيس بن عُبَيْد بن ربيعة بن مالك بن زيد بن مناة بن تميم، قال عنه ابن سلام: "لابن عبدّة ثلاث روائع جياذ لا يفوقهن شعر"، وذكرها في طبقاته. ينظر: طبقات فحول الشعراء، ص137، والأغاني ج132/21، والمفضليات، ص390، وكتاب الاختيارين، ص643.

(3) روايته:

وقد أَصَاحِبُ فِتْيَانًا طَعَامُهُمْ

ديوان علقمة بن عبدّة، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، ص72، وكتاب الاختيارين، ص643.

العرب إذا ركبوا مفازة جرداء لا ماء فيها⁽¹⁾، أرووا بغيراً، ثم جذّوا مشافره لئلا يجترّ؛ فإن أجهدهم العطش وبلغ منهم كل مبلغ، نحروه وشربوا ما في جوفه من الماء.

ويكون الحجاج تعديلاً للأمور وتأكيداً لتلك الفوارق بين الوسائل والغايات، فالوسيلة تظل وسيلة، والغاية تظل كذلك، ولا سبيل إلى الخلط بينهما⁽²⁾، فليس قتل تلك الإبل غاية ولكن هي وسيلة للحفاظ على حياتهم واستمرارها؛ فقد أقيمت حُجّة التبذير هذه على غاية نفعية مرجوة من وراء ما يفعلونه في الإبل تلك.

ثانياً - حُجّة الاتجاه Argument Direction

وهي الصنف الثاني التابع للغائية؛ ونصّها على رفض أمر ما حتى وإن اعترفنا بأنه في ذاته أمر مقبول أو جيد؛ لأنه سيكون الوسيلة التي تقودنا إلى غاية لا نريدها⁽³⁾، فهي للتحذير من اتباع التنازلات⁽⁴⁾ التي تؤدي إلى الإطاحة بصاحبها، وقد تؤدي إلى نتائج غير مرجوة حدوثها ولا منشودة غاياتها.

ومن الأمثلة عليها في رسالة المعري:

فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ إِحْدَى اثْنَتَيْنِ فَسِيرُوا إِلَى الْمَوْتِ سَيْرًا جَمِيلًا.

فالحُجّة هنا الدعوة إلى السير نحو الموت من أجل العزة والأنفة؛ فالمعري اعتمد ضمن استشهاده هنا على حُجّة الاتجاه مصرّاً على الاستدلال في بلوغ الموت وتحدي مصائبه والسير إليه بالتجلد والحلم، وهذا يزيد من صلابة القوم ويعلي من شأن كرامتهم وعزتهم؛ وإلا فالفقر والتسول من أيدي الأعداء، فهذه المرحلة ينبغي على الحاليين تجاوزها نحو الكمال، والذي يحققه الموت، فالسير الجميل يتحقق به ما دام الإنسان لا يرضخ ولا يركع إلا للذي خلقه، ولا يفرط في عريته وقوميته لأولئك الذين سينجزون عليهم بالعناء والمشقة من خلال ترك أوطانهم وديارهم ومساكنهم والتهجير قسراً عنها إلى ديار ليست لهم ولا الأهل أهلهم.

(1) يُنظر: كتاب الاختيارين المفضليات والأصمعيات، الأخفش الأصغر، تحقيق: فخر الدين قباوة، ص 643.

(2) يُنظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 223.

(3) يُنظر: المرجع السابق، ص 225.

(4) يُنظر: الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص 333.

حينها فاختيار طريق الموت في الموطن أجلّ عزةً وأرفع لقدر صاحب الموطن والديار
أن يموت فيه مدافعاً مكافحاً لا يخشى العدو وتكيله.

فالموت لا يتمناه الإنسان لكن العزة واتجاهه في حياته قد يجعله يفضل الموت على
شيء لا يطبق التكيف معه ومعايشته، فالراحة حينها في تجنب أولئك الأشرار وما قد يلحق به
من شرورهم، ومن هنا تجلت هذه الحجة في إقدام المتكلم على تحاشي حدوث أمر خشية
النتائج المترتبة على ذلك.

وقال المعري مستشهداً ببيت عنتره المبني على حُجّة الاتجاه:

لَا تَذْكُرِي فَرَسِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ فَيَكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرَبِ⁽¹⁾.
كَذَبَ الْعَتِيقُ وَمَاءُ شَنْ بَارِدًا إِنْ كُنْتَ سَائِلَتِي غَبُوقًا فَاشْرَبِي⁽²⁾.

فعنتره يدعو زوجه إلى الكف عن إغابة مهره، وعدم لومه في إثارة فرسه عليها وإلا
فبغضها وهجرها وتحاميتها كما يتحامي الإنسان جلد الأجرَب ابتعاداً عنه كي لا يعديه، وقيل⁽³⁾:
المعنى هو تحذيرها والتهديد بالضرب فيكون جلدها كجلد الأجرَب.

(1) ومناسبتة أن له امرأة بخيلة لا تزال تذكر خيله وتلومه في فرس كان يؤثره على سائر خيله فقالها؛ ورواية المعري
متطابقة للرواية التي عند البغدادي في خزنة الأدب، ورواية الديوان، هي:

لَا تَذْكُرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ

يُنظر: خزنة الأدب، 6/190، ديوان عنتره، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، ص272.

(2) ورواية الرفع:

كَذَبَ الْعَتِيقُ وَمَاءُ شَنْ بَارِدًا

ومعناه: (كذب العتيق) عليك بالتمر، وتقول العرب: كذبك التمر واللبن أي عليك بهما؛ ورواية النصب لمضر، أما الرفع
لليمن، وكان عمر رضي الله عنه يقول: "كذبكم الحج والقرآن أي عليكم بهما. وأصل الكذب الإمكان.
يُنظر: خزنة الأدب 6/192، ديوان عنتره، ص273.

وفي الديوان:

... إِنْ كُنْتَ سَائِلَتِي غَبُوقًا فَادْهَبِي

يُنظر ديوان عنتره، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، ص273.

(3) خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج6/191.

ويقول لها موجهًا: عليك بالتمر والماء وإن تعرضت لشرب اللبن فلتذهب حرّة؛ وهو يتوعدها إن فعلت بالطلاق؛ فالفرس هو قوته وكل ما يملك في كرهه وفره لذلك يقدم له أنفـس ما يوجد به من الأكل والشراب.

وهذه الحُجّة تنبذ السير في ذلك الاتجاه الذي قد تخوضه زوج عنـترة فتوصلها إلى نتائج غير الذي تأمله وغير محمودـة عواقبها.

ثالثًا - حُجّة التجاوز Argument of overtaking

يؤكد مضمون حُجّة التجاوز بشكل موجز على إمكان السير نحو نقطة بعيدة في اتجاه دون أن يكون هناك حدًا أو مانعًا، وذلك بسبب ترتب قيمة ما وتزايد مطرد عليها؛ فالسير فيها مجرد وسيلة لبلوغ مستوى أعلى، والإشكال المعترض هو مجرد عارض يمكن تجاوزه خلافاً للظاهر حتى يصل صاحب الحُجّة لأهدافه المنشودة وغاياته.

يقول المعري: "قَدْ عَرَفَ خُدَعَ الْأَزْمَانِ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّوْبِ فِي أَمَانٍ. يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِنْفَاقَ أَفْضَلَ مِنَ الْإِشْفَاقِ، وَأَنَّ الدَّرْهَمَ إِذَا جُعِلَ فِي كَيْسٍ فَمَا يَزَالُ فِي تَنَكُّيسٍ"⁽¹⁾.

فخدع الأزمان قد صار العزيز منها في مأمن؛ فقد ضرسته الحوادث وجعلته محدثًا يعرف مقاديرها وأوزانها وكيف تصل بالمرء إلى حالة لا يعرف من خلالها أن يؤتى عزمًا، وأن يزداد كلما ضاعفت مصائبها وقارًا وإجلالًا وتحلمًا وتصبرًا على جلدتها؛ وقد خط لنفسه حبل اعتصام مع البشر لا يفك عصمته أيّ حادث ولا يقطعه بصددهم الناس عنه فديـدنه هو الإحسان للناس مهما قلّ خيرهم، وهذا فيه تجاوزٌ لواقع معلومٍ وسيرٌ نحو العطاء والغاية والمكرمة، وكل مال جعل في كيسه فهو ناقص إلى انتهاء لا بركة فيه ولا خير يرجى من وراء جمعه.

فكل الحوادث والاعتراضات التي تواجه عزيز الدولة لا تنكس له رايةً ولا توقف له عزمًا، فهو يتجاوزها نحو التمام والمجد فهو عزيز النفس، وكل الاستدلالات كانت لتجاوزه ما يرى من صدور أهل عصره وقلة خير بعضهم وهو ليس من هذا القبيل ولا يدانيه.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص96.

ويقول عنتره⁽¹⁾:

بَكَرْتُ تَخَوَّفَنِي الْحُتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ غَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَغْزَلٍ.
فَاقَنِي حَيَاءُكَ لَا أَبَا لَكَ، وَاعْلَمِي أَنِّي امْرُؤٌ سَأَمْتُتُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْ⁽²⁾.
إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبَسٍ مَنْصِبًا شَطْرِي، وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصَلِ⁽³⁾.

الحُجَّةُ هنا لتجاوز ما ادَّعته المرأة من تخويفها عنتره بالموت فرد بكلَّ عِزَّةٍ أن الموت آتٍ لكلِّ إنسان، حتى ولو لم يكن في أرض القتال، فكل ابن آدمَ محمولٌ للتراب لا مفر من ذلك، فسفاهة حديثها لا تبعث في قلب عنتره الخوف؛ بل ردَّ عليها متجاوزًا قولها أن القتل ليس الوسيلة الوحيدة للموت بل هناك الموت الذي يزور الناس بكل الطرق والأشأت والأطياف.

وتوطين النفس على هذه الحقيقة إنما هو غاية في فهم نظام الكون وانقطاع الحياة فيه لا بدَّ أن تكون لكل كائن ولقاء رب الكون، وهذا الفناء خلق من أجل الإنسان وكل الكائنات، محاولاً إقناعها بهذا، وأجابها بأن تقلَّ من مقالتها السخيفة حياءً؛ موبخاً لها على ما بدر منها من سفه وجهل لحقيقة الوجود، فهو سائر لا تنقطع أسباب رجائه في الحياة نحو أهدافه مهما كلفه الأمر، فهو خير عبس بعدته ونفاذ بصيرته في فهم المعارك حامياً مدافعاً بدهائه ومضيَّ عزيمته.

ومثَّل المَعَرِّي ببيت عروة بن الورد:

أَقِيهِ بِنَفْسِي فِي الْحُرُوبِ وَأَتَّقِي بِهَادِيهِ؛ إِنِّي لِلْخَلِيلِ وَصُولُ⁽⁴⁾.

(1) ترتيب الأبيات في الديوان كالتالي:

إني امرؤ من خير عبسٍ منصباً شطري، وأحمي سائري بالمنصل.
بكرت تخوفني الحتوف كأنني أصبحت عن غرض الحتوف بمغزل.
فاقني حياءك لا أبا لك، واعلمي أني امرؤ سأموت إن لم أقتل.

فجاء بالبيت (9)، ثم البيت (7)، وآخره البيت (19).

(2) خزنة الأدب، 106/4.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص 446.

(4) المصدر السابق، ص 117.

فمهما تعرض الشاعر لضربات من سنان العدو، فخليله يقيه تلك المضارب، وهو يقي فرسه ما يتعرض له من سهام؛ فهو لخليله وصول يحميه بكل ما يملك حتى بجسده؛ فلا يتوانى بأن يزود عنه كل مر أو أذى.

فمركوب الشاعر خليله يحميه كما يحمي ذاته، لأنه عدته وعتاده لا يخذله لأن سلاح الفارس فرسه، ويقنع السامع حبه وولائه وتجاوزه الذات في حفاظه على فرسه.

وجوهر التجاوز يقوم على ازديادٍ مطرد في قيمة ما، والثابت المعتمد الإنسانية في حفاظه على فرسه وتجاوزها أنه قد يتصدى السهام حفاظاً على خليل أسفاره وحله وترحاله، فكلما وجد تسارعاً للسهم تصدى في ازدياد لمقاتل الفرس حمايةً له؛ وهو معنى شريف غاية في الإنسانية.

ثالثاً - التعايش

وهي النوع الثالث من بين الحجج المؤسسة على بنية الواقع، ويمكن بناء الحجج انطلاقاً على علاقة الشخص وتعايشه مع الأشياء، وتعدُّ هذه علاقة حصرٍ يتم من خلالها حصر الذات بصفات أو الشخص بأفعاله.

فهي روابط تتضمن ربطاً بين حقائق تنتمي لمستويات غير متساوية⁽¹⁾، وتضم علاقة الشخص بأعماله وأفعاله وأحكامه، ولا يمكن أن يتساوى شخص ما بكيانه وتكوينه مع الأفعال والصفات؛ فهي جزء منه لذلك تدرج ضمن المقاربات شبه المنطقية.

أولاً - حُجَّة الشخص وأعماله

تدرج حُجَّة الشخص وأعماله ضمن حُجَّة التعايش، وهي علاقة ضمن مقارنة شبه المنطق، يحصرها البعض في علاقة الذات بصفات أو الشخص بأفعاله، ولذا نتحدث عن حُجَّة الماهية أو الذات (Self-argument)، وتتمثل في تفسير حدث أو موقف ما أو التنبؤ به انطلاقاً من الذات التي يعبر عنها أو يجليها ويوضحها⁽²⁾.

(1) ينظر: تاريخ نظريات الحجاج، فيليب بروتون وجيل جوتييه، ترجمة: محمد الغامدي، ص 51.

(2) ينظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 228.

فالفِرْعُ مشابه لأصله وجزء منه، وبذلك ضرب المثل في حاتم بالكرم انطلاقاً من إكرامه الضيف، فصار بين الناس مثلاً يضرب. ومن أمثلة ذلك عند المَعَرِّي:

قول ابن عَنَمَة⁽¹⁾:

إِنْ تَسْأَلُوا الْحَقَّ نُعْطِ الْحَقَّ سَائِلَهُ والدرع مُحَقَّبَةٌ وَالسَّيْفُ مَقْرُوبٌ⁽²⁾.

وهذا القول يتضمن الشخص وأعماله، فالعربي من صفاته أنه على أهبة الاستعداد لقتال العدو وردّه عن دياره وأرضه؛ ولكن إن هم أرادوا الحق والسلم سلم العرب لهم، وحققوا دماء بعضهم؛ لكن لا يعني ذلك وضع السلاح جانباً، فالدرع مشدودة دوماً، والسيوف مسلولة في غمدها.

ومن خلال هذه الحُجَّة يقنع السامع أن نية الخير موجودة عند العرب في حقن الدماء والصلح، وإن أبوا أظهروا الرماح واستلوا سيوفهم ولبسوا الدروع متجهين للجهاد والسيّف مقروب؛ يعني: في قرابه، وهو الغمد.

ثانياً - حُجَّة السلطة AuthorityArgument

من خلال حُجَّة السلطة يعتمد الكاتب للاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف وذلك اعتماداً على قيمة صاحبها، وهي حجج عدة تغذوها هيبة المتكلم ونفوذه وسطوته، "ومن خلالها تُستخدَم أعمال شخصٍ أو مجموعة أشخاصٍ أو أحكامهم حُجَّة على صحة أطروحة ما"⁽³⁾.

ومن تلك الأمثلة قوله: "أَلَيْسَ حَاتِمٌ وَالْمَثَلُ بِهِ مَضْرُوبٌ فِي الْكَرَمِ، عَقَرُ فَرَسُهُ لَامِرَةً طَرَقْتُهُ مَعَهَا أَيَّتَامٌ؟"⁽⁴⁾.

(1) عبد الله بن عَنَمَة (بفتح العين المهملة والنون والميم) بن حريث بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد بن مالك والعنمة في اللغة "واحدة العنم: وهي قضبان حمر تنبت في جوف السمرة تشبه بها البنان المخضوبة، وعبد الله شاعر إسلامي مخضرم وهو من الصحابة الكرام، وذكر المفضل له قصائد مختارة كذلك في الحماسيتين. ينظر: المفضليات (المفضلية رقم: 114) / 378، خزنة الأدب ج467/8.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص488.

(3) يُنظر: الحجاج أطره ومنطلقاته، عبدالله صولة، ص335.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص118.

وحُجَّةُ السلطة هنا هو ذكر الطائي الذي عرف بكرمه وبذله والعطاء، واستخدم المتكلم هذه الحُجَّةَ ليقنع السامع بتقدم الطائي في الكرم وإيثاره الأيتام وأمهم على نفسه وأهله؛ حيث عقر فرسه لإطعام المرأة التي وفدت عليه وأيتامها.

والخيل يعني قوة العربي وبسالته وعدة بأسه في الحرب؛ لكن تخطى عنه في سبيل إطعام هذه الزائرة وسد رمق جوع أيتامها. فهو استخدم حُجَّةَ السلطة دون حاجةٍ إلى مبررات أخرى تتصل بالقيمة ذاتها وهي الكرم.

ومعلوم في الأدب لما يذكر حاتم الطائي يذكر الكرم جانبه، وقيل فيه: "أجود من حاتم"⁽¹⁾، لما عرف عنه من الإيثار وشدة الكرم وهذه أخلاق العربي في الجاهلية والإسلام فلم يمحُ الإسلام تلك الخصلة بل عزَّزها ودعا العرب للامتثال بها.

ومن ذلك تمثل المَعَرِّي بقول الحارث بن حلزة اليشكري⁽²⁾:

فَمَلَكْنَا بِذَلِكَ النَّاسَ حَتَّى مَلَكَ الْمُنْذِرُ بَنُ مَاءِ السَّمَاءِ⁽³⁾.

وهذه الأبيات الفخرية يتحدث فيها عن ملكهم وعزتهم وإذلالهم الناس حتى ملك المنذر بن ماء السماء، فلا حيَّ يعادل قوتهم وبسالتهم في المعارك حيث تخضع لهم الجبابرة من الملوك لما عرف عنهم من سلطةٍ وقوةٍ ونفوذ.

وهذه خصال قبيلته يوظفها عن طريق حُجَّةِ السلطة، فهزيمة الملوك على أيديهم لا مرأ ولا جدال فيها، فيسلم السامع لهم بالشرف والعزة والمنعة وتثبت لهم خصال الشجاعة والفضيلة؛ وبإمكان القارئ أن يكشف اللثام عن حجاجين غائرين ضمن حُجَّةِ السلطة كما عبر عنه

(1) وقد سبق الإشارة لذكره في مبحث الشاهد والمثل ضمن فصل البلاغة.

(2) الحارث بن حلزة بن مكروه بن بديد بن عبدالله بن مالك بن عبد سعد بن جشم والحلزة تعني: (المرأة القصيرة أو سيئة الخلق) أو كما قال الصاغاتي: اسم دويبة، وحلزة (بكسر الحاء المهملة وكسر اللام المشددة). كان الحارث من خطباء قومه ومحنكيهم.

ينظر ديوان الحارث بن حلزة/ ص 9 ، خزنة الأدب ج 325/1،

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص 446.

(موريس شاسو - Maurice Sachot) حيث يؤكد أن الحجاج اعتماداً على حُجّة السلطة في الواقع (حجاجان).

ففي الأول يتساوى من يحتج ومن يتلقى الحجاج في المكانة.

وفي الثاني تقام علاقة تراتبية بين الاثنين، في الأول تربط بين المتكلم والمتلقي علاقة ثقة متبادلة وبالتحديد يحترم من يحاول لإقناع استقلالية الآخر، ويقدر قدرته على اكتشاف الحقيقة، وفي الثاني وعلى العكس من ذلك تربط بين الاثنين علاقة تبعية فيمن يتلقى الحجاج عليه أن يحترم ما يقوله باسم السلطة⁽¹⁾.

فنفترض أن الحديث بينه وبين متلقيه من محبوبة أو قارئ لنصه واعٍ للأحكام التي فيه، والعلاقة بين قطبي الخطاب مبنية على الاحترام والتقدير فهو صادق في طرحه، والتاريخ شاهد على ما ألحقه قومه من هزيمة بابل ماء السماء⁽²⁾.

ولكن الخطاب الذي يلزم القارئ معرفته هو ثانٍ يتحقق في عمق الخطاب، ولا يظهر على سطح النص بسهولة، ولا يتاح لكل من شاهده، ومن يعيه هو المتكلم والمحبوبة التي يفخر أمامها، فالعلاقة تراتبية وليست بعلاقة تماثل فهو يتكلم بصدق وهي تسمع فخريته وتتصت وتصدق أقواله.

ومن وجوه حُجّة السلطة ما يسمّى بـ(سلطة الرمز) وتؤسس بدورها على الانتماء، ويكون انتماءً اجتماعياً أو ثقافياً خالصاً، فكل الرموز تتغير بتغير البيئة والوسط الاجتماعي المحيط، وهي متعددة متنوعة تتمثل في الوطن واللغة والمعتقد، وقد تكون أبطال الأساطير وأي معلم

(1) ينظر: أعمال ندوة الفلسفة بإشراف أوليفي رويول، موريس شاسو، ص112. نقلاً عن الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص235.

(2) هو والد عمرو بن هند ويعرف بالمنذر الثالث وانتهى ملكه سنة 554. يُنظر: ديوان الحارث بن حنظلة، تحقيق: الدكتور إميل بديع يعقوب، ص29.

رامز، كراية أو جبل إلى نحو ذلك مما يعبر عن انتماء الفرد لجماعته انتماءً وجدانياً مقدساً في أغلب الأحيان⁽¹⁾.

وحقيقة الخطاب المؤسس ضمن سلطة الرمز أنه يُبنى على وعيٍ تامٍ بالفضاء الذي يتردد فيه خطابه، ويكون على دراية بطبيعة متلقي النص؛ فيوظف الحديث بطريقة ماهرة ليكون أكثر إقناعاً وتأثيراً، ومن ذلك ذكر المعزّي لقول جبيهاء الأشجعي⁽²⁾:

إِنَّ الْمَدِينَةَ لَا مَدِينَةَ فَالزَّمِي نَعْفُ السَّتَارَ وَقِنَةَ الْأَوْجَامِ.
يُجَلِّبُ لَكَ اللَّبَنَ الْغَرِيضَ وَيَنْتَزِعُ بِالْعَيْسِ مِنْ يَمَنِ إِلَيْكَ وَشَامِ⁽³⁾.

وهذه الأبيات قالها ضمن انتمائه الوجداني المقدس لدياره وسكناه، فهو لما رأى إبله كرت راجعة إلى ديارها بعدما عقد عزمه على القدوم للمدينة والمكوث فيها فطن إلى أنه أحق بالحنين لوطنه منها، فأنشد زوجه هذه المقطوعة أثناء عودتها، وقوله (الوجام) هي علامات يهتدى بها في الصحاري للاستدلال على الطريق والنجاة من الفراق الذي يعم أرجاءها، فالأشجعي هنا عالم بذات زوجه؛ فوظف سلطة الرمز بدقة ولا تخفى سلطة توشحه بالذاتية؛ ليكون قادراً على الإثارة والإقناع، فتوظيفه كان للقصد والأهمية.

(1) ينظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص237.

(2) جبيهاء الأشجعي بلفظ التصغير لقبه ويقال "جبهاء" بالتكبير واسمه يزيد بن حميمة بن عبيد بن عقيلة ابن قيس بن رويبة بن سحيم بن عبيد من قيس بت غيلان، شاعر بدوي خبيث متمكن من لسانه من مخاليف الحجاز ولا يعد من الفحول، المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، ص167.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص497.

المَبْحَث الثالث: الحجج المؤسسة لبنية الواقع

هي صنفٌ ثالثٌ، وهي عبارةٌ عن حجج ترتبط بالواقع ارتباطاً ملازمًا وثيقًا، وتعمل على تأسيس بنيته، وتظهر الخفي من علاقاته، التي تعمل على الربط بين عناصره وأشياءه وتكشف البعيد عن العين منها، فهي تؤسسه ولا تتبني عليه أو تؤدي لإكماله، فهي تستند إلى الجمع بين أحداث وأشياء مترابطة مكانيًا أو زمنيًا أو رمزيًا حيث نستدل على شيء آخر يرتبط به⁽¹⁾.

أولاً- تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة

والحجج التي تأتي وفقًا لهذا الصنف يُستدل بها من قبل المتكلم، وتُساق لبناء واقع عام من خلال حالةٍ خاصة، فتُساق الشخصية بأجزائها؛ لتكون ذات طاقةٍ إقناعيةٍ بالغةٍ الأثر في المتلقّي، مثل: نبيٍّ أو عالمٍ وما إلى ذلك.

ويدرج تحت هذا الصنف حالاتٌ عديدة منها:

- المثال.
- النموذج.
- القياس.
- الشاهد والمثل⁽²⁾.

أولاً- المثال

يتم الاستدلال ضمنَ الحجاج "بناءً على المثال المفرد المعزول الذي يُعتمد لتعميم حكم أو فكرةٍ معينة، فيتأسس الواقع على ظاهرة مفردة يتم توسيعها، بحيث تصبح عامةً لا مجرد حالة خاصة، ثم الانطلاق منها وبناء الواقع عليها"⁽³⁾.

فالواقع يُبنى على المثال الموجود أصلاً ومنه ينطلق التعميم للقضية المحكوم فيها، فالعينة التي جاء على إثرها الكاتب بالمثال ينتقل من خلاله وعبر ذلك المقال لتعميمها

(1) الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، محمد الولي، ص 399.

(2) تمت دراسته في فصل البلاغة.

(3) الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 243.

وللانتصار برأيه، ويشكل فيها أداة عبورٍ للحُجَّة والبناء عليها لتدعيم الرأي وتوسيع مذهب القول، فتغدو العلاقة الحِجَاجِيَّة ذات اتجاهين الخاص فيها يبرر العام، والعام يتجه لتثبيت الخاص وتأكيده في ذهن السامع، ثم توضيح الفكرة وتقويتها.

يقول المَعْرِي: "وَإِنْ كَانَ يَعْتَصِمُ بِجِبَالٍ وَحُصُونٍ، فَإِنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْتَصِمُ بِغَيْرِ الرَّمَاحِ وَالسِّيُوفِ، قَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَهَابٍ⁽¹⁾:

وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا حِجَازَ بِأَرْضِنَا	مَعَ الْغَيْثِ مَا نَلْقَى، وَمَنْ هُوَ غَالِبٌ.
تَرَى رَائِدَاتِ الْخَيْلِ حَوْلَ بِيُوتِنَا	كَمِغْرَى الْحِجَازِ، أَعَوَزَتْهَا الزَّرَائِبُ.
أَرَى كُلَّ قَوْمٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ	وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ ⁽²⁾ .

فهذه صفةُ العربِ الثابتة لا يعتصمون بغير الأسلحة وسيوفهم، بينما الجبن فهو عمل العدو وأذنابه، فالشاعر يثق بعروبته وشجاعة قومه أهل المجد، فصدروهم تضمُّ نفس العربي الأبي، شهقةٌ وزفرةٌ؛ عزيزةٌ لا تترك للذل والمهانة.

وخصالهم معروفةٌ مرتبطةٌ بوجودهم الأزلي في أوطانهم، هذا الوطن الذي يشهد على غلواء صدر العربي من عدوه وأنفته في إرجاع حقّ العربي المسلوب، فتلك الجبال وإن كانت هي في مرآة عقله لا وجود لها في الأرض التي يعيشها لكنه سيصعد قممها وكأنها الأرض السهلة المنبسطة التي يجري فيها الرياح ويسبقها، وهذه إنما هي صورةٌ تعكس قوة نفوذ العربي واتساعها في تلك الفترة، حيث لا حدود ولا حواجز تمنعه من العبور في بلاد الله الواسعة، وهذا خلاف حال العرب اليوم إنما قسمتهم الاتفاقيات والحدود وباعدت الدار عن الدار.

فهو انتقل من حالةٍ خاصةٍ إلى العامة؛ ليبرر العام، فهؤلاء لا تقف هيباتهم وقوتهم على الاعتصام بالسيوف والرماح؛ بل تتجاوزها إلى أن يرعوا أرضاً أنعم السحاب عليها برزقه،

(1) هو الأخنس بن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم بن عدي بن معاوية بن عمرو بن غنم بن تغلب، شاعر جاهلي من أشرف تغلب كان نصرانياً ورئيساً في قومه، حضر حرب البسوس وقال شعراً فيها. يُنظر: المؤلف والمختلف، للآمدي، ص31.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص602.

فتسمح لهم قوتهم ومنعتهم أن يسابقوا الريح في رعاية هذه الأرض، فهي مبسوبة لهم خوفًا وخضوعًا لبأسهم وبسالتهم، وتُعِينُهُمْ على ذلك خيولهم.

وقال المَعْرِي: "وزعيم الروم قد أَلَفَ الغدر ونشأ عليه من شُبِّ إلى دُبِّ"⁽¹⁾:

والشَيْخُ لَا يَتْرُكُ عَادَاتِهِ حَتَّى يَوَارِيَ فِي ثَرَى رَمْسِهِ⁽²⁾.

يتضح في النص انتشار التجربة العامة على الخاصة، فانتقال المَعْرِي من ذكر زعيم الروم وألفته الغدر في كل مرة ثم التعميم بقول الشاعر كمثال على قوله، فتتفتح بالشعر رحاب العام المطلق ويجري مجرى الحكمة فمن شُبِّ على شيء شاب عليه.

والبيت مثال على غدر زعيم الروم، فالشيخ لا تتمحي صفاته في آخر حياته، وتبقى لصيقة به حتى يوارى في الثرى جسده، فمن عدل إلى التأديب فينبغي أن يكون على مهل، فما ينفع الأحداث أثر ذلك إن تأخر عنها، وزعيم الروم في كل مرة يُخْطِئ ولا يتعلم من الأخطاء التي يرتكبها، قد نشأ على عدم الوفاء، حيث لم تؤدبه النوازل والصوارف.

ثانيًا - النموذج

ويذهب به المتكلم للتعبير عن قدوة صالحة يقتدى بها، ومثال يتمثل بأخلاقه وسلوكه؛ ساعيًا من ورائها لتثبيت دعائم الخلق الحسن وأخلاق لا تضمر، بل تظهر جليلة على فعال المرء، فتضرب بها الحُجَّة لتكون عمادًا للإقناع، لأن هذه الحُجَّة لا تُبنى على الواقع كأنواع كثيرة من الحجج، بل تبنيه أي هي لا تتأسس على الواقع بل تؤسس واقعًا جديدًا⁽³⁾، تقيس عليه الواقع المحتمل تكوينه من أجل مطابقة هذا الكائن النموذج، فهو: "يصلح على صعيد السلوك

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 555 .

(2) يُنسب لصالح بن عبدالقدوس في ديوانه، وقبله البيتان:

كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرْسِهِ

وَإِنْ مِنْ أَدْبَتُهُ فِي الصَّبَا

مَنْ بَعْدَ مَا أَبْصُرْتُ مِنْ يُيسِهِ

حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاصِرًا

ينظر: ديوان صالح بن عبد القدوس، تحقيق: عبدالله الخطيب، ص 142-143.

(3) ينظر: دراسات في الحجاج، سامية الدريدي، ص 83.

لا لتأسيس قاعدة عامة أو دعمها فحسب، وإنما يصلح كذلك للحض على عمل اقتداء به، ومحاكاة له ونسج على منواله، وإن كان بطريقة غير موفقة تمام التوفيق⁽¹⁾.

والحجاج بالأنموذج يتطلب منا التفريق بين نوعين من الأصناف:

- صنف حقيقي يقع استدعاؤه لغرض الحجاج أي يكون للإقناع والاستدلال.
- وصنف غير حقيقي، وهو الذي يلجأ إليه المتكلم ويصنعه من خلال اللغة مستخدماً شخصية تلميعية من خلال المبالغة في رسم حدود شخصيتها ووضع ملامحها وصفاتها؛ لتكون على قدر كافٍ من الهيبة -حسب بيرلمان⁽²⁾-، والغلو في إلصاق النعوت وجعلها منزهة لتصلح للقيادة والتوجيه، فهي هيبة مصنوعة بقدر الشعر وصناعته، فتكون لغتها ساحرة أخاذة تدعو للاقتداء بالممدوح والسير على هديه.

ومنه قول المعري: "إِنَّهُ لَكَمَا تَصِفُ وَأَنْعَم. وَهُوَ عَلَى إِدْرَاكِهِ جَدَّ الْعُظَمَاءِ، ضَارِبٌ بِالسَّهْمِ الْفَائِزِ مِنْ سِهَامِ الْعُلَمَاءِ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ جَمَاعَةُ الْمُلُوكِ، لِأَنَّهُمْ يُرْهَبُونَ فَلَا يُؤَدَّبُونَ، وَإِذَا كَانَ أَحَدُهُمْ صَغِيرًا، كَانَ فِي الْبَاطِلِ وَاللَّعِبِ مُغِيرًا؛ حَتَّى إِذَا كَبِرَ أَنْفَ فَلَمْ يَسْتَأْنِفْ. وَهَذَا الْأَمِيرُ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْكِتَابُ الْكَرِيمُ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾"⁽³⁾.

وفي إطار سياق المدح بنى المعري رأياً محكم الجوانب في شخصية عزيز الدولة، فهو كالنموذج واجب الاقتداء بأخلاقه الكريمة، فهو من بين الملوك صلب العود وأشدّهم مراساً، وأقدرهم رأياً، وأحزمهم دهاءً، إضافة لبعده نظره، ومضي عزمه وهمته، وسياسته لا يجتمع كمالها في شخصية أميرٍ من الأمراء سواه.

(1) الحجاج أطره ومنطقاته، عبدالله صولة، ص 338.

(2) مصنف في الحجاج، برلمان وتيتكا، (ج 2/ 488)، نقلاً عن: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 245.

(3) رسالة الصاهل والشاحج، ص 95.

وبعد مدحه ينتقلُ بعدول فجائي لنفي ما كان لعزير الدولة عن جماعة الملوك، ساخطاً عليهم، وكأنه يدعوهم إلى أن اقتدوا بهذا الملك الذي يشبه نموذجاً أعلى في كتاب الله تعالى وهو قوله: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ»⁽¹⁾.

فلا يترك مجالاً لأحد كي يكون فوقه أو يدانيه في زمانه، فقد كانت الصوارف في ذلك الزمان عن الحق جمّة، متعددة مشاربها، وهذا جليّ في التاريخ حاضر، ومن مداد حروف المعرّي وجمله واضح ظاهر.

أما عن ذكر الآية في فضاء القول قد أضفت هيبه على النموذج المطروح ذكره والممدوح، فالواقع يحتاج إلى مفهوم النموذج كي يتأسس الواقع عليه، لعلّ الناس تحرص على الاقتداء بتلك الفضائل المذكورة والتي ظهرت حيّة ضمن النموذج، كل ذلك أكد طاقة الججاج للنموذج وزاد من قوته الإقناعية.

يقول المعرّي واصفاً عدو عزيز الدولة: "وأخلق بعده أن يكون كأبي أروى لما قال فيه القائل⁽²⁾:

وَدَاعٍ، دَعَاهُ الْبَغْيُ، وَالْحَيْنُ كَاسِمِهِ	وَالْحَيْنُ أَحْدَثُ، تَصَدُّ عَنِ الْحَزْمِ ⁽³⁾ .
دَعَوْتُ أَبَا أَرْوَى إِلَى الرَّأْيِ كَيْ يَرَى	بِرَأْيٍ أَصِيلٍ أَوْ يَعُودَ إِلَى حِلْمٍ.
أَتَانِي يَشُبُّ الْحَرْبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ	فَقُلْتُ لَهُ لَا بَلْ هَلُمَّ إِلَى السَّلَمِ.
وَإِيَّاكَ، وَالْحَرْبَ، الَّتِي لَا أَدِيمُهَا	صَحِيحٌ، وَقَدْ تُعْدِي الصَّحَاخَ مِنَ السُّقَمِ.

(1) [القصص: 14].

(2) القصيدة لبلعاء بن قيس الكناني، حماسة البحتري/ص136 . في الاختيارين دون نسبة /ص181 لكنها الأقرب لرواية

المعري، ومن قارن الأبيات بحماسة البحتري يجد بوناً شاسعاً في ألفاظها.

(3) في كتاب الاختيارين للأخفش:

وَمَوْلَى، دَعَاهُ الْبَغْيُ، وَالْبَغْيُ كَاسِمِهِ وَالْحَيْنُ أَسْبَابٌ، تَصَدُّ عَنِ الْحَزْمِ.
ينظر: كتاب الاختيارين، الأخفش، ص181.

فَإِنْ ظَفَرَ الْقَوْمُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وَأَبُوا بِفَضْلِ، مِنْ سِبَاءٍ، وَمِنْ غُثِّ (1).
 فَلَا بُدَّ مِنْ قَتْلِي لَعَلَّكَ مِنْهُمْ وَإِلَّا فَجُرْحٌ لَا يَحْنُ عَلَى الْعَظَمِ.
 وَلَمَّا رَمَى شَخْصِي رَمِيْتُ سَوَادَهُ وَلَا بُدَّ أَنْ يَرْمِيَ سَوَادُ الَّذِي يَرْمِي.
 فَكَانَ صَرِيحَ الْخَيْلِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ فَأَهْوَنُ بِهِ مُخْتَارَ جَهْلٍ عَلَى عِلْمِ.
 وأهل ملته يزعمون أنه لو خرج لم ينصرف. وكذبوا، لو خرج لصغره السيد عزيز الدولة - أعزَّ
 الله نصره - فانصرف. وإنما عنيت صغره، من الصغار (2).

وهذا نموذجٌ مخالف للذي سبق ذكره، ويسمى بـ (النموذج المعاكس أو المضاد)، وهو
 ركنٌ أساسيٌّ في الشعر العربي (3)، "الشاعر قد يفرط في ذكر نقيضة واحدة كما ويغلو في
 فضيلة واحدة" (4).

فقد يعمل على تمزيق المهجو شر ممزق من خلال ما يوجهه له من نقد وتسفيه، وفي
 الطرف الآخر نرى النموذج القدوة وفيه يعلي الشاعر والكاتب من شأن ممدوحه كما رأينا في
 النموذج سالف الذكر.

أما عن مفهوم (الشجاعة) فنموذجه المضاد هو (الجبين) كما ظهر بمواربة من خلال
 النص الذي يتحدث عن أبي أروى، والشاعر من كنانة يدعوه للسلم والتسليم وحقق الدماء؛ فما
 كان من أبي أروى هذا إلا أن أتى يشن الحرب غير مبالٍ بعاقبة ما تجره عليه يداه وتمشي إليه
 قدماء، فما كان منه إلا أقدم على الحرب فإذا به صريعاً مذ أول سهم نكل به، وكان أول
 صرعى القوم. فتلك أشدُّ البلايا أن يقدم العدو متعالٍ القدر، متظاهر القامة، يتلو تعويذة النصر
 وبين جنبيه مهجةٌ هي بحق الله أجبن من صافر.

(1) روايته في الاختيارين:

فَإِنْ ظَفَرَ الْقَوْمُ الْأَلَى، أَنْتَ فِيهِمْ، فَأَبُوا بِفَضْلِ، مِنْ سَبَاءٍ، وَمِنْ غُثِّ.

ينظر: كتاب الاختيارين، الأحفش، ص 182.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 489.

(3) الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص 243.

(4) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص 99.

وهذه صورةٌ من دلائل الجبن الذي هو نموذجٌ مضادٌ للشجاعة والفروسية وصلابة العود التي طرحها شيخ المعرة كنموذجٍ على بسالة عزيز الدولة، والمَعْرِي في ذات المقام يعقد مقارنةً وهي اجتماع النموذج والاحتجاج بالنموذج المعاكس، وهذا أسلوبٌ حجاجيٌّ يسمّى عند (بيرلمان) بـ(المقارنة: Comparison).

و(بيرلمان) يعدُّ هذه التقنية ضمن المقارنة شبه المنطقية التي تقوم على خلفية رياضية، إذ تقوم من وجهة نظره على (القياس: Measurement)⁽¹⁾ وهي عمليةٌ رياضيةٌ. ويذهب (روبول) أن المقارنة عمليةٌ تجريبيةٌ تسعى لبناء الواقع؛ لأنها تقوم في جوهرها على إقامة علاقة بين طرفين لا تكون بالضرورة واقعية⁽²⁾، فقد تكون مبتدعة من خيال الكاتب وتأويله، فيكون أساسها خيال صاحبها والسياق الذي قيلت فيه. والمَعْرِي بحسب ما عقده من مقارنةٍ بين (أبي أروى) المقصود في ثانيا أبيات الشعر، يشبهه لحدٍّ ما -حسب خياله وبنائه على واقع الأحداث السالفة- زعيم الروم الذي لو أقبل لانصرف حسير اليديين خاسئ المسعى.

وهذه الحُجّة لا تكون دقيقة إلا إذا قامت المقارنة بين طرفين أو أطرافٍ تنتمي إلى نظامٍ واحدٍ، بحيث يسهل بيان الفوارق ورصد الاختلافات⁽³⁾، وبيان هذا يتضح بجلاء لما وضع المَعْرِي نموذجَ الشعر ثم خروج زعيم الروم، ولو خرج لصغره كما صُغر أبو أروى من قبله، فالمذموم وزعيم الروم كلاهما من القادة الذين يخضع جيش تحت إمرتهم، وبهذا تحققت حُجّة المقارنة بينهما.

ثالثاً - القياس

تعريفه لغةً واصطلاحاً

يعني القياس في اللُّغة: التسوية. قال ابن منظور في اللسان: "قاس الشيء يقيسه قياساً وقياساً ... وقيسه إذا قدره على مثاله؛ وقايست بين شيئين إذا قادت بينهما"⁽⁴⁾.

(1) ينظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، ص248.

(2) ينظر: المرجع السابق، ص248.

(3) المرجع السابق، ص249.

(4) لسان العرب مادة (قيس)، ابن منظور، ص3793.

والقياس بمعنى (التقدير) إذ يقال: "قستُ الشيء بغيره وعلى غيره، أقيسه قياسًا وقياسًا فانقاس، إذا قدرته على مثاله"⁽¹⁾.

فهو جمع النظائر متماثلةً في بعض خصائصها، فتضم معها في إحدى الصور المشتركة، مع التقدير بينهما في بعض أجزائها وليس في تمامها.

يعدُّ القياس إحدى الآليات الأساسية التي يقوم عليها ذهنُ الكائن البشري، وهو يعني كذلك جمعُ النظر إلى نظيره؛ ليس تمام الكمال في الصفات بل في بعضها. وهو فعاليةٌ خطابيةٌ استدلاليةٌ قوامها مجموعةٌ من المسلمات⁽²⁾، تقوم بالربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما، للوصول إلى استنتاج ما، بألفاظ فيها شيء من الالتباس والاشتراك⁽³⁾.

وبعد من طرق الاستدلال غير المباشر وأقومها إنتاجًا⁽⁴⁾، حيث يتم الربط بين عناصر الحجاج والعملية الكلامية من مقدمات ونتائج ربطًا منطقيًا سليم الأركان.

وهذا لا يخرج عن المعنى اللغوي فهما متماثلان، ويعني في المنطق أن بعض الأمور قد بلغت نصابًا يجعل منها قاعدةً قياسيةً للذي توافق مع بعضها أو أكثرها في التماثل ضمن أجزائها.

أما (الالتباس) سابق الذكر، فهو مسلمة أساسية في القياس الخطابي، يجعله مرناً للاستجابة لأغراض التبليغ، ويكسبه طواعيةً كافيةً مما ينفي عنه النقص، فالقياس يعمل على تماسك الخطاب وديمومته وفقًا للعملية الاستدلالية التي تكونت صورته من المعين الأول ليعمل على تأليف وحدة خطابية تامة الأركان.

(1) (الصباح، الجوهري، ج3/967).

(2) يُنظر: أصول الحوار، طه عبد الرحمن، ص98.

(3) عندما نتواصل بغير، عبدالسلام عشير، ص91.

(4) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبدالرحمن الميداني، ص227.

وترى الباحثة أن القياس إحدى البنى الاستدلالية لمجمل الأقوال الطبيعية في كافة مظاهرها، والتي ترتبط بعلاقةٍ ضمنيةٍ سواء أكانت الصفة حقيقةً أو مجازاً ففي كلا الأمرين نجني عمليةً قياسيةً استدلاليةً.

وهي منبثقة عن فكر له رابط يكفل توالده ضمن الواقع فترتبط معه إما استعاراً ومجازاً أو حقيقةً، ويكون ذلك باستخدام الشواهد التي تبلغ القول بأقصى غايات تحقق الصفات فيجعل منها بنية صريحة التكوين والقياس.

مسلمات القياس الخطابي

أولاً- مسلمة التباسية الخطاب الطبيعي

ومقتضاها أن الخاصية المميزة للخطاب الطبيعي عن غيره من المقالات الصناعية هو أن جُمله تتركب من ألفاظٍ تحتل تأويلاتٍ مختلفة، سواء بأن يطلق اللفظ على مسميات مختلفة ويدل على معانٍ متعددة، أو أن يكون من المتعذر تعيين مسماه تعييناً كاملاً وتحديد معناه تحديداً دقيقاً⁽¹⁾.

وهذا الالتباس يرجع لمرونة الخطاب الطبيعي وكونه مكافئاً طواعية للاستدلال اللُّغوي، نتيجة أغراض التبليغ الطارئة على اللُّغة والاتصال.

وما يجعل الالتباس والقياس متماثلان -ليس تماماً- أن المقيس والمقيس عليه قد يجتمعان في بعض الصفات ويفترقان في أخرى.

ثانياً- مسلمة الحوارية

ضمن مسلمات القياس الخطابي، حيث الإفادة في الكلام تتحقق بين طرفين اثنين، لكلٍّ منهما مقامات هما مقام المتكلم ومقام المستمع، وللمقام وظيفتان⁽²⁾، هما:

- وظيفة المعتقد.

(1) أصول الحوار، طه عبد الرحمن، ص99.

(2) المرجع السابق، ص99.

- ووظيفة المنتقد.

حيث إذا كان المتكلم معتقداً كان المستمع منتقداً، وإذا كان المستمع معتقداً كان الآخر منتقداً.

ولا يمكن وفق مسلمة الحوارية (تحسيب)⁽¹⁾ القياس لأخذه بمبدأ الاختلاف، فيستحيل عمله متوالية رياضية؛ لما يجره الحوار من أوجه اختلاف واعتراضات تظهر من خلال توجيهها في سياق المناظرة والحوار.

ثالثاً - مسلمة حملية الخطاب

ومقتضاها أن كل من طلب طريق اللُّغة لإدراك عالم الأعيان (الموجودات) الخارجي، لا يحصل من هذه الأعيان إلا على صفات أو محمولات؛ فرموز اللُّغة ليس بينهما وبين الأعيان والذوات أي تقابل وتشاكل في بنيتها الظاهرة لتجعل كل رمزٍ يقترن بعين واحدة ووحيدة، مما يدعو إلى مبدأ (استقلال) المستوى اللُّغوي عن المستوى الوجودي، وكل واحد يقوم بذاته لا يشاركه به غيره.

لذلك تتساوى لدى كل من يتوسل باللُّغة الأعيان وأوصافها أو الذوات ومحمولاتها⁽²⁾.

وهذه مسلمة ترتبط بالإدراك في نفي التطابق بين اللُّغة ورموزها من حيث التشاكل والتقابل، فاللُّغة عامل والمحمولات هي الصفات، والذوات وما بينهما تقارب في الخواص وليس التطابق التام في الأجزاء والمكونات.

رابعاً - مسلمة ترتيبية الصفات

وتنص على أن علاقة الصفة بالموصوف لا تنتقل بين قيمة الانطباق وقيمة عدم الانطباق، بل تحتل عدة مراتب حيث يكون الانطباق وعدمه فيها الطرفين المتباينين الأعلى والأدنى⁽³⁾.

(1) جعله ضمن الحسابات والمتاليات الرياضية البحتة.

(2) أصول الحوار، طه عبد الرحمن، ص 100.

(3) المرجع السابق، ص 101.

وبيانها أن ممارسة عملية الفهم واستيعاب لفظة من الألفاظ لا تحتاج لاستحضار مفرداتها من جملة الأعيان الخارجية والتي تندرج تحتها؛ لأنها غير قابلة للحصر، ولا يمكن لناطق اللُّغة العادي أن يأتي بذلك، و يقدم حدًا منطقيًا لبيان مراد اللفظة، فهو متعذر لديه ولا يفيد ضمن المجال التداولي.

لكن الذي يحصل أن يستحضر بعض العينات والتي تعبر عن دلالة الألفاظ وخصائصها وهذا لا يتم إلا من خلال الشواهد والنماذج، فالشاهد يقع ضمن المتوالية العليا للسلم، ويقع غيره من المتواليات أسفل منه.

وتشكل هذه السلمية أهمية في القياس، حيث تتطلب عملية نقل الصفات، وتعتمد علاقة الترتيب بين الأعيان المبنية على درجة تحقيقها لهذه الصفات، لذلك تُدرج عملية التفاضل والاستدلال ببعضها دونًا عن البعض الآخر؛ لتحقيق الأولوية في عبورها أعلى السلم الوصفي من غيرها.

صور القياس

قياس منطقي متكامل الأركان

يعدُّ من أنواع القياس ويعرّف بأنه: "صيغة شكلية لإثبات حقائق سبق العلم بها، ولكن حصلت الغفلة عن جوانب منها، فيأتي القياس المنطقي منبهاً عليها، أو ملزماً الخصم بالتسليم بها إذا هو أنكرها"⁽¹⁾.

التعلق بين المقدمات للوصول إلى النتائج، والتركيز على المخاطب (المُتلقّي)، هما أمران مركزيان في القياس المنطقي ضمن النُظَرِيَّة الحِجَاجِيَّة⁽²⁾، فهو من أهم وسائل الربط بين الأقوال ونتائجها، وما ينتج عنه يسمى المعادل الحِجَاجِيّ (argumentative equivalent) لما يعرف عند المناطقة بـ(الاستدلال).

(1) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال المناظرة، حسن الميداني، ص227.

(2) النص الحجاجي العربي، محمد العبد، ص56.

وظيفة القياس المنطقي الحجاجية تكمن في الانتقال مما هو مسلم به عند المخاطب، أي المقدمة الكبرى (الحد الأكبر)، إلى ما هو مشكل أي إلى النتيجة ويطلق عليها الميداني⁽¹⁾ (القضية الجديدة).

ومن تلك الأمثلة على القياس المنطقي قول المعري: "وفي الجائز أن يكون سلب منه العلم بهذا النوع لما بُعث، فكان ذلك له مثل الآية. وإنما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمَاهُ الشَّعْرَ﴾ أنه جواب لقول من قال من الكفار: (الذي جاء به محمدٌ شعراً) لا أنه بهذه الآية نفى عنه المعرفة بهذا الضرب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم، إذا ذكر شيئاً صاباه، أي لم يجئ به على جهته، حتى عرف ذلك منه"⁽²⁾.

يتصور في القياس المنطقي ضمن هذه الآية:

المقدمة الكبرى: القرآن من عند الله وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل ولا دخل للنبي الله في تكوين لفظه.

المقدمة الصغرى: لم يكن النبي ﷺ شاعراً ينظم القصيد، ولا صاحب مذهب أدبي في الكتابة والتأليف.

النتيجة: النبي حفظ القرآن بواسطة جبريل، كان يعرضه عليه في كل عام مرة وما له ﷺ نسبة في لفظ من ألفاظه؛ بل كان لفظه ومعناه من عند الله وحده.

فهذه تضمن حقيقة لا لجاج فيها ولا يتنازع فيها اثنان أن كتاب الله ما كان النبي ﷺ إلا مرسلاً إلى الأمة بهذه المعجزة مبلغاً ما أوتي من ربه، وهذا كان ردّاً على الكفار الذين قالوا أن الذي جاء به محمد ﷺ هو من ضرب الشعر.

وهذا القول يختلف عن النموذج التقليدي للقياس حيث إن المعري يعرض أقواله بطريقة الصياغة غير المتناسقة لأجزاء التركيب القياسي، ويعمد بعض الوقت إلى الاستطراد اللفظي

(1) ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال المناظرة، حسن الميداني، ص 230.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 184-185.

الذي يشكل انحناءً في منحى الفكر بسبب بُعد الصلات والعلاقة التي تتناهى فيما بين الألفاظ لتكوين معانيها.

وعلى قارئ النصوص ضمن قراءته لأي نص حجاجي أن يكرس فكره، ويبدل جهداً في معرفة تلك الصلات التي تبتعد مساحاته النصية عن بعضها في تكوين الفكر عامة وبيانها ومعرفة نتائجها وربطها بمقدماتها.

قياس مضمّر

يعدّ القياس المضمّر النوع الثاني من أنواع القياس، وغالباً ما يُبنى على مقدمات ظنية وقد تتعرض للحذف، إما لجلائها ووضوحها، أو تحاشياً لذكرها لاعتبارات مقامية.

فالحذف أساس في هذا القياس لذلك يسمى بالمضمّر؛ لأن أحد أركانه محذوف، وغالباً في الإضمار يكون الحذف للمقدمة فيه⁽¹⁾ وهي عادةً المقدمة الكبرى.

ومثاله قول المعري على لسان الصّاهل: "أما أنا فأتصوّرك بصورة الكاذب، وقد زابني ما قلت فاجعل بيني وبينك حكماً ترضاه، فإن صدّقك سلمت لك أنني على خطأ، وإن اتهمك مثل ما اتهمتك علمت أنني معذور في الظنة بك"⁽²⁾.

المقدمة الكبرى: (مضمرة) الحيوان لا ينظم الشعر بل هذا فن للآدميين خاص بشعرائهم وأدبائهم من أصحاب الصعنة، وكل صناعة لها أهلها.

المقدمة الصغرى: (أتصورك بصورة الكاذب) فما ادعيته من المحال أن يكون.

النتيجة: (مذكورة)، (فاجعل بيني وبينك حكماً) يفصل بالقول بيننا، فإن صدّق مقالتي؛ اعترفت بالخطأ، وإن أجمع معي على كذبك فأنا (الصّاهل) معذور في الظن بك.

(1) يُنظر: النص الحجاجي العربي، محمد العبد، ص58.

(2) رسالة الصّاهل والشاحج، ص194.

فسبب كذبه ادعاء النظم وهي المقدمة الكبرى المضمرة، ثم تصوره بأنه كاذب لادعائه الكذب والتلفيق، ونتيجة ذلك جعل الحكم بينهما كي يقوم بالفصل بينهما في صدق المقالة أو كذبها.

فالإضمار كان في المقدمة الكبرى، والحد الأصغر انبنت عليه نتيجة مذكورة، وهو بدوره اكتمل معناه ضمن إقامته على الحد الأكبر (المضمر)، وقد وصل الأول للأخير بشيء من المناسبة والمنطق.

وهنا تظهر أهمية الاستنباط والعمق في فهم النصوص وربطها بالواقع، فمن المهم في أي نسبة كلامية أن توافق الصورة الذهنية التي يمكن رسمها لصدق الأقوال أو عدمها، فالقياس المضمر يعدُّ الجسر في الكشف عنه هو عملية الاستنباط سليمة المذهب بحيث لا تخلو من صدق في خلفيتها ومطابقتها للواقع.

قياس متدرج

يعدُّ القياس المتدرج من الأمثلة على القياسات المعقدة، والذي يحتاج لوقت في تأويله نظرًا لقيامه على قياسات منطقية متتالية، فهو من المسائل "التي تعدُّ امتدادًا للتعليل القائم على القياس المنطقي"⁽¹⁾.

وهذه النتائج ترتبط ببعضها البعض، مما يتيح عملاً للتتالي والترابط فيما بينها، فتكون النتيجة الواحدة مقدمة كبرى لنتيجة أخرى تقع في إثرها، وهكذا تتابع حتى يتم التوصل إلى النتيجة الأكبر.

يقول المَعَرِّي على لسان أبي أيوب: "وَرَعَمْتَ أَنَّهُ كَانَ يُعْظَمُ (مَكَّة) وَلَا يَقُولُ فِي (الطَّائِفِ) إِلَّا خَيْرًا، وَيَأْمُرُ بِضَرْبِ الْمَدِينَةِ إِذَا عَصَتْ. وَأَيَّ مَعْصِيَةٍ تُخْشَى مِنْ (يَنْثَرِبِ) وَقَدْ دَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَهَلْ تَأْلَمُ لِضَرْبِ لَوْ عَصَتْ أَوْ تَعْلَمُ بِهِ إِذَا عُوقِبَتْ؟ أَفَأَرْضُهَا كَأَنَّكَ تَعْتَمِدُ بِالضَّرْبِ أَمْ جُدُّهَا الْمُشِيدَةُ؟"⁽²⁾.

(1) النص الحجاجي العربي، محمد العبد، ص 59.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 259.

وتوضيح القياس المتدرج في الفقرة كالآتي:

أي معصية تخشى من يثرب وقد دعا رسول الله ﷺ؟ (أي معصية تخشى من الأرض).

هل تشعر الأرض بعقاب أو تخضع لجزاء؟ (وهل تعاقب).

وهل أحد يعلمها أنها في موطن عقاب؟ (ومن يحدثها بالعقوبة إذ هي عُوقِبَت).

وهل تعمد جدران الأرض للضرب؟ (وهل يطال جدرانها العقاب).

وتوصل في نهاية طرح الأسئلة القياسية إلى أن الأرض والجدار إنما هي حجارة وطين، ولا تقع عقوبة عليها ولم يأت في التنزيل ولا في سنة النبي ﷺ الدعوة إلى الاعتداء على يثرب بل دعا لها؛ ويقول رسول الله ﷺ عن تكريم الأرض وطهورها: "تمسّحوا بالأرض فإنها لكم بركة"، ولم يذكر ضربها أو الاعتداء عليها.

ونكاشف حقيقة ظاهرة لا بدّ منها؛ وهي أن الكاتب لا يعتمد في كل نصوصه إلى تكليف نفسه للمضي على سُلّم قياسي متدرج متوالد الأفكار، ففي هذا المشقة والعناء؛ لكن الملكة قد تكون عند المتحدث والكاتب، فيظهر من خلال نصوصه تمكن المنطق والفلسفة من رؤيته وعمق درايته وفهمه لحقيقة التراكيب، كالمعزّي الذي يبدع في التدرج في وصف الأمور بطريقة منحدرية في تكوين هرميات أجزائها، تجعل المعاني مترابطة كأنها مُقتناة الأثر في البحث عنها والربط فيما بينها من غير أن يعتمد لإفساد نصوصه بالتكلف والصنعة، فهي مبنية في الأساس على قواعد المنطق السليم من غير تزييف لمعالم النصوص وقياساتها.

ثانياً - الاستدلال بواسطة التمثيل

تعريف التمثيل لغة واصطلاحاً

يعرف لغةً ابن فارس (395هـ) التمثيل بقوله: "الميم والثاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على مناظرة الشيء للشيء. وهذا مثل هذا، أي نَظِيرُهُ، والمِثْل والمِثَال في معنى واحدٍ"⁽¹⁾.

الرأي نفسه عند ابن منظور (711هـ): "جاء في مادة مِثْل: كلمةٌ تُسَوِّيةٌ. يقال: هذا مِثْلُه ومِثْلُه كما يقال شَبَّهه وشَبَّهه... ويكون تَمَثُّيل الشيء بالشيء تشبيهاً به"⁽²⁾.

وهما يتفقان على أن التمثيل هو منتزِع من الشبه ومناظرة الشيء للشيء، فالمعنى الجامع هو التشبيه والمُشابهة والمماثلة.

أما خصائص التمثيل:

- 1- استدعاء صور تحكي أحداثاً ذات قيمة رمزية.
- 2- تقوم على إعمال المُشابهة.
- 3- يتجه نحو مخيلة الإبداع، ويفهم عن طريق تحريك الذهن.

تحدث الجرجاني عبد القاهر (471هـ) عن التمثيل؛ وأطال النظر فيه والفرق بينه وبين التشبيه⁽³⁾، وما يُحدثه التمثيل من استمالةٍ وتأثيرٍ لدى السامع؛ فهو إذ يذكره لا يخفى عليه أن يبيِّن مذهب التمثيل في نفس متلقيه إذ يعلّق: "واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصارٍ في معرضه، ونُقِلَتْ عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قواها في

(1) مقاييس اللغة، ابن فارس، ص938.

(2) لسان العرب، ابن منظور، ج610/11.

(3) حيث يقول الجرجاني: "... ينجلي لك بعد أن يُحوك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطر له، والهمة في طلبه، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر، وإبائه أكثر واحتجاجة أشد". أسرار البلاغة، الجرجاني، ص105.

تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباغةً وكلفاً، وقسر الطباع أن تعطيها محبةً وشغفاً⁽¹⁾.

فقوة التمثيل تتجسد في تقوية عامل الربط بين المواطن والأشباه والنظائر المتتابعة للسياقات المعنوية والدلالية، وتعمل على إشعال لهاميم الصور المرتكزة في أعماق القارئ، والتي تلين قسَماتها لما يتناول ما يقارب تلك الصورة التمثيلية المركبة، وذلك بتفعيل دوره وإشراكه لتأويل النص، وتحريك همته لإيجاد الانتزاع الحاصل في الصورة المركبة والتي وُجِعت من خلال التمثيل، ساعياً لحلّ (شفرة - code) النص الواضحة قصد التأثير والإفناع.

ثم يتحدث عن التقاء التمثيل بصورةٍ حجاجيةٍ ويعلق عليها: "وإن كان حجاجاً، كَانَ بُرْهَانُهُ أَتَوْر، وَسُلْطَانُهُ أَقْهَر، وَبَيَانُهُ أَبْهَر"⁽²⁾.

نحو ما نجد في قول الشاعر:

دَانَ عَلَى أَيْدِي الْعَفَاةِ، وَشَاسَعَ عَنْ كُلِّ نَدٍّ فِي الْعَلَا وَضَرِبَ.
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْغُلُوِّ وَضَوْؤُهُ لِلْعُصْبَةِ السَّارِينَ جِدُّ قَرِيبَ.

فوصَفَ البحترِيُّ ممدوحه بقربه من المحتاجين، ثم هو بعيد المنزلة باختلافه عن أقرانه الكرماء في عظم ما في يده واتساع إنفاقه، وهذا التعارض والتباعد والجمع بين المتضادات جعل البحترِي يأتي ببيتٍ مناصر للحُجَّة ضمن البيت الأول، بحيث يحتوي على التمثيل المؤثر في أعقاب المعاني الواردة، وحاول أن يوضح للقارئ أن هذا ممكن ولا تعارض في المعنى المذكور ضمن نصّه.

فالحِجَاج الذي يتوسل صاحبه بالتمثيل؛ لهو ببرهانه أشد نورا وأوسع انتشاراً، وأكثر ذهاباً من خلال إعمال الفكر وربط الصور بالتركيب والمباني المذكورة، فتفعيل دور التمثيل وظهوره له سلطةٌ فعالةٌ أكثر من غيرها؛ لأن التمثيل يقوم على المقارنة بين شيئين، ويتيح

(1) أسرار البلاغة، الجرجاني، ص115.

(2) المصدر السابق، ص115.

للمتلق أن يصل إلى النتيجة بإعمال فكره ومشاركته الفعلية في التوصل إليها، وكل ما يتوصل إليه المرء بنفسه لا يمكنه أن يعترض عليه.

وللحكم هذا تفصيل في البيت أعلاه، فالذي يتكون للقارئ من البيت الأول شيء من التعارض وعدم الاتفاق، ثم التمثيل جاء لرفع الحُجب وتوثيره عن طريق الصورة التمثيلية ببعد منزلة البدر وقرب ضيائه من العالمين، فأعطت الصورة تصدراً وقوة للكلام المنثور ضمن الجزء الأول من البيت.

ويعرف القزويني (739هـ) التمثيل بأنه: "ما وجهه منتزع من متعدد أمرين أو أمور"⁽¹⁾.

وترى الباحثة أن تعريفه لا يختلف عن سابقه الذي قدم شرحاً وافياً للتمثيل، كما تحدث عن وظيفته الإقناعية والتأثيرية.

التمثيل البيرولماني في البلاغة الجديدة

أما حديثاً فيرى (بيرولمان) أن التمثيل طريقة حجاجية تعلق قيمتها على مفهوم المشابهة المستهلك، ويؤكد أن التمثيل لا يرتبط بعلاقة المشابهة دوماً، وإنما يرتبط بتشابه العلاقة بين أشياء ما كان لها أن تكون مترابطة⁽²⁾.

وترى الباحثة التوافق بين نظرة الجرجاني الأولى للتمثيل أن كل تمثيل تشبيه⁽³⁾ وليس العكس. فالتشبيه عام والتمثيل فرع كما الاستعارة، فالتشابه لا يكون في أصل الأشياء دوماً؛ بل يكون في تشابه العلاقات أحياناً كما ذهب إليه الجرجاني وتذهب إليه النظرة التمثيلية كما نجد عند (شاييم بيرولمان).

فما يؤسس أصالة التمثيل وما يميزه عن التماثل الجزئي أي عن مفهوم المشابهة المبطل أنه ليس علاقة مشابهة وإنما هو تشابه (علاقة).

(1) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، ص 227.

(2) نقلاً عن: عندما نتواصل نغير، عبدالسلام عشير، ص 98.

(3) أسرار البلاغة، الجرجاني، ص 95.

فالتمثيل قائم على تشابه بين علاقيتين يؤدي إلى حدوث تداخل في أطرافهما، "فهو عقد صلة بين صورتين، ليتمكن المرسل من الاحتجاج وبيان حججه"⁽¹⁾. ويرى (بيرلمان-Perlman) أن له مكانة هامة باعتباره أداة برهنة، وقيمتها الحجاجية متمثلة من التداخل بين أطراف العلاقتين المكونتين له"، فالعنصر (أ) يمثل بالنسبة إلى العنصر (ب) ما يمثله العنصر (ج) بالنسبة إلى العنصر (د)⁽²⁾.

وكلها تتضافر سواء في بنية السياق الداخلية أو خارجه لإنتاج الخطاب الحجاجي محدثة الإقناع بالصورة الماثلة من إنتاجها.

إذن هو مواجهة بين بنى متشابهة وإن كانت خاضعة لمجالات مغايرة، ومن الأمثلة التي تبين ذلك ما ضربه عبدالله صولة قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾.

حيث إن: أ = المشركون.

ب = أوليائهم.

ج = العنكبوت.

د = بيتها.

فالعلاقة بين تلك العناصر ليست تشابه؛ فكلٌ منها يختلف في أصله، وإنما الذي بينها هو (تشابه العلاقة)، فبين (أ و ب) أي علاقة بين المشركين وأوليائهم في (عبادتهم لهم واعتصامهم بهم). ويطلق (بيرلمان وتيتكا) على المشركين والأصنام في المثال (الموضوع).

تشبه العلاقة بين (ج و د) أي علاقة العنكبوت ببيتها تبنيه وتعتصم به من احتمالية الاعتداء عليها، والعنكبوت وبيتها عند (بيرلمان) - فيما يفترض - (الرافعة أو الحامل).

(1) إستراتيجيات الخطاب، الشهري، ص497.

(2) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته، عبد الله صولة، ص338.

(3) [العنكبوت: 41].

ويضيف الباحث (عشير) في خضم حديثه عن التمثيل أنه بصفة عامة يعدُّ منبعًا للإبداع والفكر الجديد، وأصلًا للصور التخيلية⁽¹⁾، لكنه قد يكون خاطئًا أو مرفوضًا، أو غير مفهوم في الواقع وذلك إن خرج عن إطاره التداولي العام، فالأصل في الحامل (وجه الشبه) وعلاقته بالموضوع أن تكون العلاقة بينهما متألّفة غير متوتّرة، ولا تخرج عن السياقات المتعارف عليها.

أما عن نص أبي العلاء فقد كان كلفًا مشغوفًا منهومًا بحشد الكثير من الصور التمثيلية خلال رسالته وثيقة الصلة في معظم ورودها بالحجاج الفعال، والذي يتقاطع مع السياق في الآن ذاته ويؤثر في نفس القارئ، وهي صورٌ عظيمة الأثر، بالغة الجمال، دقيقة المسلك في تركيبها. وليس ببعيد عن معجم المعرّي الذي حارت البرية فيه، ثقيل العبارة صعب الحواشي إلا من اجتهد في فهمها ومعرفة الباب الذي جاءت منه ولأجله.

قال المعرّي: "وَأِنَّمَا مَثَلُكَ فِيمَا سَأَلْتَنِي مِنْ إِبْلَاحٍ مَدَحَتَكَ إِلَى حَضْرَةِ السَّيِّدِ عَزِيزِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَمِيرِ الْأُمَرَاءِ مَثَلُ الذَّنْبِ لَمَّا وَصَفَهُ الْحَارِثِيُّ وَذَكَرَ مَاءَ وَرَدَهُ، فَقَالَ:

وما كَأَنَّ الطَّحْلَبَ الْجَوْنَ فَوْقَهُ	طَرُوقًا عَلَى أَرْجَانِهِ ثَائِرُ الْغَسَلِ ⁽²⁾
وَجَدْتُ عَلَيْهِ الذَّنْبَ يَغْوِي كَأَنَّهُ	خَلِيعٌ خَلَا عَنْ كُلِّ مَالٍ وَمِنْ أَهْلِ
فَقُلْتُ لَهُ: يَا ذَنْبُ هَلْ لَكَ فِي أَحٍ	يُجَازِي بِلَا عُزْمٍ عَلَيْكَ وَلَا خَذَلٍ ⁽³⁾
فَقَالَ: هَذَاكَ اللَّهُ إِنَّكَ إِنَّمَا	دَعَوْتَ لَمَّا لَمْ يَأْتِهِ سَبْعُ قَبْلِي
فَلَسْتُ بِآتِيهِ، وَلَا أَسْتَطِيعُهُ	وَلَاكَ اسْقِنِي إِنْ كَانَ مَأْوُكَ ذَا فَضْلٍ ⁽⁴⁾

(1) يُنظر: عندما نتواصل نغير، عبدالسلام عشير، ص 98.

(2) لفظه في الديوان:

وَمَاءٌ كُلُّونِ الْغَسَلِ قَدْ عَادَ أَجِنًا قَلِيلٌ بِهِ الْأَصْوَاتُ فِي بَلَدٍ مَحَلٍ.

يُنظر: ديوان النجاشي الحارثي، تحقيق: عدنان محمد أحمد، ص 83.

(3) في الديوان:

فَقُلْتُ لَهُ: يَا ذَنْبُ هَلْ لَكَ فِي فِتْنٍ يُوَاسِي بِلَا مَنْ عَلَيْكَ وَلَا بُخْلٍ؟.

يُنظر: ديوان النجاشي الحارثي، تحقيق: عدنان محمد أحمد، ص 83.

(4) رسالة الصاهل والشاحج، ص 165.

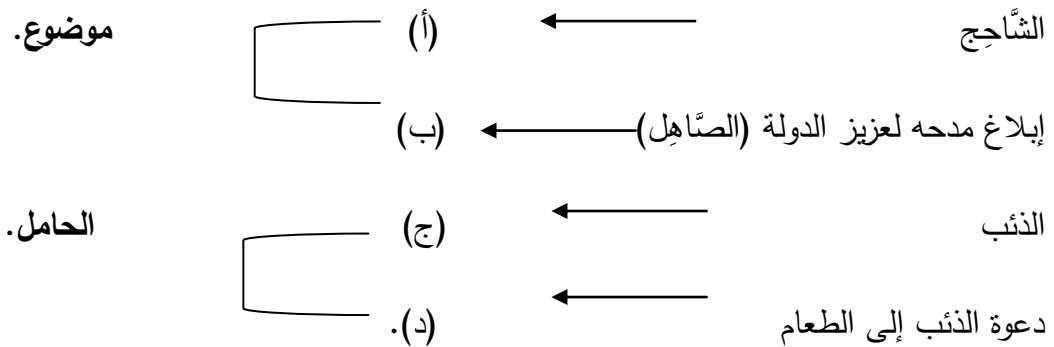
يصور المَعْرِي في هذه الصورة حال الشَّاحِج المستغيث بالصَّاهِل في إيصال رسالته إلى أمير الأمراء بمثل حال الذئب الموصوف في شعر الحارثي، والذي اعترض له في سفره، فعرض عليه النجاشي الطعام، فاستهجن الذئب هذا العرض الذي لم يسبق أن فعله آدمي مع السباع أمثاله، واعتذر بقوله لست بآتيه ولا أستطيعه⁽¹⁾؛ لكنني أطلب الماء.

وهذا التمثيل المقدم في نص المَعْرِي فيه دلالة على استخدامه بقطع الحُجَّة وإفحام الطرف الآخر من خلال طريقه لهذه الأداة التي لها في سياقها وظيفة حجاجية، وما أسس لأصالة التمثيل في هذا النص هو تشابه العلاقة، وليس المشابهة بحد ذاتها، فليس هو للذي طلبه بآتيه ولا يستطيع الصَّاهِل فعله كما احتج الذئب بهذا القول؛ فاخياره ضمن هذا الموقف جعل الشَّاحِج يذعن لرأي الصَّاهِل ربّما للوهلة الأولى ولم يستطع الرد عليه فقال: "ربما كان السكوت جواباً"⁽²⁾. فَمَدَارِكُ هذا القول بينات واضحات؛ وهي أن التمثيل يصحب بمجيئه مآلات حجاجية تتكشف من خلال فهم مراد صاحب الحجج ومنتجها.

يسمي (بيرلمان وتيتيكا) في مصنفهما (أ) و(ب) ← ما هو موضوع .

أما (ج) و(د) ← الرافعة أو الحامل⁽³⁾.

وبالتمثيل عليها يكون:



(1) ورد شرح الأبيات في الديوان، ص83، وذكر المناسبة عند عبد القادر البغدادي، خزنة الأدب، ج419/10، والمعاني الكبير، لابن قتيبة، ج207/1.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص166.

(3) الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته، عبد الله صولة، ص339.

وهذا اعتذارٌ ذكيٌّ من الصَّاهِلِ لقريْنِه الشَّاحِجِ بعدم المقدرة على ذلك فهو يتمثِّل بعذره، كما في نهاية البيت بقول الذئب: فليستُ بِآتيه، وَلَا أُستطيعُه. فالتمثيل كما يوضح الدكتور عبدالله صولة: "وإن كان استدلالاً مداره على علاقات قائمة بين طرفي الموضوع من ناحية، وطرفي الحامل من ناحية أخرى، فإنه مؤدٍ لا محالة إلى التفاعل بين كلا الطرفين"⁽¹⁾.

وهذا حاصل بفضل التمثيل وتركيبه العلاقات وتقريبها وعمل اقتراناتٍ جَوَارِيَّةٍ بين أجزاء الكلام المصورة للمعنى، وهي واضحةٌ بين العلاقات المذكورة (أ) و (ج) من ناحية، وبين (ب) و (د) من ناحيةٍ أخرى، والتداخل فيما بين هذه العناصر، فالتمائل ليس في العناصر في ذاتها ومكوناتها وحيثيات تراكيبها؛ بل في العلاقات بينها سواء أكانت إيجابية أو سلبية.

يقول المَعْرِي: "وَأَتَمَّا مِثْلِي وَمِثْلَكَ، مِثْلَ رَجُلٍ سَأَلَ آخَرَ أَنْ يُرْشِدَهُ إِلَى الطَّرِيقِ فَأَرَاهُ الْفَرْقَدَ أَوْ الْجَدَى، لَقَدْ أَبْعَدَ عَنِ الْهُدَى!"⁽²⁾.

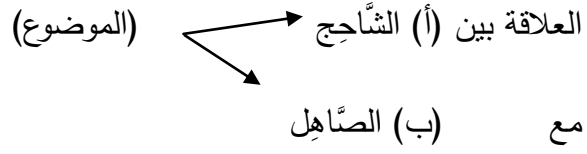
يسعى المَعْرِي من خلال التمثيل أن يرسم صورةً بعلاقات حاضرة للصاهل الذي رفض مساعدة الشَّاحِج، ويصدر الأُطْرُوحَةَ (بان) التوكيدية التي تشير إلى أهمية الأُطْرُوحَةَ المذكورة وتقيد الاستراتيجية الداخلية للعمل الحجاجي فيها، فيوضح الموقف الحاضر بصورة رجلين سأل أحدهما الآخر وهو من بني الحيوان يتشبه ببني الإنسان، وفي التمثيل المحاجج يسعى صانع التركيب إلى التمثيل بصورة أعلى مما هو عليها وما عليه الموقف، حتى يكون ذا أثر في نفس من يلقي له الحُجَّة، ولما سأل الرجل الآخر ما كان منه إلا أن أطلعه على الفرقد فأبعد الطريق وأطال الحيرة في نفس السائل. وهذا ما فعله الصَّاهِلُ بالشَّاحِج لما رفض المساعدة وتقديم العون للشاحج المعصوب العينين.

وتظهر القيمة الحجاجية من التداخل الحادث -كما ذكرنا سابقاً- بين الأطراف؛ فالعنصر (أ) يمثِّل بالنسبة إلى العنصر (ب) ما يمثِّله العنصر (ج) بالنسبة إلى العنصر (د)"⁽³⁾.

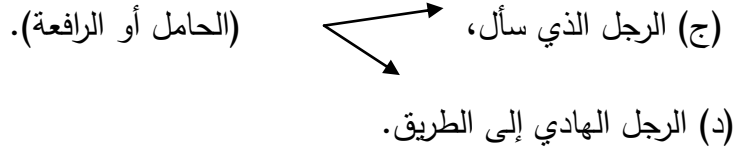
(1) الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته، عبد الله صولة، ص 341.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 171.

(3) الحجاج أطره ومنطقاته وتقنياته، عبد الله صولة، ص 338.



علاقة تشبه الصورة التمثيلية في الطرف الآخر الممثل به.



العلاقة بين العناصر ليست علاقة مشابهة، بل تتشابه العلاقة ذاتها والموقف المطروح من خلال المشهد الذي رسمه المَعْرِي، إذن الرافعة والحامل هنا بضربيهما أشهر من الموضوع حقاً فقد جاء ليوضح البنية العلائقية بين الموضوع.

فتوسّل المَعْرِي من خلال التمثيل بإقامة الحُجّة وتقريب الصورة للمتلقى فكان التمثيل ذا أثرٍ بالغ في توضيح ورسم المسارات الحجاجية متناهية الدقة.

يقول المَعْرِي: "لَأَنَّ مَثَلَ السَّيِّدِ عَزِيزَ الدَّوْلَةِ وَتَاجَ المَلَّةِ أَمِيرَ الأَمْرَاءِ -أَعَزَّ اللهُ نَصْرَهُ- وَمَثَلَ رَعِيمِ الرُّومِ، مَثَلُ بَازِيَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِرَقٌ مِنَ الطَّيْرِ تَحْمِلُ إِلَيْهِ الإِتَاوَةَ⁽¹⁾، وَقَدْ تَعَاقَدَ البَازِيَانِ أَلَّا يَعْضُضَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا لِمَا فِي حَيْزِ الآخَرِ مِنَ الخَشَاشِ، فَالطَّيْرُ لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الخِفَّةِ وَالْجَهْلِ بَعَوَامِضِ الأُمُورِ، إِذَا رَأَتْ البَازِيَّ الَّذِي لَيْسَتْ هِيَ فِي مُلْكِهِ قَدْ نَظَرَ إِلَى شَطْرِهَا عَنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ، أَدْرَكَهَا مِنَ الْفَرَقِ بِالطَّبْعِ مَا يَحْمِلُهَا عَلَى تَرْكِ الْوَكَنَاتِ وَطَيْرَانِهَا فِي الْآفَاقِ، وَهِيَ لَا تَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِ البَازِيَيْنِ..."⁽²⁾.

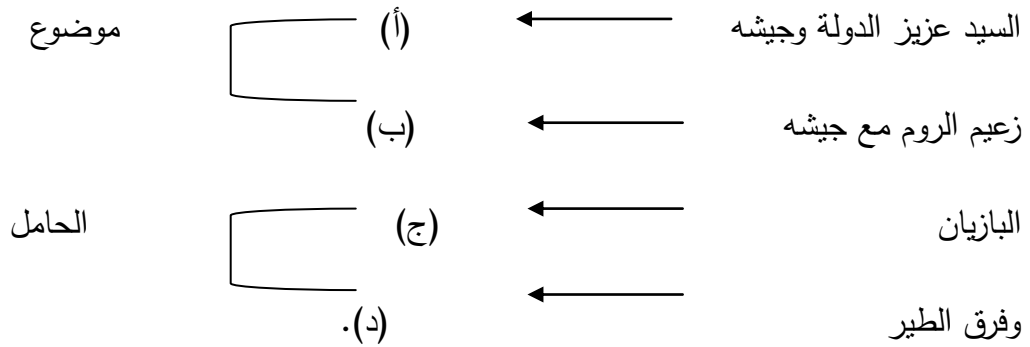
وهذه صورة كلية ترسم البازيين وهما: زعيم الروم والأمير، وترسم جيش كل واحد منهما، وعن طريق التمثيل استطاع المَعْرِي أن يختزل المعنى ضمنه، وبين هاتين الصورتين المائلتين علاقات تشابه، وقد عبّر (كرنو - cournot) أن: "التعقل عن طريق التمثيل هو كما ورد في الأكاديمية، تكوين تعقل قائم على التشابهات أو العلاقات لشيء مع شيء آخر.. ونظرة الذهن

(1) الإتاوة: هي الجزية أو خراج الأرض.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 416.

في الحكم التمثيلي تتعلق بالعلاقات وينسب التشابهات وحدها، وليس للتشابهات أي قيمة عندما لا تسجل علاقات في نظام الوقائع الذي ينطبق فيه التمثيل⁽¹⁾.

فمعرفة الاشتراك والتعلق المعنوي بين العلاقات والأسماء الكبرى يحتاج لكثير من الاهتمام ضمن العملية التمثيلية حتى تصيب معناها ويسهل إيضاها.



فالتمثيل كان فيه التأثير واضحاً لدقة المسلك الذي اتخذهُ المَعْرِي في وصفه ورسمه لصورة عميقة البنیان متراسّة في دقّتها، وتلائم العلاقات فيما بينها.

يقول المَعْرِي في الأَطْرُوحَة: "فهل شعروا أنّ مَثَلَ رسالته مَثَلُ واو القسم"⁽²⁾.

الحُجّة 1: يجيء جوابها بعد المهلة المتراخية، وإن ظنّ السامع أن الكلام قد انفصل بعضه من بعض؟

الحُجّة 2: ألا ترى أن الواو في قوله تعالى: «وَالْفَجْرُ» جاء جوابها متراخياً بينه وبينها ألفاظ كثيرة وجمل معترضة وهو قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبَلَمْرَصَادٍ»⁽³⁾.

الرسالة التي تشبه وظيفة واو القسم (الحُجّة 1) لما يأتي جوابها متراخياً -يقصد فيها تراخي السيد عزيز الدولة في إرسال رده إلى زعيم الروم- ثم يتجه في تمثيله لحُجّة أخرى وهي ضرب

(1) نقلاً عن: الصلة بين التمثيل والاستنباط، البعزاتي، ص 28.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص 419.

(3) [الفجر: 14].

المثل بما جاء النص الأول في التمثيل والحجج وبيانها وقطعها؛ فهو يمثلها بواو القسم في سورة الفجر التي جاء جوابها متأخراً بعد اثنتي عشرة آية، فما أشد ذكاء الرجل في توظيفه هذا وحضور الحجة البالغة لديه، وكأنها تحمل تهديداً في طياتها، والتأخر يعني وعداً ووعداً وترصدًا، فوافق المثل المقام والنظرة والسياق وقطع الحجة على أصحاب الشكوك والادعاء.

ويقول في الملمح نفسه وتصويرات النحو والاقتباس من بحر قواعده وغزير روافده: "وَقَدْ حَمَلَ السَّيِّدَ عَزِيزَ الدَّوْلَةِ -خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ- مَا فِيهِ مِنَ الْكَرَمِ وَالرَّافَةِ بِالرَّعِيَّةِ وَالرَّغْبَةِ فِي حَقِّنِ الدِّمَاءِ، عَلَى أَنْ بَعَثَ هَدِيَّةَ سَنِيَّةٍ أَشْبَهَتْ شَرَفَ قَدْرِهِ وَعُزُوفَ نَفْسِهِ، وَالْهَدِيَّةُ مَثَلُهَا مَثَلُ (مَا) الَّتِي تَكْفَى الْعَامِلَ عَنِ الْعَمَلِ، أَلَا تَرَى أَنْ (إِنَّ وَأَخَوَاتِهَا) تَكْفِيَنَّ (مَا) عَنِ النَّصَبِ"⁽¹⁾.

قال ابن أبي ربيعة⁽²⁾:

إِنَّمَا أَهْلُكَ جِيرَانُ لَنَا إِنَّمَا نَحْنُ وَهُمْ شَيْءٌ أَحَدٌ⁽³⁾.

وأنشد سيبويه:

تَحَلَّلْ وَعَالِجْ ذَاتَ نَفْسِكَ وَاَنْظُرْ أَبَا جُعَلٍ لَعَلَّمَا أَنْتَ حَالِمٌ⁽⁴⁾.

وما أدق المسلك الذي تمثّل به المَعْرِي؛ فهو كثيراً ما يورد الحجج بنكهة نحوية⁽⁵⁾ رائعة التوجه والمقصد، فرسالته كان يسعى بكل من فيها -من شخصيات- لإبراز دقته في معرفة

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 420.

(2) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، يُكنى أبا الخطاب، وذكر له العلماء كنية (أبا حفص)، عرف في كتب الأدب منسوباً إلى جده أبي ربيعة ترجمته: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ج 2/553، والأغاني، ج 1/78.

(3) ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، ص 106.

(4) وهذا ضمن شوهي سيبويه وذكر فيه: "وأما لَعَلَّمَا فهو بمنزلة كَأَتَمَّا ثم ذكره وعلق بقول الخليل: إنما لا تعمل فيما بعدها، كما أن أرى إذا كانت لغواً لم تعمل، فجعلوا هذا نظيرها من الفعل". الكتاب، ج 2/138.

(5) ولك أن تراه بسعة في طيات الرسالة فمن الملامح النحوية:

يُنْظَرُ: ص 420، وتصويره عمل الهدية بعمل ما الكافة.

يُنْظَرُ: ص 423: في ذكره قضية الاشتغال والتمثيل عليها.

ومن ملامح الصرف: ص 416 و ص 417.

وتمثيلات علم العروض ضمن النكات والأحاجي وسترد لاحقاً في متن البحث.

اللُّغة وتراكيبها ومكوناتها، والكل يقصد فيها باب أمير الأمراء، فيحاول المَعَرِّي إلbas الشخصيات ثوب التمكن من اللُّغة الموجَّهة للحضرة العالية، والتي يتبارز الأدباء والكتاب والنحاة لإظهار قواهم الفكرية واتساع علومهم وضلاعتهم في العربية، وهو يبرز عن طريق هذه الشخصيات معرفةً واسعةً متسعةً، وعبقريَّةً مشدودةً بالعمق في أم اللغات ومبانيها ومعانيها، وعن طريق التمثيل يربط بين علاقاتٍ عدةٍ أبرزها في التركيب.

ويقول: "وَالدَّرَاهِمُ مِثْلُهَا مِثْلُ حُرُوفِ الْعَطْفِ"⁽¹⁾.

الحُجَّة 1: "تَجْعَلُ الشَّيْءَ فِي حُكْمِ الشَّيْءِ".

الحُجَّة 2: "حَتَّى يَصِيرَ مُجْتَمِعِينَ فِي الْمَعْنَى الْوَاحِدِ".

وهو يمثل بصورة أخرى تعكس التأثير والتمكن من النحو وأبوابه، فالدراهم في رأيه تشبه حروف العطف في ضمها الشيء لما قبله، وعطفها المنتابعات على ما يسبقها، فصاحب الدرهم وظيفة دراهمه أنها تضمّ أشياء ليست في حكمه ولا مسعاه، فإذا هو أنفق عليها الدراهم صارت تابعة له يحركها كيف يشاء ويبدع في ضمها ورفعها وكسرهما كما حروف العطف تمامًا وما تفعله في الكلمة بعدها، مستخدمًا الرباط الحِجَاجِيَّ (حتّى) وهو له أثر بليغ في تكتيك الحُجَّة وإبرازها، فدور (حتى) هنا - على حد قول الدكتور رضوان الرقبي في وظيفة حتى الحِجَاجِيَّة⁽²⁾ - هو إقامة علاقةٍ ترابطيةٍ بين طرفي القول.

فأقام المَعَرِّي علاقةً بدیعةً بين مكونات التركيب، وهو في ردّه هذا كذلك يُعمل شيئًا من

الإمتاع والإفئاع في نفس متلقيه، وهو يقيم الروابط بين متون النصوص وواقعها، فعلاقة التمثيل

كما يرى (تولمين): "تبرزُ بكثرة في المحادثة العادية"⁽³⁾.

(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص490.

(2) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص107.

(3) نفلًا عن: الصلة بين التمثيل والاستبطاء، البُعزَاتي، ص30.

وتوافق الباحثة هذا القول ويُؤخذ به، فالتمثيل كثير الحضور في اللغة الأدبية والعادية على حدٍّ سواء؛ فهذا المعرّي يولّد الصور التمثيلية بكثرة في سياقات ورودها، وبحللها بطريقة عجيبة مما يجعل حججه منطقياً وغاية في الترتيب والمتانة والقوة للعملية الإقناعية.

وجدنا أن المعرّي يربطها باللغة الأدبية الفاعلة شديدة الأثر ووثيقة الصلة بمعرفته وتمكنه من دروس العربية نحوها وصرفها وعروضها، ومن أمثلة الدرس العروضي واستعانته به في العملية التمثيلية قوله:

الأطروحة: "وإنما مثل أعمال السيد عزيز الدولة أعز الله نصره - مثل الدوائر الخمس التي تجمع أوزان الشعر:

فالأولى: حلب - حرسها الله - وهي دار المملكة.

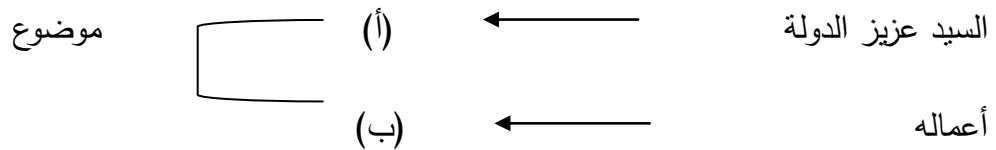
والثانية: معرة النعمان، وما كان مثلها.

والثالثة: كفر طاب وحماة، وما كان مثلها.

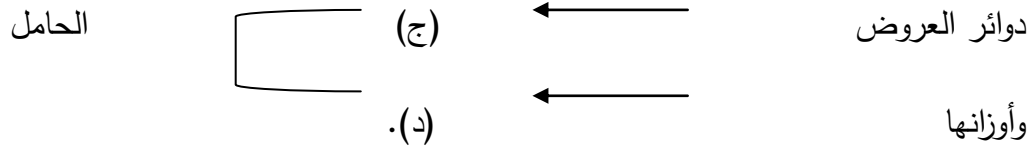
والرابعة: حمص، وإنما شبهت الرابعة بحمص لأنها بلد عظيم فيه عامر ودامر. وكذلك هي الدائرة، هي واسعة تشتمل على أجناس كثيرة منها مستعمل ومنها مهمل، والمستعمل منها مثل العامر من حمص، والمهمل منها مثل الدامر.

والخامسة: مثل جوسية، وما كان مثلها؛ لأنها دائرة صغيرة فيها جنس واحد⁽¹⁾.

ففي هذا الأطروحة نرى أنه ذكر أعمال عزيز الدولة وفيها ربط عروضي دقيق، فهذه الصورة التمثيلية التي فيها الدلائل على تمثيله ما ينم عن سعة علمه وكذا براعته في التحليل وعمل الروابط بين الأشياء.



(1) رسالة الصاهل والشاحج، ص 640-641.



وهو إذ يمعن بذكر هذه الأطرُوحَة يسوق عددًا من الحجج على قوله ذلك، موضحًا الحجاج القائم على الترابط بين الأشياء المذكورة، فالموضوع والحامل في مجمل الأمثلة ينتميان لميادينٍ مختلفةٍ إحداها عن الأخرى، ولو كانت تنتمي لمجال واحد لأدرجت عندهم ليس ضمن التمثيل بل تُسمّى استدلالًا بواسطة المثل والاستشهاد، وقد سبق الحديث عنهما في باب البلاغة؛ فمن الحجج المبررة للعلاقة بين العناصر:

الحُجَّة 1: وإنما شبهت أعمال السيد عزيز الدولة أعزَّ الله نصره بهذه الدوائر؛ لأن أجناس كل دائرة لا يمكن أن تحلَّ في الدائرة الأخرى.

ثم يسوق حُجَّة ثانية:

الحُجَّة 2: ألا ترى أن أهل (معرة النعمان) وغيرهم لمَّا دخلوا إلى حلب-حرسها الله- نادى منادي السلطان بخروجهم؟

ثم يسوق الحُجَّة المؤكدة على هذا القول ويأتي بتمثيل شعري يعود لِ(قُربية الهذليّة) وهو قولها⁽¹⁾:

أَلَمْ	تَرَنَا	عَزَّنَا	مَأُونَا	سَنِينَ	فَظَلَّنَا	نَكِدَ	الْبَيَّارَا
فَلَمَّا	غَزَا	الْمَاءُ	أَوْطَانَهُ	وَجَفَّ	الثَّمَادُ	فَصَارَتْ	حِرَارَا
وَعَجَّتْ	عَجِيجًا	إِلَى رَبِّهَا	فِي السَّمَاءِ	رُؤُوسُ	الْعِضَاهِ	تُنَاجِي	السَّرَارَا
وَفَتَحَتْ	الْأَرْضُ	أَفْوَاهَهَا		عَجِيجَ	الْجَمَالِ	وَرَدَنَ	الْجِفَارَا
لَبِسْنَا	لَدَى	وَطَنِ	مَرَّةً	عَلَى	الْيَأْسِ	أَثْوَابَنَا	وَالْخَمَارَا
وَقُلْنَا:	أَعِيرُوا	النَّدَى	حَقَّهُ	وَصَبَرَ	الْحِفَاطِ	وَمُوتُوا	خِيَارَا ⁽²⁾

(1) الأبيات في البصائر والذخائر، ج1/131.

(2) رسالة الصاهل والشاحج، ص642.

وكانت هذه الحجج على تسلسل ورودها تدلل على الأطروحة التي ذكرها المعري في بداية الفقرة سالفه الذكر، وهذه كلها تدلل على إمكان التمثيل في بيان الحجج وترسيخها في نفس السامح والقطع فيها، وكأنه يرد على اعتراضات سابقة بتفكك ملك عزيز الدولة وأعماله، فهو إذ يربط بين هذه الحجج بسياقات ذكية يظهر صورة التمكّن والتمكين لأmir الأمراء في دولته وإقامة ملكه.

الخاتمة

سعت الباحثة في هذه الرسالة إلى البحث عن آليات الحجاج بأشكاله في رسالة الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ لأبي العلاء المَعْرِي، وإن المكوث على نصه لجدير بالقراءة الواعية المتأملّة للأهمية الكبرى التي تستقر بين دفاف هذه الرسالة ومجمل أعماله، وللإطلاع على امتلاء تراثنا العربي بوفير النصوص التي ما زالت تقدم لنا الجديد ضمن ميادينها الواسعة، فترى أثافي الحجاج بلغتها وبلاغتها ومنطقها على ثلاثتها كلها ذات دلالة على عمق الأداء الذي تتمتع به رواد اللّغة في العصور المنصرمة، والحجاج ضمن العمل الأدبي سفر ميداني كلامي تشكل بصورة جلية خلال نثر المَعْرِي وشواهد الكثيفة، ناهيك عن تنوع الخطاب الحجاجي السردى مما أدى لإضافة ديناميّة تبليغية للحجاج العلّائي.

أولاً- نتائج الدّراسة:

توصلت الباحثة إلى مجموعة من النتائج، وهي كالتالي:

- 1- استخدم المَعْرِي المقام الخطابي للتدليل على حجّاجية عباراته وقد أحسن بربط السياقات في المرجعيات المقاميّة متنبهاً لمراعاة أحوال المخاطبين.
- 2- انطلق المَعْرِي من بؤرة رئيسة أدار رعى الخطاب الحجاجي نحوها وهي البلاغة وتمكينها في نصوصه، ونزوعه للمصطلحات البلاغية على كثرتها واستعمالها بشكل ملاحظ متداول على امتداد رسالته، وكان للاستعارة وتكاثرها دوراً في حجّاجية التبليغ العلّائي.
- 3- عمد في بلاغته إلى صيانة التراكيب بخفاء تارة وبوضوح تارة أخرى، فقد حاول إلباس النصوص جانب (التورية والإلغاز)، وقد بالغ في الاستعانة بهذا المصطلح، مما جعل الرسالة أكثر حجّاجاً وإبلاغاً وتأثيراً في المُتلَقِّ وإقناعه بالنتفّات النصّ التي أدرجت ضمن التسلسل البلاغي للتراكيب.
- 4- كان للحجج الجاهزة النصيب الوافر في أقوال المَعْرِي، فقد كان للشاهد القرآني دوراً بارزاً في حضور الحجاج البلاغي، وكذلك الحديث الشريف، وأقوال الصحابة والتابعين.

- 5- حاز الشعر ضمن الاستشهاد على القدح المعلى ضمن شواهد الصّاهل والشّاحج، وقد خط المَعْرِي لذاته منهجاً سار عليه وتمسك بحباله، حيث بلغ تمام الأبيات المستشهد بها ما يقارب (1503) بيتاً، مخالفاً أهل البصرة وأهل الكوفة في بعض مسائلهم.
- 6- جمع حجاج المَعْرِي اللُّغوي بين عملية الإقناع والإمتاع والإثارة وشد انتباه المُتَلَقِّي.
- 7- إن الحجاج العَلَائِيّ تداولي دلالي قد استند على سلالم بلاغية لُغَوِيّة صرفية كلها تعكس حصافة محفوظه ودقة بيانه، وثراء معجمه الذي هو طوع بنانه.
- 8- إن الحجاج اللُّغوي اعتمد على الروابط والعوامل والمواضع التي منها ينطلق عمق التركيب، مما يؤدي بالنص إلى التوجيه المباشر مع دقته، وانتهاض المُتَلَقِّي بالعمل نحو فك شفرة النصوص الحجاجيّة، وبيان الأثر الذي يعتمل في عقولهم عن طريق مفاتيح القول، والتي يتوصل بها من خلال المعرفة بكثافة تلك الروابط والعوامل ومقدرتها على تفعيل النصوص وديناميّة حركتها.
- 9- اقترنت المقاربة شبه المنطقية في حجج المَعْرِي بالتنوع الخطابي وتكاثفه ضمن الوسائل المستخدمة في حججه، وتنوعت تبعاً لتعدد الأصناف الكلامية في الأطر العامة للرسالة، فقد ظهر بوضوح الحجج التي تعتمد بنى المنطق، والأخرى التي تستند إلى العلاقات الرياضية، وهذا على اتساعه وحضوره دلّ على عمق ثقافة المَعْرِي وتعدد مشارب الأعمدة التي أقام عليها صرح بيانه وبلاغته.
- 10- أكد البحث أن الاستدلال في المواقف التواصلية يتناغم حضوره بشكل فاعل لمقدرته على إثارة المُتَلَقِّي وإحداث تشويق للسامع، وكذلك توليد التفاعل بين أطراف الخطاب على تنوعها.
- 11- كشف أسلوب المَعْرِي عن تعدد وسائل شبه منطقية أبرزت صور المنطق الداخلي الذي يحتكم له الخطاب، والذي برز بمسارات متعددة المسالك تضمن من خلالها الحديث عن التمثيل، وتبينت مسالك الانتقال فيه من العام إلى الخاص، ومن التتابع اللزومي لأجزاء القول، وهذه القضايا تمثل الغاية الحجاجيّة التّداوليّة.

ثانيًا - التّوصيات

أما عن التوصيات، فأهمها:

- 1- إبراز الحجاج في التراث العربي ضمن الدراسات المعاصرة باعتباره نص عميق الرؤية منبثق عن حاملي لواء العربية في أزهى أزمته، فهو يجمع بين بلاغة الإقناع في مخاطبة العقول وترشيدها، وجماليات الأسلوب الذي يؤدي إلى استمالة القلوب بسحر البيان وعمق بديع أصحابها.
- 2- قراءة مصطلحات الحجاج وفقا لما يقتضيه تراثنا، فهو حافل بتلك المصطلحات التي تنبه الغرب إليها اليوم، ومعرفة الحقيقة واجبة على القارئ بأن يبحث بعمق ودراية لربط النظريّة بأصولها وقاعدتها الأساس.
- 3- ترجمة مصنفات الحجاج وفقاً للدقة الاصطلاحية التي تحرر المفاهيم من الفوضى العامرة التي ضجّت بها مصطلحات النقد اليوم.
- 4- ضرورة إعداد رسائل علمية تتناول أدب المَعَرّي، كثير الفائدة ضمن لغوياته ونحوه وبيدع صنوف لغته، فهو الحافل بقضايا لم تدرس إلى يومنا ضمن ساحات البحث والتّقيب.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم.

- 1- أبحاث في علم اللُّغة النَّصي وتحليل الخطاب، جاسم علي جاسم، لبنان، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت.ن.
- 2- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: رجب عثمان محمد ورمضان عبد التواب، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1998م.
- 3- أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م.
- 4- الاستدلال الحجاجي والتداولي وآليات اشتغاله، راضي الرقبي، مجلة عالم الفكر، مج40، ع2، ص67-117، 2011م.
- 5- إستراتيجيات الخطاب، عبد الهادي الشمري، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م.
- 6- الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي أدراوي، الرباط، دار الأمان، ط1، 2011م.
- 7- أسرار البلاغة، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة المدني، جدة، ط1، 1991م.
- 8- الاشتقاق، لأبي بكر محمد بن دريد، تحقيق: عبدالسلام هارون، بيروت، دار الجيل، ط1، 1991م.
- 9- الأصمعيات، عبدالملك بن قريب، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، لبنان، دن، ط5، د.ت.ن.
- 10- آفاق جديدة في البحث اللُّغوي، محمود نحلة، مصر، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 2002م.
- 11- الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، علي محمود الصراف، القاهرة، مكتبة الآداب، ط1، 2010م.

- 12- *أُمالي ابن الشجري*، هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة العلوي، تحقيق: محمود محمد الطناحي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1992م.
- 13- *أُمالي المرتضي*، للشريف المرتضي علي بن الحسين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1954م.
- 14- *إنباه الرواة على أنباه النحاة*، جمال الدين علي القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1986م.
- 15- *الأنساب*، لأبي سعيد عبدالكريم السمعاني، لبنان، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت.ن.
- 16- *أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم*، الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، د.ط، د.ت.ن.
- 17- *الإيضاح في علوم البلاغة*، الخطيب القزويني، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م.
- 18- *بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة*، للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، مطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركاه، ط1، 1965م.
- 19- *بلاغة الإقناع في المناظرة*، عبداللطيف عادل، الرباط، دار الأمان، ط1، 2013م.
- 20- *البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول*، محمد العمري، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ط2، 2005م.
- 21- *البلاغة العربية أصولها وامتداداتها*، محمد العمري، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ط1، 1999م.
- 22- *البيان والتبيين*، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط7، 1998م.
- 23- *تاج العروس*، للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: علي هالي، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1987م.

- 24- تاريخ مدينة السلام، الإمام الحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2001م.
- 25- تاريخ نظريات الحجاج، فيليب وجوتيه، ترجمة: محمد الغامدي، جدة، مركز النشر العلمي، ط1، 2011م.
- 26- التحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، الصلة بين التمثيل والاستنباط، بناصر البعزاتي، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 2006م.
- 27- التَّذَوُّلِيَّةُ اليوم علم جديد في التَّوَّاصِل، آن روبول وجاك موشلار، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 2003م.
- 28- التَّذَوُّلِيَّةُ عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 2005م.
- 29- التَّذَوُّلِيَّةُ والحجاج، صابر الحباشة، دمشق، صفحات للنشر والتوزيع، ط1، 2008م.
- 30- التَّذَوُّلِيَّةُ، جورج يول، ترجمة: قصي العتاي، بيروت، الدار العربية للعلوم، ط1، 2010م.
- 31- التكملة لكتاب الصلة، للحافظ أبي عبدالله محمد القضاعي البننسي ابن الآباء، تحقيق: عبدالسلام الهراس، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، 1995م.
- 32- الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م.
- 33- الحجاج أطره ومنطلقاته، عبدالله صولة، مسكيلاني للنشر، تونس، ط1، 2011م.
- 34- الحجاج بين المنوال والمثال، علي الشبعان، تونس، مسكيلاني للنشر والتوزيع، ط1، 2008م.
- 35- الحجاج بين النظرية والأسلوب، باتريك شارودو، ترجمة: أحمد الودرني، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2009م.

- 36- الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين الطلبة، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008م.
- 37- الحجاج في التواصل، فيليب بروتون، ترجمة: محمد مشبال وعبدالواحد التهامي العلمي، القاهرة، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط1، 2013م.
- 38- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، الأردن، عالم الكتب الحديث، ط2، 2011م.
- 39- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، لبنان، دار الفارابي، ط2، 2007م.
- 40- الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري، حبيب أعراب، مجلة عالم الفكر، مج50، ع1، ص67-158، 2001م.
- 41- الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، علي الشبعان، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010م.
- 42- الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، أمينة الدهري، الدار البيضاء، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط1، 2011م.
- 43- الحجاج، كريستيان بلانتان، ترجمة: عبدالقادر المهيري، تونس، المركز الوطني للترجمة، ط1، 2008م.
- 44- الحجاج، كريستيان بلانتان، ترجمة: عبدالقادر المهيري، تونس، دار سيناترا، ط2، 2010م.
- 45- حماسة البحتري، لأبي عبادة الوليد البحتري، تحقيق: محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد، الإمارات العربية المتحدة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط1، 2007م.
- 46- الحماسة البصرية، صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري، تحقيق: عادل سليمان جمال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1999م.
- 47- الحماسة، أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان، السعودية، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، د.ط، 1981م.

- 48- خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبدالقادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1986م.
- 49- الخطابة، أرسطو طاليس، تحقيق: عبدالرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات، د.ط، 1979م.
- 50- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة المدني، جدة، ط3، 1992م.
- 51- ديوان الحارث بن حنظلة، تحقيق: الدكتور إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1991م.
- 52- ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له: علي فاعور، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م.
- 53- ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: واضح الصمد، بيروت، دار صادر، ط1، 1998م.
- 54- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط2، د.ت.ن.
- 55- ديوان تأبط شرًا، جمع وتحقيق: علي ذو الفقار شاكر، مصر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م.
- 56- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: عبدالرحمن البرقوقي، مصر، المطبعة الرحمانية، د.ط، 1929م.
- 57- ديوان ذي الرمة شرح الخطيب التبريزي، تحقيق: مجيد طراد، بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، 1996م.
- 58- ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: علي حسن فاعور، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1988م.
- 59- ديوان صالح بن عبد القدوس، تحقيق: عبدالله الخطيب، بغداد، دار منشورات البصري، د.ط، د.ت.ن.
- 60- ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، ط3، 2002م.

- 61- ديوان عامر بن الطفيل، رواية أبي بكر الأنباري عن ثعلب، بيروت، دار صادر، ط1، 1979م.
- 62- ديوان عروة بن الورد، تحقيق: أسماء أبو بكر محمد، لبنان، دار الكتب العلمية، د.ط، 1998م.
- 63- ديوان علقمة بن عبدة، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، المطبعة المحمودية، ط1، 1935م.
- 64- ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق: إميل بديع يعقوب، لبنان، دار الكتاب العربي، ط1، 1991م.
- 65- ديوان عنترة، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، القاهرة، المكتب الإسلامي، ط1، 1970.
- 66- ديوان لبيد بن ربيعة العامري، لبيد بن ربيعة، لبنان، دار صادر، د.ط، د.ت.ن.
- 67- ديوان مسكين الدارمي، تحقيق: عبدالله الجبوري و خليل إبراهيم العطية، بغداد، مطبعة دار البصري، ط1، 1970م.
- 68- رسالة الصَّاهِلِ وَالشَّاحِجِ، أبو العلاء المَعَرِّي، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1984م.
- 69- رسالة الغفران، أبو العلاء المَعَرِّي، تحقيق: عائشة عبدالرحمن، القاهرة، دار المعارف، ط9، د.ت.ن.
- 70- رسالة في اللامات لأبي جعفر النحاس، تحقيق: طه حسين، مجلة المورد، مج1، ع1-2، ص143-150.
- 71- زبدة الطلب من تاريخ حلب، عمر أحمد بن العديم، تحقيق: خليل منصور، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1997م.
- 72- سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1984م.
- 73- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، الأشموني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط2، 1939م.

- 74- شرح الكافية في النحو لابن الحاجب، الاستريادي رضى الدين، تحقيق: رحاب عكاوي، بيروت، درا الفكر، د.ط، 2000م.
- 75- شرح المفصل، يعيش بن علي بن يعيش موفق الدين، مصر، إدارة الطباعة المنيرية، د.ط، د.ت.ن.
- 76- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1967م.
- 77- الصحاح تاج اللّغة وصاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط2، 1979م.
- 78- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، عبدالرحمن الميداني، دمشق، دار القلم، ط4، 1993م.
- 79- طبقات النحويين واللّغويين، لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر، دار المعارف، ط2، 1984م.
- 80- طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، د.ط، د.ت.ن.
- 81- عندما نتواصل نغير، عبدالسلام عشير، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ط2، 2012م.
- 82- العوامل الحجاجية في اللّغة العربية، عزالدين الناحج، تونس، مكتبة علاء الدين، ط1، 2011م.
- 83- فقه اللّغة وسر العربية، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق: خالد فهمي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط1، 1998م.
- 84- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000م.
- 85- في بلاغة الخطاب الإقناعي، محمد العمري، ، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ط2، 2002م.
- 86- في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، عبدالله صولة، تونس، مسكيلياني للنشر والتوزيع، ط1، 2011م.

- 87- *القاموس المحيط، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق:* مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط8، 2005م.
- 88- *القاموس المحيط، العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تعليق:* الشيخ أبو الوفا نصر الهويني المصري، القاهرة، دار الحديث، د.ط، 2008م.
- 89- *القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشر وأن ريبول، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، تونس، دار سيناترا، ط2، 2010م.*
- 90- *قراءة جديدة للبلاغة القديمة، رولان بارت، ترجمة: عمر أوكان، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، د.ط، 1994م.*
- 91- *كتاب الاختيارين المفضلين والأصمعيات، الأخفش الأصغر علي بن سليمان، تحقيق: فخر الدين قباوة، دمشق، دار الفكر، ط1، 1999م.*
- 92- *كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني علي بن الحسين، لبنان، دار الإحياء التراث العربي، ط1، 1994م.*
- 93- *كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: عبد الحميد هنداي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م.*
- 94- *كتاب اللامات، الزجاجي، تحقيق: مازن المبارك، دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ط2، 1985م.*
- 95- *كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1984م.*
- 96- *كتاب النوادر في اللغة، لأبي زيد الأنصاري، تحقيق: محمد عبدالقادر أحمد، بيروت، دار الشروق، ط1، 1981م.*
- 97- *كتاب حروف المعاني، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: علي توفيق الحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1986م.*
- 98- *الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسبيويه، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3، 1998م.*

- 99- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وآخرون، القاهرة، دار المعارف، د.ط، د.ت.ن.
- 100- لسان العرب، للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين ابن منظور، الكويت، دار النوادر الكويتية، د.ط، 2010م.
- 101- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 1998م.
- 102- اللُّغة والحِجَاج، أبو بكر العزاوي، الدار البيضاء، العمدة للطبع، ط1، 2006م.
- 103- مبادئ التَّدَاوُلِيَّة، جيوغري ليتش، ترجمة: عبدالقادر قنيني، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، د.ط، 2013م.
- 104- مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري الميداني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، مصر، مطبعة السنة المحمدية، د.ط، 1955م.
- 105- مدخل إلى الخطابة، أوليفي روبول، ترجمة: رضوان العصبية، المغرب، إفريقيا الشرق، ط1، 2017م.
- 106- المستطرف في كل فن مستطرف، شهاب الدين الأبهشي، تحقيق: محمد خير طعمه الحلبي، لبنان، دار المعرفة، ط5، 2008م.
- 107- المستقصى في أمثال العرب، للعلامة الأديب أبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، لبنان، دار الكتب العلمية، ط2، 1987م.
- 108- المظاهر اللُّغَوِيَّة للحِجَاج مدخل إلى الحِجَاجِيَّات اللِّسَانِيَّة، رشيد الراضي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط1، 2014.
- 109- مع أبي العلاء في رحلة حياته، عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، د.ط، د.ت.ن.
- 110- معاني الحروف، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، تحقيق: عبدالفتاح إسماعيل شلبي، جدة، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة، ط2، 1981م.
- 111- معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي الرومي، تحقيق: إحسان عباس، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م.

- 112- معجم الشعراء، لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق: فاروق إسلیم، بيروت، دار صادر، ط1، 2005م.
- 113- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001م.
- 114- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دمشق، دار الفكر، ط1، 1964م.
- 115- المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، القاهرة، دار المعارف، ط6، د.ت.ن.
- 116- مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد الأمين، مجلة عالم الفكر، مج40، ع2، ص53-94، 2011م.
- 117- مفهوم الموضوع وتطبيقاته في الحجاجيات اللسانية لأنسكومبر وديكرو، رشيد الراضي، مجلة عالم الفكر، مج40، ع2، ص193-237، 2011م.
- 118- مقارنة نظرية في مظاهر الربط الحجاجي لبنية الاقتضاء، أحمد كروم، مجلة عالم الفكر، مج32، ع3، ص229-268، 2004م.
- 119- من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، جميل حمداوي، المغرب، أفريقيا الشرق، د.ط، 2014م.
- 120- مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج، حسين مسكين، بيروت، مؤسسة الرحاب الحديثة ط1، 2010.
- 121- المؤلف والمختلف، للإمام أبي القاسم الحسن بن بشر الأمدي، بيروت، دار الجيل، ط1، 1991م.
- 122- موسوعة معاني الحروف العربية، علي جاسم سلمان، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع، د.ط، 2003م.
- 123- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري، تحقيق: إبراهيم السامرائي، الأردن، ط3، 1985م.
- 124- النّص الحجاجي العربي، محمد العبد، مجلة فصول في النقد الأدبي، ع60، ص42-86، 2002م.

- 125- نظريات الاستعارة في البلاغة الجديدة من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون، عبدالعزيز الحويدق، دار كنوز المعرفة، الأردن، ط1، 2015م.
- 126- نظرية أفعال الكلام العامة، أوستين، ترجمة: عبدالقادر قينيني، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، د.ط، 1991م.
- 127- نظرية الأدب في القرن العشرين، إرد إيش وجان كوهن وآخرون، ترجمة: محمد العمري، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ط1، 1996م.
- 128- نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، طالب سيد هاشم الطبطبائي، الكويت، مطبوعات جامعة الكويت، د.ط، 1994م.
- 129- النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، محمد طروس، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط1، 2005م.
- 130- الهرمينوطيقا والحجاج، عمارة الناصر، الرباط، دار الأمان، ط1، 2014م.
- 131- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، ط1، 1998م.
- 132- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: عبدالعال سالم مكرم، لبنان، مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية، ط1، د.ت.ن.
- 133- الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن أبيك الصفدي، دار التراث العربي، لبنان، ط1، 2000م.
- 134- وفيات الأعيان وأنباه أبناء هذا الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، د.ط، 1978م.